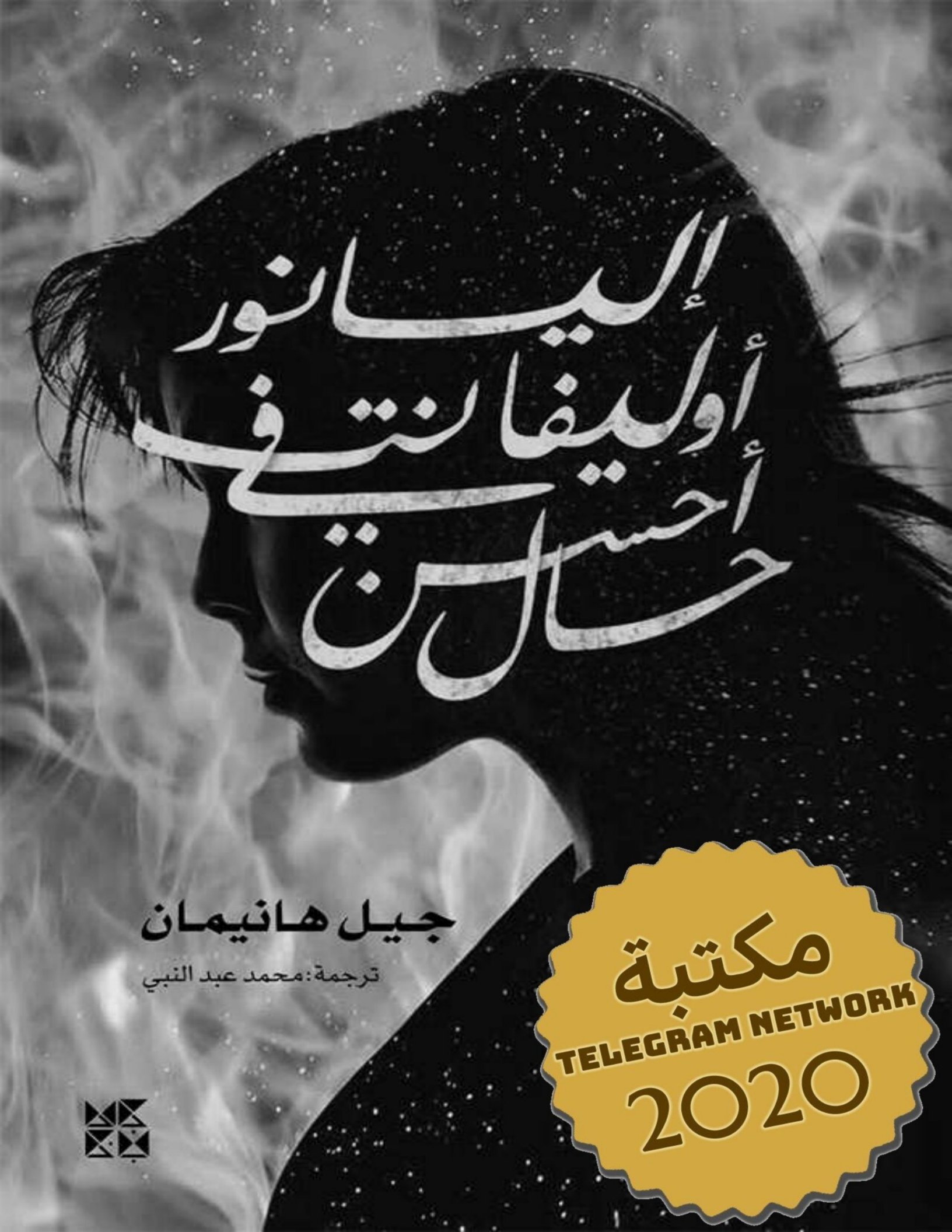

إليانور
أوليفانت في
أحسن حال
جيل هانيمان
ترجمة: محمد عبد النبي
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

إلسيانور أوليفانت في أحسن حال

جيل هانيمان

ترجمة: محمد عبد النبي

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
صندوق بريد 5825
الدوحة، دولة قطر

www.hbkupress.com

Eleanor Oliphant is Completely Fine

First published in 2017 by HarperCollins*Publishers*

Text Copyright © Gail Honeyman, 2017
Extract of *The Lonely City*, 2016 by Olivia Laing
reproduced by permission from Canongate Books Ltd

جميع الحقوق محفوظة.

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر باستثناء حالة الاقتباسات المختصرة التي تتجسد في الدراسات النقدية أو المراجعات.

الطبعة العربية الأولى عام 2019
دار جامعة حمد بن خليفة للنشر

الترقيم الدولي: 9789927141157

تمت الطباعة في بيروت-لبنان

المحتويات

أيام طيبة
أيام سيئة
أيامٌ أفضل

إلى أُسرتي

«...الوحدة مدموغةٌ برغبة حارقة في الوصول إلى نهايتها كتجربة؛ وهو الأمر الذي ليس من الممكن تحقيقه بقوة الإرادة وحَسب، أو ببساطة الإكثار من التنزه خارج البيوت، وإنما بتكوين صلاتٍ حميمة. وإن قول هذا أيسر كثيرًا من فعله، وخصوصًا بالنسبة لمَن تنبع وحدتهم من حالة فَقد أو نَفي أو تَعرُّض للظُلم، مَن لديهم أسباب لكي يخشوا ويفقدوا الثقة في الآخرين بقَدر ما يتوقون إليهم.»

«...كُلَّما ازدادَ الشخص وِحدة، صار أقلَّ براعة في الإبحار عبرَ التيَّارات الاجتماعية. إنَّ الوحدة تنمو مِن حوله، كأنها قالب أو فِراء، درعٌ واقٍ يمنع التواصل، مهما اشتدت الحاجة الماسة إلى التواصل. الوحدة تتراكم ذاتيًا، وتتمدد وتديم وجودها ذاتيًا كذلك. ما إن تكاثفت الوحدة، صارت كتلةً رازحة تعجز أي وسيلة عن زحزحتها.»

أوليفيا لاينج، المدينة الوحيدة

أيام طيبة

(١)

عندما يسألني الناس -مثل سائقي سيارات الأجرة، أو أطباء الأسنان- عن عملي، أقول لهم أنني أعمل في مكتب. وخلال تسعة أعوام تقريبًا، لم يسألني أحدهم قط أي نوعٍ من المكاتب أقصد، أو ما طبيعة عملي هناك. ولا أستطيع أن أحدّد إن كان ذلك لأنني أبدو لهم مُلائمة تمامًا لفكرتهم عمَّا يكون عليه الموظف المكتبي، أو ما إن كان ذلك لأنهم يسمعون عبارة *العمل في مكتب* فيملأون الفراغات بأنفسهم تلقائيًا: سيدة تستخدم ماكينة النسخ الضوئي، أو رجل ينقر على أزرار لوحة المفاتيح. أنا لا أشتكي من شيء، بل يسرني أنني لستُ مُضطرةً لأن أخوضَ معهم في التعقيدات الفاتنة لحسابات المقبوضات. عند بداية عملي هُنا، كُلَّما كان يسألني أحدهم، كنتُ أخبره أنني أعمل في شركة تصميم جرافيكي، ولكنه عندئذٍ كان يفترض أنني أُحسَب من المبدعين. وقد صارَ الأمر مضجرًا قليلًا لرؤية وجوههم تفقد حماستها عندما كنتُ أشرح لهم أنني أؤدي مهام روتينية بين فريق المكتب الخلفي، وأنني لا أستخدم الأقلام ذات السنون المرهفة ولا برامج الكمبيوتر الفاخرة.

أنا الآن في الثلاثين تقريبًا، بدأت العمل هنا منذ أن كنتُ في الواحدة والعشرين. وظَّفني بوب، صاحب الشركة، بعد فترة قصيرة من افتتاحها. أظن أنه قد شعر بالشفقة نحوي. كنتُ حاصلة على إجازة في التاريخ والآداب الكلاسيكية، وليس لديَّ أي خبرات تُذكَر، وذهبتُ إلى مقابلة التوظيف بعينٍ مُحاطة بالزرقة، فاقدةً بضع أسنان، وبذراعٍ مكسورة. لعلَّه قد أحسَّ آنذاك أنني لن أتطلَّع أبدًا إلى أي شيء أكثر من وظيفة مكتبية براتبٍ سيئ، وأنني سوف أَقنَع بالبقاء في الشركة وأوفر عليه مشقة الاضطرار لتوظيف شخص آخر. ولعلَّه كان يخمّن أيضًا أنني لن أحتاج أبدًا إلى إجازة شَهر عسل، أو أطلب إجازة وَضع ورضاعة. لا أدري.

بكل تأكيد تتفاوت الأجور في الشركة تفاوتًا هائلًا بين فئتين اثنتين؛ المبدعون والمصممون هُم نجوم الشبّاك، والآخرون منَّا هُم مجرد كومبارس. ويمكنكَ أن تعرف بمجرد النظر إلى أي الفئتين ينتمي هذا الشخص أو ذاك. ولنكونَ مُنصفين، فإنَّ تفاوت الرواتب جزءٌ من هذا الأمر. إن موظفي المكتب الخلفي يتلقّون أجرًا زهيدًا، وبالتالي لا تتحمَّل ميزانيتنا تكلفة الكثير من قصَّات الشَعر الصارخة أو النظَّارات التي تنم عن الذكاء والعبقرية. ناهيك عن الثياب والموسيقى والمستلزمات، فبالرغم من أن المصممين يتلهفون على أن يبدوا في صورة المتمردين المميزين أصحاب الأفكار الفريدة، فإنهم جميعًا ملزمون بزي موحد صارم. أنا لا أهتمُ بالمرة بتصميم الجرافيك. أنا موظفة حسابات. يمكنني أن أصدر فواتير لأي شيء أيًا كان، حقًا: أسلحة قتالية، أقراص منوم 'أبو صليبا' المحظورة، ثمار جوز الهند.

من يوم الإثنين إلى يوم الجمعة، أصِل إلى العمل في الثامنة والنصف صباحًا. في منتصف اليوم آخذُ ساعة للغداء. كنتُ فيما سبق أحضر شطائري معي، لكن الطعام في البيت كان دائمًا يفسد قبل أن أستهلكه بكامله، وهكذا فإنني الآن أشتري شيئًا من الشارع التجاري. دائمًا ما أختتم بجولة في متجر 'ماركس آند سبنسر' كل يوم جمعة، ويكون ختامًا لطيفًا لأسبوع العمل. أجلسُ في غرفة الموظفين مع شطيرتي وأقرأ الصحيفة من الغلاف إلى الغلاف، وبعد ذلك أحل الكلمات المتقاطعة. أختار صحيفة 'الديلي تيليجراف'، ليس لأنها تروق لي في حد ذاتها، ولكن لأن فيها أفضل كلمات متقاطعة مشفَّرة. لا أتحدَّث إلى أي شخص، وحين أكون قد انتهيت من شراء وجبتي الخفيفة

الجاهزة، وقراءة الجريدة وحل لغزي الكلمات المتقاطعة، تكون الساعة قد انقضت تقريبًا. أرجع إلى مكتبي وأعمل حتَّى الخامسة والنصف مساءً. توصلني الحافلة للبيت في غضون نصف ساعة.

أعدُّ عَشاءً وآكله بينما أستمع إلى مُسلسل *الرُماة*[1] في الراديو. عادةً ما أتناول معكرونة بصلصة البيستو وسَلطة بمقدار مقلاة واحدة وطبق واحد. كانت طفولتي حافلة بالتنافر الغذائي، ولسنوات عديدة تغذيتُ على المحار المجموع يدويًا وسمك القُد الجاهز للسَلق في كيسه. وبعد طول تأمل في الجوانب السياسية والاجتماعية لقضية الغذاء، أدركت أنني غير مهتمة بالطعام على الإطلاق. واختياري المفضَّل لعَلف البَشر ينصب على ما يكون رخيصًا ويمكن الحصول عليه وتحضيره بسرعة وسهولة، بينما يوفر العناصر الغذائية الضرورية للإبقاء على حياة المرء.

بعد أن أغسل الأطباق وأدوات الطعام، قد أقرأ في كتاب، أو أحيانًا أشاهد التليفزيون إن كان هناك برنامج أوصت بمشاهدته صحيفة 'التيليجراف' في ذلك اليوم. وغالبًا (بل في الحقيقة، دائمًا) أتصل بماما هاتفيًا مساء كل أربعاء لمدة ربع ساعة أو نحو ذلك. أخلد للفراش في حوالي العاشرة، أقرأ لنصف ساعة ثم أطفئ النور. ليس لدي مشاكل في النوم، عادةً.

كل يوم جمعة، آخر أيام أسبوع العَمل، لا أستقل الحافلة مباشرةً بعد العمل لكنني بدلًا من ذلك أذهب إلى متجر 'تيسكو مترو' على بُعد خطوات من المكتب وأشتري بيتزا مارجريتا، وبعض نبيذ 'الشيانتي' وزجاجتين كبيرتين من 'فوكا جلين'. عندما أصل إلى البيت، آكلُ البيتزا وأشرب النبيذ. أتناول بعض الفودكا فيما بعد. لا أحتاج للإفراط في الشراب في يوم الجمعة، فقط أكتفي ببضع جرعات كبيرات. أصحو عادةً على الأريكة حوالي الثالثة فجرًا، فأقومُ مترنحةً للفراش. أشرب بقية الفودكا خلال العطلة الأسبوعية، أوزّعها على مدار اليومين بحيث لا أكون ثملةً ولا مُفيقة. لا يعود يوم الإثنين من جديد إلَّا بعد مرور وقتٍ طويل.

لا يرن هاتفي إلَّا لِماما -فيجعلني أقفز من مكاني عندما أسمعه- أو غالبًا لأشخاصٍ يسألونني إن كنت ضحية خدعة ائتمانية لأحد البنوك ويخبرونني بإمكانية المطالبة بتعويض. فأهمس لهم *إنني أعرف أين تعيش*، وأضع سمَّاعة الهاتف بمنتهى منتهى الرِفق. لم يدخل أحدٌ شقتي هذا العام باستثناء عُمَّال الخدمات المهنية؛ ولم أبادر من نَفسي بدعوة أي إنسان آخر للعبور من عَتبة بابي، فيما عدا لقراءة العدَّاد. ولعلَّك تظن أن ذلك أمرٌ مستحيل، أليس كذلك؟ لكنه حقيقي، بالرغم من ذلك. فأنا موجودة، أليس كذلك؟ مع أنني أشعر كثيرًا بأنني لستُ هنا، وبأنني شيء من تلفيق خيالي. هناك أيام أشعرُ فيها بأن ارتباطي بالأرض خفيف للغاية وبأن الخيوط التي تشدني للكوكب رفيعة كأنها خيوط العنكبوت، هَشَّة مثل حلوى غزل البنات، وبأنَّ هَبَّة هواء قوية يمكنها أن تنتزعني من مكاني تمامًا، فأرتفع عندئذٍ وأتطاير بعيدًا كواحدة من تلك البذور التي تتطاير هَباءً منثورًا من زهرة الهندباء البرية.

تشتد الخيوطُ شيئًا فشيئًا من الإثنين إلى الجمعة. يتصل أشخاصٌ بالمكتب لمناقشة حدود التسهيلات الائتمانية، ويرسلون رسائل إلكترونية حول التعاقدات والموازنات. وسوف ينتبه الموظفون الذين أشاركهم المكتب -'جيني'، 'لوريتا'، 'برناديت'، 'بيلي'- إن تغيّبت. وبعد بضعة أيام (كثيرًا ما تساءلتُ بعد كَم يوم بالضبط) قد يساورهم القلق لأنني لم أتصل لأبلغ عن إجازة مرضية -الأمر غير المألوف بالنسبة لي تمامًا- وسوف يبحثون عن عنواني في ملفات المستخدَمين. أفترضُ أنهم سوف يتصلون بالشُرطة في نهاية الأمر، هل سيفعلون ذلك؟ وهل سيكسر ضبَّاط الشرطة باب شقتي؟ فيعثرون عليَّ، ويغطّون وجوههم، اشمئزازًا من الرائحة؟ من شأن هذا أن يمنحهم موضوعًا للحديث في المكتب. إنهم يكرهونني، لكنهم لا يتمنون موتي حقًا. لا أظن ذلك،

على كل حال.

ذهبتُ أمس لزيارة الطبيب. يبدو الأمر كما لو كان حدث منذ دهورٍ. قابلتُ الطبيب صغير السن هذه المرة، الفتى الشاحب أصهب الشعر، الأمر الذي سررتُ له. فكلَّما كان الطبيب أصغر سنًا كانت فترة تدريبه أحدث عهدًا، وهو شيء طيب بكل تأكيد. كَم أكره أن أذهب فأقابل الدكتورة ويلسُن؛ إنها تناهز الستين من العُمر، ولا يمكنني أن أتخيل أنها تعرف الكثير عن أحدث الأدوية وآخر التطورات الطبية. بالكاد يمكنها استخدام الكمبيوتر.

كان الطبيب يفعل ذلك الشيء، حيث يخاطبك من دون أن ينظر نحوك، كان يقرأ الملاحظات الخاصة بي على الشاشة، ويضرب مفتاح الإدخال بضراوة متزايدة وهو ينزل بالفأرة للأسفل.

- «كيف لي أن أساعدك هذه المرة، يا آنسة أوليفانت؟»

قلتُ له: «إنه ألم الظَهر، يا دكتور، إنه يعذبني.» ظلَّ لا ينظر نحوي.

قال: «كم مضى من الوقت على هذا؟»

قلتُ له: «أسبوعان.»

أومأ برأسه.

قلتُ: «أظن أنني أعرف سبب ذلك، لكنني أردتُ أن آخذ رأيك.»

توقَّف عن القراءة، وتطلَّع ناحيتي أخيرًا.

- «ما الذي تظنين أنه يسبب لك ألمَ الظهر، آنسة أوليفانت؟»

فقلتُ له: «أعتقد أنهما ثدياي، يا دكتور.»

- «ثدياك؟»

قلت: «نعم، لقد وزنتهما، إنهما أكثر من ثلاثة كيلوجرامات - وزن الاثنين معًا، وليس كل واحد لوحده!» وضحكْت. فحدّق فيّ، ولم يضحك. فسألتُه: «إنه وزن ثقيل حَمْله هنا وهناك، أليس كذلك؟ أقصد، ماذا لو أنني ربطتُ ثلاثة كيلوجرامات من اللحم الإضافي إلى صدرك وأرغمتك على السير بها في كل مكان طوال النهار على هذا النحو، ألن يؤلمك ظهرك أيضًا؟»

ظلَّ يحدق في، ثم تنحنح.

- «ولكن... كيف قمتِ بـ...؟»

قلت وأنا أومئ: «على ميزان المطبخ... وضعتُ أحدهما فوق الميزان. لم أوزنهما معًا، فقد افترضتُ أن وزن أحدهما نفس وزن الآخر تقريبًا. ليست طريقة عملية تمامًا، أعرف، إنما -»

قاطع حديثي وقال بينما ينقر على لوحة المفاتيح: «سوف أكتب لك وصفة ببعض المسكّنات الأخرى، يا آنسة 'أوليفانت'.»

قلتُ في صرامة: «مسكنات قوية هذه المرة، من فضلك، وكثيرة أيضًا.» حاولوا التخلُّص مني سابقًا وخداعي بإعطائي جرعات قليلة من الأسبرين. كنتُ بحاجة لأدوية شديدة الفعالية لكي أضيفها إلى مخزوني الاحتياطي.

- «هل يمكنني أيضًا أن أكرر وصفة دواء الأكزيما القديم، من فضلك؟ إذ يبدو أنها تصبح أسوأ في أوقات الضغوط أو الانفعال.»

لم يتكرَّم بالرد على طَلبي المهذَّب هذا، لكنه اكتفى بإيماءة من رأسه. لم يتحدث أيٌ منا بشيء بينما كانت الطابعة تبصق الأوراق التي ناولها لي. وعاد للتحديق في الشاشة مجددًا وبدأ ينقر لوحة المفاتيح. حلَّ صمتٌ حَرج بعد ذلك. كانت مهاراته الاجتماعية هزيلة إلى حد رهيب، خصوصًا لشخصٍ يتصل بالناس بحكم عمله مثله.

قلتُ: «إلى اللقاء إذن، يا دكتور، شكرًا جزيلًا جدًا على وقتك.» بدا كأنَّ نبرتي في الحديث لم تصل إليه بالمرة. كان لا يزال، على ما يبدو، مستغرقًا في ملاحظاته. ذلك هو الجانب السلبي الوحيد للأطباء الأصغر سنًا؛ أنَّ معاملتهم مع المرضى فظيعة.

حدثَ ذلك صباحَ أمس، في حياة مختلفة. أمَّا اليوم، *بعد ما كان*، كانت الحافلة تمضي مسرعة وأنا أتوجَّه للمكتب. كانت السماء تمطر، وبدا جميع الآخرين بائسين، رابضين داخل معاطفهم المطرية، وأنفاس الصباح الحمضية تتبخَّر صعودًا على النوافذ. عبرَ قطرات المطر المرتطمة بالزجاج ترقرقت الحياة لامعةً صوبي، وتلألأتْ فوَّاحةً بالعطور فوق جو المكان المغلق الفاسد بكل ما فيه من ثياب مبتلة وأقدام رطبة. لطالما شعرتُ بفخرٍ كبير لأنني أدبر حياتي بمفردي. أنا الناجية الوحيدة - أنا 'إليانور أوليفانت'. لا أحتاج إلى أي شخصٍ آخر - وليست ثمَّة فجوة كبرى في حياتي، ليس هناك جزء مفقود في لَوحتي الخاصة المشكَّلة من أجزاء عديدة. إنني كيان مكتفٍ بذاته. لكنني ليلةَ أمس، عثرتُ على حُب حياتي. منذُ أن رأيتُه يسير على خشبة المسرح، *علمت* ذلك وحسب. كان يضعُ على رأسه قبعة في غاية الأناقة، لكن لم يكن هذا ما جذبني إليه. كلَّا، لستُ بهذا القدر من الضحالة. كان يرتدي بدلة من ثلاث قطع، *وكان الزر الأدنى في صدرية البدلة محلولًا*. إن الرجل النبيل الحقيقي يترك آخر زر في صدريته محلولًا، هكذا كانت ماما تردد دائمًا. كانت تلك إحدى العلامات التي يجب الانتباه لها، علامات تشي بأنه رجل محنك، رجل أنيق ينتمي لطبقة محترمة وله مكانة اجتماعية. ها هو، بوجهه الوسيم، وصوته ... ها هُنا، أخيرًا وبعد طول انتظار، رجل يُمكن وصفه بدرجةٍ معتبرة من اليقين بأنه «زوجٌ مِثالي».

سوف تغمر البهجة ماما.

(٢)

في المكتب، سادَ ذلك الإحساس الملموس ببهجة يوم الجمعة. يتواطأ الجميع على الكذبة القائلة بأنَّ عطلة نهاية الأسبوع ستكون في غاية الروعة، وبأنَّ العمل في الأسبوع التالي سيكون مختلفًا، وسيكون أفضل. لا يتعلَّمون أبدًا. مع ذلك، فبالنسبة لي، قد *تغيرت* الأمور. لم أنعم بنومٍ عميق، لكن على الرغم من ذلك، كنتُ أشعر بأنني في حال جيد، أفضل من ذي قبل، بل في أفضل حالٍ على الإطلاق. يقول الناس إنَّ المرء عندما يقابل «نصفه الآخر»، فإنه فقط يعلم أنه هو. وقد كان هذا صحيحًا مائة بالمائة، حتَّى حقيقة أنَّ القدَر ألقى به في طريقي ليلةَ خميس، وبالتالي فإنَّ عطلة نهاية الأسبوع تمتد أمامي داعيةً وفاتنة، ممتدة الوقت وحافلة بالوعود.

أحد المصممين سوف ينهي اليوم مشروعًا ما. وكالمعتاد، سوف نحتفل بالمناسبة بنبيذ رخيص وجَعة غالية، ورقائق ومقرمشات موضوعة في أوعية عميقة. إذا حالفني الحظ سيبدأ الاحتفال مبكرًا بحيث يمكنني أن أريهم وجهي سريعًا وأغادر رغم ذلك في وقت مناسب. فقط لا بدَّ أن ألحق بالمتاجر قبل أن تغلق. دفعت الباب وانفتح، اختلجَ جسدي لبرودة مكيف الهواء، رغم أنني كنتُ أرتدي صدارًا جلديًا بلا أكمام. كان 'بيلي' يحظى بانتباه الجميع من حوله، وكان ظهره لي، والآخرون مستغرقون تمامًا فلم يلحظوا تسللي للداخل.

قال: «إنها مخبولة».

فقالت 'جيني': «طبيعي، نعلمُ أنها مخبولة، لم يشك أحدنا في هذا يومًا. لكن السؤال، ماذا فعلت هذه المرَّة؟»

خرَّ 'بيلي' ضاحكًا. «أتعلمون أنها فازت بتلك التذاكر وطلبت مني أن أذهب معها إلى تلك الحفلة الغبية؟»

ابتسمت 'جيني' وقالت: «يانصيب 'بوب' السنوي لاختيار الفائزين. الجائزة الأولى، تذكرتان مجانًا. والجائزة الثانية، أربع تذاكر مجانًا...»

تنهد 'بيلي': «بالضبط. إحراج تام لسهرة ليلة الخميس - حفل خيري في حانة، ونجومه الضيوف هم فريق التسويق لأكبر عميل لدينا، زائد قِطع متنوعة مخجلة من جميع أصدقائهم وأسرهم؟ وما يزيد الأمر سوءًا، أن أكون *معها*؟»

ضحك الجميع. لم أستطع أن أخالفه الرأي في تقييمه؛ لم تكن بأي صورة سهرة باذخة تحفل بالسِحر والإسراف.

قال: «في النصف الأول كانت هناك فرقة موسيقية -'جوني' شيء ما و'بيلجريم بيونيرز'- وكانت فرقة لا بأس بها بالمرة. أغلب الوقت عزفوا أغنياتهم، وموسيقى بعض الأغنيات الرائجة، وبعض الكلاسيكيات القديمة.»

قالت 'برناديت': «أنا أعرفه - 'جوني لومبوند'! كان في نفس السنة الدراسية مع أخي الكبير. لقد حضر حفلًا في منزلنا ذات ليلة عندما كان ماما وبابا يقضيان عطلة في جزيرة 'تَنريفي'، هو وبعض زملاء أخي الآخرين من الصف السادس. وانتهى بهم الأمر وقد سدّوا حوض الحمَّام بالقيء، إن لم تخني الذاكرة...»

أشحتُ بوجهي بعيدًا، إذ لم أرغب في سماع المزيد من أفعال شبابه الطائشة.

قال 'بيلي': «على كل حال، لم يكن يحب أن يقاطَع، كما لاحظت - وقد *كرهت* هي تلك الفرقة. اكتفت بالجلوس هناك متجمدة؛ لم تتحرك، لم تصفق، لم تفعل شيئًا. وبمجرد أن انتهت الفرقة قالت إنها لا بد أن تذهب إلى البيت. وهكذا فلم تنتظر حتَّى الاستراحة بين الفقرتين، وكان عليَّ أن أجلس هناك بمفردي بقية الحفلة وكأنني، حرفيًا، 'بيلي' الذي لا أصدقاء له.»

فقالت 'لوريتا' وهي تلكزه: «شيءٌ مؤسف، يا 'بيلي'؛ أعلمُ أنك كنت تتمنى أن تصحبها لتناول شراب بعد الحفل، وربما تذهبان للرقص.»

«ظريفة جدًا، يا 'لوريتا'. كلَّا، لقد انطلقت كالطلقة. كان من المفترض أن تلتف في أغطية فراشها مع قدح من الكاكاو الدافئ ونسخة من مجلة Take a Break [2] قبل أن تتمكن الفرقة حتَّى من تجهيز آلاتها.»

قالت 'جيني': «لكنني، بطريقة أو بأخرى، لا أظن أنها من قارئات هذه المجلة النسائية. ولكن أراها قارئة لشيء أشد غرابة وأكثر عشوائية، كمجلة *' أنجلينج تايمز'* للصيد بالصنارة، أو *'وات كارافان'* للبيوت المتنقلة.»

فقال 'بيلي' في صرامة: «مجلة 'هورس آند هاوند' للخيول وكلاب الصيد، إذن، لديها اشتراك فيها.» وضحكوا جميعًا.

في الحقيقة، أنا نفسي ضحكت على تلك الأخيرة.

لم أكن أتوقع أن يحدث هذا ليلةَ أمس، على الإطلاق. ولهذا السبب فقد صدمتني المفاجأة بقوة أشد. إنني شخص يحب أن يخطط للأمور كما يجب، وأن أستعد مسبقًا وأن أكون منظمة. لكنَّ ما حدث ظهرَ فجأةً دون مقدمات؛ فأحسستُ به كأنه صفعة على الوجه، لكمة في المعدة، احتراق.

لقد طلبتُ من 'بيلي' أن يأتي معي إلى الحفل الموسيقي، بالأساس لأنه الشخص الأصغر سنًا في المكتب؛ وافترضت لذلك السبب أنه سوف يستمتع بالموسيقى. سمعتُ الآخرين يغيظونه لهذا الأمر عندما اعتقدوا أنني بالخارج في راحة الغَداء. لم أكن أعلم أي شيء عن الحفل الموسيقي، كما لم أسمع من قبل أيًا من الفرق التي ستعزف. كنت ذاهبةً بدافع الإحساس بالواجب؛ فقد فزتُ بالتذكرتين في اليانصيب الخيري، وعلمتُ أنهم في المكتب سوف يسألونني عن الأمر.

كنتُ أشرب نبيذًا أبيض لاذع الطعم، دافئ وفاسد بسبب الأكواب البلاستيكية التي جعلتنا الحانة نشربه فيها. لا بدَّ أنهم يحسبوننا همجًا! أصرَّ 'بيلي' على شرائه، ليشكرني على دعوته للحفل. لم يكن هذا موعدًا عاطفيًا على أي اعتبار. كانت الفكرة نفسها مضحكة وسخيفة.

انخفضتْ الإضاءة. لم يرغب 'بيلي' في مشاهدة الفقرات الافتتاحية غير الرئيسية، لكنني كنتُ حريصة على مشاهدتها. فمَن يدري ربما يكون المرء شاهدًا على مولد نجم جديد، ومَن يدري مَن ذا الذي سوف يخطو إلى خشبة المسرح وينيرها. وعندئذٍ ظهر *هو* وأنارها. حدَّقتُ فيه. كان نورًا وحرارة. كان متوهجًا. كان يُغيّر كل شيء يلامسه. جلستُ في مقعدي متجهةً للأمام، مقتربةً منه. أخيرًا. وجدتُه.

*

الآن وقد بسط القَدر مستقبلي أمامي، فإنني ببساطة *يجب* أن أكتشف المزيد عنه؛ الإجابة هي المطرب. قبل أن أواجه رُعب حسابات آخر الشَهر، فكرتُ في أن ألقي نَظرة سريعة على بضعة مواقع لمتاجر شراء بالتجزئة -مثل 'آرجوس'، و'جون لويس'- لأرى كم يكلفني شراء كمبيوتر. أفترضُ أنَّ بوسعي المجيء إلى المكتب خلال عطلة نهاية الأسبوع واستخدام أحد الأجهزة، لكن

ثمة مخاطرة كبيرة في هذا بأن يكون شخصٌ آخر موجود في المكان ويسألني ماذا كنتُ أفعل. ليس الأمر أنني أخرق أي قاعدة، لكن هذا شيء خاص بي ولا دخل لشخصٍ آخر فيه، ولا أريدُ أن أشرح 'لبوب' كيف عساي أعمل في عطلتي الأسبوعية، ومع ذلك ما زلتُ أكافح لتقليل كومة الفواتير الهائلة التي تنتظر المعالجة. علاوة على ذلك، يمكنني أن أنجزَ أمورًا أخرى في المنزل في الوقت نفسه، كأن أطبخ قائمة أطعمة على سبيل التجربة من أجل عشائنا الأوَّل معًا. كانت ماما تقول لي، منذ سنوات، أنَّ لفائف النقانق قادرة على إذهاب عقول الرجال. وقالت أيضًا أنَّ أقصر طريق إلى قلب الرجل هو لفافة نقانق مُعدَّة في البيت، أي فطيرة هشة ساخنة، ولحم من نوع جيد. لم أطبخ أي شيء عدا المعكرونة منذ سنوات. ولم أُعِد لفافة نقانق بالمرة. ومع هذا، فلا أظن أن إعدادها في غاية الصعوبة. إنها مجرد فطيرة ولحم مُحضَّر ومفروم آليًا.

شغَّلتُ جهازي وأدخلت كلمة السر، لكن الشاشة بكاملها تجمَّدت. أطفأت الكمبيوتر وأعدت تشغيله مرة أخرى، ولكنه هذه المرة لم يصل حتَّى لمرحلة طلب كلمة السر. شيء مزعج. ذهبت لأرى 'لوريتا'، مديرة المكتب. لديها أفكار متضخمة للغاية حول قدراتها الإدارية، وفي وقت فراغها تصنع حُليًا بشعة ثم تبيعها للحمقاوات. أخبرتُها بأن جهازي لا يعمل وبأنني لا أستطيع أن أجد 'داني' في قسم الصيانة والتكنولوجيا.

قالت، دون أن ترفع عينيها عن شاشتها: «'داني' ترك العمل، يا 'إليانور'، يوجد رجل جديد الآن. «ريموند جيبونز»؟ بدأ العمل الشهر الماضي؟» قالت هذا وكأنَّه ينبغي عليّ أن أكون مُلمةً به. ودون أي بحث، كتبت اسمه بالكامل وامتداد هاتفه الداخلي على ورقة ملاحظات لاصقة وناولتها لي.

قلتُ لها: «شكرا جزيلًا لكِ، لقد قدمتِ لي عونًا هائلًا كالمعتاد، يا 'لوريتا'.» لم تكترث لما قلت، بكل تأكيد.

اتصلتُ بالرقم لكنني حصلت على رسالة بصوته: «مرحبًا، هذا مكتب 'ريموند'، لكنه *غير* موجود. مثل 'قطة شرودنجر'[3]. اترك رسالة بعد سماع الصفَّارة. في صحتك.»

هززتُ رأسي في قرف، وتكلمت ببطء وبوضوح للآلة.

«صباحُ الخير، يا سيد 'جيبونز'. اسمي الآنسة أوليفانت وأنا موظفة في قسم الحسابات. وقد توقف الكمبيوتر الخاص بي عن العمل وسأكون في غاية الامتنان إن كان بوسعك المجيء لإصلاحه اليوم. إن كان هناك أي تفاصيل أخرى تريد الاستفسار عنها، يمكنك أن تصل إليّ عبر الهاتف الداخلي خمسة-ثلاثة-خمسة. وشكرا جزيلًا لك.»

تمنيتُ أن تكون رسالتي الواضحة الدقيقة بمثابة مثالٍ له. انتظرتُ عشر دقائق، رتبت خلالها مكتبي، لكنه لم يرد على اتصالي. بعد ساعتين من تصنيف وحفظ الأوراق في الملفات ومع عدم وجود أي اتصال مع السيد 'جيبونز'، قررت أن آخذ ساعة غداء مبكرة للغاية. لقد خطرَ ببالي أنَّ عليَّ أن أستعد جسديًا للقاءٍ مُحتَمل مع الفنان بإجراء بضعة تحسينات. لكن هل ينبغي عليَّ أن أجدِّد نفسي من الداخل للخارج، أم أعمل من الخارج للداخل؟ رحتُ أُعِد قائمة في رأسي لكل العمل المتصل بالمظهر الخارجي الذي ينبغي القيام به. الشَعر (رأس وجسد)، الأظافر (أصابع القدمين واليدين)، الحاجبان، السيلوليت (مشكلة الترهلات وآثارها على الجلد)، الأسنان، الندوب... كل تلك الأشياء يجب أن تخضع للتحديث والتعزيز والتحسين. في نهاية الأمر، قررت أن أبدأ من الخارج ومنه أنطلق في طريقي للداخل، فذلك هو ما يحدث غالبًا في الطبيعة، على أي حال. عملية التخلص من الجلد القديم وتجديد البشرة. يمكن للحيوانات والطيور والحشرات أن تقدم للمرء مثل

تلك الأفكار ذات النفع. إن شعرتُ على الإطلاق أنني لستُ متأكدة من الاتجاه الصحيح لعمل شيءٍ ما، فإنني أسأل نفسي: «ماذا عسى حيوان ابن مُقرض أن يفعل؟» أو: «لو كان السمندل في موضعي، فكيف ستكون استجابته لهذا الموقف؟» وعلى الدوام أجدُ الإجابة الصحيحة.

كنتُ أمر بصالون تجميل 'جولي' كل يوم وأنا ذاهبة إلى العمل. وكَما شاء الحظ، فقد كان لديهم موعد تم إلغاؤه. سوف يستغرق الأمر نحو عشرين دقيقة، و'كايلا' ستكون مُعالِجتي، وسوف يكلفني خمسة وأربعين جُنيهًا. خمسة وأربعون! ومع ذلك، ذكَّرتُ نفسي بينما قادتني 'كايلا' نحو غرفة بالطابق السُفلي، كان رجلًا جديرًا بالتضحية. كانت 'كايلا'، شأن بقية العاملين في المكان، ترتدي طقمًا أبيض يشبه بدلات الجرَّاحين وأيضًا حذاءً خفيفًا أبيض. استحسنتُ هذا الزِي شِبْه الطبي. دخلنا غرفة صغيرة بدرجةٍ تضايق، كانت بالكاد تتسعُ لاحتواء الفراش ومقعد ومنضدة جانبية صغيرة.

قالت: «والآن إذن، ما عليكِ فعله أولًا، (هووب)، تخلعي...» صمتت لحظة ونظرت نحو نصفي الأسفل. «إممم، بنطالكِ هذا، وسروالك التحتي ثم (هووب) تصعدي فوق هذه الأريكة. يمكنكِ أن تتعرّي من الخصر لأسفل أو، إذا أحببتِ، يمكنكِ أن تُخرجي هذا و(هووب) ترتديه.» وضعت على الفراش رزمة صغيرة. «غطّ نفسك بالمنشفة وسوف أخرج و(هووب) أعود إليك بعد دقيقتين، تمام؟»

أومأتُ لها برأسي. لم أكن أتوقع كل هذا القَدر من الـ (هووب).

ما إن أُغلق الباب من خلفها، خلعتُ حذائي ونزعتُ ساقي من البنطال. هل أحتفظ بالجوربين؟ فكرت، بعد أن وازنت الاحتمالات، أنَّ عليَّ أن أبقيهما غالبًا. أنزلتُ سروالي الداخلي وتساءلتُ ماذا أفعل به. لم يبدُ لي من الصواب أن أفرده فوق المقعد، هكذا ملء البصر، كما فعلتُ مع بنطالي، وهكذا طويتُه بعناية ووضعته بداخل حقيبة يدي متوسطة الحجم. حين شعرتُ أنني مكشوفة إلى حدٍ ما، التقطتُ الرزمة الصغيرة التي تركتها على الفراش وفتحتُها. أخرجتُ ما فيها وفردته عاليًا: كان سروالًا داخليًا أسود صغيرًا للغاية، من طراز كنتُ أعرفه باسم 'تانجا' حسب تسمية متاجر 'ماركس آند سبنسر'، ومصنوع من نفس القماش الورقي الشفَّاف الذي تُصنَع منه أكياس الشاي الصغيرة. أدخلتُ ساقي فيه ورفعته عاليًا. كان سروالًا صغيرًا بدرجة غير معقولة.

كان الفراش عاليًا للغاية ووجدتُ درجة بلاستيكية من تحته فاستخدمتها لمساعدتي على الصعود. رقدتُ؛ كان مبطنًا بالمناشف ومغطىً بنفس الورق الأزرق الخشن قليلًا الذي يجده المرء على أريكة الطبيب. كانت هناك منشفة أخرى عند قدميَّ، فسحبتُها عليَّ حتَّى خصري لأغطي نفسي. تثير المناشف ذات اللون الأسود قلقي. أي نوعٍ من البقع القذرة التي اختيرَ هذا اللون تحديدًا من أجل تغطيتها؟ حدَّقتُ في السقف وعددتُ وحداتَ الإضاءة، ثم نظرت من جانبٍ إلى جانب. ورغم الإضاءة الخافتة كان بوسعي أن أرى علامات سحجات وخدوش على الجدران باهتة اللون. طرقت 'كايلا' الباب ودخلَت، وهي في منتهى الابتهاج والمرح.

قالت: «والآن إذن، ماذا سنفعل اليوم؟»

- «كما أخبرتكِ، إزالة الشعر بالشَمع[4]، من فضلك.»

ضحكَتْ. «نعم، آسفة، أقصد أي نوعٍ من الشَمع المُذاب تفضّلين؟»

فكَّرتُ في الأمر، وقلت: «النوع المعتَاد وحَسب ... الذي تُصنَع منه الشموع؟»

- «وأي شَكل؟»، هكذا قالت باقتضاب، ثمَّ لاحظَت تعبير وجهي. فقالت بنفاد صبر، وهي تعد الأشكال على أصابع يديها: «إذن، هل تريدين الحصول على الشكل الفرنسي، أم البرازيلي، أم

الهوليوودي؟»
أخذتُ أتدبر الأمر. مرّرتُ الكلمات عبرَ عقلي من جديد، المرة تلو الأخرى، وهي الطريقة نفسها التي كنت أستخدمها من أجل حل ألغاز الحروف والكلمات، بانتظار أن تنتظم الحروف في نمطٍ ما. الفرنسي، البرازيلي، الهوليوودي... فرنسي، برازيلي، هوليوودي...
قلتُ في نهاية الأمر: «هوليوودي. هولي وود، هولي تَودّ، و'إليانور' أيضًا تَود.»
تجاهلت تلاعبي بالكلمات، ورفعت المنشفة فقالت: «أووه...» واستدركَت: «حسنًاااا...» اتجهَت نحو المنضدة الصغيرة وفتحَت الدُرج وأخرجت منه شيئًا. قالت في عُبوس وصرامة: «المشط الصغير الذي نضعه على ماكينة جَز الشَعر سوف يكلّفكِ جنيهين إضافيين»، بينما تضع كفيها في قفَّاز مطَّاطي من النوع الذي يُستخدَم لمرة واحدة فقط.
أخذَت ماكينة جز الشعر تأززز وتأززززز وأخذتُ أنا أحدّق في السقف. لم يؤلمني هذا على الإطلاق! عندما انتهت، استخدمت فرشاة كبيرة وسميكة لكي تكنس الشعر المجزوز وتدفعه نحو الأرضية. شعرتُ بهلعٍ أخذ يتصاعد في داخلي. لم أنظر نحو الأرضية عندما دخلت إلى هنا، فماذا لو أنها فعلت الأمر نفَسه مع عميلات أخريات - فهل شعر عاناتهن يلتصق الآن بباطن جوربي المنقَّط على نمط بولكا؟ أخذ ينتابني غثيانٌ طفيف بفِعل هذه الفكرة.
قالت: «هكذا أصبح الحال أفضل، والآن، سأعمل بأسرع ما يُمكن. لا تستخدمي أي مستحضرات طبية معطرة في المنطقة لمدة اثنتي عشرة ساعة على الأقل بعد هذا، اتفقنا؟» وأخذت تقلّب محتويات قدر الشَمع المذاب الذي كان يتم تسخينه على المنضدة الجانبية.
قلتُ لها: «لا تقلقي من هذه الناحية، يا 'كايلا'، فأنا لستُ من النوع الذي تستهويه المستحضَرات والدهانات.» حملقَت فيَّ حتى كادت تجحظ عيناها. كنتُ قد ظننتُ أن فريق العمل في صالون تجميل سيكون لديه مهارات أفضل في التعامل مع الناس. كانت تقريبًا بنفس درجة سوء زملائي الذين هناك في المكتب.
دفعت السروال التحتي الورقي إلى أحد الجانبين وطلبت مني أن أشدَّ بيدي الجلد بأقصى قدر ممكن. ثم رسمت شريطًا بالشَمع الدافئ فوق منطقة عانتي مستخدِمة ملعقة خشبية مسطَّحة، وضغطت فوقها شريطًا من قماش، وأمسكت بطرفها، ثم جذبتها للأعلى في اندفاعة واحدة سريعة من ألمٍ نظيف وساطع.
همستُ لنفسي: «Morituri te salutant»[5] والدموع تطفر من عينيَّ. هذه هي العبارة التي أقولها في مثل تلك المواقف، وهي قادرة على رفع معنوياتي بقدرٍ هائل. بدأت أحاول النهوض قليلًا، غير أنها كانت تدفعني برفقٍ للرقاد مجددًا. قالت بنبرة منشرحة تمامًا: «أوه، لا يزال هناك المزيد للاعتناء به، عذرًا.»
الألم سهل؛ الألم ليس بالشيء الغريب عليَّ. دخلتُ إلى الغرفة البيضاء الصغيرة الموجودة بداخل رأسي، تلك التي لها لون السُحب. تفوح منها رائحة قطن نظيف وأرانب حديثة الولادة. الهواء بداخل الغرفة بلون قرنفلي باهت، أفتح درجة ممكنة من لون ملبّس اللوز السكري، وتنبعث فيها أعذب موسيقى دائمًا. اليوم، كانت أغنية «قِمَّة العالَم»[6]، لفرقة 'الأخوان كاربنترز'. ذلك الصوت الجميل، كم كان صوتها مبهجًا، وكم كان مترعًا بالحُب. الجميلة والمحظوظة 'كارين كاربنتر'.
واصلت 'كايلا' العملية الأليمة من المد والشد واللصق والنزع. طلبت مني أن أثني ركبتيَّ للخارج على الجانبين بحيث يمس كعباي أحدهما الآخر. فقلتُ مثل ساقي الضفدعة، لكنها

تجاهلتني، بتركيزٍ على مَهمتها. انتزعت بشدة الشَعر من الجزء الأسفل من ناحية اليمين. لم يخطر ببالي حتّى أنَّ شيئًا كذلك قد يكون ممكنًا. عندما انتهت طلبت مني أن أرقد بشكلٍ عادي من جديد ثم أنزلَت السروال التحتي الورقي وأفردت الشمع الساخن فوق الشَعر المتبقي وانتزعته كله في ظفر وانتصار.

«هاكَ»، هكذا قالت، وهي تخلع القفازين وتمسح جبينها بظاهر يدها، «والآن ألا تبدو الأمور أفضل كثيرًا جدًا!»

ناولتني مرآة يد بحيث يمكنني أن أنظر إلى نفسي، فقلتُ في ذعر: «لكنني أصبحتُ مكشوفة تمامًا!»

فقالت: «صحيح، هوليوود، ذلك ما طلبتِه أنتِ.»

شعرتُ بنفسي أكوّر قبضتي وأضغطهما بشدة، وهززتُ رأسي يمينًا ويسارًا بغير تصديق. لقد أتيتُ إلى هنا لكي أبدأ الطريق نحو أن أصير امرأة طبيعية، وبدلًا من ذلك جعلتني أبدو كأنني طفلة.

قلت، وأنا عاجزة عن تصديق الموقف الذي وجدتُ نفسي فيه: «'كايلا'، الرجل الذي أهتم به هو رجل بالغ طبيعي. هل تحاولين الإيحاء بأنه من النوع المنحرف؟ يالوقاحتكِ!»

حدَّقت فيَّ، بتعبير مذعور. كنتُ قد اكتفيتُ من هذا.

قلتُ لها، وأنا أدير وجهي نحو الحائط: «مِن فضلك، دعيني أرتدي ثيابي الآن».

ذَهبت ونزلتُ عن الأريكة. شددتُ بنطالي الخارجي على ساقيَّ مباشرةً، وعزائي الوحيد في أنَّ الشعر بالتأكيد سوف ينمو من جديد قبل لقائنا الحميمي الأوَّل. لم أمنح كايلا إكرامية في طريقي للخارج.

عندما رجعتُ إلى المكتب، كان جهاز الكمبيوتر الخاص بي لا يزال معطلًا. اتخذتُ مجلسي في حَذر واتصلت بـ 'ريموند' في قسم تكنولوجيا المعلومات مرة أخرى، لكن الرد جاءني على الفور برسالته المملة. قررتُ أن أصعد للطابق العلوي لأجده بنفسي؛ من تحيته على الرسالة الصوتية، بدا شخصًا من النوع الذي قد يتجاهل رنين الهاتف ويجلس في موضعه من دون أن يفعل شيئًا. وبمجرد أن دفعتُ مقعدي للوراء، اقترب رجلٌ من مكتبي. كان أطول مني قليلًا للغاية، ويرتدي حذاءً رياضيًا أخضر، وسروالًا من قماش الدنيم غير ملائم لمقاسه بالضبط، وقميصًا قطنيًا قصير الكمين، على صدره رسم كارتوني لكلب راقدٍ فوق قمة بيته الصغير. كانت قامته مشدودة وبالصدارة كرشٌ صغير شرع في النمو. كان شعره رملي شاحب، بقَصة قصيرة في محاولة لإخفاء حقيقة أنَّه أخذ يخف ويتراجع، ولحية قصيرة شائكة شقراء وغير منتظمة. كان كل جزء من بشرته الظاهرة، سواء من وجهه أو جسده، ورديًا للغاية. كلمة واحدة قفزت في عقلي: بشرة خنزيرية.

قال: «إمممم، 'أوليفانت'؟»

فأجبته: «نعم، 'إليانور أوليفانت'، أنا هي.»

تهادى متمايلًا نحو مكتبي. قال: «أنا 'ريموند'، من قسم تكنولوجيا المعلومات.» مددتُ له يدي لأصافحه، وهو ما فعله أخيرًا، وإن كان بشيءٍ من التردد. ها هو دليل آخر على الانهيار المؤسف لآداب السلوك في العصر الحديث. تحركتُ مبتعدة لأسمح له بالجلوس إلى مكتبي.

سألني وهو يحدق في شاشتي: «ما المشكلة معه؟»، فأخبرته. فقال، وهو ينقر لوحة المفاتيح بصوتٍ عالٍ: «حسنًا». تناولت صحيفة 'التيليجراف' وأخبرته بأنني سأكون في غرفة استراحة

العاملين؛ فلم تكن ثمة جدوى من وقوفي بالقرب منه بينما كان يصلح الجهاز.

كان الشخص الذي يضع الكلمات المتقاطعة اليوم هو 'إلغار'، وكانت مفاتيح ألغازه دائمًا أنيقة ونزيهة. كنتُ أضغط بأسناني على القلم الجاف، وأتدبر في الخانة رقم اثنى عشرة رأسي، حينما دخل 'ريموند' الغرفة متوثبًا، وقطعَ خيط أفكاري. نظر من خلفي على ما أفعل.

قال: «كلمات متقاطعة، هه؟ لم أر لها معنى أبدًا. أفضّل أن تعطيني لعبة كمبيوتر جيدة في أي وقت. *'كول أوف ديوتي*'[7] مثلًا - »

تجاهلتُ ثرثرته الفارغة. سألته: «هل أصلحته؟»

فقال والسرور يبدو عليه: «نعم، كان لديك فيروس سيئ جدًا. لقد نظَّفت القرص الصلب عن آخره، وأعدت تثبيت جدار الحماية. ينبغي عليكِ أن تقومي بعملية فحص للنظام بكامله مرة كل أسبوع، فهذا هو الوضع المثالي.» لا بدَّ أنه لاحظ تعبير عدم الفهم على وجهي. «تعالي، سوف أريكِ.» سرنا في الرواق. كانت الأرضية تصدر صريرًا حادًا تحت حذائه الرياضي البشع. أخذَ يسعل.

قال: «إذن، أنت... تعملين هنا منذ فترة طويلة، يا 'إليانور'؟»

«نعم»، أجبتُه، وأنا أسرعُ في سيري.

تمكَّن من أن يواكب إيقاع سيري، لكنه كان يلهث لهاثًا خفيفًا.

فقال: «جيد»، وتنحنحَ ليسلِّك حنجرته. «بدأتُ العمل هنا منذ أسابيع قليلة. قبل ذلك كنتُ في 'ساندرسُن'. في المدينة. أتعرفينهم؟»

قلت: «لا».

وصلنا إلى مكتبي وجلست. أخذ يحوم من حولي، أقرب ممَّا يجب. كان ينضح بروائح طهي، وبرائحة خافتة لسجائر. شيء مزعج. أخبرني عما يجب عليّ فعله، واتبعت تعليماته، باذلة كل جهدي لأن أحفظها في ذاكرتي. عندما انتهى كنتُ قد بلغتُ الحدود القصوى لاهتمامي بالأمور التكنولوجية لهذا اليوم.

قلتُ له بنبرة تشي بالضِيق والضجر: «شكرًا على مساعدتك، يا 'ريموند'». حيَّاني 'ريموند'، وحملَ نفسه على النهوض واقفًا. يصعب تخيُّل رجل يتخذ وضعية عسكرية بدرجةٍ أقل منه.

«لا عليكِ، يا 'إليانور'. أراكِ في الأنحاء!»

أشك في هذا كثيرًا، هكذا فكرت بينما أفتح جدول البيانات الذي يحتوي على الحسابات المستحق دفعها والمتأخرة لهذا الشهر. تقافزَ مبتعدًا بمِشية غريبة وثَّابة، وهو يرتفع وينخفض بشدة بالغة على الجزء الأمامي من باطن قدميه. يبدو أن عددًا كبيرًا من الرجال معدومي الجاذبية يسيرون بنفس هذه الطريقة، كما قد لاحظت. أنا على ثقة أن الحذاء الرياضي لا يجديهم نفعًا.

في تلك الليلة الأخرى، كان المطرب قد ارتدى في قدميه زوجَ أحذية جلدية جميلة من ماركة «بروجز» المزركش. كان فارع الطول، حسن المظهر، وبهي الطلعة، وكان من العسير تصديق أنَّ المطرب و'ريموند' ينتميان إلى نفس الجِنس. تحرَّكت بغير ارتياح في مقعدي. كان ثمة ألم ينبض وبدايات حكَّة هنالك *بالطابق الأسفل من جسمي*. ربما كان ينبغي عليَّ أن أرتدي سروالي التحتي من جديد.

بدأتْ حركة المغادرة حوالي الرابعة والنصف، وقد حرصتُ على أن أصفق بحرارةٍ مُبالَغ فيها عند نهاية خِطاب 'بوب'، وأن أقول: «صحيح، صحيح، أحسنت!» بصوتٍ عالٍ حتى لاحظَ الجميع وجودي. غادرت في الخامسة إلَّا دقيقة واحدة وسرتُ حتَّى منطقة المتاجر الكبيرة بأسرع ما سمحَ

لي به احتكاك سطح الجلد المتجرد من شعره حديثًا. وصلتُ هناك في الخامسة والربع، وشكرًا للرب. «*عصفورٌ في اليد*» هي العبارة التي خطرت لي، باعتبار جَسَامة المَهمة. وهكذا ببساطة اتجهت مباشرةً إلى داخل أوَّل متجر رأيتُه من المتاجر الكبيرة متعددة الأقسام، وصعدت بالمصعد إلى قِسم الأجهزة الإلكترونية.

كان هناك شابٌ يرتدي قميصًا رماديًا وربطة عنق براقة، يحدق في كومات من شاشات التلفزيون العملاقة. اقتربت منه وأعلمته أنني أود شراء جهاز كمبيوتر. بدا مذعورًا.

ردَّد بنبرة رتيبة: «جهاز ديسكتوب أم لابتوب أم تابلت؟» لم يكن لدي أي فكرة عمَّا يتحدث عنه.

أوضحتُ له، وقد قرأت اسمه على شارة الصدر، قائلة: «لم يسبق لي أن اشتريت جهاز كمبيوتر، يا 'ليام'. أنا من مستهلكي التكنولوجيا عديمي الخبرة تمامًا.»

جذب ياقة قميصه، كما لو كان يحاول أن يحرر تفاحة آدم في رقبته من قيودها. كان له منظر غزال أو ذلك الظبي الإفريقي المسمَّى 'إمبالا'، أي أحد تلك الحيوانات المملة ذات اللون الرملي وذات الأعين الكبيرة المستديرة على جانبي وجهها. ذلك النوع من الحيوانات التي دائمًا ما يلتهمها فهدٌ في نهاية الأمر.

كانت هذه بداية متعثرة.

سألني، دون تواصل بصري معي: «فيمَ سوف تستخدمينه؟»

فقلت وقد شعرت بإساءة بالغة: «هذا ليس من شأنك بالمرة.»

بدا كما لو كان ربما يبكي، فساءني هذا. إنه فقط فتى يافع. لمستُ ذراعه، بالرغم من كراهيتي للتلامس.

شرحت له: «أخشى أنني متوترة قليلًا لأنه من الضروري للغاية أن أكون قادرة على الدخول لشبكة الإنترنت في عطلة نهاية الأسبوع هذه.» ظلَّ تعبيره المتوتر كما هو.

قلتُ ببطء: «'ليام'، أحتاج ببساطة إلى شراء جهاز كمبيوتر من نوع يمكنني استخدامه في جوٍ مُريح بمنزلي لإجراء بعض البحث على شبكة الإنترنت. وربما في وقتٍ ما أُرسل منه رسائل إلكترونية. ذلك كل ما في الأمر. هل لديك شيء يناسبني بين المتوفّر هنا؟»

شرع الفتى يرنو بعينيه للأعلى، وفكر بعمق. وقال: «لابتوب مع وسيلة نقَّالة للاتصال بشبكة الإنترنت؟» لماذا كان يسألني، بحق السماء؟ أومأت وناولته بطاقتي الائتمانية.

حينما رجعتُ إلى البيت، وأنا أشعرُ بدُوارٍ طفيف نظرًا لمبلغ المال الذي أنفقتُه، أدركتُ أنني ليس لديَّ شيء لآكله. كان الجمعة هو اليوم المخصص لبيتزا المارجريتا، بطبيعة الحال، غير أن نظامي المعتاد قد اختلَّ ميزانه بدرجةٍ ما، للمرة الأولى على الإطلاق. تذكرت أن لدي نشرة دعائية في دُرج فوط الشاي الصغيرة، شيءٌ وجدتُه في صندوقي البريدي منذ فترة. كانت هناك كوبونات أسعار مخفضة عند حافة النشرة، لكن صلاحيتها قد انتهت. خمنت أن الأسعار ستكون أعلى إذن، غير أني افترضت أن رقم الهاتف قد ظلَّ نفس الرقم، وأنهم كما أحسب لا يزالون يبيعون البيتزا. بالرغم من ذلك فقد كانت تلك الأسعار القديمة مبالغًا فيها للغاية، حتَّى أنني ضحكتُ بصوت عالٍ عندما طالعتها. في 'تيسكو مترو'، فطائر البيتزا تكلف ربع هذه الأسعار.

قررتُ أنني سأطلبها. نعم، كان شيئًا باذخًا مُسرفًا، ولكن لمَ لا؟ لا بدَّ أن تنطوي الحياة على تجربة أشياء جديدة، واستكشاف الحدود القصوى، هكذا ذكَّرتُ نفسي. الرجل الذي ردَّ على الهاتف أخبرني بأن البيتزا ستصل خلال رُبع ساعة. صففتُ شعري، وخلعت خُفي المنزلي ووضعت حذاء

الخروج للعمل من جديد. تساءلتُ كيف سوف يدبرون أمر الفلفل الأسود. هل سيحضر الرجل معه مطحنه الفلفل؟ بالتأكيد لن يقف على عتبة الباب ويطحن الفلفل؟ شغَّلتُ غلَّاية الماء تحسبًا إن رغب موصّل البيتزا في بعض الشاي. أخبروني على الهاتف عن سعرها وقد حضَّرت النقود، ووضعتها في مظروف وكتبت على صدارته «*بيتزا برونتو*». لم أهتم بكتابة العنوان. تساءلتُ إن كان إعطاء إكرامية هو العُرف السائد، وتمنيتُ لو كان معي شخص ما لأسأله عن ذلك. لن يكون بمقدور ماما أن تقدم لي النصح في هذا الشأن. لم تعتد أن تقرر ماذا تأكل.

كان العيب الوحيد في خطة البيتزا هو النبيذ. لا يقومون بتوصيله، هكذا قال الرجل على الهاتف، وفي الحقيقة، فقد بدا من صوته متفكهًا تمامًا لأنني سألت عن ذلك. غريب - أي شيء يمكن أن يكون عاديًا أكثر من البيتزا والنبيذ؟ لم أعرف كيف يمكن لي أن أحصل على مشروب في الوقت المناسب لأتناوله بجانب البيتزا. كنت في حاجة حقًا لشيءٍ أشربه. ساورني القلق بهذا الشأن بينما أنتظر توصيل طلبي.

في نهاية الأمر، كانت تجربة البيتزا مُحبطة لأقصى حد. دس الرجل ببساطة صندوقًا كبيرًا في يدي وتناول مني المظروف، وعندئذٍ فَضَّه ليفتحه أمامي بكل وقاحة. سمعته يلفظ عبارة لعنة قبيحة من تحت أسنانه بينما كان يحصي العملات المعدنية. كنتُ قد جمَّعت خمسين قطعة من فئة البنس في طبق خزفي صغير، وبدت هذه هي الفرصة الأمثل للانتفاع بها. وقد أضفت إليها قطعة إضافية من أجله، لكنني لم أتلق كلمة شكر على ذلك. وقاحة.

كانت البيتزا مليئة بالزيت بدرجة مفرطة، والعجين رخو لا مذاق له. اتخذتُ في الحال قرارًا بأنني لن آكل أبدًا مرة أخرى بيتزا جاهزة للتوصيل، وبكل تأكيد لن أفعل هذا مع الفنان. إذا وجدنا أنفسنا ذات مرة بحاجة إلى بيتزا وكنا بعيدين للغاية عن 'تيسكو مترو'، فسوف يحدث أحد أمرين. إما أن نستقل تاكسي أسود لوسط المدينة ونأكل هناك في مطعم إيطالي جميل، أو أنه سوف يُعِد بيتزا لكلٍ منا، يعدها بالكامل. سوف يخلط مقادير العجين، ويفرده ويعجنه بأصابعه الطويلة المدببة، ويربّها ويمسدها حتَّى تصير كما يريد لها تمامًا. سوف يقف أمام الموقد الغازي، وعصير الطماطم مع الأعشاب الطازجة يغلي على نار هادئة، ويتناقص على مهلٍ ليصبح صلصةً كثيفة غنية، ملساء وزلقة بلَمَعان زيت الزيتون.

سيكون مرتديًا أقدم بناطيله الجينز وأكثرها راحة له، حيث ينسدل بنطاله بشكل مريحٍ على فخذيه النحيلين، وبقدميه الحافيتين يطرق طرقًا خفيفًا بينما يغني بنعومةٍ ورقة مدندنًا لنفسه بصوته اللذيذ بينما يقلّب الصلصة. عندما تكتمل البيتزا، سوف يضع على وجهها الخرشوف والشَمر، وسوف يضعها في الفرن ويأتي بحثًا عني، ويأخذني من يدي ويقودني إلى داخل المطبخ. سيكون قد أعدَّ المائدة، في المنتصف صحن من زهور الجاردينيا، وشمعات صغيرات تومض عبر زجاجٍ ملون. ببطء سوف يحرك الغطاء الفليني لزجاجة نبيذ 'بارولو' بصوت قرقعة طويلة ومُرضية ويضعها على المائدة، ثم يسحب مقعدي من أجلي. وقبل أن أجلس، سوف يأخذني بين ذراعيه ويقبّلني، يداه حول خصري، يضمني قريبًا منه للغاية بحيث يمكنني أن أسمع الدمَ ينبض في جسمه، وأن أشم روائح التوابل الحلوة تنبعث من جلده وفَوح أنفاسه الدافئة السكّرية.

كنتُ قد انتهيت من تناول فطيرة البيتزا الرديئة وأخذت أقفز للأعلى والأسفل فوق الصندوق في محاولة لأن أسحقه ليصغر بما يكفي ليلائم سلة المهملات، عندما تذكرت البراندي. كانت ماما تقول دائمًا إن البراندي مفيد للصدمات وقد اشتريتُ بعضًا منه، منذ عدة أعوام، على سبيل الاحتياط. وضعتُه في خزانة الحمَّام الصغير إلى جانب جميع أغراض الطوارئ الأخرى. ذهبتُ

لأتفقد الأمر وكان موجودًا هناك وراء لفافات الضمادات ودعامات مفصل المعصم - زجاجة بحجم نصف المقاس المعتاد من صنف 'ريمي مارتن'، ممتلئة عن آخرها ولم تفتح بعد. أدرتُ الغطاء وفتحتها وأخذت شربة. لم يكن الشراب لطيفًا بقدر الفودكا، ولكنه لم يكن سيئًا.

كنتُ أتوجس خيفة من ناحية اللابتوب لأنني لم يسبق لي أن أعددتُ كمبيوترًا جديدًا من قبل، لكنه كان سهلًا جدًا في حقيقة الأمر. وسارَ توصيل أداة الدخول على الإنترنت ببساطة كذلك. أخذتُ البراندي واللابتوب إلى مائدة المطبخ، وكتبت اسمه بلوحة المفاتيح في خانة البحث على محرك البحث 'جوجل' وضغطت على مفتاح الإدخال، ثم وضعتُ يديَّ فوق عينيَّ. بعد ثوانٍ اختلستُ النظر من بين أصابعي. كانت هناك مئات النتائج! بدا أن ذلك سيكون سهلًا للغاية، لكنني قررت أن أقتصد وأتريث في الدخول على الصفحات؛ فعلى كل حال، أمامي عطلة نهاية الأسبوع بكاملها، وبالتالي لم يكن هناك أي داعٍ للعجلة.

أخذني الرابط الأوَّل إلى صفحته الرسمية على الإنترنت، والذي كان مخصصًا بالكامل لصور فوتوغرافية له ولفرقته. اقتربتُ من الشاشة حتَّى كاد أنفي أن يلمسها. لا أنا كنتُ أتخيله، ولا أنا بالغتُ في تقدير جماله. أخذني الرابط الثاني إلى صفحته على موقع 'تويتر'. سمحتُ لنفسي بمتعة قراءة أحدث ثلاث تغريدات كتبها، كانت اثنتان منها تتسمان بالدعابة الطريفة الذكية، والثالثة ساحرة تمامًا. كان يعرب فيها عن إعجابه المهني بفنان آخر. يا لدماثته وطِيبة قلبه.

بعد ذلك، صفحته على موقع 'إنستجرام'. لقد نشرَ عليها خمسين صورة تقريبًا. نقرتُ على إحداها عشوائيًا، لقطة للرأس من قريب، واضح وصريح ومسترخٍ. كان له أنف روماني مستقيم تمامًا، وملامحه مضبوطة بشكل مثالي. كانت أذناه مثاليتين كذلك، بالحجم الصحيح تمامًا، وتلافيف الجلد والغضروف لا يعيبها شيء من ناحية التناسب. كانت عيناه لونهما عَسلي، كانتا عَسليتين كما تكون الوردة حمراء والسماء زرقاء. كانا هما التعريف الدقيق للون العَسلي.

كانت هناك صفوف وراء صفوف من الصور على الصفحة وقد أرغم عقلي إصبعي أن يغظ على المفتاح ويرجع إلى صفحة محرك البحث. تصفحت بقية المواقع التي عثر عليها 'جوجل'. كانت هناك مقاطع فيديو لعروض أداء على موقع 'يوتيوب'. كانت هناك مقالات ومُراجعات نقدية. وكانت هذه هي الصفحة الأولى فقط من نتائج البحث. سوف أقرأ كل معلومة يمكنني أن أعثر عليها، وأن أعرفه كما ينبغي، فعلى كل حال، أنا بارعة للغاية في عمليات البحث، وفي حل المشكلات. لا أقصد أن أتفاخر؛ أنا فقط أصرح بالحقائق. كان اكتشاف المزيد عنه هو الشيء الصحيح الواجب فعله، الطريقة المعقولة، إذا اتضح أنه سيكون حب حياتي. التقطتُ البراندي، ودفتر كتابة جديد وقلم بسن رفيع ناعم كنتُ قد استعرتُه من المكتب، واتجهت إلى الأريكة، متأهبة لأن أبدأ في رسم خطة التحرك. كان البراندي دافئًا ومهدئًا، وواصلت الاحتساء.

عندما استيقظت، كانت الساعة تجاوزت الثالثة صباحًا، والقلم والدفتر ملقيان على الأرض. ببطء، تذكرت أنني انجرفتُ مع أفكاري، وأخذت أهيم مع أحلام اليقظة بينما كنت أتناول البراندي. كان ظاهر كلتا يديَّ مُغطًى بوشوم بالحبر الأسود، وكانت كلها اسمه مكتوبًا مرة بعد أخرى، مكتوبًا داخل قلوب الحُب. تبقت في الزجاجة جرعة براندي واحدة فقط، تجرَّعتها وذهبت للفراش.

(٣)

لماذا هو؟ لماذا الآن؟ في صباح الإثنين، بينما أقف بانتظار الحافلة، حاولتُ أن أفهم الأمر، لكن الأسئلة كانت مراوغة. لكن مَن يستطيع أن يفهم أعمال القدَر، على كل حال؟ فإنَّ عقولًا أعظم من عقلي بكثير قد حاولت وأخفقت الوصولَ إلى استنتاج حاسم. لقد ظهر لي، كأنه هِبة من الآلهة - وسيم، وأنيق، وموهوب. أنا كنتُ بحال جيد، بل كنتُ في أفضل حال وأنا بمفردي، لكن كان عليَّ أن أجعل أمي سعيدة، أن أجعلها مطمئنة بحيث تتركني في سلام. حبيب - زوج؟ هذا ما سوف يفي بالغرض بالضبط. لم يكن الأمر *أنني* كنتُ بحاجة إلى أي شخص. فقد كنتُ، كما قلتُ سابقًا، في أفضل حال.

بعد أن اطَّلعت مطولًا على الأدلة الفوتوغرافية المتاحة خلال فترة عطلة نهاية الأسبوع، توصلتُ إلى نتيجة مفادها أنَّ في عينيه ثمَّة شيء فاتن بصورة خاصة. لعينيَّ درجة لون مشابهة لعينيه، لكنها لا تدانيهما في جمالهما بأي درجة، بكل تأكيد، فهما لا تحويان مثل تلك الأعماق النُحاسية اللامعة. بينما تطلعتُ في كل تلك الصور، تذكَّرتُ شخصًا ما. كانت نصف ذكرى فقط، مثل وجه تحت جليد أو مُضبَّب بالدخان، بلا معالم واضحة. عينان مثل عينيَّ، عينان في وجهٍ صغير، عينان واسعتان وسريعتا التأثر، ومُترعتان بالدمع.

تلك سخافة وحماقة، يا 'إليانور'. كان من المحبِط أنني قد سمحتُ لنفسي، ولو للحظة واحدة، بالانغماس في النزعة العاطفية المفرطة. فعلى كل حال، هناك عدد كبير من الناس الموجودين في هذا العالَم له نفس لون العينين البنّي الفاتح مثل عينيَّ - تلك حقيقة علمية. ومن المحتوم إحصائيًا أن تلتقي عيناي بعيونهم في لحظةٍ ما خلال أي تفاعل اجتماعي روتيني.

ومع ذلك، فثمَّة شيء آخر كان يزعجني. تُثبت جميع الدراسات أنَّ البشر يميلون لاتخاذ شريكٍ يكون بمِثل درجة جاذبيتهم تقريبًا؛ فالطيور على أشكالها تقع، هكذا يزعم القول المأثور.

لم تكن تساورني أي أوهام. من حيث المظهر الخارجي، كان هو على درجة عشرة من عشرة وأنا ... لا أدري ماذا عنِّي. لستُ عشرة، من غير شك. وقد تمنيتُ، بطبيعة الحال، أن ينظر لما وراء تلك المظاهر السَطحية، أن ينظر أعمق قليلًا، ولكن بما أنني قلتُ هذا، فقد كنتُ أعلم أن مجال عمله سوف يتطلَّب منه أن يتخذ شريكة تبدو مقبولة على الأقل. مجال الموسيقى، مجال الاستعراضات والترفيه، يدور كله حول صورة المرء، ولا يُمكن له أن يُشاهَد مع امرأة ذات مظهرٍ قد يعتبره الحمقى غير ملائم. كنتُ مدركةً لذلك تمامًا. سيكون عليَّ أن أبذل كل وسعي لأن أبدو مُلائمةً للدور الذي سألعبه.

نشرَ بعض الصور الجديدة له على الإنترنت، منها صورتان لرأسه فقط، صورتان مقربتان لجانبي الوجه، اليمين واليسار. كان مثاليًا في الاثنتين، وكان الجانبان متطابقان، بنظرة موضوعية، لم يكن له منظر جانبي سيئ لوجهه بالمعنى الحرفي. بالتأكيد، إن السمة المحددة للجمال هي التناسُب، ذلك أمر آخر اتفقَت عليه جميع الدراسات. تساءلتُ أي تركيبة خصائص وراثية قد صنعت تلك الذُرّية ذات الوسامة. أيكون له أشقاء وشقيقات، ربما؟ إذا صرنا معًا ذات يوم، ربما يمكنني حتَّى أن ألتقي بهم. لستُ على دراية كبيرة بالعلاقات مع الآباء عمومًا، أو بالأشقاء على وجه الخصوص، بما أنَّ تنشئتي أنا نفسي كانت ... غير تقليدية.

أشعرُ بالشفقة تجاه الأشخاص الذين يتمتعون بالجمال. فمنذ اللحظة التي يحظى فيها المرء

بالجمال، يكون قد بدأ فيها بالتسرب من بين يديه بالفعل، فهو سريع الزوال. لا بدَّ أن ذلك أمرًا شاقًا. الاضطرار على الدوام لأن تثبت للآخرين أنَّ لديك ما هو أكثر من الشكل الجميل، أن تجعل الناس ينظرون لما تحت السطح، أن ترغب في أن تكون محبوبًا مِن أجل ذاتك، وليس مِن أجل جسدك المذهل، وعينيك البراقتين أو شعرك الكثيف اللامع.

في أغلب المهن، يعني التقدُّم في السِن أن تكون أفضل في وظيفتك، وأن تكتسب المزيد من الاحترام نظرًا لأقدميتك وخبرتك. أمَّا إن كان عملك يعتمد على مظهرك، فالعكس هو الصحيح. يا له من أمر مُحزِن! كما أن المعاناة من قسوة الآخرين لا بد أن تكون شاقة كذلك؛ كل أولئك الأشخاص الأقل جاذبية، الحاسدين لك والناقمين عليك بسبب ما تحظى به من جمال. ذلك ظلمٌ بالغ لذوي الجمال، فهم على كل حال ليس بأيديهم أن يولدوا هكذا. من الظلم أن ننفر من شخصٍ ما لمجرد أنه جذاب، تمامًا كما ننفر من شخصٍ ما بسبب تشوهه وقبحه.

لا أنزعجُ بالمرَّة عندما ألحظ رد فعل الناس على وجهي، وعلى الحواف البيضاء المحزَّزة للجلد ذي الندوب الذي ينزلق عبر وجنتي اليُمنى، بدايةً من صدغي ونازلًا حتى ذقني. يحدقون فيَّ، ويهمسون بأشياء؛ فأنا أُذهب العقول. كان من المُطمئن لي أن أفكر أنه سوف يتفهم هذا، بما أنه هو أيضًا لديه ما يُذهب عقول الناس، وإن كان هذا يحدث لأسباب مختلفة تمامًا.

صرفتُ النظر عن شراء صحيفة *التابلويد* اليوم لصالح مواد قراءة بديلة. أنفقتُ قدرًا فاحشًا من المال على مجموعة صغيرة من المجلات النسائية، مجلات رقيقة وشاحبة، وأخرى سميكة ولامعة، وجميعها تعِد بمجموعة متنوعة من العجائب، تغييرات بسيطة لكنها تعزز الحياة وتحسنها. لم أشترِ مثل تلك الأشياء من قبل قط، رغم أنني بالطبع قد تصفحت قليلًا منها في غرف الانتظار بالمستشفيات أو أماكن في مؤسسات أخرى. لاحظتُ، بخيبة أمل، أنه لا مجلة واحدة منها تقدم الكلمات المتقاطعة المشفَّرة؛ لكن في الحقيقة كانت واحدة منها تحتوي على لغز لتجميع حروف الكلمات المتفرقة باكتشاف أسماء نجوم المسلسلات النهارية مطوَّلة الحلقات والأجزاء، كان من السهولة بحيث يهين ذكاء طفل في السابعة من عمره. كان يمكنني أن أشتري ثلاثة زجاجات من النبيذ أو لتر فودكا من صنف ممتاز بنفس الثمن الذي دفعته في تلك الكومة الصغيرة. على الرغم من ذلك، وبعد تأمل دقيق، تبيَّنت أنها المصدر الأجدر بالثقة والأسهل في الوصول إلى للمعلومات التي أحتاج إليها.

يمكن لتلك المجلات أن تُخبرني أي ثياب وأي أحذية عليَّ أن أرتديها، وبطريقة تصفيف شعري لكي أكون لائقة. يمكن لها أن تُظهِر لي نوع مساحيق الوجه الصحيح لأشتريه وكيف أستخدمه. بهذه الطريقة، سوف أختفي وسط الشكل المقبول لجميع النساء العاديات. لن يحدّق أحدٌ فيَّ. كان الهدف، في نهاية الأمر، التنكُّر الناجح في صورة امرأة بَشرية.

لَطالما قالت لي ماما إنني قبيحة، فظيعة كالمَسخ، *حقيرة*. ظلَّت تفعل ذلك منذ سنواتي الأولى، حتَّى من قبل أن أكتسب ندوبي. لذلك شعرتُ بسعادة غامرة لإجراء تلك التغييرات. متحمسة. كنتُ لوحة بيضاء.

ذلك المساء في البيت، نظرتُ في المرآة المعلقة فوق الحوض الصغير بينما أغسل يديَّ المتضررتين. ها أنا ذا: 'إليانور أوليفانت'. بشعرٍ طويل، مسترسل، لونه بني فاتح، ينسدل نازلًا حتى خصري، ببشرة شاحبة، وجهي مثل رِق محترق قديم تعلوه ندوب الكتابة والمحو. أنفٌ أصغر ممَّا يجب وعينان أكبر ممَّا يجب. أذنان عاديتان تمامًا. في حدود الطول المتوسط، وفي حدود الوزن المتوسط تقريبًا... أطمح لأن أكون شخصًا عاديًا تمامًا. كنتُ محط انتباه أكثر ممَّا ينبغي في

صباي. أرجوكم تجاوزوني، تحركوا مبتعدين عني، لا شيء هنا يستحق الرؤية.

لا أكثر النظر في المرآة، على وجه العموم. ليس لهذا أي علاقة مطلقًا بندوب وجهي. بل بسبب مزيج الجينات الوراثية المزعج الذي يبادلني النظر من المرآة. أرى هنالك قدرًا هائلًا من وجه أمي. لا يمكنني أن أميز أيًا من ملامح أبي، لأنني لم ألتقِ به قَط، وبقدر ما أعلم، لم توجد له لدينا أي صور فوتوغرافية. تقريبًا لم تكن أمي تذكره على الإطلاق، وفي المناسبات النادرة التي وردَ ذكره فيها، كانت تشير إليه فقط بتعبير 'the gametes donor' «المتبرع بالأمشاج». ذات مرة بحثت عن معنى هذا المصطلح في قاموسها؛ أوكسفورد المختصر الجديد للغة الإنجليزية (وجدت أن الكلمة الإنجليزية 'gametes' مشتقة من الأصل اليوناني 'γαμετης'، بمعنى «زوج». هل كانت هذه المغامرة الاشتقاقية في سن المراهقة هي ما أشعل شرارة محبتي للآداب الكلاسيكية؟)، قضيتُ سنواتٍ عديدة أطرح تساؤلات حول هذه المجموعة الغريبة من الملابسات والظروف. حتَّى في تلك السِن الغضَّة، فهمتُ أن الحَمل بمساعدة شخصٍ غريب هو الشيء النقيض تمامًا للأمومة أو الأبوة الاعتباطية، الخالية من الاكتراث والتخطيط المسبَق، بل إنَّ ذلك هو أكثر القرارات قصدية وتأنيًا، لا يتخذه غير النساء الجادات والمخلصات في سعيهن لأن يكن أمهات. لم أستطع أن أصدق ببساطة، بالنظر إلى قرائن تجربتي، أنَّ أمي كانت ذات يوم امرأة من هذا النوع، وأنها قد تمنت أن يكون لها طفل بهذا القدر كله من اللهفة. وكما تبين، كنتُ على حق.

في النهاية، استجمعتُ شجاعتي لكي أطرح سؤالًا مباشرًا عن ظروف حملها بي، ولكي ألتمس أي معلومات متاحة عن ذلك المتبرع الخرافي بالسائل المنوي، أبي. كما قد يفعل أي طفل في نفس هذه الظروف - وعلى الأرجح أكثر، في نفس ظروفي *أنا* شديدة الخصوصية - كنتُ أضمر في نفسي حكاية خيالية صغيرة ولكنها صلبة حول شخصية ومظهر والدي الغائب. لكنها أخذت تضحك وتضحك.

قالت: «متبرع؟ هل قلتُ ذلك حقًا؟ كان مجرد تعبير مجازي، يا حبيبتي.»

كلمة أخرى سيكون عليَّ أن أبحث عن معناها في القاموس.

«كنتُ أحاول في الحقيقة أن أوفر عليكِ العواطف. لقد كان أقرب إلى ... تبرع لا إرادي، إذا صح التعبير. لم يكن لديَّ أي خيار في المسألة. هل تفهمين ما أقوله لكِ؟

قلتُ لها إنني أفهم، لكنني كنت كاذبة.

سألتها، شاعرةً بشجاعتي: «أين يعيش، يا ماما؟ كيف يبدو شكله، ما عمله؟»

فقالت، وقد ظهرت نبرة التهرب والضجر في حديثها: «لا يمكنني أن أذكر كيف كان شكله، كانت له رائحة الجيفة وجبن الروكفور الذائب، إن كان هذا يعني شيئًا.» لا بدَّ أن أمارات الحيرة بدت على وجهي. فمَالت للأمام، وأظهرت أسنانها. «أقصد رائحة اللحم الفاسد والجبن الذي فسد وتعفَّن، يا حبيبتي.» صمتت، واستعادت توازنها.

قالت: «لا أدري إن كان حيًا أو ميتًا، يا 'إليانور'. ولكن إن كان حيًا، فأغلب الظن أنه حقق ثراءً كبيرًا بوسائل مشبوهة وغير أخلاقية. أمَّا إن كان ميتًا -كما أتمنى من كل قلبي- فإنني أتخيله عندئذٍ يضنى ويشقى بالدوران على طول الحافة الخارجية للحلقة السابعة في الجحيم، غارقًا في نهر يغلي من الدماء والنيران، يلقى عذابه على أيدي القناطير.»

عند تلك النقطة أدركت أنه من غير المجدي غالبًا أن أسألها إذا ما احتفظت له بأي صور.

(٤)

إنه مساء الأربعاء. الوقت المخصص لماما. مَهما تمنيتُ أنه قد يكون بخلاف ذلك، كانت تتمكن على الدوام من الوصول إليَّ في نهاية الأمر. تنهدتُ وأطفأت جهاز الراديو، وأنا أعلم أنه سيكون عليَّ أن أنتظر الآن حتى سلسلة حلقات يوم الأحد المجمَّعة لكي أكتشف إن كان شراب تفاح 'إيدي جراندي'[8] قد تخمَّر بنجاح أم لا. شعرتُ بومضة تفاؤل يائس. ماذا لو لم يكن واجبًا عليَّ أن أتحدث إليها؟ ماذا لو كان بوسعي أن أتحدث إلى شخصٍ آخر، أي شخص آخر؟

قلت: «ألوه؟».

- «أوه، أهلًا يا فَرختي، إنها أنا فحسب. يا له من طقس اليوم، هاه؟»

ليس من المفاجئ كثيرًا أن أمي قد أودعت إحدى السجون. يحسب المرء أن ذلك كان أمرًا محتومًا، نظرًا لطبيعة جريمتها، لكنها كانت تبالغ كثيرًا أكثر من اللازم بأن تستخدم بين الحين والآخر لَكنة حديث الأشخاص المودَعين في الأماكن التي تُحتَجز فيها، ولغتهم الخاصة التي لا يفهمها سواهم. افترضتُ أنَّ هذا ساعدها على أن تندمج مع رفيقاتها النزيلات، أو ربما مع العاملين هناك. وربما يكون الأمر ببساطة أنها تتسلى بذلك. إنها بارعة للغاية في إتقان اللهجات واللكنات، لكنها على كل حال امرأة ذات مواهب متعددة ومتنوعة. كنتُ أجلس معتدلة، على أهبة الاستعداد لهذه المحادثة كما لا بدَّ أن يكون المرء دائمًا معها. كانت خصمًا مناوئًا جَبَّارًا. ربما كان هذا تهورًا مني، لكنني اتخذت الحركة الأولى.

- «أعلم أنه لم يمر سوى أسبوع واحد، لكنني أشعر كأنه مرَّ عمر طويل منذ أن تحدثنا آخر مرة يا ماما. كنتُ مشغولة للغاية في العمل، وأيضًا - »

قاطعتني، وعلى غير المتوقَّع كانت لطيفة في هذه المرة، وحوَّلت طريقتها في الحديث لتتوافق مع طريقتي. ذلك الصوت، أتذكره من أيام الطفولة، ولم أزل أسمعه في كوابيسي.

قالت، وهي تتحدَّث بسرعة: «أعلم ما تقصدين، يا حبيبتي. اسمعي، لا يمكنني أن أتحدث معكِ لوقتٍ طويل. أخبريني كيف كان أسبوعكِ. ماذا كنتِ تفعلين؟»

أخبرتُها بأنني حضرتُ حفلًا غنائيًا، وذكرتُ حيلة مغادرتي للعمل. لم أخبرها بأي شيء آخر بالمرة. بمجرد أن سمعتُ صوتها، شعرتُ بتلك الرهبة المألوفة ذات الدبيب المخيف. كنتُ متشوقة للغاية أن أُفصح عما لديَّ من أخبار، أن أسقطها تحت قدميها كأنني كلب صيد ركض واقتنص طائر تم اصطياده بطلقة فوقعَ. والآن لا أستطيع أن أطرد فكرة أنها سوف تلتقط الطائر، وبهدوء في غاية القسوة، سوف تمزقه إربًا.

«أوه، حفل موسيقى، يبدو ذلك رائعًا، كنتُ مولعة بالموسيقى على الدوام. يتفضلوا علينا هنا بحفلة بين الحين والآخر، كما تعلمين؛ وقليل من النزيلات يجتمعن ويغنين معًا في غرفة الأنشطة الترفيهية إذا كن في المزاج الملائم للغناء. إنه حقًا ... شيء جميل.»

صمتت قليلًا، ثم سمعتها تزمجر مشتبكةً مع شخص ما.

«ماذا بكِ يا 'جودي' - أنا أتكلم مع ابنتي هُنا، ولن أقطع حديثي معها من أجل واحدة مدمنة مخدرات مثلك.» كانت هناك وقفة صمت. «كلَّا. والآن اذهبي للجحيم!»[9] تنحنحَت.

«آسفة لهذا، يا حبيبتي. إنها واحدة ممن يُعرفن «بالقِمامة»، هي وبعض صديقاتها المدمنات

مثلها، قبض عليهن وهن يسرقن العطور من محلات 'بوتس'. عطر 'ميدنايت هِيت' الخاص بالنجمة 'بيونسيه'،أتصدقين هذا؟» خفّضت صوتها من جديد. «لسنا هنا عقولًا إجرامية مبدعة بالمرة، يا حبيبتي. أحسب أن البروفيسور 'موريارتي'[10] يمكنه أن يستريح الآن.»

ضحكَتْ ضحكة كأنها رنين كؤوس نخب في حفل كوكتيل إيذانًا بالتحدث، بالصوت الخفيف المرح لإحدى شخصيات 'نويل كوارد'[11] وهي تستمتع بتبادل الملاحظات المضحكة والمسلية على شرفة تظللها أشجار الوستارية. حاولت أن أمضي بالحديث قُدمًا.

- «إذن ... كيف حالك يا ماما؟»

- «روعة يا حبيبتي، روعة فعلًا. كنت أشتغل 'حرفًا يدوية'. بعض السيدات اللطيفات الخيّرات كن يعلمننا كيف نزركش الوسائد. لطيف منهن أن يتبرعن بوقتهن للعمل التطوعي، صحيح؟» تخيلت ماما وفي حوزتها إبرة طويلة حادة، فغَشَت عمودي الفقري موجة جليدية صعودًا وهبوطًا.

«ولكن كفانا حديثًا عني»، قالت، وتلك الحافة المسننة في صوتها تشتد وتتصلب. «أريد أن أسمع عنكِ *أنتِ*. ما هي خططك لعطلة نهاية الأسبوع؟ ألن تذهبي للرقص، ربما؟ أليس هناك معجب طلب أن يواعدك؟»

سُمٌ فَتَّاك وحسب. حاولت أن أتجاهله.

- «إنني أقوم ببعض الأبحاث، يا ماما، من أجل مشروع.» كانت أنفاسها تتسارع.

- «أذلك صحيح؟ ما طبيعة البحث؟ ... بحث عن *شيء*، أم بحث عن *شخص*؟»

لم أستطع أن أمنع نفسي، فأخبرتها.

قلتُ: «عن شخص، يا ماما.»

همسَت بنعومة بالغة حتَّى أنني بالكاد سمعتُها.

قالت: «آاااه، إذن فقد بدأت المباراة أخيرًا، صحيح؟ أخبريني... أخبريني... أنا أسمعكِ بكل انتباه، يا حبيبتي.»

قلتُ، وأنا أنظر نحو ساعة يدي: «ليس هناك شيء لأخبركِ به، يا ماما. كل ما هنالك أنني صادفتُ شخصًا ... لطيفًا ... وأريد أن أعرف أكثر قليلًا عن... ذلك الشخص.» كنتُ بحاجة لأن أصقل الأشياء الرائعة قبل أن أستجمع شجاعتي لأشاركها جوهرتي الجديدة البرَّاقة، وأضعها قبالتها للحصول على استحسانها. في الوقت الراهن، دعيني أهرب بجلدي، دعي هذا ينتهي، *أرجوكِ*.

قالت بكل مرح: «يا للروعة! سوف أنتظر بلهفة أن توافيني بالأخبار أولًا بأوَّل حول مشروعكِ الجديد هذا، يا 'إليانور'. تعرفين كَم أتمنى أن تعثري لكِ على شخص خاص. شخص *ملائم* لك. كل تلك الأحاديث التي دارت بيننا على مرّ السنين؛ لطالما ساورني انطباعٌ بأنكِ تهدرين كل فُرص الاستمتاع بالحياة بحرمان نفسك من وجود شخص مميز في حياتك. أمر طيب أنكِ قد بدأت تبحثين عن ... نصفكِ الآخر. شريك في الجريمة، إن جازَ التعبير.» ضحكَت بهدوء.

قلتُ معترضة: «أنا لا أشعر بالوحدة يا ماما. أنا في أفضل حال بمفردي. وقد كنتُ دائمًا بأفضل حال بمفردي.»

قالت بصوت خفيض ونبرة خُبث: «حسنًا والآن، لست *دومًا* بمفردك، صحيح؟» شعرتُ بالعَرق ينزلق على قافيتي، ويرطب شعري. «ومع ذلك، قولي لنفسكِ أي شيء يتحتَّم عليكِ قوله لكي تمرري الليل، يا حبيبتي.» هكذا قالت ضاحكة. كانت تمتلك براعة خاصة في تسلية نفسها، رغم أنه ما من شخص آخر كان يضحك في رفقتها. «يمكنكِ أن تتحدثي إليّ دائمًا، تعرفين هذا. وحول

أي شيء. أو أي شخص.» تنهَدت. «كَم أحب أن أسمعَ أخبارَكِ، يا حبيبتي... لن تفهمي الأمر، بطبيعة الحال، لكن الرابطة بين الأم وطفلتها، إنها ... كيف يمكن أن أصفها على أفضل نحو ... *لا تنفصم أبدًا*. نحنُ الاثنتان مرتبطتان للأبد، كما ترين، الدم نفسه الذي يجري في عروقي يجري في عروقكِ أنتِ أيضًا. كبرتِ بداخلي، *أسنانك ولسانك وعنق رحمكِ* كلها كلها صنعَت من خلاياي، ومن جيناتي الوراثية. ومَن يدري ماذا تكون المفاجآت الصغيرة التي تركتُها تنمو بالداخل هناك من أجلكِ، ما هي الشَفَرات التي ضبطتُها لكي تعمل لاحقًا. سرطان ثدي؟ ألزهايمر؟ كل ما عليك أن تنتظري وتري بنفسك. لقد ظللتِ تختمرين بداخلي طوال كل تلك الشهور، في موضع لطيف ودافئ وحميم، يا 'إليانور'. ومهما اجتهدتِ في محاولة الابتعاد عن تلك الحقيقة، لا يمكنكِ ذلك يا حبيبتي، لا يمكنكِ بكل بساطة. من غير الممكن بالمرة تدمير رابطة بتلك القوة.»

قلت بصوت خفيض: «قد يكون هذا صحيحًا أو غير صحيح، يا ماما». يا لجسارتي. لا أدري من أين واتتني الشجاعة. كان الدم يخفق بقوة عبر جسدي وكانت يداي ترتجفان.

استجابت كما لو كنت لم أقل شيئًا بالمرة.

«حسنًا، إذن فلنبقَ على اتصال، اتفقنا؟ واصلي مشروعكِ الصغير، وسوف أتحدث في الوقت نفسه الأسبوع القادم. هذا مؤكد، إذن. لا بدَّ أن أنطلق - سلام!».

عندما سكنَ الهواء تمامًا من طنين صوتها، عندئذٍ فقط لاحظتُ أنني كنتُ أبكي.

(٥)

أتى يومُ الجمعة أخيرًا. عندما دخلتُ المكتب كان زملائي مجتمعين حول غلَّاية الماء، يتحدثون حول أحد المسلسلات الدرامية. تجاهلونني؛ فقد توقفتُ منذ أمد بعيد عن فَتح أي حديثٍ معهم. علَّقتُ سترتي الكُحلية على ظهر مقعدي وفتحت جهاز الكمبيوتر. مرة أخرى لم أحظَ بنومٍ جيد مساء أمس، بعد أن شعرتُ بشيءٍ من الاضطراب لمحادثتي مع أمي. قررتُ أن أعد قدحَ شاي منعش قبل أن أبدأ. لدي قدحي الخاص بي وملعقتي، أحتفظ بهما في دُرج مكتبي مراعاةً للنظافة والصحة العامة. يرى زملائي هذا أمرًا غريبًا، أو على الأقل أفترضُ ذلك من ردود أفعالهم، ومع ذلك يسعدهم أن يشربوا من آنية قذرة، غُسلتْ بلا اعتناء بأيدي مجهولين. لا يمكنني حتَّى أن أتقبَّل فكرة غَمس ملعقة صغيرة في مشروب ساخن، بعد أن يكون شخصٌ غريب قد لعقها ومصَّها منذ ساعة أو أقل. أمر قذر.

وقفتُ أمام حوض المطبخ بانتظار غليان الماء، وأنا أحاول ألَّا أنصت لحديثهم. منحتُ ملعقتي الصغيرة شطفًا إضافيًا بالماء الساخن، فقط ليطمئن قلبي، وانجرفتُ مع أفكار لذيذة، أفكار عنه. تساءلتُ ماذا عساه يصنع في هذه اللحظة نفسها: لعلَّه يؤلِّف أغنية؟ أم لعلَّه لا يزال نائمًا؟ تساءلتُ كيف يبدو وجهه الوسيم وهو غافٍ مُستريح.

أصدرت الغلَّاية إشارة الانطفاء وأدفأتُ إبريق الشاي، ثم أخذتُ ملعقة من بعض شاي 'دارجيلنج' أوَّل قطاف، ولا يزالُ عقلي يصب انتباهه على الوسامة المشهورة لمطربي التروبادوري[12] الغافي. أخذَ ينبعث ضحكٌ طفولي من زملائي يتطفل على أفكاري، لكنني افترضتُ أنَّ سببه اختياري لمشروبي. فلأنهم لا يعرفون أفضل من ذلك، فهم يكتفون بكيس شاي مغلَّف صغير من أردأ التوليفات الممكنة ويضعونها في قدح، يغمرونه بالماء المغلي، ثم يَقضون على ما تبقى من النكهة بإضافة الحليب المثلج. مرة أخرى، ولسببٍ ما، فإنها أنا التي تُعتبَر غريبة. ولكن إذا كنتَ ستشرب قدحَ شاي، فلمَ لا تبذل كل عناية ممكنة لمضاعفة متعتك به؟

استمرت القهقهة، وبدأت 'جيني' تغمغم بشيءٍ ما. لم تبدر منهم أي محاولة لإخفاء الأمر؛ صار واضحًا الآن أنهم يتضاحكون عاليًا وبشدة. توقفَت عن الغمغمة وأخذَت تغني. لم أتبين شيئًا من اللحن ولا الكلمات. توقفَت غير قادرة على المواصلة لأن الضحكات غلبتها، وكانت لا تزال تؤدي مِشية غريبة نحو الوراء.

رفع 'بيلي' صوته متحدثًا إلي: «صباح الخير، يا 'واكو جاكو'[13]، ما حكاية القفاز الأبيض هذا؟»

إذن فهذا هو مصدر تسليتهم. شيءٌ لا يُصدَّق.

قلتُ: «هذا بسبب الأكزيما في يديَّ»، متحدثةً إليهم في بطء وصبر كما يشرح الشخص البالغ أمرًا ما للأطفال. «أصابني طفحٌ سيئ للغاية مساء الأربعاء وقد التهب جلد يدي اليمنى تمامًا. إنني أضعُ هذا القفاز القطني لأمنع العدوى.» تبدَّد الضحك، مخلفًا صمتًا طويلًا. تبادلوا النظرات بينهم في صمت، كأنهم مجموعة حيوانات تجتر في حقل.

لا أتفاعل غالبًا مع زملائي بهذه الطريقة الثرثارة غير الرسمية، وهو ما جعلني أتوقَّف وأفكر إن كان عليَّ أن أستغل هذه الفرصة لأقصى حد. ثمة صلة تربط شقيق 'بيرناديت' بمن يشغل قلبي

وعقلي. وبالتأكيد لن أحتاج إلّا بضع دقائق حتَّى أستجمع منها بعض المعلومات الإضافية النافعة عنه. لم أظن أنني على وشك الدخول في تفاعل مطوَّل. كان لها صوت شديد الارتفاع والحدَّة وتضحك مثلما يضحك سعدان العوَّاء، لكنَّ الأمر كان يستحق بضع دقائق من وقتي. أخذتُ أُقلّب الشاي باتجاه عقارب الساعة بينما كنتُ أُعد مناورتي الافتتاحية.

قلتُ: «'بيلي'، هل استمتعتَ ببقية الحفل الغنائي في تلك الليلة؟» تطلَّع إليّ مندهشًا من سؤالي، وصمت هنيهة قبل أن يجيب.

قال: «إلى حدٍ ما، لا بأس». فصيح جدًا كالعادة دائمًا. ستكون هذه مهمة صعبة.

«هل كان المطربون الآخرون في نفس مستوى ذلك ...» صمتُّ قليلًا وتظاهرتُ بأنني أعتصر ذاكرتي. «... المدعو 'جوني لوموند'؟»

قال: «كانوا لا بأس بهم على ما أظن». أي بصيرة، أي نثر وصفي رائق. طفرت 'برناديت' تتحدَّث فجأة، كما عرفتُ أنها ستفعل، غير قادرة على مقاومة الفرصة السانحة لجذب الانتباه إلى نفسها بأي وسيلة متاحة.

أخبرتني بكل فخر: «أنا أعرفه، 'جوني لوموند'، كان صديقًا لأخي، في المدرسة.»

قلتُ لها: «حقًا؟»، وهذه المرة، على الأقل، لم أُضطر لادعاء الاهتمام. «أي مدرسة كانت؟»

أوحت الطريقة التي قالت بها اسم المدرسة أنَّه كان يجب عليَّ أن أكون ملمةً بها. حاولتُ أن أبدو منبهرة.

سألتُ، وأنا أقلّب الشاي من جديد: «ألا يزالان صديقين؟»

قالت: «ليس تمامًا، لقد أتى لحضور حفل زفاف 'بول'، لكنني أعتقد أنَّهما تفرقت بهما الطرق بعد ذلك. تعلمين ما يحدث عادةً عندما يتزوج المرء وينجب، بدرجة ما يفقد الاتصال بأصدقائه العُزب، أليس الأمر كذلك؟ إذ لا يظل هناك الكثير من الأمور المشتركة بينهم...»

لم يكن لديَّ معرفة مجردة ولا خبرة سابقة بالوضع الذي وصفته، لكنني أومأت كما لو كنتُ أفهم وأعرف، بينما تتردد في عقلي عبارةٌ واحدة طيلة الوقت: إنه أعزب، إنه أعزب، إنه أعزب.

أخذتُ قدحَ الشاي وعدتُ إلى مكتبي. بدا أن ضحكهم قد تحوَّل إلى هَمس خفيض الآن. لم يكُف هذا عن إثارة دهشتي، تلك الأشياء التي يجدونها مثيرة للاهتمام أو مُسلية أو غريبة. يمكنني فقط أن أفترض أنهم عاشوا حياةً منغلقةً أكثر ممَّا يجب.

تمَّت خِطبة 'جيني' السكرتيرة إلى أحدث رجل غريب الأطوار ارتبطت به، وكان هناك حفل صغير لها في فترة بعد الظهر، ساهمتُ في المال المجموع للحفل بثمانية وسبعين بنسًا. لم يكن هناك في محفظة نقودي غير عملات نحاسية أو أوراق نقدية فئة الخمسة جنيهات، وبالتأكيد لم أكن لأضع مبلغًا طائلًا كهذا في المظروف المشترَك لشراء شيء غير ضروري من أجل شخصٍ أعرفه بالكاد.

لا بدَّ أنني قد أسهمتُ بمئات الجنيهات طوال كل تلك السنوات من أجل كل تلك الهدايا للمتقاعدين، وهدايا للأطفال المولودين وحفلات عيد الميلاد الخاصة، وما الذي تلقيتُه أنا بالمقابل؟ حتَّى أن يوم ميلادي يمر مرَّ الكرام دون أن يشعر به أحد.

أيًا كان مَن اختار هدية الخِطبة فقد انتقى مجموعة كؤوس لشُرب النبيذ ودَورقًا متماشيًا مع الكؤوس. مثل تلك الأدوات لا ضرورة لها عندما يحتسي المرء الفودكا. وقد اعتدتُ ببساطة الشُرب بقَدحي الخزفي المفضَّل. اشتريتُه من متجر خيري منذ بضع سنين، وعلى أحد جوانبه

صورة فوتوغرافية لرجل وجهه مستدير كالبدر، يرتدي سترة جلدية تضيق عند الخصر، وعلى طول الحافة العلوية له كُتب بخط أصفر غريب (Top Gear [14]). لا أدَّعي أنني أفهم هذا القَدح، المهم أنه يستوعب الكمية المثالية من الفودكا، وهكذا يستبعد الحاجة لإعادة ملئه مرة بعد أخرى.

كانت 'جيني' تخطِّط لأن تكون فترة الخطوبة قصيرة. هكذا قالت بابتسامة مُصطنعة، ومعنى هذا، بكل تأكيد، أنَّ جمع المال الذي لا مفر منه لشراء هدية الزفاف سيكون في القرب العاجل. من بين جميع المساهمات المالية الاضطرارية فإنَّ هذه المناسبة تثير غيظي أكثر مما سواها، حين يتجوَّل شخصان في جنبات متجر من سلسلة 'جون لويس' بأقسامها المتنوعة لينتقيا أغراضًا جميلة لنفسيهما، وبعد ذلك يجعلان أشخاصًا آخرين يدفعان أثمانها. إنها لصفاقة مكشوفة الوجه. إنهما يختاران أشياء مثل أطباق مسطحَّة، وأوعية عميقة، وأدوات مائدة، أقصد، ما الذي يفعلانه في الوقت الحالي: هل يحفنان الطعام من العبوَّات إلى فميهما بأيديهما وحسب؟ لا يمكنني ببساطة أن أرى لماذا حين يقرر شخصان إضفاء الطابع الرسمي والقانوني على علاقتهما الإنسانية يستوجب هذا بالضرورة من الأصدقاء وأفراد العائلة وزملاء العمل أن يحدّثا لهما محتويات مطبخهما.

لم أحضر مراسم عقد قران فعليًا من قبل قط، لكنَّ 'لوريتا' دعتني في حفل استقبال المساء عند زفافها منذ نحو عامين بصحبة جميع العاملين الآخرين في المكتب. كان المكان فندقًا فظيعًا بالقرب من المطار، وقد دبرنا حافلة صغيرة لتقلنا إلى هناك، وكان عليَّ أن أساهم في دفع نفقة ذلك، علاوة على أجرة حافلتي إلى وسط المدينة ورجوعها منها. كان الضيوف مُلزمين بدفع ثمن مشروباتهم طوال المساء، الأمر الذي صعقني. من الصحيح أنني لستُ خبيرةً في عالَم السهرات والضيافة، أعترف بهذا، لكنني أرى بكل تأكيد أنك إن دعوتَ واستضفتَ أشخاصًا، فلا بدَّ أن تكون مسؤولًا عن تأمين كل ما يحتاج إليه ضيوفك من مشروبات، صحيح؟ إنه أوَّل مبادئ واجب الضيافة، في جميع المجتمعات والثقافات، وهكذا كان منذ أن بدأ التاريخ المسجَّل. في تلك المناسبة، شربتُ ماء عاديًا وحسب؛ فنادرًا ما أتجرع الكحول بين الناس على الملأ. لا أستمتع به حقًا إلَّا وأنا بمفردي، في البيت. لكنهم على الأقل قدموا الشاي والقهوة في وقتٍ متأخر من تلك السهرة، مجانًا. هذا إلى جانب مخبوزات مالحة في غاية السوء، وأيضًا، للعَجب العُجاب، قطع من كعكة أعياد رأس السنة. لساعات طوال، انبعثت موسيقى الديسكو الراقصة، ورقص أشخاصٌ فظيعون بطريقة فظيعة على موسيقى فظيعة. جلستُ بمفردي ولم يطلب مني أحد أن أراقصه وهو ما كان أمرًا ملائمًا لأبعد حد بالنسبة لي.

أمَّا الضيوف الآخرون فقد بدا أنهم يستمتعون، أو على الأقل أفترض أن الأمر كان كذلك. كانوا يدورون ويتبادلون المواقع على منصة الرقص، وهم سُكارى بوجوهٍ حمراء. بدت أحذيتهم غير مُريحة لهم، وكانوا يتصايحون بكلمات الأغاني في وجوه بعضهم البعض. لن أذهب أبدًا إلى مناسبات من هذا القبيل مرةً أخرى. فالأمر بكل بساطة لا يستحق العناء حيث اقتصر على قدح قهوة وقطعة من كعكة. لكنَّ السهرة لم تكن خسارة تامة، رغم هذا، لأنني تدبرتُ أمري لأُسقط في حقيبة يدي حوالي نصف دزينة من لفائف النقانق، ملفوفة في المحارم الورقية، لأتناولها فيما بعد. وبكل أسف، لم يكن مذاقها طيبًا، لا تكاد تقترب في جودتها من مخبوزات 'جريج' المضمونة على الدوام.

عندما انفضَّ الحفل الصغير الكئيب بالخِطبة، شددتُ سحَّاب سترتي وأطفأت الكمبيوتر الخاص بي، وكلي حماس لمجرد فكرة تشغيل اللابتوب الشخصي الخاص بي في البيت بأسرع ما يمكنني. ربما يكون هناك بعض المعلومات المفيدة على الإنترنت عن أيام دراسته، نظرًا لشذرة المعلومة

الجديدة التي استخرجتها بالمداورة من 'برناديت' في وقت سابق هذا اليوم. كم سيكون رائعًا لو عثرتُ على صورة فوتوغرافية لصفه الدراسي! كم أحب أن أرى كيف كان يبدو في صِباه، وما إذا كان على الدوام جميلًا هكذا، أو أن جماله تبرعم وتطوَّر في مرحلة متأخرة نسبيًا كما تخرج فراشة بديعة من شرنقتها. أراهن بكل ما أملك أنه كان مذهلًا هكذا منذ مولده. وربما هناك قائمة بالجوائز التي نالها أيام دراسته! في الموسيقى، بكل تأكيد، وفي مادة اللغة الإنجليزية، على الأرجح؛ فهو مَن كتبَ، على كل حال، الكلمات الرائعة لتلك الأغنيات. في أيٍ من الحالين، فإنه عندي جدير بكل الجوائز الممكنة.

إنني أحاولُ أن أخطط لتسللي من المكتب بحيث لا أضطر للتحدث مع أي شخص آخر في طريقي للخروج. فهناك على الدوام الكثير من الأسئلة. *كيف تنوين قضاء السهرة؟ ألديك خطط لعطلة نهاية الأسبوع؟ ألم تحجزي لرحلة سريعة بعد؟* لا أدري بالمرة لماذا يُبدي الآخرون دائمًا كل هذا القدر من الاهتمام بجدول مواعيدي. ضبطتُ توقيت التسلل على أفضل ما يُرام، وكنتُ أُخرِج حقيبة يدي من عتبة الباب عندما أدركتُ أن شخصًا ما قد سحبَ الباب للوراء وكان يمسكه مفتوحًا من أجلي. التفتُّ نحوه.

قال الرجل: «هل أنت بخير، يا 'إليانور'؟»، مبتسمًا في صبر بينما كنتُ أحل رباط قفازي من كَم الثوب، رغم أنَّ القفازين ليسا ضروريين في درجة حرارة الجو الحالية، لكنني أحتفظ بهما في متناول يدي، مستعدةً لارتدائهما عند أي تقلُّب عارض في الأحوال الجوية.

قلتُ له: «نعم، أنا بخير»، وعندئذٍ تذكرت لياقتي، فغمغمت: «شكرا لكَ، يا 'ريموند'.»

أجاب: «عفوًا».

انزعجتُ للغاية إذ شرعنا نسلك نفس الطريق في الوقت ذاته.

سألني: «أين مقصدكِ»، فأومأتُ إيماءة غير محددة في اتجاه التل.

فقال: «وأنا أيضًا».

انحنيتُ وتظاهرتُ بإعادة تثبيت الإبزيم اللاصق لحذائي. استغرقتُ بقدر ما أمكنني من وقت، على أمل أنه سوف يلتقط الإشارة. وعندما نهضتُ واقفةً من جديد في نهاية الأمر كان لا يزال هناك، وذراعاه متدليتان على جانبيه. لاحظتُ أنه كان مرتديًا معطفًا من نوع دافل ذا الزغب. مِعطف دافل! إنه بالتأكيد مخصص للأطفال والدببة الصِغيرة. أخذنا نسير نزولًا على التل معًا فأخرج عُلبة سجائر، وقدَّم لي واحدة. ابتعدتُ للوراء عن العُلبة.

قلت: «ياللقرف». فأشعل سيجارته، دون أن يرتدع أو يتردد.

غمغم قائلًا: «آسف، أعرف أنها عادة قذرة.»

قلتُ له: «هي هكذا، وسوف تموت مبكرًا بسنوات عن أجلك الطبيعي بدونها، وغالبًا بسبب السرطان أو مرض بالقلب. لن ترى آثار التدخين على قلبك أو رئتيك لفترة من الوقت، لكنك ستلاحظ أثره في فمك؛ التهاب اللثة، وفقدان الأسنان، وقد اكتسبت بشرتك منذ الآن خصائص بشرة المدخنين الشاحبة والمجعدة قبل الأوان. إن التركيبة الكيمائية للسجائر تحتوي على السيانيد والأمونيا، تصوَّر. هل تريد حقًا أن تستنشق باختيارك وإرادتك مثل تلك المواد السامة؟»

قال: «الظاهر أنكِ تعرفين معلومات رهيبة عن (الدخان) بالنسبة لشخص غير مدخن»، نافخًا سحابة سامَّة من المواد المُسرطنة من بين شفتيه الرفيعتين.

أقررتُ قائلة: «إنني فعلًا قد فكَّرتُ في التدخين، لكنني أجري بحثًا شاملًا قبل جميع الأنشطة قبل أن أبدأ ممارستها، ولم يبد التدخين لي في نهاية الأمر تسليةً قابلة للاستمرار أو منطقية. كما أنه

مثير للاشمئزاز من الناحية المالية أيضًا».

«نَعم»، أومأ، وأضاف: «إنه يكلفني الكثير، هذا صحيح فعلًا.» سادَ صمتٌ قصير، ثم سأل: «أي طريق سوف تسلكين، يا 'إليانور'؟»

فكَّرت في أفضل رد ممكن على هذا السؤال. كنتُ متجهة إلى البيت من أجل موعدي الغرامي المثير. هذه مناسبة على قدرٍ عالٍ من الانفرادية: موعد مع زائر في منزلي، ما يعني أنَّ عليَّ أن أقصّر هذا التفاعل المضجر المباغت بأقصى سرعة ممكنة. وبالتالي فلا بدَّ لي أن أتخذ أي طريق آخر عدا ذلك الذي سيتخذه 'ريموند'. ولكن أي طريق؟ كنا على وشك أن نمر بعيادة طبية لعلاج أمراض الأقدام فنزلَ عليَّ الإلهام.

قلتُ له وأنا أشير نحو العيادة على الجهة المقابلة: «لديَّ موعد هنالك.» نظرَ إليَّ، فارتجلتُ على الفور: «التهابات أصابع القدمين». رأيتُه ينظر نحو حذائي.

قال: «يؤسفني أن أسمع ذلك، يا 'إليانور'. أمي عندها نفس المشكلة؛ تعاني مشكلة رهيبة مع قدميها.»

انتظرنا لدى منطقة عبور المُشاة، وساد بيننا الصمت أخيرًا. رأيتُ رجلًا مُسنًا يسير مترنحًا على الجانب المقابِل من الطريق. كان رجلًا ضئيلًا ومربع التكوين، وقد جذبَ عينيَّ بسبب لون سترته الصوفية الحمراء مثل ثمار الطماطم، والتي برزت غريبة وسط ألوان ثيابه الأخرى الرمادية كما يتماشى مع المتقاعدين والفاتحة الكامدة مِثل الباستيل. بالحركة البطيئة تقريبًا، أخذ الرجل المُسن يتأرجح ويتطوَّح بغير اتجاه، متمايلًا بشدة من جانب إلى جانب، حتَّى بدت حقائبه البلاستيكية المنتفخة بالمشتريات كأنها نوع من بندول بشري.

قلتُ بصوتٍ خفيض، محدثة نفسي أكثر ممَّا أحدث 'ريموند': «ثمِل والوقت نهار». فتحَ 'ريموند' فمه ليجيب عندما انطرح المُسن أخيرًا، واقعًا نحو الوراء بقوة، ورقد ساكنًا تمامًا. تناثرت مشترياته من حوله، لاحظتُ أنه كان قد ابتاع علبًا من بسكويت 'تانوك' بالكراميل وعبوة كبيرة من النقانق.

قال 'ريموند': «سُحقًا»، وضغط على زر التحكم في إشارات المرور.

قلتُ: «دَعكَ منه، إنه ثمِل. سيكون بخير.»

حدَّق 'ريموند' فيَّ.

قال: «إنه مُسن ضعيف، يا 'إليانور'. لقد ارتطمَ رأسه بذلك الرصيف بشدة.»

شعرتُ بالسوء من نفسي عندئذٍ. فحتَّى مدمني الكحوليات يستحقون المساعدة، على ما أظن، رغم أنهم ينبغي عليهم أن يشربوا في بيوتهم، كما أفعل أنا، وهكذا لا يسببون أي متاعب لأي شخص آخر. ولكن مع هذا، ليس الجميع في مثل تعقلي ومراعاتي للآخرين.

في النهاية، أنارَ الضوء الأخضر الذي يسمح بعبور المشاة فتواثب 'ريموند' عابرًا الطريق، وقد ألقى بسيجارته في داخل إحدى فتحات تصريف المياه. لم يكن عليه أن يكون جلفًا يلقي بالقمامة هكذا، هكذا فكرت، وأنا أسير بخطوة محسوبة من ورائه. عندما وصلتُ إلى الناحية الأخرى، كان 'ريموند' راكعًا من قبل بجانب المُسن، وهو يتحسس نبضه في عنقه. كان يتحدث إليه بصوتٍ عالٍ وببطء، يتحدث بكلام فارغ من قبيل *هِيه، يا رجل يا عجوز، كيف حالك؟* وأيضًا *أيمكنك أن تسمعني، يا سيد؟* المُسن لم يبدِ أي استجابة. ملتُ للأمام عليه وتشممتُ بعمق.

قال: «إنه ليس ثمِلًا في حقيقة الأمر، كنا سنشم رائحته إن كان ثملًا بما يكفي لأن يسقط أرضًا

ويغيب عن الوعي.» بدأ 'ريموند' يفك أزرار ثياب الرجل.

قال بهدوء: «اتصلي بالإسعاف، يا 'إليانور'.»

خاطبته شارحة: «لا أملك هاتفًا جوَّالًا، على الرغم من أنني متفقة مع فكرة أنها أدوات فعَّالة ومفيدة.» بحث 'ريموند' في جيب معطفه ثم ناولني هاتفه.

قال لي: «بسرعة، الرجل بدأ يبرد.»

بدأت أتصل برقم الإسعاف ٩٩٩، ثم لكمتني ذكرى مباغتة بشدة على وجهي مباشرةً. ليس بوسعي أن أفعل ذلك مرةً ثانية، هكذا أدركت، ليس بوسعي ببساطة أن أنتظر حتَّى أسمع الصوت المسجَّل الذي يقول *ما الخدمة التي تحتاجها، أيها المتصل؟* ومن بعده أسمع صوت سارينة التنبيه. لمستُ ندوب وجهي، ثم ألقيتُ بالهاتف نحو 'ريموند' من جديد.

قلتُ: «اتصل أنت، سوف أجلس معه.» أطلق 'ريموند' لعنة من بين أسنانه ونهضَ واقفًا.

قال لي: «واصلي الحديث إليه، ولا تحركيه». خلعت سترتي ووضعتها على جذع الرجل.

قلتُ: «ألوه، أنا 'إليانور أوليفانت'.» واصلي الحديث إليه، هكذا قال لي 'ريموند'، وهكذا فعلت.

قلتُ: «يا لها من سترة صوفية جميلة! لا يرى المرء هذا اللون كثيرًا في الثياب الصوفية. هل تسمي هذا اللون أحمر زنجفري؟ أم أحمر قرمزي، ربما؟ يعجبني اللون فعلًا. عَن نفسي لن أجرب هذه الدرجة، بالطبع. ولكن، لكن، وعلى خلاف الاحتمالات، أظن أن عليك أن تتخلَّى عنه. شَعر أبيض وثياب حمراء - مثل 'بابا نويل'. يبدو أنه هدية من أحدهم لك، فهو ناعم للغاية وغالي الثمن. إنه شيء في غاية اللطف بحيث لا يمكن أن يشتريه المرء لنفسه. ولكن ربما تشتري *أنت* أشياء لطيفة لنفسك - بعض الناس يفعل هذا، على ما أعرف. بعض الناس لا يجدون أي بأس في تدليل أنفسهم بشراء الأفضل دائمًا من كل شيء. أمَّا أنت، ومن منظر بقية ثيابك، ومحتويات أكياس تسوقك، يبدو لي من غير المحتمل بشدَّة أنك من هذا النوع من الأشخاص.»

تشجَّعت واستجمعت جأشي وأخذت ثلاثة أنفاس عميقة، ثم ببطء أخرجتُ يدي ووضعتها على يده. أمسكتُ يده برفق لأطول وقت أمكنني احتماله.

قلتُ: «السيد 'جوبينز' يتصل بالإسعاف، لذا لا تقلق، فلن ترقد هناك في منتصف الشارع وقتًا طويلًا. لا داعي للقلق؛ الرعاية الطبية مجانية تمامًا في هذا البلد، ومستواها يعد عمومًا من بين الأفضل في العالم. أنت رجل محظوظ. أقصد، أنك على الأرجح لن تريد أن تسقط وترطم رأسكَ في، مثلًا، دولة جنوب السودان الجديدة، مع الاعتبار لوضعها الراهن سياسيًا واقتصاديًا. ولكن هنا في جلاسجو... حسنًا، كانت هذه ضربة حظ، واعذرني في هذه التورية.»

قال: «كيف حاله، يا 'إليانور'؟ هل أفاق؟»

قلتُ: «كلَّا، ولكنني كنتُ أتحدَّث إليه، كما طلبت.»

تناول 'ريموند' يد الرجل الأخرى.

قال: «يا للنَفس الهرمة المسكينة.»

أومأت. وللمفاجأة، شعرتُ بعاطفةٍ أدركت كنهها بوصفها قلقًا أو انشغالًا نحو هذا الغريب المسن. ارتحت في جلستي على الأرض، وشعرتُ بردفيَّ يصطدمان بشيءٍ كبير وله منحنيات. عندما التفتُّ لأتفقد ما هذا، وجدتُ قارورة بلاستيكية كبيرة من مشروب 'إرن-برو' الغازي الخفيف. نهضتُ واثقة ومططتُ عمودي الفقري للخلف، ثم بدأتُ أجمع المشتريات المتبعثرة وأضعها في الأكياس. كان أحد الكيسين ممزقًا، فأدخلتُ يدي في حقيبتي وأخرجتُ كيس التسوق البلاستيكي المفضَّل لديَّ، ذلك الخاص بمتجر 'تيسكو' والمطبوع عليه صورة أُسُود. جمعتُ كل عبوات الطعام

ووضعتها في الحقيبتين عند قدميَّ الرجل المُسن. ابتسم 'ريموند' لي.

سمعنا صوت سارينة الإسعاف وناولني 'ريموند' سُترتي. اقتربت سيارة الإسعاف ووقفت بمحاذاتنا ونزل منها رجلان. كانا في منتصف حديثٍ بينهما واندهشتُ لأنهما بديا لي من طبقة العمَّال، فقد ظننتُ أنهما سيكونان أقرب للأطباء.

قال أكبرهما سنًا: «حسنًا، ماذا لدينا هنا؟ هل تعثر الفتى العجوز وانقلب؟»

أبلغه 'ريموند' بكل شيء وشاهدتُ الرجل الآخر، كان منحنيًا على المُسن، يقيس له النبض، ويصوّب ضوء كشَّاف صغير للغاية نحو عينيه ويربّت على صدغيه برفق في محاولة لانتزاع أي استجابة منه. استدارَ نحو زميله.

قال: «علينا أن نتحرَّك.»

أحضرا نقَّالة وكانا سريعين وحريصين بدرجة مفاجئة عندما رفعا المُسن عن الأرض وثبَّتا جسمه على النقَّالة بشرائط الأحزمة. لفَّ أصغرهما حافتي بطَّانية صوفية حمراء من حوله.

قلتُ: «البطانية بنفس لون سترته.» لكنهما تجاهلاني.

سأل أكبرهما سنًا: «هل ستأتي معه، هناك متسع في الخلف لشخصٍ واحد فقط.»

تبادلنا النظر أنا و'ريموند' إلى أحدنا الآخر، وألقيت نظرة على ساعة يدي.

كان موعد الزائر المنتظر تشريفه بيتي بعد نصف ساعة.

قال 'ريموند': «سأذهب أنا، يا 'إليانور'، لا يجب أن تفوّتي موعدك لدى طبيب الأقدام.»

أومأتُ برأسي، وصعد 'ريموند' إلى جانب الرجل المُسن والمسعف، الذي كان منشغلًا بتوصيل أنابيب تقطير السوائل وتشغيل الشاشات. التقطتُ كيسيّ التسوّق ورفعتهما عاليًا بما يكفي لكي أناولهما لـ 'ريموند'.

فقال المُسعف بنبرة ضجر خفيف: «مهلًا، هذه ليست سيارة 'آزدا فان' لنقل المأكولات. نحنُ لا نسلّم طلبات التسوّق للمنازل.»

كان 'ريموند' منشغلًا على الهاتف، وسمعته يتحدث إلى أمه على ما يبدو، ليخبرها بأنه سوف يتأخر، ثم أغلق الخط بسرعة.

قال: «'إليانور'، لِم لا تتصلين بي بعد قليل، وربما يمكنكِ إحضار أغراضه إليَّ؟» فكَّرتُ في هذا، وأومأتُ له، وشاهدته يخرج من جيب معطفه قلمًا جافًا. جذب إليه يدي. شهقتُ واتخذتُ خطوة مبتعدة للجانب، وأنا مصدومة، وقد وضعتُ يدي وراء ظهري في حزم.

قال في حِلم: «أحتاجُ أن أعطيكِ رقم هاتفي فقط.»

أخرجتُ دفتري الصغير من حقيبة يدي وأعطيته إياه، وأعاده لي وقد ملأ صفحة منه بخدوش زرقاء، كان اسمه مقروءًا بالكاد، ومن تحت كُتبت على عَجل سلسلة من الأرقام بخط يد صبياني أخرق.

قال: «اتصلي بعد ساعة أو نحوها، عندئذٍ ستكون مشكلة قدميك قد حُلّتْ، صحيح؟»

(٦)

بالكاد سنحَ لي الوقت بالعودة إلى المنزل وخَلع ثيابي الخارجية عندما دقَّ جرسُ الباب مبكرًا بعشر دقائق عمَّا كنتُ أتوقَّع. الأرجح أنها مُحاولَة لاصطيادي وأنا غير متأهبة وكشف أي أكاذيب محتملة. عندما فتحتُ الباب، ببطء، ومن غير أن أنزع السلسلة، لم أجد أمامي الشخص الذي كنتُ أتوقعه. وأيًا كانت هذه المرأة، فهي لم تكن تبتسم.

قالت: «'إليانور أوليفانت'؟ أنا 'جوون مولين'، موظفة الخدمة الاجتماعية»، واتخذت خطوة للأمام، غير أن الباب اعترض تقدُّمها.

قلتُ، مختلسة النظر فيما حولها: «كنتُ أتوقَّع حضور 'هيثر'».

«'هيثر' في إجازة مَرضية، للأسف؛ ليس لدينا فكرة متى ستعود. لقد استلمتُ حالاتها.»

طلبتُ منها أن أرى أي شيء رسمي لإثبات هويتها - أعني، لا ضرر على المرء من الحيطة وإن أفرطت. أطلقت تنهيدة صغيرة، وأخذت تنظر في حقيبتها. كانت طويلة القامة، مرتدية باعتناء طقمًا أسود ببنطال وقميص أبيض. وحينما أحنت رأسها لاحظتُ شريطًا أبيض من فروة رأسها عند مفرق شعرها الداكن اللامع المنسدل على الجانبين. في النهاية، رفعت بصرها ومدَّت لي تصريح مرور أمني، عليه شعار كبير للمجلس وصورة فوتوغرافية صغيرة للغاية. دققت النظر فيه بكل اعتناء، ورددتُ بصري بين الصورة وبين وجهها عدة مرات. لم تكن الصورة تظهرها جميلة، لكن لا يمكنني لومها على ذلك، فأنا عن نفسي لا أتألق كثيرًا في الصور الفوتوغرافية. أمَّا في الحقيقة، فقد كانت في نفس سني تقريبًا، ببشرة ناعمة خالية من التجاعيد، وخط رفيع من طلاء شفاه أحمر.

قلتُ: «لا يبدو عليكِ أنك من العاملين في الخدمة الاجتماعية.» حدَّقَت فيَّ لكنها لم تقل شيئًا. كلَّا، ليس مرة أخرى! في كل خطوة لي في الحياة، أقابلُ أناسًا بمهارات اجتماعية قاصرة ويحدث هذا بوتيرةٍ تُنذر بالخطر. ما السر وراء أنَّ الوظائف التي تتطلب تعاملًا مباشرًا مع العملاء تجتذبُ إليها أعداء البشر تحديدًا؟ إنه لُغز. ذكَّرتُ نفسي أن أعود إلى هذا الموضوع لاحقًا، فككتُ سلسلة الباب ودعوتُها للدخول. قدتُها للصالون، وأنا أستمع إلى كعبي حذائها العاليين يقرقعان على الأرضية. سألَت إن كان بوسعها أن تلقي نظرة سريعة على المنزل؛ لقد كنتُ أتوقع هذا، بالطبع. كانت 'هيثر' تفعل الأمر نفسه أيضًا؛ أفترضُ أنَّ ذلك جزء من الوظيفة: تفقُّد المكان للتأكُّد من أنني لا أخزّن بولي في برطمان زجاجي ضخم ولا أختطف طيور العقعق وأخيطها على أكياس الوسائد. أطرَت دونما حماسة حقيقية على الديكور الداخلي بينما كنا نتجه نحو المطبخ.

حاولتُ أن أرى منزلي عبرَ عينيّ زائر غريب. أعلمُ أنه من حُسن حَظي أن أعيش هُنا، فالإسكان الاجتماعي التابع للدولة في هذه المنطقة السكنية لم يعد له وجود عمليًا في هذه الأيام. ما كان بوسعي أن أتحمَّل نفقة العيش في هذا الحَي بخلاف ذلك، بالتأكيد ليس اعتمادًا على المرتب الزهيد الذي يدفعه لي 'بوب'. فقد دبَّر لي مكتب الخدمات الاجتماعية انتقالي للعيش هنا بعد أن غادرت آخر منزل رعاية بديلة أقمتُ فيه الصيف السابق لبدء الدراسة الجامعية مباشرةً. كنتُ بلغتُ السابعة عشر للتو. فيما مضى آنذاك، كان أي شاب صغير بلا عَون، نشأ بلا أسرة في رعاية الدولة، تُخصَص له شقة سكنية تابعة للمجلس المحلي وقريبة من مكان دراسته دون أن يعني هذا أي مشكلة كبيرة. تخيَّلوا ذلك.

أتذكّر أنه لزمني بعض الوقت حتَّى أفكّر في مسألة تنسيق ديكورات الشقّة بنفسي، حتَّى طليت جدران المكان أخيرًا في الصيف الذي تلا تخرجي من الجامعة. اشتريتُ الدهانات والفراشي بعد أن صرفت شيكًا تلقيته بالبريد من مكتب سجل الجامعة، إلى جانب شهادتي الجامعية؛ تبين أنني قد فزتُ بجائزة صغيرة، صُممت باسم أحد علماء الدراسات الكلاسيكية، توفي منذ أمدٍ بعيد، وخُصصت لأفضل أداء في الامتحانات النهائية. وقد نلتها عن ورقة بحثية حول قصيدة 'فيرجيل' Georgics [العَمل في الأرض]. تخرجتُ غيابيًا بطبيعة الحال؛ فقد بدا لي من غير المجدي أن أصعد على المسرح مع عدم وجود أي شخص يجلس هنالك يصفق ويهتف لي. ومنذ ذلك الحين لم تُمَس هذه الشقة ولم يتبدل فيها شيء.

أفترضُ، في محاولة لأتسم بالموضوعية، أنها كانت تبدو مضجرة قليلًا. كانت ماما تقول على الدوام إن الهَوس بتزيين المنازل داخليًا ينم عن برجوازية شنيعة، بل الأسوأ من ذلك، أن أي نوع من نشاطات (افعلها بنفسك) مخصصة بشدة للعوام والغوغاء. من المخيف حقًا التفكير بشأن الأفكار التي قد أكون استقيتُها من أمي.

منحتني الأثاث إحدى الجمعيات الخيرية التي تساعد الشباب الصغير المحروم من العون ومن تعرضوا للإساءات والعنف سابقًا عند انتقالهم إلى منزل جديد؛ وكان كله عبارة عن قِطع تمَّ التبرع بها وغير متجانسة فيما بينها، لكنني كنتُ قد شعرتُ في ذلك الحين بالامتنان إلى أقصى حد، ولم أزل كذلك. كانت جميعها قطعًا مفيدة وعملية تمامًا، وهكذا فإنني لم أرَ قَط أي داعٍ لاستبدال أيٍ منها. لا أنظف المكان كثيرًا للغاية، على ما أظن، وهو ما لعلَّه يساهم في أنَّ ما أراه قد يعتَبر حالة إهمال عامة. لم أرَ جدوى من ذلك؛ فقد كنتُ الشخص الوحيد على الإطلاق الذي يأكل هنا، ويغتسل هنا، ويخلد للنوم ويستيقظ هنا.

إنَّ هذه المدعوة 'جوون مولين' هي أوَّل زائر يدخل المنزل منذ شهر نوفمبر من العام الماضي. إنهم يجيئون كل ستة أشهر أو نحو ذلك. أقصد زيارات الخدمة الاجتماعية. إنها أوَّل زائر لي خلال تقويم هذا العام. فقارئ العدَّاد لم يأتِ بعد، رغم أنني أُفضِّل أن يتركوا بطاقة وأن أتصل بهم لإبلاغهم بالقراءة. كَم أحب حقًا مراكز خدمة العملاء عبر الهاتف؛ فمن المثير للاهتمام دائمًا أن أسمع جميع تلك اللكنات المتباينة وأن أحاول أن أكتشف من خلالها بعض الأمور عن الشخص المتحدث. أفضل جزء عندي هو حينما يسألون، في نهاية الاتصال، *هل هناك أي شيء آخر يمكنني أن أساعدكِ به اليوم، يا 'إليانور'؟* ويمكنني أن أجيب عندئذٍ *لا، لا يوجد شيء، أشكرك، لقد حللتَ لي مشكلاتي حلًا نهائيًا وشاملًا*. كَما أنَّه من اللطيف على الدوام أن أسمع اسمي الأوَّل وليس لقبي، يلفظه بوضوح صوتٌ بشري.

باستثناء موظفي الخدمة الاجتماعية وشركات المرافق العامة، أحيانًا قد يتصل بي عبر الهاتف مندوب من كنيسةٍ أو أخرى ليسأل إن كنتُ رحَّبتُ بيسوع في حياتي. وكَمَا تبينت، فهم لا يميلون للاستمتاع بالجِدال حول مفهوم استقطاب شخصٍ ما لإيمان جديد، الأمر الذي أصابني بخيبة رجاء. في العام الماضي، مرَّ رجل لتوزيع كتالوج من شركة 'بيترويز' للأجهزة والأدوات المنزلية، والذي اتضح أنَّه مادة قراءة شديدة الإمتاع. ما زلتُ نادمةً على أنني لم أشترِ جهاز صيد العناكب، والذي كان في الحقيقة أداةً مبتكرة للغاية.

رفضت 'جوون مولين' عَرضي أن أقدّم لها قدحًا مِن الشاي بينما رجعنا إلى غرفة المعيشة، وبعد أن اتخذت مجلسها على الأريكة، استخرجَت مَلفي من حقيبة أوراقها. كان ملفًا يبلغ سُمكه عدة بوصات، يضم محتوياته بشكل متزعزع شريطٌ مطّاطي. على الركن اليمين في الأعلى من غلافه،

كَتبت يدٌ مجهولة بقلم عريض الخط «**أوليفانت، 'إليانور'**» وتاريخ «يوليو ١٩٨٧»، عام مولدي. بدا الملف المنتفخ، والمتهرئ والمتسخ، كأنَّه قِطعة أثرية.

غمغمت بينما تمر بظُفر مطلي ومصقول على الصفحة الأولى في كومة الأوراق: «خط كتابة 'هيثر' شنيع». تحدَّثت بصوتٍ خفيض، كأنما تتحدَّث لنفسها وليس لي. «زيارات نصف سنوية ... مواصلة الاندماج في المجتمع ... إدراك مبكر لأية احتياجات دعم إضافي ...»

واصلَت القراءة، وعندئذٍ رأيتُ وجهها يتغيَّر وخطفت نظرة نحوي، كان تعبيرها مزيجًا من الذُعر والحذر والشفقة. لا بدَّ أنها وصلت للجُزء الخاص بأمي. حدَّقتُ فيها. أخذَت نفَسًا عميقًا، ونظرت للأسفل نحو الأوراق ثمَّ زفرت ببطء وهي تتطلَّع نحوي مجددًا.

قالت، وقد ردَّد صوتها صدى تعبير وجهها: «لم تكن لدي أدنى فكرة، لا بدَّ أنَّكِ ... لا بدَّ أنكِ تفتقدينها بشدة؟»

قلتُ: «أمي؟ بالكاد أفتقدها.»

«كَلَّا، قصدتُ ...» ثم قطعت حديثها، وبدت حزينة ومحرجة بشكل أخرق. آه، كنتُ أعرفه جيدًا، أعرف ذلك الثالوث المقدَّس للتعبيرات الخاصة بأوليفانت. هززتُ منكبيَّ، وليس لدي أدنى فكرة عمَّا كانت تتحدَّث حوله.

جلسَ الصمتُ بيننا، مرتعدًا مِن التعاسة. بعد أن شعرتُ وكأن أيامًا قد مرَّت، أغلقت 'جوون مولين' الملف على حِجرها ومنحتني ابتسامة مشرقة بدرجة مبالَغ فيها:

«إذن، يا 'إليانور'، هل تسير أمورك بخير، عمومًا، أقصد منذ زيارة 'هيثر' الأخيرة لكِ؟»

قلتُ: «حسنًا، لم أشعر بالمرة بأي احتياجات دعم إضافية، كَما أنني مندمجة في المجتمع تمامًا، يا 'جوون'.»

ابتسمَت ابتسامة واهنة. «هل يسير العمل جيدًا؟ أرى أنكِ...» رجعت لاستشارة الملف من جديد. «أنكِ تعملين في مكتب؟»

قلتُ: «العمل على ما يرام، كل شيء على ما يرام.»

«وماذا عن البيت؟» سألتني وهي تنظر في الغرفة من حولها، وتلبثت عيناها لبعض الوقت على متكأ مستدير منخفض، ضخم وأخضر اللون، كان على شكل ضفدع عملاق وكان جزءًا من الأثاث الذي تلقيته من الجمعية الخيرية تبرعًا عندما انتقلتُ إلى هنا لأوَّل الأمر. صرتُ مع مرور السنوات شديدة الوَلع بعينيه الجاحظتين ولسانه الوردي العملاق. ذات ليلة، إحدى ليالي الفودكا، رسمتُ له ذبابة كبيرة، ذبابة منزل عادية ذات الاسم اللاتيني Musca domestica، رسمتُها على لسانه بقلم حبر ماركة 'شاربي' اختلستُه من العَمل. لا أدَّعي أنني موهوبة فنيًا بأي درجة، ولكن كانت هذه الذبابة، في رأيي المتواضع، إضافة رائعة للعمل الفنّي. شعرتُ كأنَّ هذا العمل قد ساعدني على أن أشعر بامتلاك الغَرض الموهوب لي، وبأنني قد صنعتُ شيئًا جديدًا من شيءٍ مُستَعمل. علاوة على أنه بدا لي جائعًا. غير أن 'جوون مولين' لم تكن فيما يبدو قادرة على أن ترفع عينيها عنه.

كررتُ لها قولي: «كل شيء هنا على ما يُرام، يا 'جوون'، جميع الفواتير يتم تسديدها، وعلاقاتي بالجيران ودية حميمة. أشعر بارتياح كامل.»

تصفحَت الملف مرة أخرى، ثم أخذت نفَسًا عميقًا. عرفتُ ما كانت على وشك أن تقول، وقد ميَّزت جيدًا التغيُّر في نبرة صوتها - الخوف، والتردد - ذلك الذي يسبق على الدوام الأمر الأساسي.

«هل ما زلتِ عند رأيكِ مِن أنكِ لا تريدين معرفة أي شيء آخر حول الواقعة، أو حول أمكِ، كما فهمت؟» لم تبتسم هذه المرة.

قلتُ: «ذلك صحيح، لا داعي لذلك - إنني أتحدَّث معها على الهاتف مرة كل أسبوع، مساء يوم الأربعاء، في موعد منتظم ودقيق كالساعة.»

«حقًا؟ ألا يزال هذا يحدث بعد كل هذا الوقت؟ شيء مثير للاهتمام ... هل أنت شديدة الحرص على ... الاحتفاظ بهذه الصِلة؟»

قلتُ، في ريبة: «ولمَ لا أفعل؟». من أين يأتي قسم الخدمة الاجتماعية بأولئكَ الأشخاص فعلًا؟

تعمَّدَت أن تترك الصمت يطول قليلًا، وعلى الرغم من أنني ميّزتُ تلك الآلية المتبعة، لم أتمكن من منع نفسي من ملء الصمت بالحديث، في نهاية الأمر:

«أظن أنَّ ماما تود أن أحاول معرفة المزيد عن ... الواقعة ... لكنَّ لا نية لديَّ لفعل ذلك.»

قالت وهي تحرك رأسها: «كلَّا، حسنًا، إنَّ مقدار ما ترغبين في معرفته حول ما حدث أمر يرجع لكِ بالكامل، صحيح؟ كان الحُكم القضائي واضحًا للغاية، آنذاك، بأنَّ أي شيء من هذا القبيل يخضع بالكامل لتقديرك أنتِ؟»

قلتُ: «ذلك صحيح، هذا ما قالوه بالضبط.»

نظرَت إليَّ بتفحص، كما قد فعل من قبل أشخاصٌ كثيرون، مُفتشين في وجهي عن أي آثارٍ من أمي، مستمتعين بنوعٍ من الإثارة الغريبة في أن يكونوا *بهذه* الدرجة مِن القُرب من أحد الأقرباء بالدم من المرأة التي لا تزال الصُحُف تشير إليها بين الحين والآخر، بعد مرور كل تلك السنوات، بوصفها *الشيطانة ذات الوجه الجميل*. لاحظتُ عينيها تمرَّان بندوب وجهي. انفتح فمها قليلًا، وصارَ واضحًا لي أنَّ بدلتها الأنيقة وشَعرها المفروق ليسا إلَّا تنكرًا غير فعَّال في محاولة إخفاء هذه الفلَّاحة فاغرة الفم من الاندهاش.

قلتُ: «أظن أنَّ بوسعي أن آتيك بصورة فوتوغرافية لي، إن كنتِ ترغبين في واحدة.»

طرفت بعينيها مرتين وتضرج وجهها خجلًا، ثم شَغلت نفسها بالإمساك بالملف، في محاولة لأن تنظم كل تلك الأوراق المهلهلة وتجعلها كومة واحدة مرتبة. لاحظتُ ورقة واحدة تنفلت وتسقط أرضًا تحت المنضدة الصغيرة. لم ترَها وهي تفلت من الملف، وفكَّرتُ ماذا لو كان عليَّ أن أخبرها أم لا. كان المكتوب في الصفحة يدور حولي، على كل حال، وهكذا فإنها تقنيًا تَخصني، صحيح؟ وسوف أعيدها في الزيارة التالية بكل تأكيد؛ فأنا لستُ سارقة. تخيَّلتُ وجه أمي، وهي تهمس لي، وتخبرني بأنني مُحقة تمامًا، وبأنَّ موظفي الخدمات الاجتماعية هؤلاء فضوليون ومتطفلون وساذجون في حماستهم لتقديم يد العون. شدَّت 'جوون مولين' الشريط المطَّاطي حول الملف، وهكذا مرَّت اللحظة التي كان يمكنني فيها أن أذكر أمر الصفحة.

سألَت: «هل ... هل هناك أي شيء آخر تودين مناقشته معي اليوم؟»

قلتُ: «لا شيء، وشكرًا لكِ»، راسمة ابتسامة عريضة بقدر ما استطعت. بدت مضطربة قليلًا، بل ربما خائفة بدرجةٍ طفيفة. شعرتُ بالإحباط، لم أكن أقصد إلَّا أن أكون لطيفة ودودة معها.

قالت: «حسنًا إذن، يبدو أنَّ هذا هو كل شيء في الوقت الراهن، يا 'إليانور'. سوف أتركك في سلام». واصلَت الحديث بينما كانت تضع الملف في حقيبة أوراقها، واتخذت نبرة اعتيادية مرحة: «ألديك أي خطط لنهاية الأسبوع؟»

قلتُ: «سوف أعودُ مريضةً في مستشفى.»

- «آه، يا للطفكِ. تلك الزيارات تبهج المريض على الدوام، أليس كذلك؟»

- «حقًا؟ لا أدري هذا، فلم أزر أي مريض من قبل قط.»
- «لكن أنتِ نفسكِ بالطبع قضيتِ وقتًا طويلًا في المستشفى.»

حدَّقت فيها بشدَّة. كان عدم التوازن بين مقدار ما يَعلمه كلانا عن الآخر مجحفًا بدرجة بالغة. لا بدَّ أن يقدم موظفو الخدمات الاجتماعية لعملائهم الجدد بيان حالة عن أنفسهم على سبيل المحاولة للتقليل من هذا، على ما أظن. فعلى كل حال، كان من حقها الاطلاع على ذلك الملف البني الضخم بلا قيد أو شرط، كتاب 'إليانور' الصادم، ما يساوي عقدين من المعلومات عن أدق التفاصيل الحميمة في حياتها. وكل ما أعرفه عنها مجرد اسمها ووظيفتها.

قلتُ: «إن كنت تعرفين هذا الأمر، فلا بدَّ إذن أن تكوني مدركةً بأن الظروف المحيطة بالأمر جعلت رجال الشرطة والممثلين القانونيين هُم الزوار المسموح لي بهم فقط.»

فتحت فمها ونظرت نحوي بذهول. ذكَّرتني برؤوس المهرجين تلك في المعارض والملاهي، التي يحاول المرء أن يرمي بكرة تنس الطاولة في داخل أفواهها المفتوحة عن آخرها من أجل الفوز بسمكة ذهبية. فتحتُ الباب لها، وراقبتُ عينيها وهي تنحرف مرة بعد أخرى باتجاه الضفدع العملاق الذي ضبطتُه ليلائمني.

قالت بشيء من التردد: «سأراكِ في غضون ستة أشهر إذن، يا 'إليانور'. أتمنى لكِ أطيب الحظ.»

أغلقتُ الباب من خلفها برفقٍ مفرط.

لم تلحظ نبتتي 'بولي'، هكذا فكرت، وهو أمرٌ غريب. المضحك أنني شعرتُ بالإهانة تقريبًا نيابةً عن 'بولي'؛ فقد كانت هنالك جالسةً في الركن طوال لقائنا، وكان من الواضح أنها أكثر شيء قد يلفت النظر في الغرفة. جميلتي 'بولي'، يسمونها بتسمية مملة هي 'نبتة الببغاء'، وأحيانًا يشارُ إليها باسم 'نبتة ببغاء الكونغو'، لكنها بالنسبة لي تسمَّى على الدوام، بكامل اسمها اللاتيني المجيد، وهو Impatiens niamniamensis. ألفظه بصوتٍ مسموع كثيرًا: 'نيامنيامينسيس'. كأنه قُبلات، الميم تضم الشفتين معًا، التواء وانثناء الحروف الساكنة، واللسان ينتأ ويبرز مع حروف النون وعند حرفي السين. لقد قطعَ أسلاف 'بولي' مسافة شاسعة منحدرين من أفريقيا، حيث تنتمي أصولهم. حسنًا، كلنا ننحدر من أفريقيا. إنها الشيء الوحيد الباقي معي من طفولتي، الكائن الحي الوحيد الذي نجا وعاش. كانت هدية عيد ميلاد، ولكنني لا أتذكَّر مَن الذي قدَّمها لي، وهو أمر غريب، فلم أكن، على كل حال، فتاةً مغمورة بالهدايا.

لقد أتت معي من غرفة نوم طفولتي، وواصلت الحياة في منازل الأسر البديلة وملاجئ الأطفال، ولا تزال ها هُنا، مثلي. لقد سهرتُ عليها، ورعيتُها، والتقطتُها من على الأرض وأعدتُ زراعتها في أصيص جديد كلَّما سقطت أو رُميتْ. إنها تحب النور، وتشعر بالعطش. فيما عدا ذلك فهي لا تتطلَّب إلَّا الحد الأدنى من الرعاية والاهتمام، وبدرجة كبير تعتني بنفسها. أتحدَّث إليها في بعض الأحيان، ولا أشعر بالخجل من الاعتراف بهذا. عندما يضغطُ عليَّ الصمتُ والوحدة ويحيطانني ويسحقانني ويثقلان عليَّ كأنهما جليد، أحتاج للتحدُّث بصوت مسموع أحيانًا، ولو فقط كدليلٍ على أنني ما زلتُ حية.

سؤال فلسفي: لو أنَّ شجرة تسقط في غابة وما مِن أحد موجود ليسمع هذا، هل يصدر عنها صوت؟ ولو أنَّ امرأة بمفردها تمامًا تتحدث بين الحين والآخر إلى نبتة أصيص، فهل معنى هذا أنها مخبولة؟ أنا على ثقة مِن أنه شيء طبيعي تمامًا أن يتحدث المرء إلى نفسه من حينٍ إلى آخر. فليس الأمر أنني أتوقَّع ردًا، أنا مدركة تمامًا أن 'بولي' نبتة منزلية.

رويتُها، ثم انشغلتُ ببعض المهام المنزلية الأخرى، بينما أفكّر مسبقًا في اللحظة التي سوف أفتح فيها جهاز اللابتوب وأتفقد ما إذا كان مطرب وسيم بعينه قد وضعَ أي معلومات جديدة على فيسبوك وتويتر، وإنستجرام. كلها نوافذ تطل على عالم العجائب. رنَّ جرس الهاتف بينما كنتُ أضع الغسيل في الغسَّالة. زائر *وأيضًا* اتصال هاتفي! إنه يوم مشهود حقًا. كان المتصل هو 'ريموند'.

قال: «لقد اتصلت على جوّال 'بوب' وشرحتُ الموقف له، وقد بحث لي عن رقم منزلك في ملفات العاملين.»

حقًا، بهذه البساطة؟ هل صارت كل معلومة تخصني معروضة في ملفات مصقولة، ومستباحة أمام أي شخص يود أن يتصفحها ويفعل بها ما يشاء؟»

قلتُ: «هذا اعتداء بالغ على خصوصيتي، دون ذِكر انتهاك قانون حماية البيانات الشخصية، سوف أتحدث إلى 'بوب' الأسبوع القادم بهذا الأمر.»

سادَ صمتٌ على الناحية الأخرى من الخط.

قلتُ: «إذن؟»

- «آه، صحيح. نعم. أنا آسف. الأمر هو .. لقد قلتِ أنكِ ستتصلين بي ولم تفعلي، وقد .. حسنًا، أنا في المستشفى الآن. وكنت أتساءل، كما تعلمين .. إن كنتِ تريدين أن تحضري أشياء الرجل المسن؟ إننا في المستشفى الغربي. و .. واسمه 'سامي توم'.»

قلتُ: «ماذا؟ كلَّا، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا، يا 'ريموند'. إنه رجل ضئيل بدين عجوز من 'جلاسجو'. لا يمكن بالمرة أن يسمَّى باسم *'سامي توم'*.» كنتُ بدأت أشعر بقلق حقيقي بشأن قدرات 'ريموند' العقلية.

«كلَّا، كلَّا يا 'إليانور'، اسمه 'سامي' كما في .... اختصار لاسم 'ساموبل'. وتوم تهجئتها تي-إتش-أوه-إم.»

قلتُ: «أوه». وساد صمتٌ آخر أطول.

«إذن ... كما قلتُ لكِ، 'سامي' في المستشفى الغربي. والزيارات تبدأ في الساعة السابعة إذا أردتِ أن تأتي.»

«قلتُ إنني سأفعل، وأنا امرأة تفي بوعودها، يا 'ريموند'. لكنَّ الوقت تأخر قليلًا الآن؛ غدًا، في أوَّل المساء، سيكون مناسبًا أكثر بالنسبة لي، إذا كان مقبولًا بالنسبة لك؟»

قال: «أكيد». صمتٌ آخر. «هل تريدين أن تعرفي كيف حاله؟»

قلتُ: «نعم، من الطبيعي». كان الرجل متحدثًا سيئًا لأبعد حد، وكان يجعل هذه المحادثة بكاملها عملًا عسيرًا بدرجة رهيبة.

«ليس بخير. إنه مستقر، لكن حالته خطيرة. فقط لكي أُعدك للأمر. لم يستعد الوعي بعد.»

سألتُ: «في تلك الحالة، لا أتخيل أنه سوف ينتفع كثيرًا بمشروب 'إرن-برو' أو بلفائف النقانق المربَّعة غدًا، صحيح؟» سمعتُ 'ريموند' يأخذ نفسًا.

«اسمعي، يا 'إليانور'، الأمر متروك لكِ تمامًا إن أردتِ أن تعوديه أو لم تريدي. إنه ليس متعجلًا على استعادة أغراضه، وأظن أنَّ عليكِ أن تتخلَّصي من أي شيء قد يَفسد. وكما قلتِ، فإنَّ هذا الإنسان المسن المسكين لن يقلي وجبة سريعة في أي وقتٍ قريب.»

قلتُ: «صحيح، تمامًا. في الحقيقة، أتخيَّل أنَّ تلك الوجبات سريعة القلي هي تحديدًا السبب وراء

ما حدث له في المقام الأوَّل.»

قال: «لا بدَّ أن أذهب الآن، يا 'إليانور'»، ووضعَ سمَّاعة الهاتف بشيءٍ من التعجل. يا للوقاحة!

كنتُ في حيرة بين أمرين؛ من ناحية، بدا أنه ما من جدوى في الانتقال إلى المستشفى لكي أرى الغريب الغائب في غيبوبته وأن أُسقطَ إلى جوار فراشه بعض المشروبات الغازية الفوَّارة. ومن الناحية الأخرى، سيكون من المثير للاهتمام أن أجرّب عيادة مريض في مستشفى، وثمَّة احتمال ضئيل على الدوام بأنه قد يستيقظ بينما أكون هناك. وقد بدا كأنه يستمتع بحواري المنفرد معه بينما كان منتظرًا وصول الإسعاف؛ حسنًا، بقدر ما يمكنني أن أخمّن، مع الاعتبار أنه كان غائبًا عن الوعي.

بينما كنتُ أتأمّل في الأمر، التقطتُ الصفحة الساقطة من الملف وقلبتها على وجهها. كانت حوافها مصفرة قليلًا، وفاحت منها تلك الروائح الخاصة بالمؤسسات الحكومية؛ رائحة معدنية مثل خزائن حفظ الملفات، ومتسخة، لمسَتها بشرة غير مغسولة لأيادي مجهولين بلا حصر. للأوراق النقدية رائحة مماثلة، كما لاحظت.

قِسم الخدمات الاجتماعية

اسم القاصر: أوليفانت، إليانور (١٢/٧/١٩٨٧)

الحاضرون: روبرت بروكلهرست (نائب رئيس قِسم الخدمات الاجتماعية، الأطفال والأُسر)؛ ريبيكا سكاتشرد (مديرة حالات القُصّر، قسم الخدمات الاجتماعية)، والسيد والسيدة ريد (الوالدان المستضيفان للحالة)

انعقدَ الاجتماع في منزل السيد والسيدة ريد، بينما كان أولادهما، بمن في ذلك إليانور أوليفانت، في المدرسة في وقت الاجتماع. انعقد الاجتماع بناءً على طلب من السيد والسيدة ريد، وقد كان هذا خارج نطاق الجلسات المنتظمة ذات المواعيد المحددة سلفًا، بغرض مناقشة قلقهما المتزايد حيال إليانور.

روت السيدة ريد أنَّ سلوك إليانور قد تدهور منذ آخر مرة تم تقييمه في اجتماع لدراسة الحالة منذ نحو أربعة أشهر. طلب السيد بروكلهرست منها أن تقدم بعض الأمثلة على ذلك، فأكَّد كلٌ من السيد والسيدة ريد ما يلي:

- تحطمت علاقة إليانور بأبنائهما الآخرين تحطمًا تامًا أو يكاد، وعلى الخصوص علاقتها بابنهما الأكبر جون؛
- أبدت إليانور عجرفة ووقاحة في تعاملها مع السيدة ريد وذلك بوتيرة يومية. عندما حاولت السيدة ريد أن تهذبها بالعقاب، على سبيل المثال بإرسالها للطابق العلوي لتبقى في الغرفة الاحتياطية حتَّى تراجع سلوكها، أصابتها حالة هستيرية، وفي بعض الأحيان، وصلت إلى حد العنف البدني؛
- تظاهرت إليانور، بين حينٍ وآخر، بالإغماء في محاولة لتجنب التهذيب بالعقاب، أو في أحوال أخرى كرد فعل على تلقيها العقاب؛
- تصاب إليانور بالذعر من الظلام، وتوقظ الأسرة ليلًا بنوبات بكاء هستيرية. تم تزويدها بمصباح ليلي صغير وكان رد فعلها بكاء عنيف وتشنجات إزاء أي اقتراح بأنَّ عليها أن تكف عن ذلك، وقد صارت الآن أكبر سنًا من أن تخشى الظلام؛
- كثيرًا ما ترفض إليانور الطعام الذي كان يقدَّم لها؛ وأصبحت في أوقات تناول الوجبات سبب نزاع على مائدة الأسرة؛
- رفضت إليانور رفضًا قاطعًا ووقحًا تقديم العون في المهام المنزلية البسيطة، من قبيل إشعال النار أو تنظيف رماد المدفأة.

قال كلٌ من السيد والسيدة ريد أنَّهما في أشد حالات القلق بشأن آثار سلوك إليانور على أبنائهما الثلاثة الآخرين (جون ١٤سنة، وإليزا ٩ سنوات، وجورجي ٧ سنوات) وفي ضوء ذلك القلق والمخاوف وكذلك ما أثيرَ سابقًا خلال اجتماعات دراسة حالة القاصر الرسمية، أبديا رغبتهما في مناقشة أفضل الاحتمالات الممكنة من أجل صالح إليانور مستقبلًا.

ومن جديد طلب السيد والسيدة ريد مزيدًا من المعلومات حول التاريخ السابق لإليانور، وقد أوضح السيد بروكلهرست أنَّ هذا غير ممكن، وفي الواقع ليس مسموحًا به.

سعت الآنسة سكاتشرد للحصول على تقرير مدرسي من مديرة مدرسة إليانور في وقت سابق على هذا الاجتماع، وقد جاء فيه أنَّ أداء 'إليانور' على ما يُرام، وأنها تحرز درجات ممتازة في جميع المواد. علَّقت مديرة المدرسة بقولها إنَّ إليانور كانت طفلة ذكية وفصيحة اللسان بدرجة استثنائية، وذات حصيلة مفردات مثيرة للإعجاب. وقد أكد معلمو فصلها أنها كانت تتسم بالهدوء

وحسن السلوك خلال الدروس، لكنها لا تشارك في المناقشات، رغم أنها كانت تنصت باهتمام. لاحظ أفراد عديدون من فريق العمل في المدرسة أنَّ إليانور كانت شديدة العزلة والانسحاب خلال أوقات الفُسحة والراحة، ولا تبدي أي تفاعل اجتماعي مع أقرانها.

بعد نقاشٍ مطوَّل، وفي ضوء المخاوف التي أبداها السيد والسيدة ريد وعادا للتأكيد عليها مرة أخرى بشأن تأثير سلوك'إليانور على أبنائهما، تمَّ الاتفاق على أن التحرُّك الأنسب سيكون هو انتقال إليانور من منزل الأسرة إلى مكانٍ آخر.

أبدى السيد والسيدة ريد رضاهما عن هذه النتيجة، وقد أبلغهما السيد بروكلهرست أن القِسم سوف يتواصل معهما في الوقت المناسب بشأن الخطوات التالية.

تعقيب على الاجتماع: في ١٢ نوفمبر ١٩٩٩، بحثت لجنة الأطفال مسألة قرار الرعاية الحكومية الإلزامية فيما يخص إليانور أوليفانت، وحضرها كلٌ من السيد بروكلهرست والآنسة سكاتشرد (مرفق محضر الجلسة).

توصلت لجنة الأطفال إلى التالي: فيما يخص سلوك إليانور العسير في هذا المنزل البديل والمنازل السابقة، فقد تقرر أن الرعاية بالاستضافة في بيئة أسرية ليست بالأمر الملائم حاليًا. وعلى هذا الأساس تم الاتفاق على ضرورة إيداعها في إحدى دور الرعاية في الوقت الراهن، وسوف تتم مراجعة قرار اللجنة بعد مرور اثني عشر شهرًا من تاريخه.

(الإجراء الموصى به: على الآنسة ر. سكاتشرد أن تتقصَّى توفر أماكن متاحة في المؤسسات المحلية وأن تبلغ كلًا من السيد والسيدة ريد بالتواريخ المتوقعة للانتقال.)

ر. سكاتشرد، ١٢/١١/٩٩

كاذبون. كاذبون، كاذبون، كاذبون.

(٧)

كانت الحافلة هادئة وجلستُ في مقعدٍ بمفردي، كانت مشتريات الرجل المُسن موضوعة في كيسي تسوُّق بجانبي. تخلَّصتُ من النقانق والجبن الأصفر، لكنني احتفظتُ بالحليب لنفسي، وقد رأيتُ أنها ليست سرقة بما أنه لن يكون قادرًا على استخدامه على أي حال. ساورني بعضُ تأنيب الضمير بسبب التخلُّص من الأغراض الأخرى القابلة للفساد. أفهمُ أنَّ بعض الأشخاص يعتبرون الإهدار خطأً، وبعد تأمل كافٍ، أميل للاتفاق معهم. لكنني نشأتُ على التفكير بطريقة مختلفة تمامًا؛ كانت ماما تقول دائمًا أنَّ النمل العامل الصغير القذر فقط هو من يشغل نفسه بسفاسف الأمور من هذا القبيل.

كانت ماما تقول إننا في بيتنا ننتمي إلى فئة الأباطرة والسلاطين وأميرات الهند، وأنَّ من واجبنا بالتالي أن نعيش حياةَ ترف وانغماس في الملذات الحسية. وقالت أنَّ كل وجبة ينبغي أن تكون وليمة أبيقورية[15] بالنسبة للحواس، وأنَّ من الأفضل للمرء أن يظلَّ جائعًا من أن يلوث فمه بأي شيء أدنى من الأطعمة المتقنة الفاتنة. أخبرتني كيف أنها تناولت توفو الفلفل المقلي في الأسواق الليلية في كاولون بهونج كونج، وأنَّ أفضل سوشي خارج اليابان يمكن العثور عليه في ساو باولو. وقالت أيضًا أن أشهى وجبة تناولتها طيلة حياتها كانت الأخطبوط المشوي على الفحم مباشرةً، وقد أكلتها عند غروب الشمس في حانة فندق بسيط على رصيف مرفأ ذات مساءٍ في أواخر فصل الصيف على جزيرة نكسوس باليونان. كانت قد رأت صيَّادًا يجلبُ الأخطبوط في ذلك الصباح، ثمَّ أخذت تشرب 'الأوزو' طوال فترة بعد الظهر بينما كان فريق العمل بالمطبخ يدقون الأخطبوط مرارًا وتكرارًا على جدار المرفأ لكي يصير لحمه الشاحب أرق وألين. لا بدَّ أن أسألها كيف هو حال الطعام حيث تُحتجَز الآن. أتشكك كثيرًا في توافر أصناف من قبيل شاي 'آبسانج سوشونج' المدخَّن وبسكويت لسان القطة الفاخر.

تذكَّرتُ حينما دُعيتُ إلى منزل إحدى زميلات الصف بعد المدرسة. أنا فقط. كانت الدعوة على تناول «الشاي»، وقد كان هذا مُربكًا في حد ذاته؛ فقد توقعتُ، على نحو لا يفارق المنطق، تقديم شاي ما بعد الظُهر، وأنَّ أمَّها قد أعدَّت لنا نوعًا من العشاء الخفيف. لم أزل أستطيع تخيل تلك الوجبة - بلونيها البرتقالي والبيج - ثلاث أصابع من سمكٍ جاهز وبرَّاق، وبِركة من الفاصوليا المطبوخة وكومة شاحبة من رقائق البطاطا المعدَّة في الفرن. لم أكن قد رأيتُ من قبل قط أيًا من تلك الأصناف، فضلًا عن تجربتها، وقد سألت ماذا كانت. في اليوم التالي أخبرَت 'دانييل ميرنز' جميعَ من في الصف، وقد ضحكوا كثيرًا وأسموه الفاصوليا العجيبة (وهو الاسم الذي لصق بي لفترة). لكنَّ ذلك لا يهم، فالمدرسة كانت تجربة قصيرة العُمر بالنسبة لي. فقد كانت هناك واقعة مع مُعلّمة ذات فضولٍ مفرط والتي اقترحَت عليَّ أن أذهب إلى ممرضة المدرسة، بعد تلك الواقعة قررت ماما أن تلك المعلّمة المزعومة هي *تقريبًا جاهلة، من الحمقى الذين لا يعرفون إلَّا لغة واحدة بالكاد، ولا بدَّ أن مؤهلها الوحيد الجدير بالاعتبار كان شهادة في الإسعافات الأوليَّة*. بعد تلك الواقعة تلقيتُ دروسي في المنزل.

في منزل 'دانييل'، قدَّمت أمها لكلٍ منَّا بدلًا من حلوى البودنج لبن زبادي من نوعية 'منش بَنش'، وقد أسقطتُ خِلسةً وعائها الفارغ في حقيبتي المدرسية حتَّى يمكنني تفحصه فيما بعد. وكَما اتضح،

كانت سلعة تجارية تتعلّق بمسلسل تليفزيوني للأطفال حول شخصيات كارتونية لقِطع من الفاكهة. وكانوا يقولون عني أنني غريبة الأطوار! كان مصدر اشمئزاز الأطفال الآخرين في المدرسة أنني لا أستطيع أن أتحدَّث عن برامج التليفزيون. لم يكن لدينا تليفزيون؛ كانت ماما تسميه الشاشة السامة، وسرطان الذكاء البشري، وهكذا فقد كنَّا إمَّا أن نقرأ وإمَّا أن نستمع إلى التسجيلات الموسيقية، وفي بعض الأحيان نلعب نرد الطاولة أو الماجونج[16] عندما تكون ماما رائقة المزاج.

اندهشت والدة 'دانييل ميرنز' إزاء عدم معرفتي التامة بالأطعمة المجمَّدة سريعة التحضير، فسألتني ما الذي كنتُ أتناوله عادةً في وقت الشاي مساء الأربعاء.

فقلت: «لا يوجد نظام ثابت.»

سألتني وهي في حيرة حقيقية: «ولكن ما نوع الأشياء التي تأكلونها، عمومًا؟»

عدَّدتُ بعضًا منها. أسباراجوس فيلوتيه [صلصة الهليون] مع بيض البط المطهي ببطء بعد وضع محتواه في الماء المغلي إلى جانب زيت البندق، بوالابايسيه [حساء السمك] مع صلصة رولي معدة في المنزل، فراخ صغيرة [عمرها أقل من ٢٨ يومًا] مطلية بالعَسل مع كسرات جذور الكرفس بطريقة 'الفوندون'، ترافلز [كمأ] طازج في موسمه، مبشور على فطر عيش الغراب ولينجويني [معكرونة شرائط] بالزبدة[17]. حدَّقت فيَّ.

قالت: «يبدو كل ذلك في غاية الـ ... بَذخ».

فقلتُ لها: «أوه، كَلَّا، في بعض الأحيان نكتفي بشيء بسيط حقًا، مثل توست العجين المخمَّر وجبن المِنشيجو الإسباني وجِيلي السفرجل.»

«حسنًا»، هكذا قالت، وهي تتبادل نظرة سريعة مع 'دانييل' الصغيرة، والتي تدلَّى فكها السفلي وهي تنظر نحوي، كاشفةً عن ملء فمها من الفاصوليا نِصف الممضوغة. لم يتكلم أيٌّ منهما. ووضعت السيدة 'ميرنز' على المائدة زجاجة فيها سائلٌ أحمر غليظ، وقد واصلت دانييل رجَّها والصب منها على كل الطعام ذي اللونين البرتقالي والبيج.

بطبيعة الحال، بعد أن صرتُ تحت الرعاية الحكومية، سرعانَ ما تعرَّفتُ على عائلة مطبخية جديدة؛ فقد كانت المُعلَّبات من ماركة 'العمة بيسي' و'القبطان بيردساي' و'العَم بِن' جميعها تُستَخدم بانتظام، ويمكنني الآن أن أميّز بسهولة بين الصلصات البُنيَّة الجاهزة من ماركة 'إتش بي' عن تلك التي من ماركة 'داديز' اعتمادًا على حاسة الشم وحدها، وكأنني خبير ذواقة في أنواع الصلصات الجاهزة. كان ذلك جانبٌ واحد فقط من بين جوانب أخرى لا حصر لها اختلفت فيها حياتي القديمة عن حياتي الجديدة. فهناك ما قبل الحريق وما بعده. ذات يوم كنتُ أتناول فطورًا مكونًا من البطيخ وجبن الفيتا وبذور الرمَّان، وفي اليوم التالي كنتُ آكل الخبز المحمص الجاهز من ماركة 'ماذرس برايد' مغطًّى بالزبد النباتي. مَهما يكن من أمر، فتلك هي القصة كَما حَكتها لي أمي.

توقَّفت الحافلة خارج المستشفى مباشرةً. كان هناك متجر في الطابق الأرضي يبيع تشكيلة متنوعة من البضائع. كنتُ أدركُ أنَّ الأمر المعتاد للغاية أن يأخذ مَن يعودُ مريضًا معه هدية له، ولكن ماذا يمكن أن أشتري؟ لم أكن أعرف لا 'سامي' ولا 'آدم' ولا غيره. بدت لي المأكولات شيئًا بلا معنى، بما أنَّ الهدف من زيارتي كان أن أحضره له أطعمته، والأغراض التي قد انتقاها بنفسه منذ فترة وجيزة للغاية. وبما أنَّه كان في غيبوبة، فقد بدا شراء مواد ليقرأها أمرًا خارج السياق بدرجةٍ ما. ورغم ذلك، فلم تكن هناك أشياء أخرى كثيرة يمكن أن تكون مناسبة. كان في المتجر مجموعة صغيرة من أدوات النظافة الشخصية، غير أنَّ ذلك بدا لي أمرًا لا يليق، كونه شخصًا غريبًا ومن الجنس الآخر، أن أقدّم له أغراضًا تتعلَّق بوظائفه الجسدية. وعلى كل حال، لم أستطع

أن أرى أنبوب معجون أسنان أو عبوة أمواس حلاقة باعتبارها هدايا قيّمة.

حاولتُ أن أتذكَّر ألطف هدية تلقيتُها على الإطلاق. باستثناء النبتة 'بولي'، لم أستطع أن أفكر في أي شيء. وبصورة مفزعة ومنذرة، خطرَ 'ديكلان' على بالي، فتاي الأوَّل والوحيد، لقد كنت على وشك النجاح في محوه من ذاكرتي تمامًا، لذلك كان من المُحزن أن يُذكّرني به شيءٌ ما. أتذكر واقعةً حينما زعمَ أنني تعمَّدتُ ألَّا أخبره بتاريخ ميلادي، بعد أن رأى بطاقة تهنئة عيد الميلاد الوحيدة التي جاءتني في سنةٍ من السنوات (وكانت من صحفي استطاع بطريقةٍ ما أن يقتفي أثري ويعرف مكاني، مع رسالة وجيزة داخل البطاقة تذكرني بأنهم سيدفعون لي مبلغًا معتبرًا من المال مقابل إجراء مقابلة صحفية معي في أي وقت، وفي أي مكان). وهكذا فقد كانت هديتا صديقي الحميم 'ديكلان' لي في عيد ميلادي الواحد والعشرين هي أنه لكمني في جانبي بطني، وركلني وأنا راقدة على الأرض حتَّى فقدتُ الوعي، وبعد ذلك ترك لي عينًا تحيطها الزرقة حينما أفقت، وذلك بتهمة «حجب المعلومات». عيد الميلاد الوحيد الآخر الذي يمكنني أن أتذكره كان الحادي عشر. وقد أهدتني فيه إحدى الأسر البديلة التي كنتُ أعيش معها في ذلك الحين سوارًا من الفضّة الخالصة، معلق به دبدوب قطني ساحر. كنتُ في غاية الامتنان على تلقي هدية، لكنني لم أضع السوار قَط. فلستُ من نوع الأشخاص المحبين للدباديب.

تساءلتُ تُرى أي نوعٍ من الهدايا قد يمنحني إياها المطرب الوسيم بمناسبة لقائنا الأوَّل، مثلًا، أو في الكريسماس. كلَّا، مَهلًا، بل في عيد الحُب، اليوم الأكثر خصوصية ورومانسية على مدار العام كله. كان سيؤلّف أغنية من أجلي، شيئًا بديعًا، ثم يعزفها ويغنيها من أجلي على جيتاره بينما أرتشف الشمبانيا المثلَّجة بدرجة مثالية. كَلَّا، لن يعزفها على جيتاره، فذلك أشد وضوحًا وسهولة ممَّا يجب. سوف يفاجئني بأنه تعلَّم... آلة الباصون[18]. نعم، سيعزف لي الآن اللحن على الباصون.

نعود الآن للأمور المملة. لأنني لم أجد أي شيء أكثر ملاءمة، اشتريتُ بعض الصحف والمجلات من أجل سامي، وقلتُ أنني أستطيع على الأقل أن أقرأ منها عليه. كانت لديهم مجموعة معقولة. من مظهره ومن محتويات أكياس مشترياته، خمَّنتُ أنَّ 'سامي' يميل إلى صحيفة مثل 'الديلي ستار' أقرب منه إلى 'الديلي تيليجراف'. اشتريتُ بضع صحف التابلويد الخفيفة، وقررت أن آخذ له مجلةً أيضًا، غير أنَّ ذلك كان أمرًا أشد صعوبة، فهناك الكثير للغاية منها. مجلة *'كوندي ناست ترافلر'*[19]، ومجلة *اليخوت والإبحار*، ومجلة *الآن!* - كيف عساي أن أعرف ماذا أختار منها؟ لم تكن لدي أي فكرة عن اهتماماته. أمعنتُ التفكير بحرص ومنطق من أجل أن أستنتج الإجابة. الشيء الوحيد الذي كنتُ أعرفه عنه بشكل مؤكد أنه كان رجلًا مسنًا، وأي شيء عدا ذلك سيكون مجرد تخمينات وظنون. هكذا تحركت بناءً على قانون الاحتمالات، وقفتُ على أصابع قدميَّ وتناولت نسخة من مجلة 'رازل'[20]. تم إنجاز المهمة.

كان الجو حارًا للغاية في المستشفى والأرضية تصدر صريرًا حادًا تحت القدمين. أمام العنبر كانت هناك آنية للتزويد بجِيل لتعقيم الأيدي، ولافتة صفراء كبيرة فوقه تقول *لا تشرب*. هل حقًا يمكن لبعض الأشخاص أن يشربوا معقّم الأيدي؟ أفترض أنَّهم يفعلون بالتأكيد - ومن ثم وُضعت اللافتة. جزءٌ مِني، جزءٌ صغير للغاية، فكَّر بسرعة في أن أغمس رأسي وأن أتذوَّق قطرةً من المعقم، لا لشيءٍ إلَّا لأنني أُمرتُ ألَّا أفعل. قلتُ لنفسي كلَّا، يا 'إليانور'، تجاوزي ميولك المتمردة تلك، واكتفي بالشاي والقهوة والفودكا.

ساروني القلق بشأن استخدام سائل التعقيم على يديَّ، خوفًا من أنه قد يجعل الأكزيما تلتهب، لكنني فعلت رغم ذلك. فالعناية بالنظافة الشخصية أمرٌ في غاية الأهمية - أرجو ألَّا أكون ناقلةً

للعدوى. كان العنبر كبيرًا، فيه صفان طويلان من الأسرّة، بواقع صف حذاء كل جدار. كان جميع النزلاء متشابهين بحيث لا يمكن تمييز أحدهم عن الآخر: رجال مسنون بلا شعر وبلا أسنان، وكانوا إمَّا نيام أو يحدقون أمامهم بنظرة خاوية، وقد تدلت أذقانهم للأمام. رأيتُ 'سامي' هنالك في نهاية الصف الذي على يسار الداخل، ميزته فقط لأنه كان بدينًا، فجميع الآخرين كانوا مجرد عظام مكسوة بجلدٍ شاحب حافل بالثنايا. جلستُ على مقعد من الفينيل النظيف إلى جانب فراشه. لم يكن هناك أي أثر لوجود 'ريموند'.

كانت عينا 'سامي' مغمضتين غير أنه لم يكن في غيبوبة بكل وضوح. فلو أنه كان كذلك لوضعوه في عنبر خاص، وأوصلوا جسده بالأجهزة، أليس كذلك؟ تساءلتُ لماذا كذب 'ريموند' عليَّ بهذا الشأن. يمكنني أن أعرف من الطريقة المعتادة التي يرتفع بها صدر 'سامي' وينخفض أنه كان نائمًا. قررتُ ألَّا أقرأ له، لعدم رغبتي في إيقاظه، وهكذا وضعت مواد القراءة فوق الخزانة الصغيرة بجانب فراشه. فتحت الحُجيرة في الأمام، وقد فكَّرتُ أنها أفضل موضع يمكنني أن أضع فيه أكياس المشتريات. كانت الخزانة خاوية إلَّا مِن محفظة وميدالية مفاتيح. تساءلتُ إن كان عليَّ أن أختلس نظرة في محفظة 'سامي' لأرى إن كانت تحتوي أي إشارات تدل على شخصيته، وكنتُ على وشك أن أمد يدي وأتناولها عندما سمعتُ أحدهم يتنحنح خلفي، دلَّ صوته الممتلئ بالبلغم على أنه مدخن.

قال 'ريموند': «'إليانور'. لقد أتيتِ». وشدَّ مقعدًا على الجانب الآخر من الفراش. حدَّقتُ فيه.

«لماذا كذبتَ، يا 'ريموند'؟ إن 'سامي' ليس في غيبوبة. إنه نائم وحسب، وهذا ليس نفس الشيء بالمرة.»

ضحكَ 'ريموند'.

«نعم، لكن هناك أخبار عظيمة، يا 'إليانور'. لقد أفاقَ منذ ساعتين أو نحوهما. من الواضح أنَّه أصيبَ بارتجاج شديد وقد كُسرَ فخذه. لكنهم ضبطوه له أمس - وهو متعبٌ للغاية من التخدير الخاص بالعملية، لكنهم يقولون إنه سيكون على ما يرام.» أومأتُ، ووقفتُ فجأة.

قلتُ: «لا بدَّ أن نتركه في سلام إذن.»

لأقول الصدق، كنتُ متلهفة على الخروج من عنبر المَرضى هذا، فقد كان جوه شديد الحرارة، وكان أيضًا مألوفًا لي للغاية - تلك الأغطية ذات المربعات البارزة، والروائح الكيمائية والبشرية، والأسطح الصلبة لهياكل الأسرّة المعدنية والمقاعد البلاستيكية. كانت يداي توخزان قليلًا من الجيل الذي تسرَّب إلى الشقوق في بشرتي. سرنا معًا نحو المصعد وركبناه صامتَين. انفتح الباب على الطابق الأرضي وشعرتُ كأنَّ ساقيَّ أخذتا تسرعان الخطى تلقائيًا نحو الباب الأمامي.

كان واحدًا من تلك الأمسيات الجميلة لمنتصف الصيف - الساعة الثامنة مساءً، ولا يزال الجو مفعمًا بالحرارة والضوء الهادئ. لم يبد أن السماء ستظلم حتَّى الحادية عشر مساءً تقريبًا. خلع 'ريموند' سترته، وكشف عن تيشيرت سخيف آخر. كان هذا التيشيرت أصفر اللون ومرسوم عليه من الأمام ديكان أبيضان بصورة كارتونية، وعبارة تقول «لوس بولوس هيرمانوس»[21]. كلام فارغ. نظرَ إلى ساعة يده.

- «سوف أشتري سريعًا بعض الطعام والشراب ثم أتجه لبيت صديقي 'آندي'. يجتمع قليلٌ منا هناك في مساء أيام الأحد لنتسلَّى، ونشعل النار في جهاز البلاي ستيشن من الحماس. ندخن ونشرب قليلًا من الجعة.»

قلتُ: «يبدو هذا ممتعًا للغاية.»
سألَ: «وماذا عنكِ؟»
كنتُ ذاهبةً للبيت، بطبيعة الحال، لأشاهد برنامجًا تليفزيونيًا أو أقرأ كتابًا. ماذا هناك غير ذلك يمكنني عمله؟
قلتُ: «سوف أعود إلى شقتي، أظن أنَّه قد يُعرَض فيلم وثائقي عن تنانين الكومودو[22] على قناة 'بي بي سي ٤' في وقتٍ لاحق هذا المساء.»
نظرَ إلى ساعة يده مرةً أخرى، ثم للأعلى نحو السماء الزرقاء اللانهائية. مرَّت بيننا لحظةٌ من الصمت ثمَّ شرع طائر شحرور في التباهي بتغريده، كانت أغنيته شديدة الروعة حتَّى شارفت أن تكون شيئًا سوقيًا مبتذلًا. أنصتنا إليه كلانا، وحينما ابتسمتُ 'لريموند'، ردَّ على ابتسامتي بمثلها.
- «اسمعي، إنها ليلة ألطف من أن تبقي فيها بالبيت بمفردك. ما رأيك في أن نأخذ كأس جعة على السريع في مكانٍ ما؟ سيكون عليَّ أن أنطلق بعد ساعةٍ أو نحوها قبل أن تُغلَق متاجر الكحوليات، ولكن ...»
كان هذا يتطلّب تفكيرًا متأنيًا. لم أجلس في حانةٍ منذ سنوات عديدة، و'ريموند' أبعد ما يكون عن الصُحبة الخلَّابة. بالرغم من كل شيء، توصَّلتُ بسرعة أنَّها ستكون تجربة مفيدة لسببين. أولًا، سيكون تمرينًا جيدًا، يعني، إذا مضت الأمور على ما يُرام، فالأرجح أنَّ 'جوني لوموند' سوف يرغب في اصطحابي للشرب في مكانٍ عام خلال أحد مواعيدنا الغرامية، وهكذا لا بدَّ لي حقًا أن أكتسب ألفةً مسبقًا مع تلك الأجواء عمومًا والسلوكيات اللازمة في مثل تلك الأماكن. ثانيًا، كان 'ريموند' خبير تكنولوجيا ومعلومات -كما يُفترض- وأنا بحاجة لبعض النصائح. وقد أتكلَّف ثمنًا باهظًا مقابل الحصول على مثل تلك النصائح عبر قنوات رسمية، لكن بوسعي أن أستشيره الليلة، مجانًا تمامًا. بعد أن تمَّ تقدير كل الاعتبارات، كان لا بأس من تلبية مطلب 'ريموند' بلا تباطؤ. كان يرنو على مسافة متوسطة، ولاحظتُ أنه قد أشعلَ سيجارة ودخَّن نصفها تقريبًا بينما كنتُ أقلّب الأمر.
قلتُ مومئة برأسي: «موافقة، يا 'ريموند'. سأذهب معك إلى الحانة لنتناول مشروب.»
فقال: «روعة!»
وصلنا إلى أحد البارات على مسافة خمس دقائق سيرًا على الأقدام من المستشفى في طريقٍ مزدحم. كانت إحدى الموائد الموزَّعة في الخارج أمامَ المكان شاغرة. السطح المعدني للمائدة غطَّته بُقَع دائرية وبدت إحدى سيقانها غير راسخة، ولكن 'ريموند' بدا مسرورًا.
قال: «مقاعد بالخارج!»، وألقى بنفسه جالسًا في سعادة وعلَّق سترته فوق ظهر مقعده. «والآن إذن، سوف أدخل إلى البار، فماذا أجلبُ لكِ، يا 'إليانور'؟»
شعرتُ بخفقانٍ من القلق في معدتي. من ناحية، فإنني بجلوسنا بالخارج هنا لن تسنح لي الفرصة لرؤية أجواء الحانة من الداخل وأن ألاحظ كيف تجري الأمور هنالك. من ناحية أخرى، لم أعرف ماذا أطلب. ماذا يشرب الناس العاديون في الأماكن العامة؟ قررت أن أمسك بزمام الموقف.
- «'ريموند'، سوف أذهب أنا إلى البار. أنا أصر على ذلك. ماذا تريدني أن أطلب لك؟» حاول أن يجادل في الأمر لكنني تشبثت بموقفي حتَّى رضخ في نهاية الأمر، رغم أنه بدا متضايقًا. ببساطة لا يمكنني أن أستوعب لماذا يثير كل تلك الضجة بهذا الشأن.
«حسنًا إذن، أظن أنني سآخذ باينت[23] من جعة 'جينيس'. ولكن أتمنى أن تتركينني أذهب أنا، يا 'إليانور'.»

وضعتُ كلتا يديَّ على المائدة وانحنيتُ للأمام حتَّى صار وجهي شديد القرب من وجهه.
- «'ريموند'، سوف أشتري المشروبات. إنَّ هذا أمر هام بالنسبة لي، لأسبابٍ لا أود أن أصرّح لكَ بها.»
رفع منكبيه بسرعة، ثم أومأ برأسه، وقمتُ متجهةً نحو الباب.
بدا المكان بالداخل معتمًا للغاية بعد ترك ضوء الشمس بالخارج، وكان حافلًا بالضجيج أيضًا. كانت هناك موسيقى من نوعٍ غريب عليَّ تنبض بقوة من مضخمَّات صوت كبيرة. لم يكن المكان مزدحمًا، وكنتُ الزبونة الوحيدة على نضد البار. كان هناك شابٌ وشابة يقومان على الخدمة؛ أو هذا ما يُفترض بهما، لأنهما كانا مستغرقين في الحديث معًا، وكل لحظةٍ بعد أخرى كانت تقهقه مثل بلهاء وتبعد بهزةٍ من رأسها شعرها المصبوغ باللون الأصفر، وكان يقرص ذراعها في ملاعبة غير عنيفة ويضحك بصوتٍ عال لدرجة مفرطة، سلوك زائف بوضوح. من الرهيب للغاية مراقبة طقوس التزاوج بين البشر، ففي مملكة الحيوان على الأقل قد يتمتَّع المرء بين حينٍ وآخر بشيءٍ جميل مثل ريش زاهي الألوان أو استعراض لقوى العنف جدير بالمشاهدة. أمَّا نَثْر الشعر بعيدًا والمداعبات المتظاهرة بالعنف فهي لا تفي بأدنى المعايير.
أصابني الضجر فطرقتُ بشدة، ثلاث طرقات، على النضد الخشبي للبار، كما لو كنت أطرق بابًا موصدًا. تطلَّع كلاهما نحوي. طلبت قدح 'جينيس' كبير، فشرع الصبي يملؤه من صنبور. قال: «أي شيء آخر؟». كنت لا أزال متعثرة في الاختيار. فكَّرتُ أنَّ جزءًا من طبيعة عمله هو مساعدة الزبائن في مثل تلك المواقف.
سألته: «ماذا تنصحني أن أشرب؟» رفعَ بصره عن السائل الأسود المتقاطر في الكأس، وقال: «هه؟»
- «قلتُ، ماذا تنصحني أن أشرب؟ أنا لا أشرب في أماكن عامة، في الأغلب الأعم.»
نظر عن يمينه وعن يساره، كما لو كان يتوقّع وجود شخص آخر واقفًا هناك. مرَّ صمتٌ طويل.
- «إممم، حسنًا ... شراب 'الماجنرز'[24] رائج للغاية، ممكن مع الثلج؟ إنه مشروب صيفي لطيف.»
- «لا بأس، شكرًا لك. في تلك الحال، سآخذ زجاجة 'ماجنرز' من فضلك، بناءً على توصيتك.» فتح زجاجةً بُنية ووضعها على النضد. وضع بعض الثلج في كوب طويل ووضعه بجانب الزجاجة.
قلتُ: «ما هذا؟»
- «الماجنرز.»
- «ولماذا الكوب الفارغ؟»
قال: «من أجل الماجنرز.»
قلتُ وأنا مذهولة: «هل تتوقع مني أن أصب المشروب من الزجاجة إلى الكأس؟ أليس من *اختصاص عملك* أن تفعل ذلك؟» حدَّق فيَّ ثم صبَّ ببطء السائل البني على الثلج ووضع على النضد بشدة للغاية؛ في الواقع، لقد رطمَ الزجاج عمليًا على النضد.
قال، بمنتهى الغِلظة: «ثمانية جنيهات وسبعون بنسًا.»
أعطيته ورقة بخمسة جنيهات وأربعة عملات فئة الجنيه، ثم أخذت منه الباقي ووضعته بحرص في محفظة نقودي.
سألت: «ألديكِ بالمصادفة صينية؟» ألقى على النضد بصينية قذرة ولزجة وراح ينظر لي بينما

أضع عليها المشروبات قبل أن يدير لي ظهره. ثَمَّة نُدرة في الأخلاق الحميدة وآداب السلوك واضحة كالشمس في القطاع المسمَّى بقطاع الخدمات!

شكرني 'ريموند' على المشروب وأخذ جرعة كبيرة منه. كان 'الماجنرز' لطيفًا جدًا، وقد راجعتُ رأيي في الساقي الشاب. نعم، صحيح أن مهارات خدمة العملاء لديه سيئة للغاية، لكنه على الأقل عرف كيف ينصحني بالمشروب المناسب. وبلا مقدمات، شرعَ 'ريموند' يحكي لي عن أمه، وكيف أنه سيذهب لزيارتها غدًا، وهو ما يفعله كل يوم أحد. كانت أرملة وحالتها الصحية ليست على ما يرام. كان لديها العديد من القطط، وكان يساعدها في رعاية قططها. وهكذا راح يطن ويطن ويطن. قاطعتُ حديثه.

قلتُ: «'ريموند'، أيمكنني أن أطلب منك شيئًا؟»

رشف من كأسه. «أكيد.»

«إذا كنتُ سأشتري 'هاتفًا ذكيًا'، فأي نوع تنصحني به؟ لقد كنت أقارن بين المزايا النسبية للآيفون مقارنةً بأجهزة الآندرويد، وأقدّر أن أحصل على وجهة نظر شخص خبير بتلك المسائل من ناحية القيمة مقابل السعر، إن جاز التعبير.»

بدا متفاجئًا بسؤالي على نحوٍ ما، وهو ما كان غريبًا، بما أنه يعمل في مجال تكنولوجيا المعلومات وبالتالي لا بدَّ أنه يُسأل مثل تلك الأسئلة التقنية كثيرًا.

- «نعم، حسنًا...» وهز رأسه بطريقة تشبه قليلًا طريقة الكلاب، كما لو كان يصفي أفكاره. «.... ذلك يتوقَّف على عوامل كثيرة.» وأخذ يشرح تلك العوامل شرحًا مطوَّلًا - دون أن يصل إلى أي نتيجة مفيدة - وعندئذٍ نظر إلى ساعة يده.

- «سُحقًا! من الأفضل لي أن أطير - عليَّ أن أشتري بعض الجعة قبل أن أذهب إلى بيت 'آندي'، والساعة توشك على العاشرة.» أتى على ما تبقى في كأسه دفعة واحدة، ونهض واقفًا وارتدى سترته، رغم أنَّ الجو لم يكن باردًا ولو قليلًا.

- «لن تجدي مشقة في الرجوع للمنزل يا 'إليانور'، صحيح؟»

- «أووه، نعم، سوف أتمشَّى، إنه مساء بديع جدًا، ولم تظلم بعد.»

- «اتفقنا إذن، سوف أراكِ يوم الإثنين. استمتعي ببقية العطلة الأسبوعية». واستدار ليذهب.

فقلت له: «'ريموند'، مهلًا!» استدار نحوي، وهو يبتسم. «ماذا هناك، يا 'إليانور'؟»

«شراب 'الجينيس'، يا 'ريموند'. ثمنه ثلاثة جنيهات ونصف.» حدَّق فيّ. قلتُ: «لا بأس، لا داعي للعجلة. يمكنكَ أن تعطيني إياها يوم الإثنين، إذا كان ذلك أسهل.»

أحصى أربعة جنيهات عملات معدنية ووضعها على المائدة، وقال: «احتفظي بالباقي»، وذهبَ. مُبذر! وضعتُ النقود في محفظتي، وأنهيتُ شراب 'الماجنرز'. وأحسستُ بجرأة تسري في نفسي من جرّاء التفاح المخمَّر، فقررتُ أن آخذ جولة سير من طريق غير مباشر إلى البيت. نعم، ولمَ لا؟ حانَ وقت الطلعات الاستكشافية.

(٨)

لا يوجد شيء اسمه الجحيم، بالطبع، ولكن إذا كان هناك شيء كهذا، فلا بدَّ إذن أن شريط الصوت المصاحب للصراخ والتعذيب بالمذراة والنواح الجهنمي للأرواح الملعونة، فسيكون مزيجًا متكررًا من «ألحان العروض المسرحية الموسيقية» الملحمية. سوف تُعزَف الأعمال الكاملة لكلٍ من 'لويد ويبر' و'رايس'[25]، من دون فواصل استراحة، على منصة مسرح بداخل هاوية النيران المتقدة، وجمهور الآثمين الخاطئين سوف يُرغمون على المشاهدة -والاستماع- إلى الأبد. أمَّا الأشد سوءًا وإثمًا من بينهم، مثل المتحرشين بالأطفال والطُغاة القتلة، فسيكون عليهم أن يعزفوا بأنفسهم.

باستثناء الأعمال الرائعة للسيد لوموند تحديدًا، فلم أجد بَعد نوعًا من الموسيقى يُطربني؛ فهي كلها بالأساس فيزياء مسموعة، موجات وجزئيات منشَّطة، وأنا شأني شأن أغلب الأشخاص العاقلين لا أكترث بالفيزياء. وبالتالي فقد كان أمرًا عجيبًا ومفاجئًا للغاية عندما وجدتُ نفسي أترنم بلحن من المسرحية الموسيقية *أوليفر*'! أضفتُ علامة التعجُّب في ذهني، والتي كانت في موضعها الملائم، للمرة الأولى على الإطلاق. *من سيشتري هذا المساء البديع؟* [26] مَن يكون بحق؟

إحدى الأسر البديلة التي أقمتُ لديها كانت تملك مكتبة لاستعارة شرائط فيديو المسرحيات الموسيقية؛ حيث اعتدنا في الإجازات الأسبوعية أن نستمع إليها بانتظام، وبالتالي، ورغم أنني أتمنى العكس بكل حماس، فإنني مُلمة للغاية بأعمال 'ليونيل برات' و'رودجرز' و'هامسترين' وغيرهم. ومجرَّد معرفتي بأنني *هُنا في الشارع الذي يعيش فيه* منحتني شعورًا غريبًا، مرتجفًا ومضطربًا، وعلى شفا النشوة العارمة. أكاد أفهم ما الذي دفعَ ذلك المهرج بمعطف الفروك مشقوق الذيل في مسرحية *سيدتي الجميلة* أن يشعر بالرغبة في الصراخ لفرط نشوته عندما وجدَ نفسه أمام نافذة 'أودري هيبورن'.

لم يكن من الصعب اكتشاف أين كان يعيش الفنان. كان قد نشر صورة لمشهد غروبٍ ساحر على موقع تويتر:

@johnnieLrocks

المنظر من نافذتي: كم أنا محظوظ

#الصيف_في_المدينة #سعيد_الحظ

كانت تُظهر أسقف المباني والأشجار والسماء، ولكن كان هناك أيضًا حانة على الناصية في الصورة، في آخر الشارع تمامًا، وكان اسمها مرئيًا بكل وضوح. وقد عثرتُ عليها في غضون ثوانٍ، بفضل موقع جوجل.

كان الشارع، مثل غالبية هذا الجزء من المدينة، يتألَّف من بنايات شُقق سَكنية، وكان لها جميعًا بابٌ أمامي رئيسي مؤمَّن، وعلى الجدار الخارجي لها أزرار تنبيه بأسماء السكَّان، زر لكل شقة في داخل المبنى. كان هذا هو الشارع الصحيح، فمِن أي الجانبين أبدأ بحثي؟ الأرقام الزوجية، هكذا قررت، فقد كان رجلًا من النوع المتوازن كالأرقام الزوجية، وليس غريبًا كالأرقام الفردية. كان هناك لغزٌ وعليَّ أن أحلَّه. رُحتُ أدندن بينما أعمل على حل اللغز، ولم أستطع أن أتذكَّر متى كانت آخر مرة شعرتُ فيها بمثل هذا - خفيفةً، متألقة، سريعة. ظننتُ أنَّ هذا قد يكون الشعور بالسعادة.

كان أمرًا ساحرًا أن أرى كل تلك الأسماء المختلفة على أزرار أجراس التنبيه، والطريقة المتبعة

في عَرض الأسماء. كان البعض قد كتب الاسم بقلم عادي كيفما اتفق على ورقة لاصقة ووضعه بلا اعتناء فوق الزر. بينما حرص البعض الآخر على كتابة أسمائهم من خلال الكمبيوتر وبحروفٍ كبيرة وغليظة الطباعة، وطبعوها ولصقوها بثلاث طبقات من شريطٍ لاصق شفَّاف. تركَ قليلون أزرار تنبيههم خاوية، أو أخفقوا في إعادة ضبط أسمائهم بعد أن أذابت عوامل الجو الحبر، وجعلت الكتابة غير مقروءة. تمنيتُ حقًا ألَّا يكون أحد هؤلاء، ولكنني احتفظت بقائمة بمواقعهم في دفتري الصغير، على سبيل الاحتياط. إذا استبعدتُ جميع الأسماء المقروءة من غير أن أعثر على اسمه، فسيكون عليَّ عندئذٍ أن أعاود مراجعة قائمة الأزرار الخاوية مجددًا.

آه، لكن كيف ساورني الشك فيه؟ في منتصف الشارع تمامًا، أي أكثر الأرقام الزوجية توازنًا، ها هو أمامي: حضرة السيد 'جيه. لوموند'. وقفتُ أمام الزر، أتأمَّل الحروف. كانت مكتوبة على نسق منتظم ولكن بطابع فني بحبرٍ أسود تقليدي على ورق سميك أبيض. كان هذا ملائمًا له للغاية.

بدا لي من المُستَبعد أن يمكث في منزله ليلة الأحد، وهو الرجل الوسيم المشهور والعالَم كله تحت قدميه، وهكذا، ولمجرد أن أتبين ذلك الشعور، لمستُ زر شقته بمنتهى الرفق بطرف سبابتي. صدر صوت طقطقة خفيفة، ثم صوت رجل يتحدث. جفلتُ على نحوٍ ما من المفاجأة، على أقل تقدير.

قال مرة أخرى: «ألوه؟»

صوتٌ عميق، واضح اللفظ ومضبوط النبرة. عَسلٌ ودُخان، مخمل وفضَّة. وبسرعة تفحصت قائمة الأسماء وانتقيتُ اسم ساكنٍ آخر عشوائيًا.

قلتُ: «خدمة توصيل البيتزا ... منزل 'ماكفادين'؟»، وسمعته يتنهَّد.

«إنهم في الطابق العلوي،» هكذا قالَ، وأغلق السمّاعة. سمعتُ صوت أزيز الباب وفُتحَ مطقطقًا. من غير أن أتريث للتفكير أكثر ممَّا يجب بشأن الأمر، تقدَّمت ودخلت.

كان الفنان يسكن في الطابق الأوَّل بعد السلَّم، في شقَّة على الجانب الأيمن. فوق الجَرس عُلّقت لافتة بالاسم - صغيرة نحاسية وغير متكلّفة. وقفت وأصختُ السمع. لم أستطع أن أسمع شيئًا يصدر من الداخل، فقط طنين مصباح نور الدَرج وأصوات خافتة من الشارع بالأسفل. كان هناك صوت جهاز تليفزيون ينبعث غير واضح من الطابق العلوي. أخرجتُ دفتر أوراقي ونزعتُ منه صفحة فارغة، ووضعتُها فوق لافتة اسمه وتناولت قلمًا رصاصًا، وبدأتُ أظلّلها لأنسخها على الورقة. ما هي إلَّا دقائق، أصبح لديَّ صورة طبق الأصل مذهلة للّافتة الصغيرة، فوضعتُها بكل حرص في حقيبتي، بين صفحات دفتري. كانت الأبواب الخارجية مفتوحة، أمَّا بابه الداخلي، المصمم على الطراز الفيكتوري التقليدي من خشب الماهوجني والزجاج المعتم المنحوت، فقد كان مُغلقًا كأنه يُغوي ويغيظ في الآن نفسه.

وقفتُ قريبًا بقدر ما جرؤت. لم أستطع أن أسمع أي شيء من الداخل، ولم تكن هناك أي حركة مرئية. بالكاد استطعتُ أن أميّز شكل خزانة للكُتب، ولوحة زيتية. إنه رجلٌ مثقف. كَم مِن الأشياء مشترك بيننا!

تجمَّدتُ في موضعي. وحينذاك هذا هو: أصابع ناعمة على معدن متذبذب، ونغمةٌ تلألأت مشعةً في الهواء، غائمة وضبابية، مثل نورٍ منبعث من نجمٍ هَرِم للغاية. ثم صوت بشري: دافئ وخفيض ورقيق، صوتٌ يلقي بتعويذة سحرية، يخدر الثعابين فترقص، صوتٌ يرسم مسار الأحلام. لم يكن بوسعي إلَّا أن ألتفت نحوه وأميل مقتربةً منه. التصقتُ بالزجاج. كان يؤلّف أغنية، يبدعها من لا شيء - الكلمات، الموسيقى، *المشاعر*. أي امتياز نادر حظيتُ به، أن تسنح لي الفرصة لاستراق السمع على لحظة الخلق ذاتها! كان غناؤه سلسًا وعفويًا، 'أورفيوسي'[27] الوسيم. يا لصوته. يا

لصوته!

أملتُ رأسي للوراء وأغمضتُ عينيَّ. تخيلتُ صورةَ سماء، كانت سماءً داكنة الزرقة، ناعمة وكثيفة كأنها فِراء. وعبرَ امتداد الليل وفيما وراءه، في أعماقه المخملية، كان النور موزعًا متناثرًا، يكفي لألف ظلام. وتكشَّفَت طرزٌ وأشكال؛ وراحت العين، وهي في دوارٍ بديع، تستجلي حلقات محارةٍ ولآلئ مُحطَّمة، آلهةً ووحوشًا ونباتات. ورغم أننا كنا نقف ثابتين، كنَّا ندور مع ذلك، وبينما ندور نتحرَّك على محيط دائرة هائلة، حول الشمس مرةً بعد أخرى، وآه من قوة الدَفع المدوّخة لهذا ...

توقفت الموسيقى وانبعثت فجأة حركة مُغبَّشة الصورة. تراجعتُ، وأسرعتُ بالصعود، كان قلبي يخفق بشدة. لا شيء. وقفتُ على بَسطة الدَرج في الطابق العلوي وانتظرت بضع دقائق. لا شيء.

سرتُ بهدوء على أصابع قدميَّ ووضعتُ نفسي أمام بابه مرةً أخرى. وبدأت الموسيقى تنبعث مرةً أخرى، لكنني لم أشأ أن أزعجه. فعلى كل حال، لم أذهب إلى هناك إلَّا لأرى أين يعيش ... ولم يكن هناك ضرر من إلقاء نظرة. تمَّ إنجاز المهمة.

كان تصرفًا يتسم بالجنون المسرف، ولكن ما أن عدت للشارع، أشرتُ لسيارة أجرة سوداء لتقلني إلى البيت. لقد امتدَّ المساء وتباطأ، لكنَّ الآن كان الليل قد اكتحل، ولم أكترث لأن أعودَ في سيارة أجرة. فكل الأشياء السيئة تجري في الظلام. قدَّرتُ أن التاكسي على الأرجح سوف يكلّفني في حدود ستة جنيهات، لكن لم يكن أمامي خيار آخر. وضعتُ حزام الأمان وأنزلت الحاجز الزجاجي الفاصل بيني وبين السائق. فلا رغبة لدي في الاستماع إلى آرائه حول كرة القدم أو مجلس المدينة أو أي موضوعٍ آخر. فلم يكن في عقلي إلَّا شيء واحد وحيد، أو بمزيدٍ من الدقة، شخص واحد وحيد.

بعد ساعةٍ أو اثنتين أدركت أنني لن يكون بمقدوري النوم بعد مغامرتي السابقة. أضأتُ النور ونظرتُ نحو رداء نومي. كان لديَّ اثنان من نفس النوع، بما يتيح لي أن أبدّل بينهما عند الغسيل. كانا متطابقين تمامًا، فكلاهما يبلغ طوله كاحلي وبفتحة رقبة عالية، ومصنوع من قماشٍ قطني ناعم ودافئ. بلون ليموني فاتح (تذكرني درجة اللون بالبونبون الذي يتفجَّر في الفم). كانت أمي وأنا صغيرة، وعلى سبيل المكافأة بشيءٍ لذيذ المذاق، تدس في فمي زيتونًا محشوًا بالفلفل الأحمر الحلو، أو بين الحين والآخر، سمك أنشوجة زيتي من عُلبة على شكل كَفن بلونين أحمر وأصفر. لَطالما كانت تؤكّد لي أنَّ أصحاب الأذواق المرهفة في الطعام يفضّلون النكهات المالحة، وأنَّ الأطعمة المحلّاه الرخيصة هي المسؤولة عن تدمير الفقراء (وأسنانهم). كانت أسنان أمي على الدوام حادة للغاية، وبيضاء للغاية.

كانت تقول إن الحلوى الوحيدة المقبول تناولها كأطعمة لذيذة هي الشوكولاتة البلجيكية (أمَّا الأنواع التجارية مثل 'نيوهاوس'، nom de dieu [يا ربّي]! فلا يشتري تلك الأصداف المقرفة من الشوكولاتة إلَّا السُيَّاح) إلى جانب التمر العربي المجفف اللحيم من السوق التونسي، وكلاهما كان من العسير الحصول عليهما في السوبر ماركت المحلي. مرَّ علينا وقتٌ، وكان ذلك قبل ... الحادثة ... بفترة قصيرة ... لم تكن تشتري فيه البقالة ولوازم الطهي إلَّا من متجر 'فورتنَم' العريق. وأتذكَّر أنَّها في تلك الفترة نفسها كانت ترسل رسائل منتظمة إلى شركة 'فوشون' الفرنسية للأغذية حول ما اعتبرته عيوب صناعة تنتقص من جودة confiture de cerises [مربَّى الكرز] الخاصة بهم. أتذكَّر طوابع البريد الحمراء الجميلة على مظاريف الخطابات الآتية من باريس: Liberté, Egalité, Fraternité [*حرية، مساواة، إخاء*]. لم يكن هذا الشعار معبرًا تمامَ التعبير عن عقيدة

أمي.

طويتُ وسادتي نصفين لتسندني إذ جلستُ في الفراش. لا يزال النوم يبدو بعيدًا للغاية، وكنتُ في حاجة لشيء يهدئني. مددتُ يدي في الفجوة ما بين المراتب والجدار وأخرجت صديقتي المخلصة، كانت حواف الكتاب مثنية وناعمة بعد سنواتٍ من الإمساك به. *'جين إير'*. بوسعي أن أفتح الرواية على أي صفحة وأن أعرف في الحال أين كنتُ في مسار القصة، ويمكنني تقريبًا أن أتخيَّل الجملة التالية قبل أن أبلغها. كانت طبعة قديمة من كلاسيكيات دار 'بنجوين'، وكانت صورة الآنسة 'برونتي' تزين غلافها. ورَدَ في الصفحة الداخلية في مستهل الكتاب: *مدرسة الأحد في كنيسة سانت أوستاش الأبرشية، مقدَّمة إلى 'إليانور أوليفانت' من أجل التزامها التام في الحضور، ١٩٩٨*. لقد نشأتُ نشأة مَسكونية للغاية [منفتحة على جميع الطوائف المسيحية]، فبعد وضع كل شيء في الاعتبار، نزلتُ في استضافة أسر بديلة تنتمي إلى الكنيسة المشيخية، وأخرى إنجليكية، وكاثوليكية، وميثودية، وطائفة الكويكرز، إلى جانب بضعة أفراد ممّن لن يعترفوا بوجود الرب حتَّى لو أشار نحوهم بالإصبع الكهربائي في لوحة 'مايكل آنجلو'. استسلمتُ لجميع محاولات التثقيف الروحي بانعدام الرضا نفسه. كانت مدرسة الأحد، أو ما يقابلها، على الأقل تتيح لي فرصة الخروج من المنزل الذي كنتُ أقيم فيه أيًا كان، وأحيانًا كانوا يقدمون لنا الشطائر، وفي أحيان أندر، توفر رفقة مقبولة.

فتحتُ الكتاب عشوائيًا، على طريقة ألعاب البَخت. وانفتحَ على مشهدٍ محوري، ذلك الذي تلتقي فيه 'جين' بالسيد 'روتشستر' للمرة الأولى، حينما يجفل حصانه في الغابة فيتسبب في سقوطه. يحضرُ في هذا المشهد 'بايلوت' أيضًا، كلب الصيد السلوقي الجميل ذو العينين المُترعتين بالعاطفة. لو أنَّ في هذا الكتاب عيب واحد فقط فإنه عدم ذكر 'بايلوت' بما فيه الكفاية. لا يشبع المرء من الحديث عن الكلاب في كتابٍ أبدًا.

'جين إير'. الطفلة الغريبة، التي يصعب أن تُحَب. طفلة وحيدة، وحيدة للغاية. تُركت وشأنها في مواجهة قدرٍ كبير من الألم في مثل هذه السن الصغيرة - في أعقاب موت وغياب الأحباب. إنه السيد 'روتشستر' الذي يموت محترقًا في النهاية. أعرف كيف تكون *تلك* المشاعر. نلتُ منها قدرًا كبيرًا.

يبدو كل شيءٍ أشد سوءًا ممَّا هو عليه في الساعات الأخيرة الأشد حلكةً من الليل؛ اندهشتُ عندما سمعتُ أن الطيور كانت لا تزال تغرّد، رغم أن صوتها بدا مكتسيًا بالغضب. لا بدَّ أن المخلوقات المسكينة لا تنام تقريبًا في الصيف، إذ يواصل الضوء تألقه ساعةً تلو الساعة. وفي النصف المعتم، في العتمة التامة، يحدث أن أتذكَّر، أتذكَّر. خفق قلبين متسارعين مثل قلوب الأرانب، ساهرين في الظلال، وأنفاس شاقة كأنَّ الهواء سكّين. أتذكَّر، أتذكَّر ... أغمضتُ عينيَّ. الجفنان في حقيقة الأمر ستارتان من اللحم. عينا المرء *مفتوحتان* على الدوام، *مُطلتان* على الدوام؛ أمَّا عندما يغمضهما فهو يشاهد الجلد الرفيق المعرَّق لباطن الجفن بدلًا من أن يحدق نحو العالَم. إنها ليست فكرة جالبة للارتياح. والحقيقة، لو أنني أطلتُ التفكير فيها بما يكفي، فأغلب الظن أنني سوف أرغب في اقتلاع عينيَّ، لكي أتوقف عن النَظر، أتوقف عن *الرؤية* طوال الوقت. الأشياء التي رأيتُها من المستحيل تنمحي وتختفي، والأشياء التي فعلتُها من المستحيل أن تنمحي وتختفي.

فكّري في شيء لطيف، كانت هذه نصيحة واحدٌ مِن الأهل في الأسر المضيفة التي رعتني، هكذا كان يقول عندما كان يجافيني النوم، أو عندما أستيقظ في الليل وأنا متعرقة، باكية، صارخة.

نصيحة مبتذلة وتافهة، لكنها تفي بالغرض في بعض الأحيان، وهكذا أخذتُ أفكر في الكلب 'بايلوت'.

أحسبُ أنني لا بد قد نعستُ، رغم أنَّني لا أشعر أنني فعلت، إذ يبدو من المستحيل أنني لم أغفُ ولو دقيقة أو اثنتين. أحاولُ أن أنامَ بقدر الإمكان لتمضية الوقت (حيلة قديمة مِن حيل السجن، على ما يبدو - شكرًا لنصيحتكِ، يا ماما) ولكن في صباح عطلة الأحد، يمكن لذلك أن يكون عسيرًا. عندما رنَّ جرس الهاتف بعد العاشرة بقليل، كنتُ مستيقظة منذ ساعات. كنتُ قد انتهيتُ من تنظيف الحمَّام ومسحتُ أرضية المطبخ، وأخرجت القمامة وأعدت تنظيم عُلب الأطعمة المحفوظة في خزانة المطبخ بحيث تكون العلامات المكتوبة عليها موجَّهة للأمام حسب الترتيب العكسي لحروف الهجاء. لمّعتُ زوجين من الأحذية. قرأت الجريدة وأكملت حل جميع الكلمات المتقاطعة والألغاز.

تنحنحتُ لتصفية صوتي قبل أن أتحدث، إذ أدركتُ أنني لم أنطق بكلمة واحدة من نحو اثنتي عشرة ساعة، وكان ذلك حين أخبرتُ سائق التاكسي بموضع نزولي. وذلك في الحقيقة شيءٌ جيد بالنسبة لي - فعادةً، لا أتحدث منذ اللحظة التي أخبر فيها سائق الحافلة بمحطتي مساء يوم الجمعة، وحتَّى اللحظة التي ألقي فيها التحية على زملائي صباح يوم الإثنين.

«'إليانور'؟» كان 'ريموند'، بالطبع.

أجبته باقتضاب تام: «نعم، هي». أي سؤالٍ هذا؟ مَن كان يتوقع؟ سعلَ سعالًا مفرطًا: مدخّن قذر.

«إممم، طيّب. أردتُ فقط أن أبلغك بأنني ذاهب لرؤية 'سامي' مرة أخرى اليوم - وتساءلتُ إن كنت تريدين الذهاب معي؟»

قلتُ: «لماذا؟»

سكت لوهلة - أمرٌ غريب. لا يمكن اعتبار هذا سؤالًا صعبًا.

«الحقيقة ... اتصلتُ بالمستشفى وقد تحسنت حالته كثيرًا. لقد أفاق، وتم نقله إلى عنبر الرعاية الطبية العامة. وفكَّرتُ ... أظن أنني فكَّرتُ أنه سيكون لطيفًا إذا التقى بنا، فربما كان لديه أي أسئلة عمَّا حدث له.»

كنتُ أفكّر بسرعة شديدة ولم يكن لدي وقت لتدبر النتائج والعواقب. وقبل أن أعلم تمامًا ماذا حدث، اتفقنا على أن نلتقي في المستشفى في وقتٍ ما آخر النهار. وضعتُ سمَّاعة الهاتف وتطلَّعتُ نحو الساعة الكبيرة المعلَّقة على حائط غرفة المعيشة، فوق المدفأة (حصلتُ عليها من أحد متاجر الصليب الأحمر: ذات إطار دائري أزرق يلمع ببريق كهربي؛ ولَطَالما رأيتُ أنَّها تضفي على غرفة المعيشة نوعًا من joie de vivre [بهجة الحياة]، ففيها لمسة مجون.) كانت أمامي عدة ساعات حتَّى يحين الموعد.

قررتُ أن آخذ وقتي الكافي للاستعداد، وتطلعتُ بحذر نحو صورتي في المرآة بينما يسخن الماء. تساءلتُ، هل من الممكن لي على الإطلاق أن أصبح ملهمة فنان؟ وما هي الملهمة في الأصل؟ كنتُ مُلمةً بالإشارة الكلاسيكية في الكلمة، ولكن، في الزمن المعاصر، وبتعبيرات عملية، يبدو أنَّ الملهمة ليست ببساطة غير امرأة جذابة يرغب الفنَّان في النوم معها.

فكَّرتُ في كل تلك اللوحات المرسومة؛ العذارى الشهوانيات المستلقيات في رشاقة حافلة بالمنحنيات الفاتنة، وراقصات باليه نحيفات مرهفات بأعين واسعة صافية، وجميلات غاطسات في المياه بأثواب بيضاء سابغة ملتصقة بأجسادهن وتحيط بهنَّ كؤوس الزهور الطافية. لا أنا ذات منحنيات ولا أنا من النحيفات المرهفات. أنا ذات حجم عادي وذات وجه عادي (من أحد جانبيه، على كل حال). تُرى هل ينظر الرجال نحو المرآة على الإطلاق فيشعرن بأنهم ناقصين من نواحٍ

أساسية بدرجةٍ عميقة؟ وعندما يفتحون جريدة أو يشاهدون فيلمًا، حيث لا يظهر أمامهم إلّا رجالٌ شبّان ذوو وسامة استثنائية، فهل يجعلهم هذا يشعرون بالتهيّب، بالدونية، لأنهم ليسوا في مثل شباب هؤلاء ولا وسامتهم؟ هل يقرأون بعد ذلك مقالات الجريدة التي تهزأ بنفس هؤلاء الرجال الوسيمين إذا ما زادَ وزنهم أو ارتدوا شيئًا أقل جاذبية.

كل تلك كانت، بالطبع، أسئلة بلاغية.

تطلَّعت نحو نفسي من جديد. أنا سليمة الصحة وجسدي قوي. لدي عقل يعمل بكفاءة، وصوت، وإن لم يكن منغومًا موسيقيًا؛ فقد أضر استنشاق الدخان طيلة السنوات الماضية بأحبالي الصوتية على نحو لا إصلاح له. لدي شعر وأذنان وعينان وفم. أنا امرأة من بني الإنسان، لا أكثر ولا أقل.

حتَّى ذلك الجانب من وجهي، والذي يشبه فلتة من فلتات الطبيعة المعروضة في سيرك -ذلك النصف المتضرر- كان أفضل من البديل الآخر، والذي كان معناه أن أموت محترقة. لم أحترق وأتحوَّل إلى رماد. لقد بزغتُ مولودةً من جديد من بين ألسنة اللهب وكأنني طائر عنقاء صغير. مررتُ بأصابعي على نسيج الندوب، مسستُ بلطف الحواف الخارجية لها. لم أحترق، يا ماما، هكذا فكَّرت. مررتُ خلال النيران وعشت.

كانت هناك ندوب أخرى على قلبي، مثل هذه تمامًا التي على وجهي، مثلها سميكة وشائهة. أعلم أنها هنالك. وأتمنى أن يكون هناك بعض النسيج بقي سليمًا ولم يصبه الضرر، ولو رقعة صغيرة يمكن للحب عبرها أن يدخل وأن ينمو ويزدهر. أتمنى.

(٩)

كان 'ريموند' ينتظر أمام الباب الأمامي للمستشفى. رأيتُه ينحني ليشعل سيجارة لسيدة على مقعد متحرك كانت قد أحضرت معها أنبوب تقطير السوائل، منصوبًا على قائم بعجلات، بحيث يمكنها أن تدمّر صحتها في الوقت نفسه الذي كانت أموال دافعي الضرائب تحاول أن تُعيدَ لها صحتها. راحَ 'ريموند' يثرثر معها وهي تدخن، وهو نفسه يطلق دخانه. انحنى للأمام وقال شيئًا فضحكت المرأة، قوقأة عجوز شمطاء انتهت بنوبة مطوَّلة من السُعال. اقتربتُ بحذر، خوفًا من أن السحابة السامة قد تطوقّني بتأثيرها المؤذي. رآني آتية، أطفأ سيجارته ثم اتجه نحوي. كان يرتدي بنطالًا من قماش الدنيم والذي كان يتدلى بشكل سخيف على ردفيه؛ عندما كان يولي ظهره نحوي رأيتُ بوصةً منفّرة من سرواله التحتي - بلون أرجواني قاتم رهيب - وبشرة بيضاء مُغطَّاة بالنَمش، ذكّرتني بجلد الزرافة.

«مرحبًا، يا 'إليانور'»، قال، وهو يفرك يديه على جانبي فخذيه كما لو كان ينظفهما. «كيف حالكِ اليوم؟»

ما أثارَ ذُعري أنه تقدَّم للأمام كما لو كان سيحتضنني. اتخذتُ خطوةً للوراء، ولكن ليس قبل أن تتاح لي فرصة أن أشم دخان السيجارة وعطرًا آخر، شيء كيمائي مزعج ولاذع. شككتُ أنها نوع رخيص من الكولونيا الخاصة بالرجال.

- «مساء الخير، يا 'ريموند'، هل ندخل؟»

أخذنا المصعد للعنبر رقم ٧. أخذ 'ريموند' يروي لي أحداث الليلة السابقة بإطنابٍ ممل؛ فعلى ما يبدو لقد سهرَ هو وأصدقاؤه (حتى الصباح)، أيًا كان معنى ذلك، وأكملوا مَهمة على لعبة فيديو اسمها 'جراند ثفت أوتو' ثم لعبوا البوكر. لم أكن أعرف لماذا يخبرني بذلك كله، فمن المؤكد أنني لم أسأله عن شيءٍ. انتهى أخيرًا من حديثه وسألني كيف قضيتُ أمسيتي.

قلتُ: «أجريتُ بعض الأبحاث»، واكتفيتُ بهذا خشية أن ألوّث التجربة بروايتها 'لريموند'.

قلت له: «انظر، عنبر ٧!»، كان من السهل تشتيت انتباهه كأنه طفل أو حيوان أليف صغير، وتناوبنا على استخدام غسول اليدين الكحولي قبل دخولنا العنبر. إجراءات السلامة أولًا، رغم أن جلدي المخرَّب المسكين تعافى بالكاد من هجمة المطهر الجلدي السابقة.

كان 'سامي' راقدًا على الفراش الأخير الأشد قربًا من النافذة، يقرأ *'الصنداي بوست'*. دقق النظر فينا من فوق حافة نظَّارته بينما كنا نقترب منه؛ لم يكن سلوكه نحونا ودودًا. تنحنحَ 'ريموند'.

قال: «مرحبًا بك، سيّد 'توم'، أنا 'ريموند'، وهذه 'إليانور'.» أومأتُ للرجل المسن. واصل 'ريموند' الحديث. «إننا، إييه، نحن مَن عثرنا عليك عندما حدثت وقعتك الغريبة في الشارع، وقد ذهبتُ معك إلى المستشفى في سيارة الإسعاف. أردنا أن نمر بك اليوم ونسلّم عليك، وأن نرى كيف حالك...»

ملتُ للأمام ومددتُ يدي. حدَّقَ 'سامي' في. وقال: «نعم؟ قلتَ لي مَن أنتما؟» بدا مُشوَّشًا ومُرتبكًا، وليس عدوانيًا بالمرَّة. بدأ 'ريموند' يشرح له مجددًا، غير أن 'سامي' رفعَ يده، وراحة يده مفرودة للأمام، ليُسكته. بما أنَّه كان يرتدي بيجامة مقلَّمة بخطوط ذات ألوان زاهية كالحلوى وأنَّ شعره الأبيض كان منفوشًا ومدببًا كأنه يمامة وليدة، فقد كان مفاجئًا تمامًا أن يسفر عن شخصية حازمة بهذا القدر.

قال: «الآن، مهلًا دقيقة»، ومالَ نحو الخزانة الخشبية الصغيرة بجانب فراشه، وتناول شيئًا من رفها. رغمًا عني رجعتُ خطوةً للوراء - فمَن يدري ما الذي قد يسحبه من هناك؟ أدخلَ شيئًا في أذنه وتلاعب به لدقيقة، فانبعث صريرٌ حاد الصوت من ذلك الجانب من رأسه. توقَّف الصرير، وابتسم.

قال: «حسنًا إذن، ذلك أفضل. *الآن* يمكن للكلب أن يرى الأرنب، صح؟ إذن، ما قصتكما أنتما الاثنين - تابعان لكنيسة ما، صحيح؟ أم أنكما تحاولان مرة أخرى أن تؤجّرا لي جهاز تليفزيون؟ أنا لا أريد تليفزيون، يا ابني - وقد قلتُ هذا لزملائك من قبل. من المستحيل أن أدفعَ مبلغًا معتبرًا لمجرد أن أستلقي هنا وأن أشاهد كل *ذلك* الخراء! أشخاص بدناء يرقصون في ثنائيات، أو رجال بالغون يطهون كعكات، ما هذا بحق الرب؟»

تنحنحَ 'ريموند' من جديد وكرَّر تعريفه، بينما ملتُ للأمام لمصافحة 'سامي'. تغيَّر تعبير وجهه في الحال وأنار وجهه بابتسامة لكلٍ منا.

«آه، إذن كان *أنتما*، صحيح؟ ظللتُ أسأل الممرضات عمَّن أنقذ حياتي- قلتُ لهم: مَن الذي أحضرني إلى هنا؟ كيف وصلتُ إلى هنا - لكنهم لم يعرفوا شيئًا ليخبروني به. اجلسا، هيَّا، اجلسا بجانبي هنا وحدّثاني عنكما. لا أستطيع أن أشكركما بما فيه الكفاية على صنيعكما، حقيقةً لا أستطيع.» أومأ برأسه، ثم اتخذ وجهه طابعًا جديًا للغاية. «جميع ما يسمعه المرء في أيامنا هذه أن كل شيء متجه نحو الجحيم على عربة يجرها حصان، وكيف أن جميع الناس إمَّا مشتهين للأطفال وإمَّا مدمني مخدرات، وذلك غير صحيح. ينسى المرء أنَّ العالم ممتلئ بأشخاص عاديين ومحترمين من نوعكما، السامريون الصالحون الذين سوف يقفون لمد يد العون لإنسانٍ في مأزق. انتظرا فقط حتَّى تلتقيا بالأُسرة! سيكونون في غاية السعادة، من غير شك.»

مالَ للوراء مضطجعًا على وسائده، وبدا مرهقًا من المجهود الذي بذله في الحديث. أحضرَ لي 'ريموند' مقعدًا بلاستيكيًا، ثمَّ واحدًا آخر له.

سأله 'ريموند': «وكيف حالك إذن، يا سيد 'توم'؟ هل حظيت بليلة طيبة؟»

«نادِني 'سامي' يا بني، لا داعي للرسميات. أنا بخير، شكرًا لك؛ سأكون على ما يرام قريبًا جدًا. أنت وزوجتكَ أنقذتما حياتي، رغم كل شيء، هذه حقيقة مؤكدة.»

شعرتُ 'بريموند' يتزحزح قليلًا في مقعده، فانحنيتُ للأمام.

قلتُ: «سيد 'توم'».

رفعَ حاجبيه، ثم حرَّكهما نحوي بطريقة مُحيّرة تمامًا. قلتُ لأصحح نفسي: «أقصد 'سامي'»، فأومأ لي موافقًا.

قلتُ له: «أخشى أن عليَّ توضيح بعض الحقائق الملتبسة. أولًا، نحنُ لم ننقذ حياتك. ولا بدَّ أن يُعزى الفضل في ذلك لخدمات الإسعاف، وفريق العمل بها، رغم ما في سلوكهم من فظاظة، فهُم مَن قاموا بما يلزم لكي تستقر حالتك بينما كانوا يُحضرونك إلى هنا. وفريق العمل الطبي في المستشفى، بمَن فيهم طبيب التخدير وجرَّاح العِظام هم مَن أجروا عملية تجبير فخذك، إلى جانب آخرين كثيرين مِن العاملين في الرعاية الصحية ممن تعهدوا رعاية حالتك خلال ما بعد العملية - إنهم هُم مَن أنقذوك، إن كان هناك أي شخص فعل ذلك. أنا و'ريموند' قمنا فقط باستدعاء المساعدة وظللنا معك حتَّى تسلمت مسؤوليتك الخدمة الصحية الوطنية.»

قاطعني 'ريموند' في وقاحة قائلًا: «نعم، باركَ الرب في الخدمة الصحية الوطنية، صحيح تمامًا.» رميته بإحدى نظراتي القاسية.

واصلت حديثي: «علاوةً على ذلك، ينبغي أن أوضح لك *في عُجالة* أنني أنا و'ريموند' مجرد زملاء في العمل. وأننا بكل تأكيد *لسنا* زوجين.» وحدَّقتُ بشدة نحو 'سامي'، حريصةً على أن يكون ليس لديه أدنى شك في كلامي. نظرَ 'سامي' نحو 'ريموند'، ونظر 'ريموند' نحو 'سامي'. وسادَ صمت، بدا لي حرجًا قليلًا. انتصبَ 'ريموند' في جلسته على المقعد.

سأل: «حسنًا، إيه، أين تعيش إذن، يا 'سامي'؟ وماذا كنتَ تنوي أن تفعل في ذلك اليوم عندما وقعت لك الحادثة؟»

ابتسم 'سامي' له.

قال سامي: «أنا مواطن عادي من أبناء هذا المكان، يا بني - مَحلي المولد والنشأة حتَّى النخاع. ودائمًا أشتري احتياجاتي ولوازمي من المتاجر يوم الجمعة. شعرتُ بشيءٍ غريب قليلًا في ذلك الصباح، صحيح تمامًا، ولكنني حسبتُ أنه مجرد ضيق التنفس الذي ينتابني أحيانًا. ولم أتوقع أن أجد نفسي هنا!»

تناول قطعة حلوى طوفي من كيس كبير على حِجره، ثم قدَّم لنا منها. أخذ 'ريموند' واحدة، ورفضتُ أنا. شعرتُ بالنفور أمام فكرة تناول قطعة حلوى لدنة، بعد أن دفَّأتها حرارة جسم وهي موضوعة على منطقة حوض 'سامي' (حتَّى وإن كان جسمه مكسوًا ببيجامة من قماش الفانيلا وبطانية).

كان كلٌ من 'سامي' و'ريموند' ممّن يمضغون بصوتٍ مسموع. وبينما كانا يقرقشان، نظرتُ نحو يديَّ، ملاحظةً أنهما اتخذا مظهرًا مسحوجًا، أو محروقًا تقريبًا، لكنني مسرورة رغم ذلك لأنَّ دهان الكحول قد أزال الجراثيم والبكتريا التي تتمطَّى في كل موضع من المستشفى، كما أنها، كما يُفتَرض، تتمطّى عليَّ أنا أيضًا.

سألنا سامي: «وماذا عنكما - هل أتيتما اليوم من مكان بعيد؟» وأضاف بسرعة، ناظرًا إليَّ: «كلٌ على حدة، أقصد.»

قال 'ريموند': «أعيش على الجانب الجنوبي، و'إليانور' ... أنتِ في الطرف الغربي، أليس كذلك؟» أومأتُ، غير راغبة أن أفصحَ عن مكان إقامتي بمزيد من الصرامة. سألنا 'سامي' عن العمل، وتركتُ 'ريموند' يخبره، مكتفية بالمتابعة. بدا 'سامي' هَشًا بدرجةٍ ما، شأن أي شخصٍ يضطر لارتداء بيجامة النوم في مكانٍ عام، لكنه كان أصغر سنًا ممَّا ظننتُ في البداية - لا يزيد عن السبعين عامًا، على ما حزرت - بعينين لونهما أزرق داكن بدرجةٍ جذَّابة.

قالَ 'سامي': «أنا لا أعرف أي شيء عن تصميم الجرافيك هذا، يبدو شيئًا خياليًا رائعًا. لقد كنتُ ساعي بريد طوال عمري. وتركت الخدمة في الوقت الطبيعي، مع هذا يمكنني أن أعيش على راتب التقاعد، طالما كنتُ حريصًا. كل شيء تغير الآن - أنا سعيد أنني لم أعد هناك. كل تلك الفوضى والإهدار وما فعلوه بالبريد. على أيامي، كانت خدمة عامة محترمة...»

كان 'ريموند' يومئ منصتًا. قال له: «ذلك صحيح، أتذكَّر عندما كان المرء يحصل على بريده قبل أن يغادر المنزل في الصباح، وكان هناك توصيل آخر في وقت الغداء؟ الآن يصل البريد في منتصف فترة المساء، هذا إن وصل أصلًا ...»

لا بدَّ أن أعترف أنني كنت أجد هذه الثرثرة حول أحوال مكاتب البريد مضجرة بدرجةٍ ما.

قلتُ: «كَم من الوقت يُرجَّح أن تقضيه هنا، يا 'سامي'؟ إنني أسأل فقط لأن احتمالات التقاط عدوى ما بعد إجراء العمليات الجراحية تتزايد بمعدل خطير كلَّما طالت فترة إقامة المرضى في المستشفى. هناك مَثلًا التهابات المعدة والأمعاء، *وعدوى ستافيلوكوكاس أوريوس*

[المكورات العنقودية الذهبية]، *وجرثومة كلوستيريديوم ديفيسيل* [المطثية العسيرة] - »
قاطعَ 'ريموند' حديثي مرةً أخرى. وقال: «صحيح، وأراهن أن الطعام أيضًا شنيع جدًا، أليس كذلك يا 'سامي'؟»
ضحكَ 'سامي'. وقال: «كلامك صحيح تمامًا، يا بُني. هل تريد أن ترى ما قدَّموه لنا على الغداء اليوم. يُفتَرض أنه حساء خضروات على الطريقة الإيرلندية ... لكنه بدا أقرب إلى عجينة طُعْم لصيد الأسماك ... في شكله، وفي رائحته أيضًا.»
ابتسم 'ريموند'. «أيمكننا أن نحضرَ لك أي شيء، يا 'سامي'؟ يمكننا أن ننزل بسرعة على المتجر في الطابق الأرضي، أو أيضًا أن نعود لك فيما بعد خلال الأسبوع، ونجلب لك بعض الأشياء، إذا شئت؟»
نظرَ 'ريموند' نحوي لتأكيد كلامه فأومأت. لم يكن لدي أي سبب لاستبعاد اقتراحه. بل كان في الحقيقة شعورًا سارًا، إذ فكَّرتُ أنني ربما أكون نافعة لشخصٍ مُسن يعاني بسبب التغذية غير الكافية. شرعتُ أفكر فيما يمكنني أن أحضره له: أنواع من الطعام التي يمكن نَقلها دون اختلاط أو فوضى. تساءلتُ تُرى هل قد يستمتع 'سامي' ببعض المعكرونة الباردة وصلصة البيستو؛ يمكنني أن أُعد مقدارًا مُضاعفًا لعشائي ذات ليلة، وفي اليوم التالي أحضر له ما تبقى في عُلبة خاصة بنقل الطعام. لم أكن أملك أي علب من هذا النوع، بما أنني لم أكن في حاجة إليها حتَّى هذه اللحظة. يمكنني أن أذهب لمتجر متعدد الأقسام لشراء بعض منها. بدا لي هذا من نوع الأمور التي قد تفعلها امرأةٌ في مثل سني وظروفي الاجتماعية. شيءٌ مثير!
قال 'سامي'، محبِطًا إحساسي الهادف شيئًا ما: «لكن، يا بُني، هذا كرم كبير منك، ولكن لا داعي لذلك حقًا. فالأسرة تزورني هنا كل يوم، مرتين كل يوم.» قال هذا الجزء الأخير بفخرٍ واضح. «لا يمكنني حتَّى أن أنهي نصف الأشياء التي يحضرونها معهم. فهُناك الكثير للغاية منها! وهكذا أضطر في النهاية لأن أقدَّم أغلبها للآخرين.» هكذا قال مُشيرًا نحو الرجل الآخر في العنبر بتلويحة يد متغطرسة.
«ممَّن تتألَّف أسرتك؟» سألته، وأنا مندهشة قليلًا من هذه المعلومة. «لقد افترضتُ أنك أعزب وبلا أولاد، مثل كلٍ منَّا.»
تحرَّك 'ريموند' بشكلٍ غير مريح في مقعده.
قال 'سامي': «أنا أرمل، يا 'إليانور'، لقد ماتت 'جين' منذ خمس سنوات - السرطان. أخذها بسرعة، على كل حال.» توقَّف هنيهة وانتصب في جلسته أكثر. «لديَّ ابنان وابنة. 'كيث' أكبر أولادي، متزوج ولديه ابنان صغيران، وهذان الولدان مثل قردين في غاية الوقاحة والشقاوة»، قال وقد تغضنت عيناه. «و'جاري' ابني الثاني؛ وصديقته 'ميشيل' - إنهما غير متزوجين، لكنهما يعيشان معًا. يبدو أن هذا أمر مألوف في هذه الأيام. وابنتي، 'لورا' ... حسنٌ، يعلم الرب ما حال لورا. طُلّقتْ مرتين رغم أنَّ عمرها الواحدة والثلاثين فقط، أيمكنكما تصديق هذا؟ لديها مشروعها الصغير، ومنزل لطيف وسيارة ... يبدو فقط أنها لا تستطيع العثور على رجل طيب. أو أنها عندما تعثر عليه لا يمكنها أن تستمر معه.»
أثارَ حديثه اهتمامي. فقلتُ له في ثقة: «نصيحتي لابنتك ألَّا يساورها القلق. فمِن خلال تجربتي قريبة العهد، أعرف أنَّ الرجل المثالي يظهر عندما يكون هذا أبعد ما يكون عن التوقع. يرمي به القدر في طريقنا، وعندئذٍ تتكفَّل العناية الإلهية بأن تجمعنا معًا في نهاية الأمر.» أصدرَ 'ريموند' صوتًا غريبًا، شيءٌ ما بين سَعلة وعَطسة.

ابتسم 'سامي' لي في طيبة. وقال: «أهذا صحيح؟ إذن، يمكنكِ أن تخبريها هذا بنفسكِ، يا فتاتي. فسوف يأتون جميعًا هنا بعد قليل.»

كانت إحدى الممرضات تمر بنا في أثناء قوله هذا وسمعته بوضوح. كانت بدينة بدانة مفرطة وترتدي حذاء بلاستيكيًا خفيفًا أبيض اللون وشكله جذّاب فعلًا يتماشى مع جوربيها المخططين الصادمين بلونيهما بالأسود والأصفر. بدت قدماها كأنهما دبّوران بدينان كبيران. ذكَّرتُ نفسي أن أسألها قبل أن أغادر مِن أين اشترتهما.

قالت الممرضة: «أقصى حد لعدد الزوَّار لفراش المريض الواحد هو ثلاثة أشخاص، ونحن مضطرون للالتزام بهذه القاعدة اليوم، آسفة لذلك.» لكنها لم تبدُ آسفة بالمرَّة. نهض 'ريموند' واقفًا.

قال: «سوف نذهب، وندع أسرتك تزورك، يا 'سامي'». قمتُ واقفةً أنا أيضًا؛ بدا أنَّ هذا هو الأمر اللائق.

قال 'سامي': «لا داعي، لا داعي للعَجلة الآن».

سألتُه: «هل نعود إليك مرة أخرى خلال الأسبوع؟ هل هناك أي مجلة أو دورية تود منا أن نحضرها لك؟»

قال 'سامي': «'إليانور'، كما قلتُ - أنتما الاثنان أنقذتما حياتي، ونحن الآن أسرة واحدة. تعالي لزيارتي في أي وقت يروق لكِ. فكم أحب أن أراكِ، يا فتاتي!» كانت عيناه مخضَّلتين، مثل حلزونين في مياه البحر. مددتُ له يدي مرة أخرى وبدلًا من مصافحتها، أطبقَ بيديه على كلتا يديَّ. في الأحوال المعتادة، يصيبني هذا بالذُعر، ولكنه باغتني. كانت يداه كبيرتان ودافئتان، مثل كفي حيوانٍ ما، وشعرتُ بيديَّ بداخلهما صغيرين ورقيقين. كانت أظافر أصابعه طويلة للغاية وعَجراء ذات عُقَد، وعلى ظاهر يديه توزَّع شعرٌ رمادي مجعد، ويواصل انتشاره للأعلى وتحت كُمّي بيجامته. قال: «اسمعي يا 'إليانور'»، وهو ينظر في عينيَّ مباشرةً ويشد على يدي بقوة. «شكرًا لكِ، يا بُنيتي. شكرًا على رعايتكِ لي وعلى إحضار أكياس مشترياتي.» وجدتُ أنني لم أرغب في انتزاع يدي من بين يديه بما فيهما من دفء وقوة. سعلَ 'ريموند'، لا شك أنَّه رد فِعل رئتيه على غياب أي مواد سرطانية خلال آخر نصف ساعة أو نحو ذلك.

بلعتُ ريقي، إذ وجدتُ صعوبةً في الحديث فجأة. قلتُ أخيرًا: «إذن، سأعودُ لك فيما خلال الأسبوع، مع بعض الأطعمة. أعدكَ بهذا». أومأ لي 'سامي'.

قال 'ريموند': «شكرًا على كل حال، يا رجل يا عجوز»، واضعًا يدًا لحيمة على كتف 'سامي'. «أراك قريبًا، اتفقنا؟»

لوَّح لنا 'سامي' بينما اتجهنا لخارج العنبر، وكان لا يزال يلوّح ويبتسم عندما وصلنا للمنعطف واتجهنا صوب المصعد.

*

لم يتحدَّث أيٌ منَّا بشيء حتَّى خرجنا.

قال 'ريموند' بشيءٍ من التردد: «يا له من رجل جميل، أليس كذلك؟»

أومأت له، مجاهدةً لكي أحتفظ بشعور يديَّ بين يديه، الحنان والأمان، ونظرة الطيبة والدفء في عينيه. أحسستُ بهلعٍ تام، إذ تبينت أنَّ ثمة دموع وليدة كانت تتشكَّل في عينيَّ، التفتُّ بعيدًا لكي أفركها قبل أن تسيل. ما ضايقني أن 'ريموند'، وهو عادةً أقل رجل من حيث القدرة على الملاحظة، قد انتبه لذلك.

سألَني 'ريموند' في رقة: «ماذا ستفعلين خلال بقية اليوم، يا 'إليانور'؟» نظرتُ إلى ساعة يدي.

كانت تقترب من الرابعة بالضبط.

قلتُ: «أظن أنني سوف أعود إلى البيت، ربما أقرأ قليلًا.»

«هناك برنامج إذاعي سوف يذاع اليوم لاحقًا، يرسل الناس إليه ليطلبوا مقتطفات من الأشياء التي سموعها واستمتعوا بها طوال أيام الأسبوع. يمكن لهذا غالبًا أن يكون مسليًا بدرجة لا بأس بها.»

كنتُ أفكّر أيضًا في أنني ربما أشتري مزيدًا من الفودكا، نصف زجاجة فقط، لأكملَ بها ما تبقى لديّ. كنتُ مشتاقةً لذلك الشعور الخاطف الحاد الذي أحصل عليه عندما أشربها - شعور حزين وحارق - وبعده، والشكر للرب، لا توجد مشاعر بالمرَّة. كَما أنني قد رأيتُ تاريخ اليوم على صحيفة 'سامي' وتذكَّرتُ أن اليوم كان، في حقيقة الأمر، عيد ميلادي. ضايقني أنني قد نسيت أن أسأل الممرضة مِن أين اشترت جواربها التي على شكل الدبور، فقد كان يمكن لهذه الجوارب أن تكون هديةً مِني لنفسي. قررتُ أنني ربما أشتري بعض أزهار السَوسن بدلًا من ذلك. لَطَالما أحببتُ عطرها المرهف ونعومة ألوانها. إنَّ لها هذا النوع من الألق الهادئ وهذا أجمل كثيرًا مِن زهور دوّار الشمس البرَّاقة أو مِن الورد الأحمر الجوري التقليدي.

كان 'ريموند' ينظر إليَّ. وقال: «سوف أذهب إلى أمي الآن.»

أومأت، ونظَّفتُ أنفي، وأغلقت سحَّاب سترتي تأهبًا لرحلتي إلى البيت.

قال 'ريموند'، فقط بينما كنت ألتفت نحو البوَّابة: «اسمعي: ألا يمكن أن تفكري في المجيء معي؟»

أبدًا، ولو تحت أي ظروف، كانت هذه أوَّل فكرة خطرت لي.

واصل هو قائلًا: «إنني أذهب إليها في أغلب أيام الأحد، إنها لا تخرج كثيرًا - وأنا متأكد إنها ستحب أن ترى وجهًا جديدًا.»

قلتُ: «حتَّى لو كان وجهًا مثل وجهي؟» لم أستطع أن أتخيَّل أن أي إنسان قد يجد متعةً خاصة في النظر إلى وجهي، سواءً أكان ذلك لأوَّل مرة أو لألف مرة ومرة. تجاهلَ 'ريموند' سؤالي ومدَّ يده يخرج شيئًا من جيبه.

فكَّرتُ في اقتراحه بينما كان يشعل سيجارة أخرى. لا يزال بوسعي أن أشتري الفودكا وأزهار عيد ميلادي في طريقي للمنزل، على كل حال، وقد يكون من المثير للاهتمام أن أرى ما بداخل منزل شخصٍ آخر. حاولتُ أن أتذكَّر متى كانت آخر مرة فعلت فيها هذا. منذ بضع سنين كنت قد وقفتُ في مدخل شقة جيراني في الطابق السفلي، عندما كنتُ أعطيهم طردًا بريديًا تسلمته بدلًا منهم. كان المكان يفوح برائحة بصل قوية، وكان هناك مصباح قائم قبيح في الركن. وقبل ذلك بسنوات قليلة، استضافت إحدى موظفات الاستقبال حفلة في شقتها ودعت جميع النساء في العمل. كان مكانًا جميلًا، شقة سكنية تقليدية ذات زجاج ملون وخشب ماهوجني داكن الحمرة وأفاريز دقيقة الصُنع. ورغم ذلك، فإنَّ (الحفلة) لم تكن إلَّا ذريعة، حيلة ماكرة من نوع ما لكي تتاح لها الفرصة لتحاول أن تبيعنا ألعابًا جنسية. كان من أشد المناظر فُحشًا وقلة تهذيب؛ سبعة عشر امرأة ثملة يعقدن مقارنات حول فعالية مجموعة من اللُعب المذبذبة الضخمة بشكل منذر ومخيف. غادرتُ بعد عشر دقائق، بعد أن شربت كأسًا فاترة من شراب 'بينوت جريجيو' وصددتُ في غضب سؤالًا وقحًا من إحدى قريبات المضيفة حول حياتي الحميمة.

إنني على اطلاع بمفهوم حفلات العربدة الجامحة على طريقة الأعياد الباخوسية والديونِيسية[28] بكل تأكيد، غير أنَّني شعرتُ بالصدمة إزاء ما في هذا من غرابة مطلقة، فلماذا قد ترغب هؤلاء

النسوة أن يقضين المساء معًا يشربن ويشترين مثل تلك الأغراض، وعلاوة على هذا، في الحقيقة، أنه لا بدَّ أن نتعامل مع هذا باعتباره «تسليةً». إن الاتحاد الجنسي بين عاشقين ينبغي أن يكون شيئًا مقدسًا وخاصًا. ويجب ألَّا يكون محل نقاش مع الغرباء وهم يستعرضون وجبة من الثياب التحتية. عندما نقضي أنا والفنان ليلتنا الأولى معًا، سيكون التحام جسدينا مرآةً تعكس التحام عقلينا وروحينا. أما أشياؤه الأخرى؛ لمعة الشعر الداكن تحت إبطه، الأجزاء البارزة من عظمة ترقوته، نبض الدم في ثنية مرفقه، النعومة الدافئة لشفتيه، حينما يضمني بين ذراعيه ويقوم بـ...

«هيييه، 'إليانور'؟ أين ذهبتِ؟ كنتُ أقول فقط ... أنَّ علينا أن نذهب الآن لئلا تفوتنا الحافلة، إن أردتِ أن تأتي معي إلى أمي؟»

جررتُ نفسي جرًا لأرجع إلى الحضور الثقيل 'لريموند' وبدنه القصير المتكتل، بقميصه الرياضي الرث ذي غطاء الرأس وحذائه الرياضي القذر. ربما يتراءى أن والدة 'ريموند' امرأة ذكية وساحرة. شككتُ في ذلك، بناءً على برهانٍ مِن نَسلها، ولكن كل شيء جائز.

قلتُ: «نَعم، يا 'ريموند'. سوف أرافقك إلى منزل والدتك.»

(١٠)

بالطبع لم يكن لدى 'ريموند' سيارة. أخمّن أنه في منتصف ثلاثيناته، غير أنَّه كان هناك شيءٌ مُراهق فيه، كأنه لم يكتمل تكوينه تمامًا. لا شك أنَّ هذا يرجع في جزءٍ منه لاختيارات ملابسه. لم أره حتَّى الآن مرتديًا حذاء جلديًا عاديًا؛ كان يرتدي الأحذية الرياضية طوال الوقت، وبدا أنه يملك مجموعة كثيرة منها متنوعة الألوان والأشكال. كثيرًا ما لاحظتُ أنَّ الأشخاص الذين يرتدون الثياب الرياضية بانتظام هم أبعد أنواع الأشخاص عن ممارسة الرياضة.

الرياضة لغزٌ بالنسبة لي. في المدرسة الابتدائية، كان اليوم الرياضي هو اليوم الوحيد خلال العام الذي يمكن فيه للتلاميذ الأقل موهبة من الناحية الأكاديمية أن يحققوا انتصارًا ما، وأن يفوزوا بالجوائز لأنهم يقفزون أسرع من الآخرين وهم في جوال، أو يركضون من النقطة (أ) إلى النقطة (ب) أسرع من زملائهم في الصف. كم كانوا يحبون تعليق تلك الشارات على صدور ستراتهم في اليوم التالي! كما لو كانت الميدالية الفضية في سباق الركض مع الإمساك ببيضة في ملعقة تعويضًا ما عن عدم فهم كيفية استخدام الفاصلة العُليا.

في المدرسة الثانوية، كانت مادة التربية البدنية شيئًا غامضًا ومبهمًا تمامًا. كان يتوجَّب علينا أن نرتدي ثيابًا خاصة ثمَّ نركض بلا نهاية حول ملعبٍ ما، وبين الحين والآخر نؤمر بأن نمسك أنبوبًا معدنيًا ونمرره لشخصٍ آخر. وإن لم نكن نركض، كنا نقفز، بداخل حوض رمل كبير أو من فوق حواجز صغير على قوائم. وكانت هناك طريقة خاصة لفعل هذا كله؛ إذ لا يمكنك ببساطة أن تركض أو تقفز، بل عليك أن تؤدي نوعًا غريبًا من الحَجْل والوثب أولًا. سألتُ عن سبب ذلك، لكنَّ أيًا من معلمي التربية البدنية (وأغلبهم، بقدر ما أتبيَّن، سوف يكافحون ذهنيًا لمجرد أن يقرأوا الوقت من ساعة اليد) لم يزوّدني بإجابة. بدا ذلك كله أنشطة غريبة لكي تُفرض قسرًا على أشخاصٍ صغار غير مهتمين بها بالمرة، وفي الحقيقة أنا على ثقة بأنها لم تنفعهم في شيء سوى أن تُبعدَ غالبيتهم عن الأنشطة البدنية خلال ما تبقى من حياتهم. لحُسن الحظ، أنني أنعم بجسدٍ مرن بطبيعته وبرشاقة الأطراف، وأستمتع بالمشي، وهكذا احتفظتُ بنفسي على الدوام في حالة لا بأس بها من اللياقة البدنية. كانت أمي تنفر نفورًا خاصًا من الأشخاص مفرطي البدانة (إذا مرَّ بنا أحدهم متمايلًا في الشارع، كانت تهمس: «يا للحيوان الكسول الشَرِه!» وربما أكون قد تشرَّبتُ منها هذه النظرة إلى حدٍ ما.

لم يكن 'ريموند' بدينًا زائد الوزن، لكنه كان مترهلًا وممتلئًا قليلًا بكرشٍ صغير. لا يمكن رؤية أيٍ من عضلاته، وأشك في أنه لا يستخدم بالمرة أيًا منها بانتظام عدا عضلات ساعده. اختياراته في الثياب لم تكن تخفف من تكوينه البدني المفتقد للجاذبية: بناطيل ساقطة من قماش الجينز وقماش الدينيم، تيشيرتات واسعة مرسوم عليها شعارات وصور صبيانية. كان يرتدي كأنه صبي وليس رجلًا. كما أنَّ عنايته بشعره ومظهره الشخصي لم تكن في أفضل حال أيضًا، وفي أغلب الوقت لم يكن يحلق شعر لحيته - لم تكن له لحية مرتبة مع ذلك، بل رقع متناثرة من الشعر القصير مثل العشب الشائك، وهو ما أضفى عليه فقط مظهرًا شعثًا. أمَّا شعر رأسه، وهو ناعم كشعر الفئران بصورة منفرة، وأشقر غير نظيف، فقد كان يقصه قصيرًا للغاية ولا يولّه إلَّا أقل قدر ممكن من العناية - على أفضل حال، ربما يفركه بمنشفة قذرة بعد غسله. كان الانطباع العام الذي يعطيه شكله للآخرين أنه رجل، رغم أنه ليس بالضبط متشردًا بلا مأوى، لكنه بالتأكيد باتَ ليلته السابقة

كيفما اتفق في فندق حقير أو على الأرض في منزل شخصٍ غريب.

قال 'ريموند'، وهو يلكزني بلا لياقة: «ها هي حافلتنا، يا 'إليانور'». كانت بطاقتي للانتقال بالحافلة جاهزة معي، غير أن 'ريموند'، وكما هو متوقَّع منه، لم يكن يملك بطاقة، مفضلًا أن يدفع نقودًا أكثر على أن يقضي دقيقة واحدة في التخطيط المسبق. وكما اتضح، لم يكن معه حتَّى الفكَّة الصحيحة ليدفع، ولهذا اضطررتُ لأن أقرضه جنيهًا. سوف أحرص على أن أسترده منه غدًا في العمل.

استغرقت الرحلة إلى منزل والدته حوالي عشرين دقيقة، وخلالها أخذتُ أشرح له فوائد حصوله على بطاقة انتقال بالحافلة، بما في ذلك مِن أين يمكنه شراء البطاقة وكَم عدد الرحلات التي على المرء أن يأخذها لكي يسترد ما دفعه كاملًا، بل في الحقيقة، لكي يسافر عمليًا من غير أن يدفع شيئًا. لم يبدِ اهتمامًا خاصًا بما أقول، ولم يشكرني حتَّى عندما انتهيت من شرحي. كانت مهاراته في الحديث سيئة وضحلة بدرجة فاضحة.

سرنا خلال ضاحية صغيرة تتألَّف من منازل مربعة بيضاء؛ تتخذ المنازل أربعة طرز معمارية مختلفة تتناوب فيما بينها بوتيرة منتظمة ومتوقعة. في كل منزل سيارة جديدة نسبيًا مركونة في المدخل الموصل لباب المنزل، وأشياء تدل على وجود أطفال - درَّاجات هوائية صغيرة وعجلات صغيرة لتثبيت الدرَّاجات، وأطواق كرة سلة مثبتة على جدار المرآب - ولكن لم يبدُ هناك أي مرأى أو صوت لأي طفل. كانت الشوارع جميعها مسماة على أسماء شعراء - جادَّة 'وردسورث'، طريق 'شيلي'، ربوة 'كيتس' - لا شك أنها مِن اختيار قسم التسويق في شركة البناء. كانوا جميعًا من نمط الشُعراء الذين يسهل التعرُّف عليهم مِن قِبل شخصٍ يطمح لشراء بيتٍ من هذا القبيل، شعراء كتبوا عن الجِرار والأزهار والسُحب الهائمة. بناءً على خبراتي السابقة، سوف ينتهي بي الأمر غالبًا للإقامة في جادَّة 'دانتي' أو شارع 'إدجار آلان بو'.

كانت مثل تلك المناطق مألوفةً جدًا لي، فقد عشتُ في عدة منازل متطابقة فعليًا في شوارع متطابقة فعليًا خلال فترات سكني مع أسر بديلة. لن يُوجَد هُنا أشخاص متقاعدون، ولا أصدقاء يتقاسمون منزلًا، ولا شخص يعيش بمفرده، فيما عدا بعض المُطلَّقين خلال فترة انتقالية من حياتهم. تصطفُّ السيارات الجديدة نسبيًا في المداخل المؤدية للبيوت، سيارتان لكل منزل، شيء نموذجي. تأتي العائلات وتمضي، ويعطي المكانُ كله إحساسًا مؤقتًا عابرًا، على نحوٍ ما، كأنه منظر مسرحي تم تجميع مكوناته على عجل ويمكن تغييره في أي لحظة. اقشعرَّ بدني، وأنا أطرد الذكريات بعيدًا عني.

كانت والدة 'ريموند' تعيش في منزل صغير أنيق يقع وراء المنازل الأحدث بناءً، في صفٍ من المنازل التي لا ينفصل بعضها عن بعض إلَّا قليلًا وتغطّي جدرانها طبقة واقية من الحصى والرمل. كان ضمن مشروعات الإسكان الاجتماعي الحكومية، وكانت أسماء الشوارع هنا ترجع لرجال سياسة محليين مغمورين. أولئك الذين ابتاعوا منازلهم أصلحوا الأبواب الأمامية وزودوها بطبقةٍ مزدوجة من مادة البوليفينيل غير المُلدَّن، وأضافوا إليها أروقة صغيرة. أمَّا مسكن عائلة 'ريموند' فقد بقي على حاله بلا أي تعديلات.

تجاهلَ 'ريموند' البابَ الأمامي وسار حول جانب المنزل. كانت الحديقة الخلفية فيها سقيفة خشبية بستائر شبكية على النوافذ، وكان هناك مربع من مرجٍ أخضر محدَّد بأوتاد مربوطة بها أحبال الغسيل. كان الغسيل يرفرف على الحبل، منشور ومثبَّت بالمشابك في دقة عسكرية، صف من البياضات والشراشف والمناشف جميعها بيضاء أو ذات ألوان سادة ومن بعده صف من ثياب

داخلية ممطوطة على الحبال بدرجةٍ مقلقة. كانت هناك رقعة تربة لزراعة الخضروات، فيها راوند استوائي مورق ووافر وصفوف منتظمة من الجزر والكراث والكرنب. رمقتُ بإعجاب ما في انتظام صفوفها من تناسب ودقة.

دفعَ 'ريموند' الباب الخلفي دون أن يطرقه، وصاح بكلمة مرحبًا بينما يدخل المطبخ الصغير. فاح المطبخ على نحو عذب برائحة حساء، رائحة ملحية ودافئة، أغلب الظن أنها كانت تنبعث من قِدرٍ كبير موضوع على سطح الموقد. كانت الأرضية وسائر الأسطح نظيفةً ومرتبة بدرجةٍ لا تشوبها شائبة، وقد شعرتُ بثقةٍ تامة أنني لو فتحتُ أيَّ دُرجٍ من الأدراج أو إحدى الخزائن الخشبية، لوجدتُ كل شيءٍ بالداخل يبرق لامعًا كأنه جديد، ومرتبًا بكل أناقة ونظام. كان الديكور بسيطًا وعمليًا، ولكن ثمة لمحات عارضة من الذوق الشائع المبتذل - فقد كانت هناك رزنامة كبيرة ذات صورة فوتوغرافية فاقعة وبشعة لهرّتين في سلة، وأيضًا أنبوب قماشي معد لتخزين الأكياس البلاستيكية ومصمم بحيث يشبه دمية قماشية على الطراز القديم ومعلق في مقبض الباب. على مصفاة الأدوات المغسولة، وُضعَ قدح وكوب زجاجي وطبق.

دخلنا في صالة صغيرة للغاية، وتبعتُ 'ريموند' إلى داخل غرفة المعيشة، ومرة أخرى، كان كل شيء لامعًا بلا بقعة واحدة، ويفوح برائحة ملمّع الأثاث. على إفريز النافذة، وضعت مزهرية فيها بعض أزهار الأقحوان، ومجموعة غير متناسقة من الصور الفوتوغرافية في إطاراتها، وتحف صغيرة أخرى للزينة كانت تحتمي وراء أبواب ذات زجاج مغبَّش لخزانةٍ عتيقة الطراز وكأنَّ تلك الأشياء ذخائر مقدَّسة. رأيتُ امرأة عجوز جالسة في مقعد مريح بذراعين، مدَّت يدها وتناولت الريموت لتكتم صوت تليفزيون ضخم الحجم، وقد أظهرت الشاشة ذلك البرنامج الذي يأخذ إليه الناس أشياء قديمة ليتم تثمينها وبعد ذلك، إن اتضح أنها تساوي شيئًا ما، يتظاهرون بأنهم يحبون تلك الأشياء حبًا كبيرًا فلا يريدون بيعها. تمدَّدت على الأريكة ثلاث قطط؛ حدقَّت فينا اثنتان منها، واكتفت الثالثة بفتح عين واحدة ثم عادت لنومها، دون أن تتلَّطف علينا باستجابة ذات شأن.

قالت السيدة العجوز: «'ريموند'، ابني! ادخل، تعال»، وهي تشير بيدها إلى الأريكة وهي منحنية للأمام في مقعدها لإبعاد قططها.

- «لقد أحضرتُ معي صديقة مِن العمل، يا ماما، أتمنى ألا يزعجك هذا؟»، هكذا خاطبها 'ريموند' وهو يتقدَّم نحوها ويقبّل خديها. خطوتُ نحو الأمام ومددتُ يدي لمصافحتها.

- «'إليانور أوليفانت'، سعيدة بلقائك». تناولت يدي وضمَّتها بكلتا يديها، مثلما فعل 'سامي'.

- «من اللطيف أن أراكِ، يا بُنيتي، يسرني دائمًا أن أقابل أصدقاء 'ريموند'. هلَّا جلستِ؟ من المؤكد أنكِ بحاجة إلى قدحٍ من الشاي. ماذا تحبين أن أضيف إليه؟» وهمَّت بالنهوض، ولاحظتُ المشايّة ذات العجلات إلى جانب مقعدها.

فقال 'ريموند': «ابقي أنتِ مستريحة يا ماما، سوف أحضر أنا الشاي، هل أُعد لكلٍ منَّا كوبًا لطيفًا؟»

- «سيكون هذا من ذوقك، يا بُنيّ. يوجد أيضًا بعض بسكويت 'واجون ويلز' المفضَّل لديك.»

ذهب 'ريموند' إلى المطبخ وجلستُ على الأريكة على يمين والدته.

قالت في فخر: «إنه فتى صالح، عزيزي 'ريموند'». لم أكن متأكدة ما هو أفضل رد على قولها هذا، واخترتُ الاكتفاء بإيماءة قصيرة. قالت: «إذن أنتما تعملان معًا. هل تصلحين أجهزة الكمبيوتر أنتِ أيضًا؟ ربَّاه، يمكن للفتيات أن يشتغلن في كل شيء هذه الأيام، صحيح؟»

كانت أنيقة ومرتبة شأنها شأن منزلها، بلوزتها مغلقة عند الرقبة بمشبك لؤلؤي. كانت تضع في

قدميها خفين من القطيفة بلون النبيذ، مزينين بفراء الخراف، وقد بديا دافئين. كانت في السبعينيات من عمرها على ما أظن، ولاحظتُ عندما صافحتُها أن براجم أصابعها منتفخة حتَّى أصبحت في حجم عنب الثعلب [الحرنكش].

قلتُ لها: «أنا أعمل في قِسم الحسابات، سيدة 'جيبونز'». وأخبرتها قليلًا حول طبيعة عملي، وبدت مفتونة بما تسمع، وهي تومئ لي طوال الوقت وتقول بين الحين والآخر عبارات من قبيل: «فعلًا؟» و»يا ربي، كم يبدو ذلك مشوّقًا.» عندما أنهيتُ حديثي المنفرد، وقد استنفدتُ جميع الاحتمالات المحدودة أصلًا التي تقدمها حسابات المقبوضات، ابتسمت لي.

سألتني برقّة: «هل ولدتِ ونشأتِ هنا يا 'إليانور'؟». في الأحوال المعتادة أبغضُ أن أُسأل بهذا الشأن، ولكن كان واضحًا أن اهتمامها صادقًا وخاليًا من الخُبث، ولهذا أخبرتُها أين أعيش، وتعمَّدتُ أن أكون غامضة بشأن الموقع الدقيق، إذ ينبغي على المرء ألَّا يُفشي أبدًا المكان المحدد لإقامته لأشخاص غرباء.

فقالت، بنبرة تساؤل مرة أخرى: «ومع ذلك فإنَّ لكنتكِ لا تشي بهذا؟»

قلت: «قضيتُ طفولتي المبكرة جنوبًا بالأسفل، ولكنني انتقلتُ إلى اسكتلندا عندما كنتُ في العاشرة.»

فقالت: «آه، ذلك يفسّر الأمر.» وبدت راضية بهذا. لقد لاحظتُ أنَّ أغلب الاسكتلنديين لا يواصلون استجواب المرء عن أصوله إذا ما سمعوا منه عبارة 'جنوبًا بالأسفل'، ولا يسعني إلَّا أن أفترض أنَّ هذا الوصف يعني لهم باختصار نوعًا ما مِن الانتماء العام لإنجلترا، أي سباقات القوارب والقبعات الباولر المستديرة السوداء، كما لو أن ليفربول وكورنوول هما نفس المكان تقريبًا، مأهول بنفس الناس تقريبًا. لكنهم، في المقابل، يحرصون على التأكيد دائمًا أنَّ كل بقعة من بلادهم لها فرديتها وخصوصيتها. لستُ واثقةً مِن السبب وراء هذا.

عاد 'ريموند' ومعه أشياء وأدوات شرب الشاي وأيضًا عبوة من بسكويت 'واجون ويلز' على صينية بلاستيكية مبهرجة الزخارف.

قالت والدته: «'ريموند'! ألم يكن بوسعك أن تضع الحليب في إبريق، بحق السماء؟ إنَّ عندنا ضيفة!»

فقال: «لا داعي، إنها 'إليانور' فقط، يا ماما!»، ثم نظر إليَّ. «هل تمانعين؟»

قلتُ: «على الإطلاق. أنا دائمًا أستخدم العلبة الكرتون في المنزل أيضًا. إنها مجرد وعاء يمكننا ن نصب منه السائل في الكوب؛ والحقيقة، فالأرجح، على ما أظن، أنَّ هذا صحيًا أفضل من استخدام إبريق غير مغطًّى.»

مددتُ يدي لأتناول قطعة بسكويت، وكان 'ريموند' قد أخذ يمضغ قطعته بالفعل. أخذ كلاهما يثرثر حول شؤون لا أهمية لها وظللتُ جالسة على الأريكة. لم يكن صوت أيٍ منهما مرتفعًا، وأخذت أنصت لحركة الساعة الكبيرة النقَّالة والموضوعة على رف الموقد وهي تصدر تكتكاتٍ عالية. كانت إحدى القطط، وهي راقدة على جنبها قبالة نيران المدفأة، تتمطى بجسدها على أقصى طوله مع رجفة تعتريها، ثم عادت للنوم من جديد. كانت هناك صورة فوتوغرافية بجانب الساعة، بهتت ألوانها من فرط القِدم، وهي لرجلٍ من الواضح أنه والد 'ريموند'، يبتسم ابتسامة عريضة للكاميرا، ويرفع كأسًا طويلة ونحيلة مترعة بالشمبانيا في إيماءة شُرب نَخب.

قالت والدته، وقد لاحظت نظرتي: «ذلك والد 'ريموند'»، وابتسمت. «التُقطت هذه الصورة في اليوم الذي حصل فيه 'ريموند' على نتائج امتحانات الثانوية.» نظرَت إليه بفخرٍ واضح، وقالت:

«كان عزيزنا 'ريموند' أوَّل شخص في الأسرة يصل إلى الجامعة، كان والده في غاية السعادة والفخر به. كم كنت أتمنى لو أنه كان موجودًا معنا في يوم تخرجه من الجامعة. ألم يكن يومًا مشهودًا، يا بُنيَّ؟» ابتسم 'ريموند' وأومأ لها.

أوضحَ قائلًا لي: «أصابته نوبة قلبية بعد فترة وجيزة من التحاقي بالجامعة.»

قالت والدته: «لم يُكتَب له قط أن يتمتع بتقاعده، هكذا حال الدنيا.» جلسَ كلاهما في صمت لدقيقة.

سألتُ: «ماذا كان يعمل؟» دون أن أكون مهتمة حقًا، ولكنني شعرتُ أن هذا هو السؤال اللائق.

قال 'ريموند': «كان مهندسًا في مجال الغاز الطبيعي.»

أومأت والدته، وقالت: «ظلَّ يكدح في عمله طوال عمره، ولم يكن ينقصنا أي شيء أبدًا، أليس كذلك يا 'ريموند'؟ كنا نسافر لقضاء العطلة في كل عام، ولدينا سيارة صغيرة لطيفة. على الأقل عاشَ ليرى 'دينيس' تتزوَّج، على كل حال - هذا شيءٌ طيّب.»

لا بدَّ أنَّ أمارات الحيرة ظهرت على وجهي.

فسَّر 'ريموند' قائلًا: «أختي.»

- «يا خبر! ما هذا يا 'ريموند'. لا شكَّ أنك كنت منهمكًا في الحديث عن كرة القدم وأجهزة الكمبيوتر، رغم أني أظن أنها لا ترغب في الاستماع إلى مثل تلك الأمور، على كل حال. يا للذكور، أليس كذلك، يا 'إليانور'؟» وهزَّت رأسها يمنة ويسرة وهي تبتسم لي.

كان هذا أمرًا مُربكًا ومحيرًا. بأي طريقة يُمكن لأي إنسان أن ينسى أنه له أخت؟ لكنه لم ينسَ، على ما أظن - لكنه ببساطة تعامل مع وجود شقيقته كأمرٍ بلا شأن، من البديهيات؛ حقيقة من حقائق الحياة، حقيقة لا تغيير لها وبلا أهمية، لا تستحق حتَّى أن تُذكَر. كان من المستحيل بالنسبة لي أن أتخيَّل سيناريو مثل هذا، وأنا على حالي هذه من الوحدة. أنا وأمي فقط، جميع سكَّان عالَم آل 'أوليفانت'.

كانت والدته لا تزال تتحدَّث. «كانت دينيس في الحادية عشر من عمرها عندما وُلدَ 'ريموند' - مِثل مفاجأة صغيرة ونِعمة كبيرة، كما هو عليه حقًا.»

تطلَّعَت إليه بقَدرٍ بالغٍ من الحُب حتَّى وجدتُ نفسي مضطرة لأن ألتفت بعيدًا. قلتُ لنفسي إنني أعرف الآن كيف يبدو الحُب. إنه شيء بديع. لم أتلقَ مِثل تلك النظرة من شخصٍ ما أبدًا، ولكنني سأكون قادرة على التعرُّف عليها إذا تلقيتُها ذات يوم.

«هيَّا، يا بُني، قم وأحضر ألبوم الصور. سوف أُري 'إليانور' تلك الصورة لعطلتنا الأولى حينما كنا على شاطئ أليكانتي في إسبانيا، الصيف السابق مباشرةً على بداية ذهابك للمدرسة. لقد علقَ في بابٍ دوَّار بالمطار.» هكذا همست بجملتها الأخيرة لي، وهي تميل نحوي كأنما تطلعني على سر بيننا.

ضحكتُ عاليًا بسبب تعبير الذُعر التام على مُحيَّا 'ريموند'.

قال لها: «ماما، لا أظن أن 'إليانور' ترغب في أن نضجرها بالتفرج على صورنا القديمة»، وكان يتضرَّج خجلًا على نحوٍ أحسب أنَّ بعض الناس قد يعتبرونه فاتنًا. لوَهلة عابرة فكَّرتُ أن أصرَّ على أنني أحب أن أرى الصور، لكنه بدا تعيسًا للغاية بحيث لم أستطع أن أفعل هذا. في توقيت ملائم، أصدرت معدتي صوت قرقرة عالية. لم أتناول أي طعام عدا قطعة البسكويت منذ وقت وجبة الغداء عندما أكلت معكرونة حلقات بالصلصة على خبز محمَّص. سعلَتْ بطريقة

مهذبة.
«لا بدَّ أن تتناولي معنا لُقمة خفيفة، اتفقنا يا 'إليانور'؟ ليس لديَّ شيء فاخر، ولكنكِ على الرحب والسعة.»
ألقيتُ نظرة على ساعة يدي. كانت الخامسة والنصف مساءً فقط - وقتٌ غير معتاد لتناول الطعام، ولكنني كنتُ جائعة، وسيكون ما زال الوقت سانحًا للذهاب إلى متجر 'تيسكو' في طريقي إلى المنزل.
قلتُ: «يسرني هذا، سيدة 'جيبونز'.»
جلسنا حول مائدة صغيرة في المطبخ. كان الحساء لذيذًا؛ وقالت أنها استخدمت زند الخنزير لتعدَّ المرق، ثم قطَّعت اللحم مزقًا صغيرة في الحساء الذي كان ممتلئًا بالخضروات من زرع حديقتها. كان هناك أيضًا خبز وزبد وجبن، وبعد الطعام شربنا قدحًا من الشاي وكعكة كريمة. وطوال كل هذا الوقت، كانت السيدة 'جيبونز' مستغرقة بكل سرور في سرد حكايات عن جيرانها وعن الأنواع المتباينة من أحوالهم الغريبة وأمراضهم، إلى جانب كل المستجدات الخاصة بنشاطات العائلة بفروعها المختلفة، وهو ما بدا كله خارج نطاق اهتمام 'ريموند' بنفس قدري تمامًا، بناءً على تعبيرات وجهه. كان يشاكس أمه ويغيظها باستمرار وبعاطفة ووُد، وكانت تستجيب له بالتظاهر بالضِيق، وبأن تصفعه على ذراعه في رقة أو توبخه على وقاحته. شعرتُ بالدفء والشَبع والراحة على نحوٍ لا أتذكر أنني شعرتُ به من قبل.
تحاملَت والدة 'ريموند' على نفسها لكي تنهض واقفة ومدَّت يديها نحو مشَّايتها. كان لديها التهاب مفاصل في ركبتيها وفخذيها بما يصعب حركتها كثيرًا، كما أخبرني 'ريموند' بينما كانت تصعد نحو الحمَّام في الطابق العلوي. لم يكن المنزل ملائمًا في الحقيقة ليعيشَ فيه شخصٌ قدرته على الحركة محدودة، لكنها رفضت الانتقال إلى مكانٍ آخر، هكذا أخبرني، لأنها قد عاشت هُنا كل حياتها منذ شبابها الأوَّل وكان المكان الذي رعت فيه أسرتها.
قالت وقد عادت من الطابق العلوي: «والآن إذن، سوف أغسل تلك الصحون القليلة، وبعدها يمكننا أن نسترخي ونشاهد التليفزيون قليلًا.»
نهضَ 'ريموند' واقفًا بسرعة.
«اجلسي أنتِ يا ماما، ودعيني أنا أغسلها - ستأخذ مني دقيقة واحدة. وسوف تساعدني 'إليانور'، ما رأيك، يا 'إليانور'؟»
نهضتُ وشرعتُ أجمع الصحون. اعترضتْ السيدة 'جيبونز' بشدة، لكنها في نهاية الأمر عادت للجلوس في مقعدها، في بطء وحَرج، وسمعتُها تطلق زفرة ألم صغيرة للغاية.
غسلَ 'ريموند' الأطباق وجففتُها أنا. كان هذا اقتراحه - وقد انتبه، بطريقةٍ ما، إلى يدي المحمرتين الملتهبتين، بالرغم من أنه لم يصنع جلبة كبيرة بشأنها. كل ما فعله أنه أبعدني برفق عن حوض الغسل، ووضعَ منشفة شاي صغيرة بين أصابعي المتضررة. كانت منشفة مَرحة منقوش عليها صورة كلب تيرير اسكتلندي يرتدي ربطة عنق على شكل فَراشة بقماش من مربَّعات ملونة. وجدتُها ناعمة وذات ألياف، كما لو كانت قد غُسلتْ مرات لا حصر لها، وكانت مكوية بعناية ومطبقة في مربعات منتظمة. ألقيتُ نظرة على الأطباق قبل أن أرصها على المنضدة لكي يضعها 'ريموند' في أماكنها. كانت أدوات المائدة الخزفية قديمة ولكنها ذات جودة عالية، مطبوع عليها وردٌ منتفشة للغاية وقد حالَ لونُ حوافها المذهّبة. كانت السيدة 'جيبونز' تتطلَّع إليَّ. ما مِن شك أنَّ قدراتها على الملاحظة لا تشوبها شائبة.

قالت: «كان هذا طقم الخزف الخاص بزواجي، يا 'إليانور'، تصوَّري - لا يزال يواصل حياته بقوة بعد مرور ما يقرب من خمسين عامًا!»

قال 'ريموند': «مَن تقصدين؟ طقم الخزف أم أنتِ؟»، فامتعضت منه وهزَّت رأسها، مبتسمة. رانَ صمتٌ مُريح بينما يتولى كلٌ منا مهمته على التوالي.

سألتني: «أخبريني، يا 'إليانور'، هل أنت مرتبطة في الوقت الراهن؟»

يا للضجر الرهيب!

فقلتُ: «ليس في الوقت الراهن، لكنني أضعُ عيني على شخصٍ ما. إنها فقط مسألة وقت.» صدرَ صوت ارتطام من حوض الغسل إذ أسقطَ 'ريموند' مغرفة فوق المصفاة مُحدثًا صوت قعقعة.

فقالت أمه: «'ريموند'! لا تُسقط الأشياء هكذا!»

كنتُ مواظبة على تتبُّع الفنان على شبكة الإنترنت، بالتأكيد، غير أنه كان هادئًا شيئًا ما، على الواقع الافتراضي أقصد. صورتان على موقع إنستجرام لبعض الوجبات التي تناولها، وبضع تغريدات، وتحديثات غير مثيرة للاهتمام على موقع فيسبوك حول الأعمال الموسيقية لفنانين آخرين. لم أمانع هذا، كانت المسألة فقط هي انتظار لحظتي المواتية. إن كنتُ واثقةً من أمرٍ واحد فقط حول العلاقات العاطفية، فهو أنَّ اللحظة المثالية لكي نلتقي فيها ونقع في الحب سوف تأتي حينما لا نتوقَّعها بالمرة، تكتنفها الظروف والملابسات الأشد فتنةً وسحرًا. ورغم هذا، فإن لم يحدث هذا قريبًا، فسيكون عليَّ أن أمسكَ زمام المبادرة بين يديَّ.

قالت: «وماذا عن أسرتكِ؟ هل يعيشون قريبًا منكِ؟ أي إخوة أو أخوات؟»

- «لا، بكل أسف، كنتُ لأحب أن يكون لدي أشقَّاء وأن أكبر معهم.» فكَّرتُ في هذا. «وفي الواقع هذا أحد أعظم منابع الحُزن في حياتي،» هكذا سمعتُ نفسي أقول. لم يسبق لي قط أن أنطق بجملة مثل هذا مِن قبل، وفي حقيقة الأمر، لم تكن الفكرة مكتملة الصياغة هكذا حتَّى هذه اللحظة نفسها. فوجئتُ بنفسي. *ومَن المذنبُ في هذا، إذن؟* صوت همسٌ في أذني، باردٌ وحاد، غاضب. إنها أمي. أغمضتُ عينيَّ، في محاولة للتخلص منها.

بدا أنَّ السيدة 'جيبونز' شعرت باضطرابي. «آه، ومع ذلك، أنا متأكدة أنَّك حظيتِ بعلاقة مقربة وجميلة بأمكِ وأبيك، أليس كذلك؟ أراهن أنكِ كنتِ العالَم كله بالنسبة لهما، بما أنكِ كنتُ الطفلة الوحيدة.»

نظرتُ نحو حذائي. لماذا اخترتُ هذا الحذاء؟ لا أستطيع أن أتذكَّر. كان له شريط لاصق لتسهيل استخدامه، وكان أسود اللون، ليتماشى مع كل شيء آخر. كان حذاءً مسطحًا ليكفل راحة القدمين، ومرتفعًا حول الكاحل على سبيل الدعم. أدركُ الآن أنه حذاء بشع.

قال 'ريموند'، وهو يجفف يديه بمنشفة شاي: «لا تتطفلي عليها هكذا يا ماما، تبدين كمحقق في الجستابو[29]!»

ظننتُ أنها سينتابها الغضب، ولكن كان الأمر أسوأ من ذلك؛ فقد شعرَت بالأسف وبضرورة أن تعتذر.

«آه، يا 'إليانور'، أنا آسفة يا حبيبتي، لم أقصد أن أزعجكِ. أرجوك، يا بُنيتي، لا تبكي. أنا آسفة جدًا.»

كنتُ أبكي. البكاء! لم أبكِ بهذه الدرجة المفرطة منذ سنوات. حاولتُ أن أتذكَّر متى كانت المرة الأخيرة؛ كانت بعد أن انفصلتُ عن 'ديكلان'. وحتَّى آنذاك، لم تكن دموعًا عاطفية، بل كنتُ أبكي من الألم لأنه كسر لي ذراعًا وضلعين عندما طلبتُ منه في نهاية المطاف أن يترك البيت ويغادر.

ليس هذا بالأمر اللائق ببساطة، البكاء في مطبخ والدة زميل عمل. ماذا كان يمكن أن تقول ماما؟ استجمعتُ نفسي.

قلتُ، بصوت متهدّج: «رجاءً لا داعي للاعتذار، يا سيدة 'جيبونز'»، وعندئذٍ انشققتُ كأنني صبي مراهق إذ حاولتُ أن أتنفس بهدوء، ومسحتُ عيني بمنشفة الشاي. كانت حرفيًا تفركُ يديها قلقًا وبدت على شفا البكاء هي نفسها. وضع 'ريموند' ذراعه حول كتفها.

«لا تنزعجي، يا ماما. لم تقصدي أي شيء بما قلتِ، وهي تعرف ذلك، أليس كذلك، يا 'إليانور'؟»

قلتُ: «نعم، بالتأكيد»، وبدافع لَحظي، مِلتُ للأمام وصافحتُ يدها. «كان سؤالكِ معقولًا ولائقًا، لكنَّ مع ذلك استجابتي لم تكن هكذا. لا أعرف كيف أفسر الأمر. أرجوكِ اقبلي اعتذاري إن كنتُ قد تسببتُ لك في أي ضيق.»

بدا عليها الارتياح. قالت: «شكرًا للرب على ذلك، يا بُنيتي، لم أكن أتوقَّع دموعًا في مطبخي اليوم!»

فقال 'ريموند': «صحيح، عادةً لا أبكي هنا إلَّا بسبب طبيخك، يا ماما»، فجعلها هذا تضحك ضحكة هادئة. تنحنحتْ.

قلتُ: «لقد فوجئتُ بسؤالك، يا سيدة 'جيبونز'. الحقيقة أنا لم أرَ أبي قَط، ولا أعلم أي شيء عنه، ولا حتَّى اسمه. وأمي في الوقت الراهن ... لنقل فقط إنها hors de combat [*خارج الحَلبة*]. تلقيتُ نظرات فارغة على وجهيهما - لم أكن بالتأكيد بين أناسٍ يلمون بالفرنسية. أوضحتُ: «إنني لا أراها بالمرة، فهي ... ليس من السهل الوصول إليها. نتحادث هاتفيًا مرة كل أسبوع، ولكن...»

قالت، وهي تومئ في تعاطف: «بكل تأكيد - سيجعل ذلك أي شخصٍ حزينًا، يا حبيبتي، من غير شك، كل إنسان في حاجة إلى أمه بين الحين والآخر، مهما كبر في السن.»

قلتُ: «على العكس تمامًا، أقل ما يمكنني قوله إنَّ هذا الاتصال الأسبوعي أثقل من اللازم على قلبي. فأنا وماما - نحنُ الاثنتان ... أقصد، الأمر معقد ... »

أومأت السيدة 'جيبونز' في تعاطف، وهي تريدني أن أواصل. لكنني، على الناحية الأخرى، أدركتُ أنَّ هذا هو وقت التوقّف عن الكلام. مرَّت بالشارع عربة آيس كريم، وكانت أجراسها تعزف أغنية 'يانكي دودل'، بدرجةٍ منخفضة إلى حدٍ مؤلم عن النغمات المضبوطة. تذكَّرتُ كلمات الأغنية، قبعات ذات ريشات وشعرٍ مستعار مرتفع فوق الرأس، نبعَ هذا كله من سردابٍ ما عميق، وبلا جدوى بالمرة، من سراديب الذاكرة.

صفق 'ريموند' بيديه في حالة مفتعلة مِن الحبور والأُنس. «يكفي هذا، حان وقت الإقلاع والمسير. هيَّا يا ماما، اذهبي واتخذي مجلسك - برنامجك المفضل على وشك أن يبدأ. 'إليانور'، هل يمكنكِ أن تساعديننني في جمع الغسيل المنشور؟»

كنتُ مسرورةً لأن أقدم يد العون، مسرورةً لأن أبتعد عن الحديث حول الأمهات. كانت هناك مهام منزلية مختلفة تحتاج السيدة 'جيبونز' المساعدة فيها - وقد اختارَ 'ريموند' أن يغيّر صواني القطط وأن يفرغ السلال، وهكذا كان من نصيبي جمع الغسيل.

بالخارج، كانت شمس أوَّل المساء واهنة وشاحبة. صفوف من الحدائق المنزلية تتوالى عن اليمين وعن اليسار، تمتد بعيدًا في كلا الاتجاهين. وضعتُ سلة الغسيل على الأرض وأخذت كيس المشابك (وعلى سبيل المساعدة، كان أحدهم قد خاطَ على قماشه بحروف متصلة ولولبية كلمة «مشابك») وعلقته على الحبل. كان الغسيل جافًا ويفوح برائحة الصيف. سمعتُ ارتطام متسارع

لكرة قدم تُركَل على جدار، وفتيات ينشدن وصوت حبل القفز يمس الأرض. كانت نغمات الأجراس البعيدة لعربة الآيس كريم قد صارت الآن بالكاد مسموعة. انصفق الباب الخلفي لأحدهم، وصاح صوت رجل وهو يوبّخ بغضب كلبًا - على ما أرجو. كانت هناك زقزقة عصافير، تطغى على أصوات جهاز التليفزيون المنبعثة من نافذة مفتوحة. بدا كل شيء ينضح بالشعور بالأمان، بدا كل شيء *طبيعيًا*. لَشدَّ ما كانت حياة 'ريموند' مختلفة عن حياتي - أسرةٌ صالحة، أم وأب وأخت، متضامين في عُشهم الصغير وسط أعشاش أسر أخرى صالحة كذلك. ولَشدَّ ما كانت حياته لا تزال مختلفة عن حياتي الآن - كل يوم أحد، هُنا، هذا.

عدتُ لداخل البيت، وساعدتُ 'ريموند' في تغيير شراشف سرير أمه وفَرش أخرى نظيفة من بين ما جلبته من حبل الغسيل. كانت غرفة نومها قرنفلية للغاية، وتفوح برائحة بودرة التلك. كانت نظيفة وخالية من أي صفة مميزة - ليس على غرار غرفة في فندق، ولكن أقرب إلى غرفة في مأوي بسيط للمبيت والإفطار، على ما تصوَّرت. باستثناء كتاب سميك بغلافٍ ورقي وعبوة من أقراص النعناع ذات القوة الإضافية على الكومودينو الملاصق للفراش، لم يكن في الغرفة أي شيء ذو طابع شخصي، ولا إشارة واحدة تنم عن شخصية صاحبها. وقد صدمني هذا، ولكن على ألطف نحوٍ ممكن، فلم يكن لديها شخصية خاصة بها؛ كانت أمًا، امرأة طيبة ومحبة، ولن يقول أحدٌ عنها أبدًا أشياء من قبيل: «كانت مخبولة، المدعوة 'بيتي' تلكَ» أو: «لا يمكن للمرء أن يخمّن أبدًا ما الذي قد فعلته 'بيتي' الآن!» أو: «بعد مراجعة تقارير الأطباء النفسيين، تم رفض الإفراج عن 'بيتي' بكفالة بناءً على أنها تمثل خطرًا مطلقًا على أفراد المجتمع وسلامته.» كانت، بكل بساطة، سيدة لطيفة، رعت أسرتها، وربَّت أبناءها، وتعيش الآن عيشة هادئة مع قططها، وتزرع الخضروات. كان هذا يعدُّ لا شيء وكل شيء في الوقت ذاته. سألتُ: «ألا تساعدك أختك في شؤون والدتكما، يا 'ريموند'؟» كان يتشاجر مع اللحاف بلا جدوى، فأخذته منه. مثل تلك الأمور تحتاج لبراعة خاصة، و'ريموند' رجل بلا أي براعة خاصة من هذه الناحية. بدلًا من ذلك ركَّز هو على تغيير أكياس الوسائد (كلها أزهار وكشكشات).

قال، وهو في حالة تركيز: «لا، لديها طفلان، وهما شقيان للغاية. وزوجها 'مارك' يسافر كثيرًا، وهكذا فإنها في الحقيقة ترعى الأطفال بمفردها لعدة أسابيع كلما سافر. وهذا ليس سهلًا. سوف تتحسَّن الأمور عندما يدخل الأطفال المدرسة، كما تقول.»

قلتُ: «وهكذا، هل تستمتع بكونك خالًا؟» الخال 'ريموند'، شعرتُ بأنه ليس القدوة الملائمة لأطفال أخته. هز منكبيه بلا مبالاة.

- «لا بأس، شيء ممتع وظريف. والصراحة أنه ليس هناك الشيء الكثير، أعطيهما بعض النقود أحيانًا من أجل الكريسماس وفي أعياد ميلادهم، وآخذهما للحديقة العامة مرة أو مرتين كل شهر وكفى.»

أنا، بكل تأكيد، لن أكون عمةً أو خالة أبدًا، وهذا يلائمني على الأغلب. قال 'ريموند': «لقد نفذتِ بجلدكِ من ماما وألبوم الصور هذه المرة، يا 'إليانور'. في المرة القادمة سوف تقتلكِ ضجرًا وملَلًا بحكايات أحفادها، انتظري وانظري بنفسك.»

كان يضع افتراضاتٍ أكثر ممَّا يجب في كلامه، هكذا فكَّرت، ولكنني مررت الأمر. نظرتُ إلى ساعة يدي، وفوجئتُ أن أرى أنها تجاوزت الثامنة.

قلتُ: «لا بدَّ أن أذهب، يا 'ريموند'.»

قالَ: «إذا أردتِ أن تبقي لساعة أخرى أو نحوها، سأكون قد انتهيت من كل شيء هنا ويمكننا أن

نستقل الحافلة معًا؟» رفضت، بطبيعة الحال.

نزلتُ إلى الطابق السفلي وشكرتُ السيدة 'جيبونز' على 'الشاي'. وهي، بدورها، شكرتني شكرًا عميقًا للمجيء والمساعدة في مهام المنزل.

قالت: «'إليانور'، لقد كان من الجميل لقاؤك، جدًا جدًا، أنا لم أتجاوز حدود حديقة البيت منذ شهور الآن - بسبب ركبتي هاتين - وهكذا فمن الرائع أن أرى وجهًا جديدًا، وخصوصًا إذا كان وجهًا ودودًا مثل ذلك. كما كنتِ عونًا كبيرًا في أمور المنزل، أيضًا - فشكرًا لكِ، يا بُنيتي، شكرًا جزيلًا جدًا.»

ابتسمتُ لها. مرتان في يومٍ واحد، أتلقَّى كل هذا الشكر والنظرة الدافئة الممتنة! ما كنتُ لأحسب أبدًا أنَّ بوسع تلك الأعمال الطيبة الصغيرة أن تستدعي مثل تلك الاستجابات الصادقة الكريمة. شعرتُ بشعاعٍ صغير يبرقُ في داخلي - ليس وميضًا متألقًا، بل أقرب إلى شمعة صغيرة ثابتة.

«ارجعي لزيارتي في أي وقت، يا 'إليانور' - أنا دائمًا في البيت. لستِ مضطرة لأن تأتي معه» - وطعنت الهواء بإصبعها باتجاه 'ريموند' - «تعالي بمفردكِ فقط، إذا شئتِ. تعرفين أين تجدينني. أنتِ لستِ غريبة الآن.»

بدافع اللحظة، ملتُ عليها ومسحتُ وجنتي (ليست ذات الندوب، بل الطبيعية) قريبًا للغاية من وجنتها. لم أقبلها أو أعانقها، ولكن كان هذا أقرب ما أمكنني فعله.

قالت: «مع السلامة، اذهبي لبيتك الآن في عناية الرب!»

سار 'ريموند' معي حتَّى مفترق الطرق لكي يُريني أين تقع محطة الحافلات. قال لي إنه سيكون عليَّ غالبًا أن أنتظر قليلًا، بما أنَّه يوم الأحد. رفعتُ منكبيَّ بغير اكتراث؛ كنتُ معتادةً على الانتظار، وقد علَّمتني الحياة أن أكون في غاية الصبر.

قال: «أراكِ غدًا، إذن، يا 'إليانور'.»

أخرجتُ بطاقة اشتراك الحافلة وأريتُها له. «قلتُ: «رحلات انتقال غير محدودة! «أومأ لي، وابتسم ابتسامة صغيرة. بمعجزةٍ ما وصلت الحافلة. رفعتُ يدي وصعدت على متن الحافلة. نظرتُ للأمام مباشرةً عندما تحرَّكت الحافلة لكي أتجنَّب أي حركات تلويح خرقاء.

كَم كان يومًا حافلًا. شعرتُ بأنني منهكة القوى، ولكنَّ شيئًا ما تبلور في عقلي. كل هؤلاء الأشخاص الجدد، كل تلك المغامرات الجديدة ... هذا التواصل. وجدتُ هذا كله غامرًا، ولكن لدهشتي، لم يكن بالشيء المزعج على الإطلاق. فكَّرتُ أنني قد تواءمت وجاريتُ المواقف جيدًا بصورة مفاجئة. لقد قابلتُ أشخاصًا جددًا، وقدمت نفسي إليهم، وأمضينا معًا وقتًا اجتماعيًا خاليًا من العثرات والمشكلات. وإن كان هناك شيءٌ واحد فقط يمكنني أن أستخلصه من تجارب هذا اليوم، فهو أنني مستعدةٌ تقريبًا لأن أعلنَ عن نواياي للفنان. لقد صار موعدُ لقائنا الأوَّل المنتظر أقرب مِن أي لحظة سابقة.

(١١)

لم أرَ 'ريموند' يومي الإثنين والثلاثاء. لم أفكّر فيه بالمرة، رغم أن عقلي كان يعود بين الحين والآخر إلى 'سامي' والسيدة 'جيبونز'. بالطبع كان بوسعي أن أزورَ أيًا منهما أو كليهما بدون أن يكون 'ريموند' موجودًا. والحقيقة أنَّ كلًا منهما قد أكَّد على هذا لي يوم الأحد. لكن ألن يكون من الأفضل إن كان موجودًا بجانبي؟ حسبتُ أنَّ الأمر هكذا، ليس فقط لأنه يستطيع دائمًا أن يملأ الصمت بتعليقات تافهة وأسئلة بلا معنى كُلَّما دعت الحاجة إلى ذلك. في تلك الأثناء ذهبتُ إلى مجمّع تجاري كبير لأجهزة الهواتف الجوّالة واتجهت نحو المتجر ذي الواجهة الأقل بهرجة والذي يقع في أقرب نقطة من مكان المكتب، وبعد نصيحة أتشكك فيها كثيرًا من بائع ملول، اشتريتُ في نهاية الأمر هاتفًا جوّالًا بسعرٍ معقول مع «جميع اللوازم الأخرى»، والذي أتاحَ لي أن أجري مكالمات، وأن أدخل على الإنترنت وأن أفعل أيضًا أشياء أخرى عديدة، أغلبها ليس من بين اهتماماتي بالمرة. ذكرَ البائع تطبيقات وألعاب؛ فسألتُه عن الكلمات المتقاطعة، ولكن جوابه أحبطني للغاية. كنتُ أحاول الإلمام بدليل استخدام الجهاز الجديد، بدلًا من أن أكمل تفاصيل ضريبة القيمة المضافة لفاتورة السيد 'ليونارد'، عندما انتبهت لحديثٍ يدور من حولي، رغمًا عني بسبب الأصوات المرتفعة. كان موضوع الحديث، من بين كل الأشياء الممكنة، حفل الغداء السنوي للمكتب بمناسبة الكريسماس.

كانت 'برناديت' تقول: «صحيح، ولكنهم يقدّمون فقرات ترفيهية هناك! كما أن كثيرًا من المجموعات الكبيرة الأخرى تذهب إلى هناك، وهكذا يمكننا أن نتعرّف بأشخاص جدد، وأن نضحك.»

فقرات ترفيهية! تساءلتُ إن كان هذا يشمل فرقًا موسيقية، وإن كان كذلك، فهل من الممكن أن يشمل فرقته *هو*؟ معجزة مبكرة للغاية من معجزات الكريسماس؟ هل هذا هو القَدر يتدخَّل من جديد؟ قبل أن أستطيع أن أسألهم حول التفاصيل، وثب بيلي على الحوار.

قال 'بيلي': «كل ما يلزمك هو أن تتعرَّفي بأحد الرجال السكارى من شركة 'آلايد' للسجاجيد، ربما تتبادلين معه الغزَل وخلافه تحت نباتات الهدال. من المستحيل أن أدفع ستين جنيهًا بحالها من أجل أن أتناول لحم ديك رومي روستو مجفف على العشاء وأسمع موسيقى ديسكو مبتذلة طوال المساء. ليس لكي تستطيعي اكتشاف بعض المواهب الشابة!»

قوقأت 'برناديت' وصفعته على ذراعه.

قالت: «كلَّا، الأمر ليس كذلك. إنني أفكّر فقط أنه قد يكون من المسلّي أكثر إن كان هناك جمع أكبر من الأشخاص، ذلك كل ما هنالك...»

ألقت 'جيني' نظرة ماكرة نحو الآخرين، معتقدةً أنني لم أرها. رأيتُ عينيها تشير نحو ندوب وجهي، كما يفعلون غالبًا.

قالت لهم بصوت غير هامس للغاية: «فلنسأل 'هاري بوتر' الجالس هنالك.» ثم التفتت لتخاطبني. «'إليانور'، انظري، يا 'إليانور'! ما رأيكِ، فأنت ابنة المدينة بدرجةٍ ما، صحيح؟ بماذا تنصحين: إلى أين ينبغي أن نذهب لإقامة غداء الكريسماس الخاص بالمكتب هذا العام؟»

وَجهتُ نظرة تركيز مفرط نحو التقويم السنوي الخاص بالمكتب والمعلق على الجدار، والذي

كان عليه، لهذا الشهر، صورة شاحنة نقل خضراء ذات مقطورات مغلقة.

قلتُ: «إنه منتصف الصيف، لا يمكنني أن أقول إنني أوليتُ هذا الأمر أي تفكير على الإطلاق.»

قالت: «صحيح، ولكن يجب علينا أن نحجز في مكانٍ ما الآن، وإلَّا فإن جميع الأماكن الجيدة ستكون قد حُجزت، ولن يتبقى أمامنا إلَّا أماكن مثل 'ويثيرسبونز'، أو أماكن إيطالية حقيرة.»

قلتُ: «هذا الأمر كله لا أهمية له بالمرة عندي، فلن أذهب على أي حال.» فركتُ الجلد المتشقق ما بين أصابعي - كان قد بدأ يُشفَى، لكنَّ الشفاء يحدث ببطءٍ أليم.

قالت: «آه، ذلك صحيح، فأنتِ لا تذهبين أبدًا، صحيح؟ لقد نسيتُ ذلك. كَما أنكِ أيضًا لا تتبادلين الهدايا بطريقة 'بابا نويل السري'[30]. 'إليانور جرينش'[31]، الاسم الذي اعتدنا أن نسميكِ به.» وضحكوا جميعًا.

قلتُ: «لا أفهم خلفية هذا التلميح الثقافي، ورغم ذلك، لكي أوضح الأمر، فإنني مُلحدة، ولستُ من مدمني الاستهلاك، وهكذا فإنَّ مهرجان التسوّق الخاص بمنتصف الشتاء والمعروف لدى البعض بأعياد الميلاد لا أهمية له عندي تقريبًا.»

عدتُ للتركيز على عملي، على أمل أن أوحي لهم بأن يفعلوا الأمر مثله. كانوا مثل الأطفال الصغار، من السهل للغاية تشتيت انتباههم، ويسرهم أن يقضوا ما يبدو كأنه ساعات في مناقشة السفاسف والتفاهات والنميمة في أحوال مَن لا يعرفونهم.»

فقال 'بيلي': «يبدو أنَّ شخصًا ما هنا كانت لديه تجارب سيئة في مغارة 'بابا نويل' ذات يومٍ فيما مضى.» وعندئذٍ، رنَّ جرس التليفون من حسن الحظ. ابتسمتُ ابتسامة حزينة. لم يتمكن من الخوض في تخيُّل طبيعة التجارب السيئة التي مررتُ بها *ذات يومٍ فيما مضى*.

كان اتصالًا داخليًا: 'ريموند'، يسألني إن كنت أريد أن أذهب معه الليلة لزيارة 'سامي' مرةً أخرى. إنه يوم الأربعاء. سأفوّت الدردشة الأسبوعية مع ماما. لم أفوّت واحدة منها، ولا مرَّة خلال كل تلك السنين. ولكن مع هذا، ما الذي يسعها أن تفعله بهذا الشأن، على كل حال؟ لا ضرر كبير في تفويته، هذه المرة فقط، كَما أنَّ 'سامي' في حاجةٍ لطعامٍ مُغذٍ. وافقْت.

كان موعدنا محددًا في الخامسة والنصف. أصررتُ أن نلتقي أمام مكتب البريد، خوفًا من رد فعل زملائي إذا ما رأونا نغادر العمل معًا. كان مساءً معتدلًا ولطيف الجو، فقررنا أن نتمشى حتَّى المستشفى، وهو ما لا يستغرق إلَّا عشرين دقيقة. كان 'ريموند' بلا شك في حاجة لبعض التمرينات البدنية.

قال، وهو يدخن بينما نسير: «كيف كان يومك، يا 'إليانور'؟» غيرتُ الجانب الذي كنت أمشي به في محاولة لأن أضع نفسي بعيدًا عن مهب السموم المؤذية.

- «أنا بخير، شكرًا لك. تناولت على الغداء شطيرة جبن ومخلل ورقائق بطاطا مملحة جاهزة وعصير مانجو مخفوقًا.» نفخَ دخانه بجانب فمه وضحك.

«هل حدث أي شيء آخر؟ أم أنها الشطيرة وحسب؟»

فكرت بهذا الشأن. قلتُ له: «كانت هناك مناقشة مطوّلة حول أماكن تناول غداء الكريسماس، وكان من الواضح أنَّ الخيارات انحصرت في سلسلة مطاعم 'تي جي آي فرايدايز'، لأنَّها (مَرحة)» - هُنا، جرّبتُ أن أشير بإصبعي الصغير - وهي إيماءة تشير إلى قوسي التنصيص، وقد رأيتُ 'جيني' تؤديها ذات مرة وخزَّنتُها جانبًا من أجل استخدامها في المستقبل؛ أعتقد أنني أحسنتُ أداءها بكل ثقة - «إمَّا ذلك وإمَّا بوفيه كريسماس في مطعم 'بومباي بريستو' الهندي.»

قال 'ريموند': «طبعًا أفضل شيء للكريسماس هو أرز البرياني بلحم الضأن، صحيح؟»

دعسَ عقب سيجارته، وقد ألقاها على الرصيف. وصلنا إلى المستشفى وانتظرت 'ريموند'، بإهماله المتوقَّع، حتَّى يذهب للمتجر في الطابق الأرضي. لا يوجد في الحقيقة أي عُذر ليكون غير مستعد هكذا. أمَّا أنا فقد ذهبت إلى مَتجر 'ماركس آند سبنسر' قبل أن ألتقي به مباشرةً، واشتريتُ بعض الأشياء المتنوعة من هناك، بما في ذلك علبة صغيرة من بذور اليقطين. فكَّرتُ أنَّ 'سامي' في حاجةٍ ماسة لمادة الزنك. خرج 'ريموند' وهو يؤرجح كيسًا بلاستيكيًا، وفي المصعد فتحه وأراني ما اشتراه.

قال وهو يبدو فخورًا بنفسه تمامًا: «حلوى 'الهاريبو' الألمانية، جريدة *إيفننج تايمز*'، علبة كبيرة من الكريمة الحامضة ورقائق بطاطا 'برنجلز' بطعم الثوم. ماذا يمكن لأي رجل أن يتمنى أكثر من ذلك، صح؟». لم أتلطف على هذا بأي رد.

توقَّفنا أمام مدخل العنبر؛ كان فراش 'سامي' محاطًا بالزوَّار. رآنا وأشارَ لنا بالاقتراب. نظرتُ حولي، لكن الممرضة القاسية ذات الجوربين المخططين كانت غائبة تمامًا عن النظر. كان 'سامي' مضطجعًا في سرور على كومة من الوسائد، وهو يحادث الجمع الصغير المحيط به.

«'إليانور'، 'ريموند' - شيء رائع أن أراكما مجددًا! تعاليا وقابلا الأسرة! هذا هو 'كيث'. الأولاد في البيت مع أمهم. وهذا هو 'جاري' ومعه 'ميشيل'، وهذه» - وأشارَ نحو امرأة شقراء كانت تكتب شيئًا على هاتفها الجوّال بتركيز بالغ. «فهي ابنتي 'لورا'.»

انتبهتُ أنَّ الجميع كانوا يبتسمون ويومئون، وعندئذٍ كانوا يتصافحون، ويربتون على ظَهر 'ريموند'. كان موقفًا غامرًا للغاية. كنتُ أفضّل لو أنني ارتديت قفازاتي القطنية البيضاء، بدلًا من استخدام معقّم اليدين - فكّرت أنَّ بوسعي غسلهما بماءٍ ساخن بمجرد أن أرجع إلى البيت. تسبَّب هذا في شيءٍ من التردد عند المصافحات، وهو ما كان غريبًا - ألم يكن من الأفضل وجود حاجز من القطن بين بشرة يد كلٍ منا والآخر؟

قال الأخ الأكبر، 'كيث'، وهو يمسح يديه في بنطاله من الأمام: «شكرًا جزيلًا لكما على رعاية أبي، يا جماعة، لهذا قيمة كبيرة عندنا أن نعرف أنه لم يكن بمفرده تمامًا عندما حدث ما حدث، وأن هناك أشخاصًا يعتنون به.»

فقال 'سامي'، وهو يلكزه بمرفقه: «مهلك، الآن، أنا لستُ مسنًا مريضًا ضعيفًا، كما تعلم. أستطيع أن أعتني بنفسي.» وابتسم كلٌ منهما للآخر.

«طبعًا تستطيع، يا أبي. أنا فقط أقول إنه من اللطيف أن يكون بجانبك وجه ودود أحيانًا، صحيح؟»

رفعَ 'سامي' منكبيه، من غير أن يقره على رأيه ولكنه ترك الأمر يمر بسلام.

قال 'سامي' لنا، وهو يضطجع للوراء في رضا على وسائده، بينما كنتُ أنا و'ريموند' نضع أكياسنا على طرف الفراش وكأنها المُر والبخور عند قدمي تمثال مقدَّس: «لدي بعض الأنباء الطيبة لكما، سوف أخرج يوم السبت!»

رفع 'ريموند' كفًا مبسوطًا ليضربه بكف 'سامي'، ولكن 'سامي' عندئذٍ وبعد بعض الحَرج المبدئي لم تكن لديه أدنى فكرة لماذا تمدد نحو وجهه يدٌ لحيمة هكذا فجأة.

قالت ابنته 'لورا'، وقد رفعت بصرها أخيرًا عن هاتفها الجوّال: «سوف يأتي ليقيمَ لديَّ لبضعة أسابيع، فقط حتَّى يشعر بالثقة مع السير باستخدام المشَّاية المعدنية»، ثم أضافت بحماسة أقل على نحوٍ ما: «سوف نحتفي به في حفلٍ صغير! كلاكما مدعو، بالتأكيد.»

كانت تحملق فيَّ. لا مشكلة عندي في ذلك. فإنني، في الحقيقة، أفضّل هذا على استراق النظر

خفية - أمَّا منها، فقد تلقيتُ نظرة تقييم صريحة، مفعمة بالافتتان، ولكن لم يبد أن هناك أثر من خوف أو اشمئزاز. رفعتُ بعض خصلات شعري عن وجهي، لكي أتيح لها رؤية أفضل.

قلتُ: «هذا السَبت؟»

فقال 'سامي': «والآن، يا 'إليانور'، إياكِ أن تقولي إنكِ مشغولة. لا أعذار. أريدكما أن تأتيان. انتهى الأمر.»

فقال 'ريموند'، مبتسمًا: «ومَن نكون لنعترض على هذا؟» فكَّرتُ في الأمر. حفل. آخر مرة حضرتُ فيها حفلًا - باستثناء حفل استقبال الزفاف الرهيب ذلك - كان في عيد ميلاد 'جودي جاكسون' الثالث عشر. كان فيه تزلج على الجليد وشراب مخفوق الحليب، ولم ينتهِ نهاية جيدة. بالتأكيد لن يتقيأ أحد أو يقطع إصبعه في حفل ترحيب بالمنزل برجل مسن مريض؟

قلت، وأنا أميلُ رأسي قليلًا: «سوف أحضر.»

فقالت 'لورا': «ها هي بطاقتي.» وهي تمرر واحدة لي وأخرى 'لريموند'. كانت بطاقة تعريف سوداء لامعة، منقوش عليها بالنقش البارز ورقة شجر ذهبية، ومكتوب عليها: 'لورا' *مارستن-سميث، خبيرة تجميل، ومصففة شعر، ومستشارة للمظهر الشخصي*، إلى جانب بيانات الاتصال بها بالأسفل.

«السابعة مساء يوم السبت، اتفقنا؟ لا تحضرا أي شيء، أنتما فقط.»

وضعتُ البطاقة بكل حرص في محفظة نقودي، أمَّا 'ريموند' فقد دسَّها في جيبه الخلفي. لاحظتُ أنه لم يكن يستطع أن يرفع عينيه بعيدًا عن 'لورا'، وكان واضحًا أنها نوَّمته مغناطيسيًا بنفس الطريقة التي قد تنوم بها حيةٌ حيوانَ النمس قبل افتراسه. كان واضحًا أنها مُدركة لتأثيرها. أحسب أنها قد اعتادت ذلك، بمظهرها هذا: شعر أشقر ونهدان ممتلئان، كل هذا مبتذل ومكرور، وأوضح ممَّا يجب. رجالٌ أمثال 'ريموند'، وجميع المارَّة من الحمقى تُشتت انتباههم على الدوام نساءٌ مِن أمثالها وبنفس مظهرها هذا، وليس لديهن شيئًا من الذكاء أو ثقافة الفكر بقدرٍ يتجاوز ما لدى الثدييات ومُركَّب البيروكسيد.

اقتلع 'ريموند' عينيه بالكاد بعيدًا عن فتحة صدر ثوب 'لورا' ونظر نحو ساعة الحائط، ثم بنظرة تركيز نحوي.

قلتُ: «سوف ننصرف، ونلتقي مرة أخرى يوم السبت.» ومرة أخرى، كانت هناك هجمة كاسحة من التحيات والمصافحات. في الأثناء كان 'سامي' ينبش الأكياس التي أحضرناها له. رفع عبوة نبات الكرنب الأجعد المزروع عضويًا.

فقال، بنظرة متشككة: «ما هذا الشيء بحق السماء؟» همستُ لنفسي، *مصدر للزنك*. قادني 'ريموند' نحو خارج العنبر بشيءٍ من الغِلظة، كما شعرت، وقبل أن تسنح لي فرصة لأن أذكر أن سلطة الحبَّار لا بد أن يتم تناولها على الفور. كانت حرارة الجو في عنبر المستشفى دافئة للغاية.

(١٢)

في اليوم التالي، وبينما كنتُ في العمل أنتظر أن يسخن الماء في الغلَّاية، وقعت عيناي على نشرة دعاية مُلقاة على كيس تدوير الأوراق الخاص بالمكتب، إلى جانب كومة من مطويات للإعلان عن أماكن قضاء عطلات ومجلات نميمة انطوت أطراف صفحاتها من فرط الاستخدام. كانت نشرة الدعاية التي رأيتها خاصة بمتجرٍ ما في وسط المدينة -ليس مكانًا أتردد عليه- يقدّم عرضًا خاصًا بمناسبة الافتتاح، مانحًا خصمًا رائعًا بكل وضوح بنسبة ثلث السِعر الأصلي من «مانيكير مدلل فاخر». حاولت بإخلاص لكنني أخفقتُ في تخيُّل ما الذي قد يشتمل عليه المانيكير المدلل الفاخر هذا. إذ كيف يمكن أن يضفي المرء سمات التدليل على عملية بسيطة مثل قص الأظافر وطلائها؟ كان الأمر، حرفيًا، فيما وراء خيالي. شعرتُ برجفة تشويق وحماس تسري فيَّ، ولم يكن هناك غير سبيل واحد فقط لاستجلاء حقيقة الأمر. ومع خطة التبرج الحيوانية التي وضعتُها لنفسي، فسوف أوجّه اهتمامي نحو مخالبي.

كنتُ قد أهملتُ بدرجةٍ ما خطط تحسين الذات مؤخرًا، بعد أن تشتت انتباهي بسبب حادث 'سامي' المؤسِف والأحداث التي نجمت عنه. ولكن حان الوقت لأن أستعيد التركيز على الهدف: الفنان. سمحتُ لنفسي بأن أنغمس في خطيئة الافتخار بالذات لوَهلة عابرة. كانت أظافري تنمو سريًعا للغاية، وكانت قوية ولامعة. وأُرجعُ هذا إلى نظامي الغذائي الذي يحتوي على كل ما هو ضروري من فيتامينات ومعادن وأحماض دهنية، وهو ما أحصل عليه من الحِمية الغذائية اليومية التي أعتني بالتخطيط لها. إنَّ أظافري ثمرة التفوق المطبخي لمطاعم الشارع الرئيسي الإنجليزي. ولأنني لستُ شخصًا يميل للتباهي التافه، فقد اعتدتُ أن أقصها بالقصَّافة عندما تصبح أطول ممَّا يجب لكي أحظى بالراحة في أثناء عملية إدخال البيانات، وكنتُ أبرُد الزوايا الحادة المتبقية بحيث لا تندس وتنغرس في الأقمشة أو لا تخدش بشرتي بينما أستحم. لَطَالما كانت أظافري نظيفة، فالأظافر النظيفة، شأنها شأن الأحذية النظيفة، أمر أساسي من أجل احترام المرء لنفسه. ورغم أنني لست شخصًا مولعًا بتجميل مظهره ولا مواكبًا للموضة، فإنني نظيفة على الدوام؛ فهكذا، على الأقل، يمكنني أن أرفع رأسي عاليًا عندما أتخذ مكاني، وإن لم يكن ساميًا، في هذا العالَم.

في أثناء استراحة الغداء، توجَّهت صوب وسط المدينة، وفي الطريق تناولت شطيرة من أجل كسب الوقت. بعد أن تفكَّرتُ في الأمر، تمنيتُ لو كنتُ اخترتُ طعامًا أقل إثارة للفضول؛ لأنَّ البيض وخضار الرشاد ربما لم يكن الخيار المعقول لآكله في عربة ترام مزدحمة ودافئة. وكنتُ أنا والشطيرة معًا نجذب نحونا نظرات نفور واستياء من رفاقنا الركّاب. في الأحوال المعتادة أشمئز بشدة من تناول الطعام وسط الناس على الملأ، وهكذا فإنَّ رحلة الثماني دقائق لم تكن تجربة سارة بالنسبة لجميع الأطراف المَعنية.

وجدتُ الرُكن الخاص بتدريم الأظافر في الجانب الخلفي من صالون التجميل، وقد كان أقرب إلى مخزن صغير مضاء بكشاف ضخم، وحافل بالمرايا والعطور والضجيج. شعرتُ بأنني حيوان وقع في الأسر -عِجل أو كلب مسعور- وتخيَّلتُ مقدار الفوضى الذي يمكنني أن أتسبب فيه إذا انطلقتُ أتحرك في جموح، وإذا حُبستُ هُنا رغم إرادتي. قبضتُ بشدة على نشرة الدعاية، وكوّرتها بداخل جيب سترتي.

«Nails Etcetera» - تساءلتُ تُرى إلى أي إضافات يشيرُ التعبير اللاتيني؟ - اتضح أنَّه يتألف

من طفلتين ضجرتين في مريول سابغ أبيض، جالستين إلى نضد خشبي مرتفع وأمامه على الناحية الأخرى أربعة مقاعد عالية بلا ظهر، ورَف متحرك من قوارير طلاء الأظافر بكل لون معروف من الشفَّاف إلى القطران الأسود. اقتربتُ في حذر.

قالت لي الطفلة الأصغر حجمًا بينهما: «مرحبًا بك في قِسم العناية بالأظافر، *كيفيمكننيمساعدتكاليوم*؟» احتجتُ وهلةً لكي أترجم ما قالته بلغةٍ مفهومة.

قلتُ لها: «مساء الخير»، وأنا أتعمد النطق ببطء وبصوت منغَّم بدرجةٍ مُبالَغ فيها، حتَّى أعطيها إشارة للطريقة السليمة التي على المرء أن يتحدث بها حتَّى يتمكن من التواصل مع الآخرين بكفاءة. كانت هي ورفيقتها تحدجان فيَّ، كانت تعبيرات وجهيهما مزيجًا مِن الفَزع و ... حسنًا، كان الفزع ولا شيء سواه. ابتسمتُ على نحوٍ تمنيتُ أن يكون مطمئنًا لهما. كانتا صغيرتين للغاية، إنما على كل حال - ربما يكون هذا نوعًا من التدريب المدرسي على تجربة الحياة العملية وهُما الآن بانتظار رجوع مُعلمتهما.

قلتُ بأقصى ما استطعتُ من وضوح: «أريد أن أستفيد من عرض المانيكير المدلل الفاخر، من فضلك». رانَ صمتٌ طويل وثابت بينما لم يحدث أي شيء. بدا أن الأقصر قامةً بينهما كانت هي أوَّل من استفاقت من غشيتها.

«تفضلي بالجلوسَ»، قالت لي وهي تشير إلى أقرب المقاعد المرتفعة، بينما ظلَّت صاحبتها في حالة التجمُد المذهول تلك. الأقصر قامة ('كيسي'، وفقًا لشارة الاسم على صدرها) أخذت تتحرَّك هنا وهناك بغير تركيز ثم جثمت أمامي، ووضعت أولًا سُلطانية عميقة تكاد تفيض بالماء الدافئ برغوة الصابون. وبرمت رف طلاء الأظافر على محوره الثابت ليبرز باتجاهي.

قالت: «أي لونٍ تُفضلين؟» انجذبت عيناي نحو درجة لون خضراء برَّاقة، نفس درجة لون جلد الضفدع الأمازوني السام، تلك المخلوقات الضئيلة التي تقتل بكل بهجة. اخترته وناولته لها، فأومأت. لم تكن في الحقيقة تمضغ علكة، ولكن طريقتها كانت كأنها تمضغ علكة.

تناولت يديَّ ووضعت أطراف أصابعي العشرة في الماء الدافئ. كنتُ في غاية الانتباه لئلَّا يلمس أي جزء آخر من لحم أصابعي تلك المواد المطهرة المجهولة، خشية أن تلتهب الإكزيما. ظللتُ جالسةً هنالك لبضع دقائق، وأنا أشعرُ بشيءٍ مِن الغباء، بينما نبشت هي في دُرج قريب وعادت بمجموعة متنوعة من الأدوات المصنوعة من الاستانلس ستيل، ورصَّتها في عناية على صينية. انبثقت الحياة فجأة في صاحبتها المتخشبة وأخذت تثرثر بحماسة لزميلة لهما تعمل في فرع مُنتَج مختلف؛ لم أميّز موضوع حديثهما، لكنه بدا موضوعًا يجلب بعض دوران الأعين ضجرًا وهز الكتفين عَجبًا.

قدَّرَت 'كيسي' أن اللحظة مناسبة لرفع يديَّ من الماء، ثم وضعَتهما على قطعة مطوية من قماش الفانيلا. مسَّدَت كل أنملة بعناية وحرص لكي تجففها. تساءلتُ لماذا لم تطلب مني ببساطة أن أرفع يديَّ مستخدمةً صوتها وأن تمرر لي المنشفة بحيث يمكنني أن أجففهما باستخدام يديَّ، بما أنني أتمتَّع حتَّى اللحظة الراهنة بكامل قدرتي ووظائفي الحركية في جميع أطرافي وجوارحي! ربما كان ذلك هو معنى التدليل حرفيًا: عدم الاضطرار لتحريك إصبع.

انطلقت 'كيسي' في عملها مستخدمة الأدوات، دافعة أجزاء بشرتي للوراء ومدرّمة إياها حيث استدعت الحاجة. جرَّبتُ أن أبدأ معها حديثًا بسيطًا، مدركةً أنَّ هذا هو الأمر اللائق في مثل هذه الظروف.

سألتُها: «هل تعملين هُنا منذ فترة طويلة؟»

فقالت: «منذ عامين»، واندهشتُ لذلك - فقد بدت لي في الرابعة عشرة تقريبًا، وبقدر عِلمي فإنَّ عمالة الأطفال لا تزال محظورة قانونيًا في هذا البلد.

- «وهل أردتِ دائمًا أن تَعملي ...» رحتُ أفتش عن كلمة 'مانيكيرة'،

صححت لي: «خبيرة تجميل أظافر.» كانت منهمكة في مهمتها ولم تنظر إليَّ بينما كانت تحادثني، وهو ما استحسنتُه بشدة، فما مِن حاجة قطعًا لأي تواصل بصري عندما يستخدم الشخص أدوات حادة.

واصلَت قائلة: «أردتُ إمَّا أن أعمل مع الحيوانات أو أن أكون خبيرة تجميل أظافر.» انتقلت الآن لعمل تدليك لليد. المزيد من التدليل الفاخر، على ما أفترض، رغم أنني وجدتُه شيئًا تافهًا وبلا طائل، وكنت أخشى من حدوث أي حساسية محتملة. كانت يداها صغيرتان للغاية، تقريبًا بصغر يديَّ (اللتين لسوء الحظ أصغر من المألوف، مثل يديَّ ديناصور!). كنتُ أفضل أن يقوم رجل بتدليك يديَّ؛ يدان أضخم وأقوى وأصلب، وعليهما شَعر.

قالت: «وهكذا، لم أستطع أن أختار بين الحيوانات والأظافر، فسألتُ أمي عن رأيها، وقالت لي أنني يجب أن أعمل خبيرة تجميل أظافر.» التقطت شريطًا مقوَّىً للتدريم والتنعيم وأخذت تشكّل أظافري. كانت عملية مُربكة، شيءٌ من الأسهل على الإطلاق أن يفعله المرء لنفسه.

قلتُ: «هل والدتك خبيرة اقتصادية أم أنها مستشارة مؤهلة في مجال المهن والتشغيل؟» حدقت 'كيسي' فيَّ. أكملتُ قائلة وأنا كلي اهتمام حقيقي باحتمالات مستقبلها العملي: «لأنها إن لم تكن كذلك، فلستُ واثقة أنَّ نصيحتها لكِ بالضرورة مدعمة بأحدث البيانات حول استقراءات متوسط الدخل ومتطلبات سوق العمل.»

فأجابت في صرامة: «إنها وكيلة سفريات.» وكأنَّ قولها هذا يحسم الأمر. تجاهلتُ الموضوع، فالأمر لا يعنيني على كل حال، وقد بدت سعيدةً بعملها بقدرٍ كافٍ. وبينما كانت تطلي الأظافر بطبقات عديدة من أصباغ متنوعة، نَزلتْ عليَّ فكرة بأنَّها ربما تستطيع أن تؤلّف بين المهنتين بأن تصير خبيرة عناية بأظافر ومخالب الحيوانات. وبالرغم من ذلك، ارتأيتُ أن أحتفظ لنفسي بهذه النصيحة. في بعض الأحيان، عندما يحاول المرء أن يساعد بتقديم اقتراحات، قد يؤدي هذا إلى حالات سوء فَهم، وليست جميعها مستحبَّة تمامًا.

وضعَت يديَّ في ماكينة صغيرة كانت، على ما افترضت، مثل مجفف شعر ولكن للأظافر، وبعد دقائق معدودة كان تدريم الأظافر الموصوف بالتدليل الفاخر قد انتهى تمامًا. كانت التجربة في المجمل مُخيبة للتوقعات قليلًا.

أخبرتني بالثمن المطلوب، وكان بكل صراحة باهظًا للغاية. قلتُ: «إنَّ معي نشرة العَرض الخاص.» فأومأت، دون حتَّى أن تطلب التأكّد من الأمر، وخصمت الثلث اللازم، وقالت المبلغ المطلوب، والذي لا يزال جالبًا للدوار. مددتُ يدي نحو حقيبة اليد الكبيرة، لكنها قالت: «توقفي!» بنبرة محذرة للغاية. فتوقفت.

قالت: «سوف تفسدين أظافرك.» اقتربت للأمام. «سوف أُخرج لكِ محفظة نقودك، بعد إذنك.»

خشيتُ أن تكون تلك إحدى الحِيل المقصودة لكي تنتزع مني المزيد من نقودي التي أكدح لأكسبها، لذا فقد راقبتها وكأنني صقر بينما مدت يدها داخل حقيبتي. تذكَّرتُ، بعد أن فات الأوان، البقايا غير المأكولة من شطيرة البيض والتي كانت ترقد في جوف الحقيبة. أصدرَت بكل تباهٍ صوتَ اشمئزاز كأنها على وشك التقيؤ بينما تستخرج محفظتي. رد فعل مُبالَغ فيه قليلًا، هذا ما أحسست، نعم، كانت الرائحة التي أفلتت كبريتية حارقة بدرجةٍ ما، لكن مع هذا، لا حاجة للتمثيليات

الإيمائية الفاقعة. ظلّت عيناي مثبتتين على أصابعها (بأظافر غير مطلية، كما لاحظت) بينما استخرجت الأوراق النقدية المطلوبة وأعادت المحفظة إلى الحقيبة بمنتهى الحرص.

قمتُ واقفة، متأهبة للمغادرة. كانت رفيقتها السابقة قد عادت، وألقت نظرة سريعة على يديَّ التي تتلألأ أناملها بالأخضر، فقالت: «لطيف»، وكانت نبرتها ولغتها الجسدية يوحيان بأنها لا تهتم بالأمر أدنى اهتمام. أصبحت 'كيسي' أكثر حيوية بدرجةٍ طفيفة، وقالت: «هل تودين الحصول على بطاقة عميل دائم؟ بهذه الطريقة تحصلين على مرة مجانية على كل خمس مرات!»

فقلت: «كَلَّا، شكرًا لكِ، لا أريد أن أكرر مسألة الأظافر هذه مرة أخرى. يمكنني أن أفعل نفس الشيء بنفسي في المنزل، بل أفضل، ومن غير أن أدفع شيئًا.»

انفتح فمُّ كلٍ منهما على اتساعه، ولكنني قلتُ ذلك وانطلقت، وأنا أتخذُ طريقي عائدةً إلى العالَم الطليق، متجنبةً الاقتراب من عبوات رش العطور وفتيات ترويج العينات في طريق مروري بقسم العطور. كنتُ أتوقُ للوجود في الخارج حيثُ الضوء الطبيعي والهواء الطلق مِن جديد. إنَّ الحواف المذهبة لصالون التجميل لم تكن بيئتي المفضَّلة؛ مثلي مثل الدجاجة التي باضت البيض الذي في شطيرتي، كنتُ مثلها مخلوق ينتمي للمراعي الحرة المفتوحة.

عدتُ للبيت بعد يوم العمل وفتحتُ خزانة ملابسي. ماذا أرتدي للذهاب إلى الحفل؟ كان عندي بنطالان أسودان وخمس بلوزات بيضاء - حسنًا، كانت بيضاء في الأصل - وهذا ما أرتديه عند الذهاب إلى العمل. وكان عندي سروال مريح، واثنان من التيشيرتات والكنزات الصوفية مغلقة الصدر، وهذا ما أرتديه في أيام العطلة الأسبوعية. إذا استبعدنا ذلك كله يتبقى ثوب المناسبات الخاصة، كنتُ قد اشتريته من أجل حفل استقبال زفاف 'لوريتا' منذ سنوات، وقد ارتديته في حفنة مناسبات منذ ذلك الحين، بما في ذلك زيارة خاصة للمتحف الوطني الأسكتلندي. كانوا يعرضون قَطعًا رومانية مكتشفة حديثًا وكانت في غاية الروعة؛ غير أن الرحلة نفسها إلى إدنبره لم تكن كذلك بالمرة.

كانت عربات القطار من الداخل أقرب ما تكون إلى حافلة منها إلى قطار الشرق السريع (أورينت إكسبريس)، ممتلئة بالأنسجة الغليظة التي تتحمَّل الاستخدام ذات الألوان التي لا تُظهر البقع والتجهيزات من البلاستيك الرمادي. وهذا فضلًا عن المسافرين الآخرين. ربَّاه، إن العامة والغوغاء يسهل عليهم الانتقال من هنا إلى هناك في هذه الأيام، وهم لا يتحرجون بالمرة من الأكل والشرب في الأماكن العامة بأقل قدرٍ ممكن من المحظورات، والأسوأ من كل ذلك كان الضجيج الذي لا ينقطع لمكبرات الصوت الداخلية، فقد بدا لي أنَّ هناك إعلانًا كل خمس دقائق يصدره مرشد خرافي غير مرئي، وهو يلقي علينا بفصوص الحكمة النادرة من قبيل: *ينبغي وضع الأغراض الكبيرة على رفوف الأمتعة فوق المقاعد*، أو: *على الركَّاب أن يبلغوا طاقم القطار بأسرع ما يمكن عن أي أغراض غير معروف مَن صاحبها*. تساءلتُ لمَن كانت توجَّه هذه اللآلئ البليغة الحكيمة؛ كائن من الفضاء الخارجي عابر بالأرض، ربما، أم راعي ثيران مِن 'أولان باتور' عاصمة منغوليا استطاعَ أن يعبرَ السهول بعربات تجرها الثيران، وأن يبحر في عباب بحر الشَمال، حتَّى وجدَ نفسه فجأة على خط قطار 'جلاسجو - إدنبره' من دون أي خبرة سابقة حرفيًا بأي وسيلة انتقال آلية؟

انتبهتُ أن ثوب المناسبات الخاصة قد أصبحَ الآن بدرجة ما عتيق الطراز. لم يكن الليموني لونًا يلائمني على النحو الأمثل؛ لا بأس به في جلابيب النوم، إذ أرتديه في خصوصية غرفة نومي، لكنه يكاد لا يُلائم لقاءً مهمًا بأشخاص آخرين. سوف أذهب للمتاجر غدًا وأشتري شيئًا جديدًا؛

سيكون بوسعي أن أرتديه مرة أخرى عندما أذهب إلى مطعم أو مسرح برفقة حبي الحقيقي، وهكذا لن يكون المال مهدرًا. إذ شعرتُ بالسعادة لهذا القرار، أعددتُ طبقي المعتاد من *المعكرونة بصلصلة البيستو*، واستمعتُ إلى حلقة جديدة من مسلسل *الرُماة*. كانت تدور في سياق خط مُلتوٍ من خطوط الحكاية يتعلق بتاجر حليب من 'جلاسجو' شخصيته غير مقنعة بالمرة، وهكذا لم أستمتع بالحلقة. اغتسلتُ وجلستُ في صحبة كتاب عن الأناناس. وكان مثيرًا للاهتمام بصورة مفاجئة. أحب أن يكون نطاق قراءاتي واسعًا بقدر الإمكان لأسباب عديدة، منها مثلًا أن أوسّع حصيلة مفرداتي لمساعدتي في حل الكلمات المتقاطعة. ثم قوطعَ الصمت فجأة بمنتهى الوقاحة.

قلتُ، بشيءٍ من التردد: «ألوه؟»

- «آه، إذن ما هي إلا «ألوه» وحسب؟ أليس كذلك؟ «ألوه» - أهذا كل ما لديكِ لتقوليه لي؟ وأين كنتِ ليلة أمس، يا هانم؟ هه، ردي عليّ.» مرة أخرى كانت تلعب لعبة الابتزاز العاطفي.

قلت: «ماما، كيف حالكِ؟» وبذلت وسعي لاستجماع نفسي.

«لا عليكِ من حالي أنا. وقولي لي أين كنتِ؟»

قلتُ وأنا أحاول أن أحتفظ بصوتي ثابتًا: «أنا آسفة، يا ماما، كنتُ ... كنتُ مع صديق، نعود صديقًا آخر مريضًا في المستشفى، فعلًا.»

قالت، بصوتٍ كأنه يرشح زيتًا: «ولكن مهلًا، يا 'إليانور'، أنتِ ليس لديكِ أصدقاء، يا حبيبتي. والآن صارحيني، وقولي لي أين كنتِ *في الحقيقة*، وأريد منكِ الصدق هذه المرة. هل كنتِ تفعلين شيئًا سيئًا؟ أخبري ماما، وكوني بنتًا طيبة.»

- «بكل أمانة، يا ماما، لقد خرجتُ بصحبة 'ريموند'» - سمعتُ صوت نخرة استهانة وازدراء - «لكي نزور هذا المسن اللطيف في المستشفى. لقد وقع في الشارع وساعدناه على - »

- «**اخرسي، وكفاك كذبًا عليَّ!**» جفلتُ بخوف، وأسقطتُ الكتاب، فالتقطته مرة أخرى.

- «أتعرفين ماذا يحدث للكذّابين؟ ألا تعرفين ماذا يحدث لهم، يا 'إليانور'؟ أتتذكرين؟» كان صوتها قد استعاد العذوبة السقيمة. «لا بأس عندي بالمرة مهما كانت الحقيقة سيئة، ولكنني لن أتسامح مع الأكاذيب، يا 'إليانور'. أنتِ من بين جميع الناس ينبغي أن تعلمي هذا، ولو بعد كل هذا الزمن.»

«ماما، أنا آسفة إن كنتِ لا تصدقينني، ولكنها الحقيقة. لقد ذهبنا أنا و'ريموند' إلى مستشفى لزيارة رجل كنا قد ساعدناه عندما تعرض لحادث. هذه هي الحقيقة، أقسمُ لكِ!»

قالت بتشدق: «حقًا؟ إذن، ما أجمل هذا، أليس جميلًا؟ لا تهتمين بالتحدث إلى والدتك، ومع ذلك تقضين مساء الأربعاء في زيارة شخص ما غريب هرم لدرجة أنه يقع من طوله في الشارع؟ كل هذا ساحر.»

- «أرجوكِ، يا ماما، لا داعي لأن نتشاجر. كيف حالكِ؟ هل قضيتِ يومًا طيبًا؟»

- «أنا لا أريد التحدث عني *أنا*، يا 'إليانور'. لأنني أعرف بالفعل كل شيء عني *أنا*. بل أريد التحدث عنكِ *أنتِ*. كيف يمضي مشروعكِ؟ هل هناك أي أخبار جديدة لماما؟»

ربما كان عليَّ أن أعرف أنها سوف تتذكَّر. أي قدر ينبغي أن أخبرها به؟ كل شيء، على ما أظن.

قلتُ: «ذهبتُ إلى منزله، يا ماما.» سمعت صوت قدَّاحة وبعدها سَحب نَفسًا طويل، كنت أكاد أشم رائحة دخان سجائر 'السوبراني' الخاصة بها.

قالت: «أووووه، هذا مثير للاهتمام.» ثم سحبت نفسًا آخر ملء رئتيها وأطلقته بتنهيدة. «مَن تقصدين؟»

- «إنه الفنان، يا ماما.» لم أرغب في أن أخبرها باسمه بَعد - ثمة قوة ما في تسمية الأشياء بأسمائها، ولم أكن مستعدة تمامًا لأن أسلمَ لها هذه القوة بعد، لأن أسمع تلك المقاطع اللفظية العزيزة الغالية وهي تتقلَّب في فمها، ولأن تبصقها مرة بعد أخرى. «وهو وسيم وبارع، وأيضًا، أعتقد أنه الرجل المثالي بالنسبة لي، فعلًا. وقد عرفتُ هذا بمجرد أن رأيته.»

- «يبدو لي ذلك كله رائعًا للغاية، يا حبيبتي. وقد ذهبتِ إلى منزله، صحيح؟ أخبريني، ماذا وجدتِ هناك؟»

تنشقتُ. «الأمر هو، يا ماما ... أنا لم أدخل ... بالفعل.» لن يكون هذا أمرًا يسيرًا. إنها تحب فعل أشياء سيئة، لكنني لا أحب ذلك. كان الأمر بهذه البساطة. تحدثت بسرعة، على أمل أن أستبق انتقادها المحتوم لي. «لقد أردتُ فقط أن ألقي نظرة سريعة، وأن أتأكَّد من أنه يعيش في مكانٍ لا... لائق»، هكذا قلتُ وأنا أتعثر في الكلمات بسبب تعجلي لكي أنطق بها.

تنهدَت. وقالت بنبرةٍ تشي الضجر: «وكيف يُفترض بكِ أن تعرفي إن كان المكان لطيفًا إن لم تدخلي؟ لقد كنتِ هكذا دائمًا، مُفرطة في الحذر وجبانة، يا حبيبتي.»

نظرتُ إلى يديَّ. بدت الأظافر الخضراء المدرمة في هذه الإضاءة مبهرجة ومبتذلة للغاية.

قالت: «ما عليكِ أن تفعليه، يا 'إليانور'، هو أن تواجهي المصاعب بشجاعة. أتعرفين ما معنى هذا؟»

همست: «أظن ذلك.»

- «إنني أقولُ لكِ ببساطة أنكِ يجب أن تتوقفي عن التهيب من كل شيء والتملص من المواجهة، يا 'إليانور'. ما الحياة إلَّا اتخاذ خطوات حاسمة، يا حبيبتي. أيًا كان ما تريدين أن تفعليه، افعليه - أيًا كان ما تريدين أن تأخذيه، انتزعيه بيديكِ. وأيًا كان ما تريدين إنهاءه، **أنهه**. وتقبلي العواقب كيفما تكون.»

أخذت تتحدث بسرعة. تتحدث بنعومة وصوت خافت بحيث لم أعد أسمعها إلَّا بالكاد. وكنتُ أعلم مِن التجربة أنَّ هذا لا يبشر بخير. غمغمت تقول: «هذا الرجل ... يبدو لي أنَّ هذا الرجل فرصة جيدة، ولكنه، مثل أغلب الناس، سيكون ضعيفًا. ومعنى ذلك أنكِ يجب أن تكوني قوية، يا 'إليانور'. القوة تهزم الضعف - تلك حقيقة بسيطة من حقائق الحياة، أليس كذلك؟»

فقلتُ بكآبة وقد تقلصت ملامح وجهي. أعرف أنه تصرف طفولي، ولكن ماما قادرة على إخراج أسوأ ما فيَّ. كان الفنان وسيمًا للغاية وموهوبًا للغاية، وقد عرفت، ما أن وقعت عيناي عليه، أننا من المقدَّر لنا أن نجتمع معًا. سوف يتعهد القدر بذلك. لم أكن بحاجة لأن أتخذ أي ... خطوات حاسمة أخرى، باستثناء الحرص على أن طريقينا سوف يتقاطعان مرة أخرى - فما إن نلتقي بصورة لائقة، فإنَّ ما تبقى كان، بالتأكيد، مكتوبًا لنا بين النجوم بالفعل. شككتُ أنَّ طريقتي هذه في التعامل مع الأمر لن ترضي ماما، لكنني كنتُ معتادةً على عدم رضاها أكثر ممَّا يجب. سمعتها تأخذ شهيقًا، ثمَّ تطلق زفيرًا، وشعرتُ عبر الأثير بذلك الوعيد الناعم.

- «إياكِ وأن تنجرفي بعيدًا عن المسار الواضح الآن وقد عرفتِه، يا 'إليانور'. وإياكِ أن تواصلي تجاهل ماما، فاهمة؟ آه، تظنين أنكِ الآن ذكية للغاية، صحيح، لأن لديك *وظيفة* ولديك *أصدقاء جدد*. لكنكِ لستِ كذلك، أنتِ لستِ ذكية، يا 'إليانور'. أنت شخص يخيب ظن الآخرين فيه، شخص غير جدير بالثقة. شخص فاشل. نعم، أنا أعرفُ تمامًا ما أنتِ عليه. وأعرف كيف سينتهي بكِ

الحال. اسمعي، الماضي لم ينتهِ. الماضي كائن حي. وتلك الندوب الجميلة عليكِ - أليست مِن الماضي؟ ومع ذلك فلا تزال تعيش على وجهكِ الصغير العادي. ألا تزال تؤلمكِ؟»

هززتُ رأسي نافية، ولكنني لم أنطق بشيء.

- «آه، إنها تؤلمكِ - أعلم أنها تؤلمكِ. تذكَّري كيف أصبتِ بها، يا 'إليانور'. أكان الأمر يستحق؟ مِن أجلها **هي**؟ بلى، ولكن هناك متسعٍ على خدك الآخر للمزيد من الألم، أليس كذلك؟ أديري خدك الآخر لماما، يا 'إليانور'، وكوني بنتًا طيبة.»

وعندئذٍ لم يكن هناك غير الصمت.

(١٣)

بينما كنتُ في الحافلة متوجهة إلى العمل يوم الجمعة، شعرتُ بسَكينة على نحوٍ غريب. لم أشرب الفودكا بعد حديثي مع ماما، ولكن هذا فقط لأنني لم يكن لدي شيء منها، ولم أرغب في الخروج بمفردي في الظلام لشرائها. دائمًا بمفردي، دائمًا في الظلام. وهكذا، بدلًا من ذلك، أعددتُ قدحًا من الشاي وواصلتُ القراءة في كتابي، وقد تشتت انتباهي بين الحين والآخر كُلَّما قلبت الصفحات بسبب أظافري الخضراء ذات الوميض. أحسستُ أنني شبعت من الفاكهة الاستوائية في الوقت الراهن، وأنني بحاجة لشيءٍ آخر أقربُ إلى شؤون القلب. رواية *العقل والعاطفة*'[32]. إنها عملٌ آخر مِن بين الأعمال المفضلة عندي: من أفضل خمسة، بكل تأكيد. أحب قصة 'إلينور' و'ماريان'، وكيف تتكشَّف تدريجيًا باعتناء بالغ. وتنتهي كل شيءٍ فيها نهايات سعيدة، وهو شيء غير واقعي إلى حد بعيد، لكن يجب أن أعترف بأنها مُرْضية من ناحية السَرد، وأنا أتفهم لماذا التزمت الآنسة 'أوستين' بالشكل التقليدي. من الغريب أنني، وبالرغم من ذوقي الأدبي واسع الأفق، لم أصادف بطلات كثيرات لهن اسم 'إليانور'، بأيٍ من تنويعات الهجاء الخاصة به. ربما لذلك السبب تم اختيار هذا الاسم لي.

بعد قراءة بضعة فصول مألوفة لي، ذهبتُ إلى الفراش، غير أنني لم أنم مُطلقًا. ليلةٌ لم أنعم فيها بالسكون، وبالرغم من ذلك، فإنها لم تُخلّف آثارًا سيئة بالمرة، وهو ما أثار دهشتي، فقد شعرتُ بأنني صبوحة ومنتبهة بينما كانت الحافلة تشق طريقها عبرَ حركة المرور الصباحية. هَل مِن الممكن أن أكون واحدة من أولئك الأشخاص، مثل البارونة الراحلة السيدة 'مارغريت تاتشر'، مِن غير المُضطرين إلى النوم؟ التقطتُ نُسخة من الصحيفة المجانية التي تُلقَى دائمًا على مقاعد الحافلة، وبدأتُ أتصفحها سريعًا. امرأة شقراء ذات بشرة برتقالية من فرط التعرض للشمس، لم يسبق لي أن سمعتُ عنها، تزوَّجت زيجتها الثامنة. أنثى باندا في الأسر من الواضح أنها «أعادت امتصاص» أجنّتها، وهكذا أسقطتها وفقدت حَملها. تطلَّعتُ إلى خارج النافذة لوهلة بينما حاولت وأخفقت أن أفهم طبيعة الجهاز التناسلي لدببة الباندا. وفي الصفحة العاشرة، ظهرَ دليلٌ دامغ على الاعتداء الممنهج واسع النطاق الذي تعرض له أولاد وفتيات في سلسلة من دور الرعاية الحكومية. كانت القصص الإخبارية واردة بهذا الترتيب.

أدرتُ رأسي يمينًا ويسارًا، وكنتُ على وشك أن ألقي الصحيفة جانبًا عندما جذبَ انتباهي إعلان صغير، لمكانٍ اسمه 'الكاتنجز'، مزود بشعار لقطار فائق السرعة ينطلق على القضبان، وقد انتبهتُ له لأنَّ إجابة اللغز ذي الاثنتي عشرة خانة في الكلمات المتقاطعة ليوم أمس كانت هي Shinkansen[33]). بوسع مثل تلك المصادفات الصغيرة أن تضفي على حياة المرء نكهة مثيرة. نظرتُ في المحتوى، والذي بدا أنه إعلان عن قائمة فعاليات وحفلات وشيكة في مكانٍ ما. وكانت القائمة تتوسط اثنين من الفنانين لم أسمع عنهما قط، وكان موعده الجُمعة. الليلة.

كان هناك اسم لفرقة موسيقية ما، في الواقع لم أسمع عنها من قبل، وبعد ذلك، وبخط أصغر، اسم الفنان! أسقطتُ الصحيفة، ثم رفعتها مرة أخرى. لم ينتبه لي أحد. قطعتُ الإعلان من الصفحة، وطويته بعناية ووضعته داخل جيب في حقيبة يدي. كانت هذه هي، الفرصة التي كنتُ في انتظارها. كان هذا مكتوبًا بين النجوم، ومُرسلًا لي مِن قبل القَدر. هذه الحافلة، هذا الصباح ...

والليلة.

عندما وصلتُ إلى المكتب بحثتُ على الإنترنت عن مكان الحفل، وبدا أنه سوف يبدأ في الثامنة مساءً. كان عليَّ أن أشتري ثوبًا من أجل ذلك الحفل - والآن من أجل العرض الموسيقي - بعد نهاية يوم العمل، وهو ما لا يتيح لي وقتًا طويلًا. بِناءً على المعلومات الواردة على الموقع، فقد بدا لي 'الكاتنجز' هذا مكانًا من النوع الذي سيشعر فيه المرء بالارتياح عندما يرتدي ثيابًا على الموضة. ولكن كيف عساي إذن أن أتدبَّر الأمر بحيث أكون هناك في الثامنة مساءً، مرتدية ثيابي الجديدة ومستعدة؟ مستعدة للقائه؟ هل كان هذا أسرع ممَّا يجب؟ ألا ينبغي لي أن أنتظر حتَّى وقتٍ آخر، وأن أستعدَّ كما ينبغي؟ لقد قرأتُ في مكان ما أنَّ المرء لا تتاح له إلَّا فرصة واحدة فقط لكي يترك انطباعًا أوَّل. في ذلك الحين نبذتُ العبارة المبتذلة، لكن ربما يكون فيها بعض الحقيقة. إذا كنتُ سأخرج برفقة الفنان بمفردنا، فلا بدَّ أن يكون لقاؤنا الأول شيئًا لا سبيل لنسيانه.

أومأتُ لنفسي، وقد توصلت لقرار حاسم. سوف أذهب للتسوَّق بعد العمل مباشرةً، أشتري ثيابًا جديدة، وأرتديها ثمَّ أتوجَّه للحفل. آه، ولكن يا 'إليانور'، ليس من الممكن أن يمضي الأمر بهذه السهولة، صحيح؟ فقد كنتُ أعرف من واقع خبرتي أنَّ الحياة لا تمضي أبدًا بهذه السهولة والسلاسة. وهكذا حاولتُ أن أتوقَّع أي مشكلات محتملة وأفضل السُبل التي قد أعالجها بها. ماذا سأفعل بالثياب التي أرتديها حاليًا؟ واتتني الإجابة بكل سهولة: حقيبة يدي من النوع الكبير بما يكفي لأن أضع فيها الثياب. وماذا عن طعام العشاء؟ لستُ امرأة يمكنها أن تؤدي مهامها جيدًا على معدة خاوية، وسيكون محرجًا أن أصاب بالإغماء عند قدميه لأي سببٍ آخر غير شدة الانفعال العاطفي. حسنًا، ألا يمكنني شراء بعض الطعام من مقهى ما بعد انتهاء العمل، وأستطيع رغم هذا أن أصل إلى 'الكاتنجز' في الثامنة إلَّا الربع مساء؟ نعم، أستطيع. سوف يسمح لي هذا بوقتٍ وفير لكي أنتقي مقعدًا قريبًا من الصدارة لأحظى بأفضل رؤية ممكنة. رؤيتي له، ورؤيته لي، بالطبع. حُلّت جميع المشكلات.

لم أستطع مقاومة الرغبة في إلقاء نظرة سريعة على الإنترنت لكي أرى إن كان متحمسًا للّيلة بقدر حماسي لها. آه، شكرًا لكَ، يا تويتر.

@johnnieLrocks

اختبار الصوت: تم. قص الشعر: تم. احملوا مؤخراتكم البدينة إلى 'الكاتنجز' الليلة، أيها 'الموفوز'[34].

#الحدث_الكبير_التالي #الوغد_الوسيم

رجلٌ يقولُ ما قلَّ ودلَّ. كان عليَّ أن أبحث على موقع غوغل عن معنى mofo ولا بدَّ أن أعترف أنَّ نتيجة البحث أصابتني بشيءٍ مِن الذُعر. ومع ذلك، فما الذي أعرفه أنا عن الأساليب الجامحة لنجوم موسيقى الروك؟ أنهم يستخدمون لغة خاصة بهم غير مألوفة وسوف يعلمني إياها في الوقت المناسب، بلا أدنى شك. هل يمكن أن تبدأ الدروس الليلة؟ كان مِن العسير تصديق أنني، خلال ساعاتٍ دقيقة، سأكون في حضرته. آه، يا لرعشة الحماس واللهفة!

كانت معي رسالة من أجله في حقيبة يدي لم أرسلها بعد، وتلك علامةٌ أخرى على أن القدر كان يبتسم لي اليوم. في وقتٍ سابق من هذا الأسبوع، كنتُ قد نسختُ له بيتًا لطَالما أحببتُه مِن الشِعر، بقلم جاف ماركة 'بيك'، كم هو معجزة هندسية رخيصة الثمن هذا القلم! انتقيتُ بطاقة تهنئة باعتناء: كانت بيضاء بلا كتابة، وفي الصدارة صورة مطبوعة بحفر الكليشيهات لأرنب بري في غاية اللطف، بأذنين طويلتين، وساقين قويتين، ووجه حازم على نحوٍ مدهش. كان يحدق للأعلى نحو

القمر والنجوم، وكان من المستحيل سبر أغوار تعبيراته.

إن بطاقات التهاني والأمنيات تلك باهظة الثمن بدرجة غير معقولة، مع الوضع في الاعتبار أنها مصنَّعة من قطعٍ صغيرة من ورق كرتون مطبوع. يعطونك مظروفًا مع البطاقة على ما أظن، ولكن رغم هذا تبقى باهظة الثمن. قد يُضطر المرء لأن يعمل لما يقرب من نصف ساعة في إحدى وظائف الحد الأدنى للأجور من أجل أن يجني مالًا كافيًا لشراء بطاقة تهنئة لطيفة وطابع بريد من النوع الرخيص. اتضح لي فجأة أنني لم يسبق لي قط أن أرسلتُ بطاقة لأي شخصٍ من قبل. الآن وبما أنني سوف أراه الليلة، فلستُ مضطرة لأن ألصق طابع بريد. يمكنني أن أقدم له هديتي المتواضعة بنفسي.

كانت قصيدة 'إيميلي ديكنسُن' الجميلة بعنوان *ليالٍ جامحة - ليالٍ جامحة!*'، وتتألَّف مِن عنصرين أجد نفسي مولعةً بهما لدرجة تفوق العادة: علامات الترقيم، وفكرة العثور على توأم الروح بعد طول بحث وانتظار.

قرأتُ القصيدة مرةً أخرى، لعقتُ صمغ المظروف بحرص - كان لمرارته مذاقٌ لذيذ مع هذا - ثم كتبتُ اسمه على وجه المظروف بأفضل خط لديَّ. وبينما كنتُ أضعه ثانيةً في حقيبة يدي ترددتُ قليلًا، فهل الليلة حقًا هي الليلة الأنسب للشِعر؟ كان ترددي غريبًا؛ فقد اشتريتُ البطاقة ودفعتُ ثمنها، على كل حال. تساءلتُ، مع ذلك، أليس من الأفضل رُبما أن أنتظر لأرى ما سيحدث في الحفلة قبل أن أنتقل بالأمر إلى مستوى تبادل الرسائل. لم يكن هناك أي داعٍ للنزق والطيش.

كما لو أنَّ دَهرًا قد مَرَّ حتَّى أتت الخامسة مِساءً. ركبتُ مترو الأنفاق حتَّى وسط المدينة لأنه الأسرع، وتوجَّهت نحو أقرب متجر متعدد الأقسام من محطة المترو، نفس المتجر الذي اشتريتُ منه جهاز اللابتوب. كانت الساعة الخامسة والثلث، وسوف تُغلِق المتاجر أبوابها في غضون أقل من ساعة. كان قسم ملابس النساء في الطابق الأوَّل (تساءلتُ تُرى منذ متى أصبحت أقسام السيدات هي ملابس نسائية وحسب) استعملت الدرج المُتحرك، لأنني لم أستطع أن أجد الدَرج العادي. كانت مساحة المتجر شاسعة، فقررتُ أن أطلب المُساعَدة. أوَّل امرأة رأيتُها كانت ذات وقارٍ ورزانة، ولكن لم يبدُ عليها أنَّها أفضل شخص يمكن أن يقدَّم نصائح في الموضة. كانت ثاني امرأة بين أواخر عقدها الثاني وأوائل عشريناتها، وبالتالي فقد بدت أقل خبرة مِن أن تنصحني. وكانت الثالثة مناسبة تمامًا، كما هو الحال في حكاية الطفلة 'جولديلوكس' والدببة الثلاث - في مثل سني تقريبًا، وأنيقة وذات مظهر معقول. اقتربتُ بحذر.

قلتُ: «من فضلك، هل يمكنكِ أن تقدمي لي بعض العون؟»

توقَّفت عن طَيِ السترات الصوفية والتفتت نحوي، وهي ترسم ابتسامة متكلَّفة.

«سأحضرُ حفلًا غنائيًا في مكانٍ عصري ومُساير للموضة، وأتساءل إن كان بوسعكِ مساعدتي في اختيار طقم ملائم؟»

اتسعت ابتسامتها وبدت أكثر أصالة وصدقًا.

قالت: «حسنًا، إننا نقدم خدمة مرافق شخصي للتسوّق، ويمكنني أن أحدد لكَ موعدًا، إذا أحببتِ؟»

قلتُ: «آه، كلَّا، أريده من أجل هذا المساء. إنني للأسف بحاجة ماسة لشيءٍ ما الآن على الفور.»

نظرت إليَّ من أعلى لأسفل.

«إلى أين ستذهبين؟»

قلتُ في فخر: «الكاتنجز.» مطَّت شفتها السفلى للخارج، وحرَّكت رأسها بإيماءة واحدة، ببطء.

سألتني: «ما مقاسك؟ اثنا عشر؟.» أومأتُ لها، وأنا منبهرة بأنها استطاعت أن تحدَّد مقاسي بهذا القدر من الدقة بمجرد النظر لا غير. تطلَّعت إلى ساعة يدها.

قالت: «اتبعيني.» بدا أنَّ هناك مجموعة متنوعة من المتاجر في داخل هذا المتجر نفسه، فأخذتني هي نحو أقلها جميعًا جاذبية وفتنة. قالت: «حسنًا، هكذا مِن غير تفكير طويل، هذا ...» وهي تسحب بنطالًا ضيقًا وضامرًا بدرجة سخيفة من قماش الدنيم الأسود. «.... مع هذه....»، بلوزة سوداء، شبيهة بالتيتشيرت لكنها من حرير اصطناعي، مع فتحة مستديرة مِن قماشٍ منقوص من الخلف.

قلتُ: «حقًا؟ كنتُ أفكّر في شيء أقرب إلى فستان لطيف، أو تنورة وبلوزة.» نظرت إليَّ مرةً أخرى من أعلى لأسفل.

قالت: «ثقي بي.»

كانت غرفة تغيير الثياب صغيرة وتفوح برائحة أقدامٍ غير مغسولة ومعطر هواء. رغم أنَّ البنطال الجينز بدا أصغر ممَّا يجب، فإنه، بمعجزةٍ ما، مطَّ نفسه ليحتويني فصار بوسعي أن أوثقَ خصره عليَّ. كانت البلوزة واسعة ذات فتحة عنق مضمومة وغير مكشوفة. شعرتُ أنني مغطَّاة كما ينبغي، بصرف النظر عن أي اعتبارات أخرى، رغم أنني لم يكن بوسعي أن أرى الجزء المكشوف في الخلف. لقد كنتُ أبدو تمامًا مثل سائر الناس، وأحسبُ أنَّ هذا كان هو الهدف. أبقيتُ طقم الثياب عليَّ، ونزعت بطاقتي السِعر ووضعتهما على الأرض، ثم طويتُ ثياب العمل ووضعتها في حقيبة يدي. تناولتُ البطاقتين وناولتهما للمرأة حتَّى تتم عملية البيع على آلة تسجيل النقود.

كانت تحوّم بالخارج عندما خرجتُ. قالت: «ما رأيكِ؟ ألا يبدو جيدًا؟»

قلتُ: «سآخذهما.» وأعطيتها الباركود.

ورغم كل شيء، فقد نسيتُ أمرَ تلك الأدوات الأمنية الصغيرة التي يتم تثبيتها كالمشابك في الثياب، وهكذا اضطررنا لشيءٍ من الكفاح حتَّى يتم خلعهما. وفي نهاية الأمر، كان عليَّ أن أذهب وراء المكتب وأن أجثم للوراء بجانبها حتَّى يمكنها أن تفصلهما من الثياب بماكينة مغناطيسية مُثبتة في النضد. وانتهى بنا الأمر أن نضحك فعليًا من هذا كله. لم يدر بخلدي من قبل قط أنني قد أضحك في أحد المتاجر. بعد أن دفعت، مجاهدة لكيلا أفكر في قدر المال الذي أنفقته. خرجَتْ من وراء المكتب مرة أخرى.

«أتمانعين إن قلتُ شيئًا ما؟ إنه فقط ... الحذاء.»

نظرتُ للأسفل. كنتُ أرتدي حذاء العمل، الحذاء الأسود المُسطَّح المريح للقدمين بشريطين لاصقين.

قالت: «ما اسمكِ؟» اندهشْت. فما السبب الذي قد يجعل اسمي له دَخل في شراء حذاء؟ كانت تنتظر، متوقعة جوابًا ما.

«إليانور»، هكذا أقررت بتردد هائل، بعد أن فكَّرت في التصريح باسمٍ زائف أو اسم مستعار. وبالتأكيد لم أكن سأصرح لها بلقب عائلتي.

«المسألة يا 'إليانور' هي أنكِ بحاجة إلى حذاء برقبة قصيرة حتَّى الكاحل فقط مع هذا الجينز الملتصق بالساقين، بكل تأكيد»، هكذا قالت لي وعلى وجهها ارتسم تعبيرٌ في غاية الجدية وكأنها كانت أخصائية في مستشفى ما تقدم نصيحة طبية حاسمة. «هل تودين أن تمري بقسم الأحذية وتلقي نظرة؟» ترددت. قالت بصوت خفيض: «أنا لا آخذ أي نسبة على المبيعات أو شيء من هذا

القبيل، أنا فقط ... فقط أفكر أنَّكِ إذا حصلتِ على الحذاء المناسب فسوف يكمّل مظهر ثيابك كأفضل ما يكون.»

قلتُ: «كَمَا يُقال الإكسسوارات تصنع المرأة، أليس كذلك؟» لم تبتسم.

أرتني حذاء برقبة جعلني منظره أضحك بصوتٍ مرتفع، كان سخيفًا للغاية سواء من ناحية ارتفاع الكعبين أو ضِيق مقاسه. أخيرًا، اتفقنا على حذاء كان مقبولًا من ناحية الشَكل ولكنني مع ذلك يمكنني أن أسير وأنا أضعه في قدميَّ من دون مخاطرة التعرُّض لإصابة في العمود الفقري، وهكذا استطعنا أن نلبي متطلبات كلٍ منَّا في حذاء واحد. خمسة وستون جنيهًا! هذا غير معقول، هكذا فكَّرت، بينما أناولها بطاقتي الائتمانية. بعض الأشخاص عليهم أن يعيشوا بهذا المبلغ لأسبوعٍ كامل.

دسستُ حذائي الأسود في حقيبة يدي المخصصة للتسوق. رأيتُها تختلسُ نظرةً على الحقيبة أيضًا، ثم تتطلَّع نحو قسم حقائب اليد. فقلتُ: «آه، لا أظن ذلك، لقد أرهقت ميزانيتي بما يكفي في الوقت الراهن.»

قالت: «لا بأس، يمكنكِ إخفائها في حجرة المعاطف وسيكون كل شيء على ما يُرام.» لم أفهم قصدها بالمرة، ولكن عربة الوقت المجنحة كانت تسرع مقتربة.

قلت: «أشكركِ شكرًا جزيلًا بالفعل على مساعدتك، يا 'كلير'»، هكذا قلتُ منحنية للأمام حتَّى أقرأ الاسم من على شارة صدرها. «كان مساعدة لا تُقدَّر بثمن.»

قالت: «تحت أمرك، يا 'إليانور'، ولكن شيئًا واحدًا أخيرًا: المتجر سوف يغلق خلال عشر دقائق، ولكن إذا أسرعتِ، يمكنكِ أن تطيري للأسفل وتحصلي على ماكياج بسيط قبل أن تخرجي - صالون التجميل في الطابق الأرضي إلى جانب باب الخروج. اذهبي إلى متجر 'بوبي براون'، وأخبريهم أن 'كلير' هي التي أرسلتك.»

ما أن قالت ذلك حتَّى ابتعدت، وكانت ماكينة دُرج النقود لا تزال تتقيأ أوراق إحصائها لغلّة الوارد لهذا اليوم التي تم تعزيزها جزئيًا بمساهمتي غير الهزيلة بالمرة.

طلبتُ أن أتحدَّث إلى 'بوبي'، قهقهت المرأة الواقفة وراء نضد مساحيق الزينة.

قالت من غير أن توجّه حديثها لشخص محدد: «لدينا واحد منه هنا».

كان هناك الكثير للغاية من المرايا، وتساءلتُ إن كان هذا يشجَّع المرء على أن يُكلّم نفسه.

قالت: «اجلسي هنا، يا حُبّي.» وأشارت إلى مقعدٍ مرتفع بدرجة مفرطة. نجحتُ في أن أصعد على متنه، لكنها لم تكن مهمة يسيرة، وقد أعاقني حذائي الجديد بدرجةٍ ما. جلستُ على يديَّ، لأخفيهما - فقد بدا الجِلد الأحمر المقصف كأنه يحترق تحت الإضاءة الرأسية الحادة، والتي كانت تُظهرُ كلَّ عيبٍ وكل بوصة متضررة.

دَفعَت شَعري بعيدًا عن وجهي. وقالت: «حسنًا إذن»، وهي تمعن النظر فيَّ، من مسافة أقرب مِن اللازم. «أتعرفين، لن يمثل ذلك مشكلة حتَّى. لدى 'بوبي' هُنا بعض الكونسيلرز (مساحيق إخفاء العيوب) ذات القدرة الإعجازية التي يمكنها أن تتواءم مع درجة لون أي بشرة في العالَم. طبعًا لا يمكنني الاستغناء عنه، لكنني أستطيع بالتأكيد أن أجعله يظهر بأضيق الحدود.» تساءلتُ إن كانت على الدوام تتحدَّث عن نفسها، «بوبي»، بالضمير الغائب هكذا.

قلتُ: «هل تتحدَّثين عن وجهي؟»

- «كلَّا، يا ساذجة، بل عن ندبك. وجهك جميل. لديك بشرة رائقة للغاية كما تعلمين. والآن، فقط تابعي هذا.» كان حول خصرها حزام مُثبتة فيه أدوات صغيرة كما هو الحال مع النجَّار أو

السمكري، وقد برز لسانها من طرف فمها بينما كانت تعمل.

قالت: «ليس لدينا سوى عشر دقائق فقط حتى موعد إغلاق المتجر، لهذا سوف نركّز على الإخفاء وعلى تجميل العينين. هل تحبين الشكل 'الاسموكي' للعين؟»

فقلت: «لا أحب أي شيء يتعلق بالدخان»، وللغرابة أخذت تضحك من جديد. امرأة غريبة.

«سوف ترين...» قالت، وأخذَت تدفع رأسي للوراء، وتطلب مني أن أنظر للأعلى، وأن أنظر للأسفل، وأن ألتفت للجانب ... كان هناك قدر كبير للغاية من التلامس، بعددٍ كبير للغاية من الأدوات المختلفة، وكانت شديدة القُرب مني بحيث كان بوسعي أن أشم رائحة علكة النعناع، التي لم تستطع أن تغطّي بدرجة تامة على القهوة التي احتستها قبلها. دقَّ جرس، فأطلقت سبابًا. أعلنَ مُكبّر الصوت أنَّ المتجر يغلق أبوابه الآن.

قالت: «انتهى الوقت، بكل أسف.» وتراجعت قليلًا لتنظر بإعجاب إلى صنيعها. ناولتني مرآة يد. لم أتعرَّف على نفسي فعليًا. كانت النُدب لا تُرى إلَّا بالكاد، وكانت عيناي مثقلتين بأُطر باللون الأسود الفحمي، وقد ذكَّرني منظرهما ببرنامج شاهدته مؤخرًا يدور حول حيوانات الهبَّار[35]. وكانت شفتاي مصبوغتين بلون الخشخاش القرمزي.

قالت: «والآن، ما رأيك؟»

قُلت: «إنني أبدو مثل حيوان من الرئيسيات في مدغشقر، أو ربما مثل راكون من أمريكا الشَمالية، شيءٌ ساحر!»

ضحكت كثيرًا جدًا لدرجة أنها اضطرت لأن تضع ساقيها بشكل متقاطع، وأخذت بيدي للنزول من المقعد ثم قادتني نحو الباب.

قالت: «مِن المُفترض أن أحاول أن أبيع لكِ منتجات وأدوات تجميل. إن أردتِ أيًا منها، فلتعودي غدًا واسألي عن 'آيرين'!»

أومأت، ولوَّحت لها مُودّعة. أيًا كانت 'آيرين' تلك، فمن الوارد أن أشتري بلوتونيوم صالح لصُنع أسلحة نووية أكثر من أن أبتاع منها شيئًا.

(١٤)

لا بدَّ أنَّ الفنان في هذه اللحظة يمر بدوَّامةٍ من الانفعالات. إنه رجلٌ خجول، متواضع، يميلُ لإنكار الذات، رجلٌ يُضطرُ لأن يؤدي عُروضه على الملأ فقط لأنَّ هذا ما تُمليه عليه موهبته، ولكي يتقاسمها مع بقية العالَم، وليس لأنَّ هذا ما يريده، ولكن ببساطة لأنه مضطرٌ لذلك. إنه يغرّد كما الطيور، يعزف أعذب الألحان، إنه جزء من الطبيعة مثل المطر، مثل ضوء الشمس، شيءٌ *عفوي* تمامًا، قل إنه مثالي وكفى. هذا ما كان يجولُ بخاطري بينما كنتُ أتناول عشاءً ارتجاليًا. كنتُ في مطعم للمأكولات السريعة للمرة الأولى خلال حياتي كراشدة، كان مكانًا ضخمًا ومُبهرجًا، قريبًا للغاية من مكان الحفل الموسيقي. اللغز الغامض والشيء غير القابل للتفسير بالنسبة لي أنَّ المكان كان مزدحمًا. تساءلتُ لأي سبب على الأرض قد يصطف هؤلاء البشر في طابور، عن طيب خاطر، أمام نضدٍ لكي يطلبوا طعامًا مُصنَّعًا، ثم يحملوه إلى طاولة ليست معدَّة حتَّى بأدوات وطقم المائدة، ثم يأكلونه من الوَرق مباشرةً؟ وبعد ذلك، ورغم أن الزبائن قد دفعوا نقودًا مقابل الخدمة، تكون مسؤوليتهم هم أنفسهم أن يزيلوا البقايا والفتات. أمور في غاية الغرابة.

بعد شيءٍ من التفكير، اخترتُ قطعة من سمكٍ أبيض غير محدّد النوع، كانت مغطَّاة بكسرات الخبز، ومقليَّة بشدة في زيت مغلي ومحشورة بين قرصي خبز مسكَّر بإفراط، ومصحوبة بغرابة بشريحة جبن مصنَّعة وورقة خَس متهدلة، ومادة بيضاء لزجة سمكية ذات مذاق ملحي لاذع في منتهى البذاءة. رغم كل جهود ماما، فأنا لستُ أبيقورية أسعى للمتع الصافية؛ ورغم ذلك، فبكل تأكيد إحدى حقائق المطبخ المتفق عليها في العالَم كله أنَّ السمك والجبن لا يجتمعان ولا يؤكلان معًا. كان ينبغي على شخصٍ ما أن يُخبر السيد 'مكدونالد' بهذا الأمر حقًا. لم يكن ضمن قائمة اختيارات الحلوى شيء يغريني باختياره، لذا فقد اخترتُ أن أشرب قهوة بدلًا من ذلك، والتي كانت مريرة وفاترة. وبالطبع، كنتُ على وَشك أن أصبَّها كلها فوق نفسي ولكنني، فقط في اللحظة المناسبة تمامًا، قرأتُ التحذير المطبوع على الكوب الورقي، والذي حذرني من حقيقة أنَّ السوائل الساخنة يمكنها أن تسبب الضرر. نفدتِ بجلدكِ، يا 'إليانور'! هكذا حدَّثتُ نفسي، وأنا أضحك بصوتٍ خفيض. بدأ يساروني الشك في أنَّ السيد 'مكدونالد' كان رجلًا أحمقًا حقًا، ومع ذلك فقد كان ثريًا بالتأكيد، بحُكم الطابور الذي لا ينكمش بالمرة.

تفقدتُ ساعة يدي، ثم التقطتُ حقيبة يدي وارتديتُ سُترتي. وتركتُ بقايا عشائي حيث كانت. فعلى كل حال، ما معنى تناول الطعام في الخارج إن كان عليك أن تنظف مكانك بنفسك؟ سيكون من الأفضل إذن أن تبقى في المنزل.

أزفَ الوقت.

كانَ الخطأ في خطتي، *سَقْطة البطل القاضية*، هو هذا: لم تكن هناك تذاكر مُتاحة. هكذا أخبرني مُوظف شباك التذاكر وهو يضحك مني فعليًا.

قال: «لقد نفدت منذ بضعة أيام». شرحتُ له، في صبرٍ وبطء، أنني أريد فقط أن أشاهد النصف الأوَّل من الحفل، أي الفقرة المُساعِدة، واقترحتُ بأنَّهم يستطيعون بالتأكيد أن يسمحوا بدخول شخصٍ واحد إضافي، ولكن كان هذا مستحيلًا، على ما يبدو - قواعد صارمة بغرض السَلامة. للمرة الثانية خلال أيامٍ قليلة، شعرتُ بعيني تتخضلان بالدموع. ضحكَ الرجل مرة أخرى.

قالَ لي: «لا تبكي، يا حَبُّوبة، وبيني وبينك، الفقرات ليست بهذه الجودة.» ومالَ للأمام ليطلعني

على سر. «لقد ساعدتُ المطرب في إحضار أدواته من سيارته هذا المساء. وبدا لي تافهًا مغفلًا، لكي أكون صريحًا معكِ. يجب ألَّا تجعلي شيئًا قليلًا من نجاح المصادفة أن يُسيطر على رأسك، هذا كل ما أقوله. وأنا أنصحكِ بكل إخلاص.»

أومأتُ له، وأنا أتساءل تُرى أي مطرب كان هذا الرجل يتحدَّث عنه، ثم اتجهت نحو ركن المشروبات لكي أستجمعَ أفكاري. لن يسمحوا لي بالدخول من دون تذكرة، كان ذلك أمرًا محسومًا بكل وضوح. ولا توجد تذاكر مُتاحة. طلبتُ مشروب 'ماجنرز'، وقد تذكَّرته مِن المرة الأخيرة التي كان مطلوبًا مني أن أصبَّه لنفسي. كان الساقي على البار رجلًا طويلًا، تزيد قامته على ستة أقدام، وقد صنعَ في شحمتي أذنيه ثقوبًا ضخمة غريبة، عن طريق إدخال حلقات صغيرة بلاستيكية سوداء، من أجل شد الجلد للوراء. لسببٍ ما ذكَّرني هذا بالستارة التي في حمَّامي.

منحتني هذه الفكرة المريحة حول بيتي الشجاعة لاستكشاف الوشوم على جسد الساقي، والتي كانت تتلوى وتمتد عبر رقبته نزولًا على كلتا الذراعين. كانت الألوان في غاية الجمال، والصور كثيبة ومعقدة. كم هو رائع أن يكون بوسعك قراءة جلد شخصٍ ما، أن تكتشف قصة حياته ممتدة عبر صدره وذراعيه ونعومة قافيته. كان لدى الساقي ورودٌ ومفتاحٌ موسيقيٌ ثُلاثي وصليب ووجه امرأة ... الكثير للغاية من التفاصيل، والقليل للغاية من اللحم غير المزركش والمزدان بالرسوم. رآني أنظر إليه، فابتسم.

«ألديكِ أي وشوم؟»

حرَّكت رأسي نافية، فابتسم لي، وأسرعتُ إلى منضدة مع شرابي. أخذَت كلمات تتردد في رأسي. لماذا ليس لديَّ أي وشوم؟ لم يسبق لي قط أن فكّرتُ في الاحتمال ولو لدقيقة، ولم أتخذ قط قرارًا واعيًا بأن أتخذ وشمًا أو بألَّا أفعل. كُلَّما أدرتُ الفكرةَ في رأسي زادَ انجذابي إليها. أليس مِن الجائز أن أتخذُ وشمًا على وجهي، شيئًا معقَّدًا ومتشابكًا بحيث يلتحمُ بندوبي، ويضفي عليها شكلًا مميزًا؟ أو ربما يكون من الأفضل، أن أتخذ وشمًا في مكان سري. راقت لي هذه الفكرة. في باطن فخذي، أو في ظهر ركبتي، أو في باطن قدمي، ربما.

أنهيتُ شراب 'الماجنرز'، وأتى الساقي ليأخذ زجاجتي.

سألني: «واحد آخر؟»

قلتُ: «كلَّا، أشكرك. أيمكنني أن أسألك عن شيء؟» توقَّفتُ عن تقشير ما تبقى من طلاء الأظافر. «إنهما شيئان، في الحقيقة. أولًا: هل الأمر مؤلم، وثانيًا، كِم يكلف رسم الوشم الواحد؟» أومأ، كما لو أنَّه كان يتوقع سؤاليَّ هذين.

قال: «مؤلم بشكل حقير، لن أكذب في هذا، أمَّا بالنسبة للتكلفة، فالأمر يتوقَّف على ما تريدين؛ يوجد فرق كبير بين وَشم كلمة ماما على عضد الذراع وبين رسم نمر هائل الحجم على كامل ظهرك، تفهمينني؟»

أومأت، بدا كلامه منطقيًا تمامًا.

قال وقد بدأ يتحمَّس للموضوع: «يوجد الكثير من رسَّامي الوشوم في الأنحاء، ومع ذلك، فإذا أردت وشمًا ليس عليكِ إلَّا أن تذهبي إلى 'باري'، في شارع 'ثورنتون'. 'باري' سمعته طيبة.»

قلتُ: «شكرًا جزيلًا لك». لم أكن أتوقَّع أن يُسفِر المساء عن هذه النتيجة، غير أن الحياة لها طريقتها الخاصة في إدهاش المرء أحيانًا.

بالخارج، أدركتُ أنه لم يكن هناك جدوى من الانتظار في المكان. سوف يتجه الفنان بلا أدنى شك للاحتفال بنجاحه فيما بعد، سوف يذهب إلى مكانٍ ما يلمع ويسطع وينبض بالحياة، أمَّا بالنسبة

لي، فلم أكن أعرف إلّا مكانين اثنين، 'ماكدونالدز' والبار السخيف الذي ذهبتُ إليه برفقة 'ريموند'، وكان مِن المُستَبعد للغاية أن يحتفل في أيٍ منهما.

قلتُ لنفسي، هَيَّا، يا 'إليانور'. هذه الليلة لم تكن مكتوبةً لكِ بكل بساطة. ستبقى البطاقة في حقيبتي غير مرسلة خلال الوقت الراهن. خفَّفتُ من إحباطي بالفكرة المُعزية أنَّ لقاءنا، عندما يحدث في نهاية الأمر، سوف يكون مثاليًا، وليس مجرد لقاء عرفتُ عنه في اللحظة الأخيرة، وجرى بالمصادفة في نادٍ موسيقي. كما أنني سأكون آنذاك قد اعتدتُ على حذائي الجديد مع الاستعمال، وهكذا سيكون بوسعي أن أسير بشكل طبيعي. بدأت أسأم بالفعل من تلك النظرات التي يجترها سيري كأنني عرجاء.

johnnieLrocks@

تُرى هل أعمالي تمثل تحديًا أكبر من اللازم قليلًا أمام بعض الأشخاص، صحيح؟ لا تذهبوا إلى حفلات موسيقية إن لم يكن بوسعكم سماع أصوات جديدة. #سوء_فهم #الحقيقة

johnnieLrocks@

حدث الأمر ذاته لجميع العظماء في بداياتهم، رغم هذا

#ديلان #سبرينغستين #حفلاتي

(١٥)

ركبت سيارة تاكسي إلى المنزل في نهاية المطاف. لم أتذكَّر أنني ليس لدي فودكا إلَّا بعد أن صرتُ داخل البيت. وذهبتُ للفراش بكل بساطة. استيقظتُ مبكرًا في اليوم التالي وقررتُ أن أسير حتَّى المتجر المحلي لشراء مؤونة البيت من الطعام، وقد تشوَّش نظامي المعتاد بسبب المحاولة الفاشلة للقاء المطرب أمس. أخذتُ بعض الحليب، وعبوة من لفائف الخبز، وعُلبة من المعكرونة الحلقات الصغيرة. كنتُ أنوي أن أشتري معكرونة على شكل حروف هجائية، ولكنني، بدافع اللحظة، اخترت الحلقات بدلًا منها. من الجيد أن يحتفظ المرء بعقلٍ متفتح، رغم أنني أدرك تمام الإدراك أنَّ المعكرونة الحلقات والحروف كليهما له نفس المذاق. لستُ حمقاء.

كان مالك المتجر رجلًا بنغاليًا له وَحمة مثيرة للاهتمام. بعد كل تلك السنوات، صرنا نتبادل شيئًا من المودة بطبيعة الحال، وهو ما كان أمرًا طيبًا. وضعتُ السلع على النضد وأخذت أمسح بعيني الأرفف التي خلفه بينما كان يسجّل الأغراض على ماكينة الدفع. ابتسم لي وأفصح عن المبلغ الإجمالي.

قلتُ: «شكرًا لك.» وأشرتُ إلى الأرفف من خلفه. «رجاءً، أيمكنني أن آخذ أيضًا زجاجتين حجم لتر من فودكا 'جلين'؟»

ارتفع حاجباه للحظة خاطفة حتَّى بلغا أعلى جبينه، ثم استعاد وجهه حياده من جديد.

قال لي: «أعتذر منكِ لأنني لا أستطيع أن أبيعكِ كحولًا، يا آنسة أوليفانت.» ولم يبدُ مُحرجًا بالمرة. ابتسمت.

قلتُ له: «سيد 'ديوان'، أنا أشعر بالإطراء لمجاملتك ولكنني في الوقت ذاته أشعر بنفس القدر بالقلق على قوة إبصارك. لقد دخلت للتو عامي الواحد والثلاثين في الواقع.» شعرتُ بفقاعة

صغيرة من البهجة تتلألأ في داخلي. كانت 'بوبي براون' قد قالت لي إنَّ بشرتي لطيفة (الأجزاء الحية منها، على الأقل)، والآن يعتقد السيد 'ديوان' خطأً أنني فتاة مراهقة!

«الساعة التاسعة وعشر دقائق صباحًا.» هكذا قال باقتضاب - كان هناك طابور صغير قد بدأ يتكوَّن من ورائي.

قلتُ: «أنا أعرف كَم الساعة الآن، فهل تعدها وقاحةً مِني أن أخبرك بأنَّ ما يختاره زبائنك أن يتناولوه على الإفطار ليس من شأنك في شيء؟»

تحدَّث بصوت خفيض تمامًا لدرجة أنني اضطررت أن أميل للأمام حتَّى أسمعه.

«ممنوع قانونًا بيع الكحول قبل العاشرة صباحًا، يا آنسة أوليفانت. فقد أخسر رُخصتي بهذه الطريقة.»

قلتُ مذهولة تمامًا: «حقًا؟ لم يكن لديَّ أدنى فكرة عن هذا! أخشى أنَّ معلوماتي حول مسألة التراخيص هذه غير وافية على أقل تقدير.» أخذ يحدّق فيّ.

كرَّر قوله: «المبلغ كله ٥.٤٩ جنيهًا.» وتناول مني ورقة نقدية فئة العشرة جنيهات، وأعاد لي الباقي، موجهًا عينيه نحو حذائه طوال الوقت. استشعرتُ تبدلًا ما قد طرأ على علاقتنا الودية التي ظلت قائمة حتَّى هذه اللحظة، ولكنني لم أفهم سببًا لذلك على الإطلاق. لم يقل لي مع السلامة حتَّى.

يا للإزعاج، كان معنى هذا أنني سوف أضطر للخروج مرة أخرى فيما بعد لأبتاع الفودكا. لماذا لا يستطيع المرء شراءها بنفس الطريقة التي قد يشتري بها الحليب مثلًا - أقصد تحديدًا، مِن أي متجر في أي وقت يكون مفتوحًا فيه؟ أمرٌ سخيف. أفترضُ أنَّ السبب هو الحرص على حماية مدمني الكحوليات من أنفسهم ولو لبضع ساعاتٍ كل يوم على الأقل؛ ومع ذلك، فمن الناحية المنطقية، لم يكن لهذا أي معنى. فإذا كنت مدمنةً على الكحول كيمائيًا ونفسيًا، كنتُ سأحرض على أن يكون عندي مخزون جاهز في متناول يدي طوال الوقت، وكنتُ سأشتري كمية كبيرة وأقوم بتخزينها. كان قانونًا غير منطقي بالمرة؛ فما الفرق حقًا بين شراء الفودكا في الساعة التاسعة وعشر دقائق صباحًا وشرائها في العاشرة وعشر دقائق؟

الفودكا بالنسبة لي، مجرد شيء من لوازم المنزل، مثل رغيف خبز أو عُلبة شاي. وأفضل شيء فيها أنها تساعدني على النوم. في بعض الأحيان. فعندما يحل الليل، أظل راقدةً هنالك في الظلمة ولا أستطيع أن أمنع نفسي من التذكر؛ الخوف، والضِيق الضاغط. ولكنه الخوف بالأساس. في ليالٍ مثل تلك، يتردد صوتُ أمي كالفحيح الهامس في داخل رأسي، وصوتٌ آخر أيضًا، صوتٌ أصغر يرتعد، مُعششًا بالداخل قريبًا للغاية من أذني، قريبًا لدرجة أنَّ بوسعي أن أحس أنفاسها الساخنة المذعورة تمر عبر تلك الشُعيرات التي تنقل الصوت، قريبًا للغاية بحيث لا يتوجَّب عليها حتَّى أن تهمس لأسمعها. كان ذلك الصوت الصغير يتوسَّل؛ متقطِّع الأنفاس ممزقًا: يا 'إليانور'، أرجوكِ ساعديني، يا 'إليانور' ... مرة بعد مرة بعد مرة. في تلك الليالي أحتاجُ إلى الفودكا، وإلَّا فسوف أنهار أنا أيضًا، متقطّعة الأنفاس مُمزقة.

قررتُ أن أواصل سيري حتَّى السوبرماركت الكبير، والذي كان على مسافة سير عشرين دقيقة تقريبًا. سيكون هذا الاستغلال الأمثل للوقت، ممَّا يتيح لي أن أشتري كل شيء في الوقت ذاته، بدلًا من الرجوع للبيت والاضطرار للخروج مرة أخرى. كانت حقيبتي الكبيرة ثقيلة قليلًا، لذا فقد وضعتُها على الأرض وأفردتُ الإطار المعدني القابل للطي والذي كان مخزَّنًا في جيب داخلي بالحقيبة. قمتُ بتركيبه، وكان ملائمًا للحقيبة، ثمَّ voilà [ها هو ذا]! حقيبة يد على عجلات.

أصدر هذا الإطار المعدني صوت دحرجة نشاز ومزعج للغاية، لم أجد بأسًا من هذا في مقابل

فعاليته في نقل أغراض أثقل. كان السوبرماركت المَعني يوفر مجموعة متنوعة للغاية من السلع عالية الجَودة - ليس فقط الطعام والشراب، بل أيضًا أجهزة تحميص الخبز، والسترات الصوفية، ولعبة الصحون الطائرة، والروايات. لم يكن مجرد 'تيسكو مترو'، بل 'تيسكو إكسترا'. كان، باختصار، أحد أحب الأماكن إليَّ في العالم كله.

(١٦)

'تيسكو'! الأضواء البراقة، والتصنيف الواضح للبضائع، وعروض '٣ بسعر ٢'، و'اشتر واحدًا تحصل على الآخر مجانًا'، و'أي ثلاثة بخمسة جنيهات'. أخذتُ عربة تسوّق لأنني أستمتع بدفعها. غرستُ حقيبتي في المقعد المرتفع المخصص للأطفال أعلى العربة، ما جعل رؤية الأشياء من حولها ليست هينة، لكنَّ هذا أضفى على الأمر مزيدًا من المتعة. لم أتجّه نحو الفودكا مُباشرةً؛ بدلًا من ذلك، تفقَّدتُ محتويات كل ممر واحدًا تلو الآخر، بدايةً من الطابق العلوي حيث قِسم السلع الإلكترونية ومن بعد ذلك، الطابق السُفلي، تمهلتُ وأخذت كل وقتي أمام الحشوات القطنية النسائية للدورة الشهرية، ثم عند أسمدة تخصيب نباتات الطماطم المنزلية، ثم عبوات الكسكسي الغني بالتوابل ماركة 'آينسلي هاريوت'.

انجذبتُ رغمَ إرادتي نحو مخبز في داخل المتجر وتوقفت متجمدة بجانب أرغفة الخبز المستديرة بسطحها الملفوح بالنار، وأنا لا أكاد أن أصدق عينيَّ. إنه الفنان! كَم أنا محظوظة لأنني أعيش في مدينة مكتنزة، حيث يمكن أن تتقاطع فيها حيوات سكَّانها بكل سهولة. آه، ولكن مَن قال إنَّ هذه مجرد صدفة عشوائية، هكذا فكَّرت. كما لاحظتُ من قبل، غالبًا ما تتجاوز ترتيبات الأقدار فَهم الإنسان ومنطقه، وربما ثمة قوى عظمى تعمل الآن هنا، وتلقي بكلٍ منَّا في طريق الآخر وفي أبعد الظروف عن الاحتمال. شعرتُ، وقد تلقيتُ لَطمة الأقدار هذه، بأنني هذا الصباح بطلة في رواية من روايات 'توماس هاردي' (رغم أنني توسلت في صمت وشغف ألَّا يجعل أيًا من لقاءاتنا المستقبلية تقع بجوار قطيع خرافٍ هائجة ومتدافعة).

تعلَّقت عيناي بالفنان، وأنا مختبئة وراء حقيبتي الناتئة من فوق مقعد الطفل على عربة التسوق، ثم سقتُها ببطء باتجاهه. وقفتُ قريبًا منه بقدر ما ساعدتني جرأتي على ذلك. بدا مرهقًا وشاحبًا، ولكنه لا يزال وسيمًا، وإن كان في ثياب مجعدة قليلًا وعادية. وضعَ في سلَّته رغيفًا من الخبز الأبيض المقطَّع شرائح وانزلق مبتعدًا نحو نضد اللحوم. ومن جديد، وجدتُ نفسي في موقفٍ غير مواتٍ، إذ لم أكن مستعدةً بدنيًا لتقديم نفسي له، بما أنني لستُ soignée [في غاية الأناقة] في هذه الساعة من العطلة الأسبوعية، ولا أرتدي ثيابي الجديدة أو حذائي الجديد. كما أنني لم أُعد عبارة جذابة لأفتتح بها الحديث معه. حتَّى أنني ليس معي بطاقة التهنئة في حقيبتي لكي أعطيها له. الدرس المستفاد: لا بدَّ أن أكون مستعدة طوال الوقت.

قررتُ أنه سيكون من الحكمة أن أتوقف عن تتبعه، رغم فضولي العارم لأن أعرف ما الذي سوف يبتاعه تاليًا، كما أنني تخوفت من أن عربة تسوقي المتحوّلة قد تكون ظاهرة للعيان بدرجة ما. بدلًا من ذلك، اتجهت مباشرةً نحو قسم النبيذ والمشروبات الروحية، واشتريت ثلاث زجاجات كبيرة من الفودكا الفاخرة. كنتُ أنتوي أن أشتري زجاجتين فقط من صنف 'جلين'، لكن العرض الترويجي لفودكا 'سميرنوف' كان رائعًا. آه، يا سيد 'تيسكو'، إنني ببساطة لا أستطيع مقاومة صفقاتك الخرافية.

كما شاء لي الحَظ، كان الفنان منتظرًا عند ماكينات الدفع عندما وصلت هناك. لم يكن بيني وبينه سوى شخص واحد فقط، وهكذا انضممتُ إلى الطابور نفسه مستريحة لوجود فاصلٍ ملائم بيننا. ما أروع اختيارات تسوقه! بيض، ولحم خنزير مقدد، وعصير برتقال («مع القِطع» - ولكن قِطع ماذا، يا تُرى؟) وأقراص 'نوروفين'. كان عليَّ أن أمنع نفسي بالقوة من الانحناء عليه لكي أشرح

أنه كان يهدر نقوده - فهذا الدواء اللاستيرويدي والمضاد للالتهابات، بماركته المسجلة الشهيرة، كان هو نفسه 'الإيبوبروفين' ٢٠٠ مغم، النسخة الأعم والأقل شهرة منه والمتاحة بسهولة، وربما يمكن شراؤها بربع ثمن العقار الذي اشتراه، غير أنه من غير الممكن أن تكون تلك هي عبارتي الافتتاحية له. من أجل حديثنا الأوَّل، سأكون بحاجة إلى شيء أكثر فتنة وجاذبية، شيء لا سبيل لنسيانه.

أخرج من جيبه محفظة جلدية مهترئة بشكلٍ بديع ودفع ببطاقته الائتمانية، رغم أنني لاحظت أن إجمالي المبلغ المطلوب كان أقل من ثمانية جنيهات. أتوقَّع، بما أنه أقرب إلى أن يكون من أسرة ملكية، فهو ببساطة أعلى قدرًا من أن يحمل معه نقودًا سائلة. في أثناء حواره مع موظفة ماكينة الدفع -وهي امرأة في منتصف العُمر، وكان من العجيب للغاية أنها بدت غافلة تمام الغفلة عن السِحر المبين للرجل الوسيم الواقف قبالتها- لاحظتُ فرصة ثانية قد أضاعها على نفسه. لم أستطع المقاومة هذه المرة. أخرجت هاتفي الجديد الرائع، ودخلت على حساب تويتر الذي لا يزال بكرًا لم يُمس بعد وانتظرت حتى دفع وغادر المبنى. كتبت بسرعة وضغطت على زر الإرسال.

eloliph@

إن بطاقة العضوية المتميزة في أسواق 'تيسكو' نبعٌ دائم للجَمَال والبهجة. لا بدَّ بكل تأكيد أن توقّع طلبًا للحصول عليها. نصيحة من مخلص س س

johnnieLrocks@

أنتم يا جماعة 'تيسكو': توقفوا عن الإلحاح على بطاقات العضوية عن طريق الأخ الأكبر الذي يتجسس علينا جميعًا عندكم، كأننا نعيش في قِسم شرطة كبير، انتبهوا #آثار_سُكر_ليلة_أمس #اتركوني_في_حالي #قاوموا_التسلط

(١٧)

بالتأكيد، كنتُ أعرفُ أننا نعيشُ غير بعيدٍ للغاية من أحدنا الآخر، لكن لم يخطر ببالي أنَّ حياتينا قد تتقاطعان بأي مصادفة غير مخطَط لها بالمرة. يبدو هذا المكان أحيانًا أقرب إلى قرية منه إلى مدينة حقًا. إذن فأنا وهو نتقاسم حب 'تيسكو'. أمر غير مفاجئ. تُرى في أي الأماكن الأخرى قد يشتبكُ وجودي بوجوده. أليس من الجائز أننا نتردد على مكتب البريد نفسه، مثلًا، أو نصرف أدويتنا من الصيدلي نفسه؟ تأمَّلتُ مجددًا أهمية أن أكون مستعدة في أي وقت للقاء، بحيث أبدو في أبهى صورة وأن يكون لدي شيء ملائم لأقوله. سأكون بحاجةٍ لأكثر من طقم ثياب واحد.

كان حفل استقبال عودة 'سامي' لبيته من المستشفى الليلة في السابعة مساءً، وعرضَ 'ريموند' عليَّ أن نلتقي قبل الموعد بالقرب من منزل 'لورا'. في البداية، ظننتُ أنه يتصرف فجأة وعلى غير المعتاد منه بطريقة مراعية للآخرين، ولكن بعد ذلك أدركتُ أنه ببساطة لم يرغب في الوصول إلى هناك بمفرده. بعض الناس، الضعفاء من الناس، يخشون العُزلة. ما يفشلون في فَهمه هو أن في الوحدة شيء قادر على تحريرهم من أي قيد؛ فما أن يدرك المرء أنه لا يحتاج إلى أي شخص، سيصبح بإمكانه أن يعتني بنفسه. ذلك هو مَربط الفرس: فمن *الأفضل* للإنسان أن يكتفي بالاعتناء بنفسه. لا يمكنه أن يحمي أشخاصًا آخرين، مَهما أخلص واجتهد في محاولته. قد يحاول، لكنه يخفق، وينهار عالمه من حوله حطامًا، يحترق حتَّى يستحيل رمادًا.

بعد أن أقررتُ بذلك، فإنني كنتُ أتساءلُ في بعض الأحيان كيف سيكون الحال إذا ما حظيتُ بشخصٍ ما - ابن عم، مثلًا، أو شقيق - لكي ألجأ إليه وقت الحاجة، أو حتَّى لكي أقضي معه وقتًا عفويًا على راحتنا. شخصٌ ما يعرفك، يهتم بأمرك، ويتمنى لك الأفضل. مَهما كانت النبتة المنزلية جذَّابة وصامدة، فإنها لا تفي بالغرض تمامًا، لسوء الحَظ. لم يكن لدي أي شخص، وكان من غير المجدي أن أتمنى أن يكون الحال على غير ذلك. فعلى كل حال، لم يكن ذلك أكثر ممَّا أستحق. كَمَا أنني، حقًا وصدقًا، بخير، بخير، بخير. ألستُ هُنا، على كل حال، وقد خرجتُ إلى العالَم، وذاهبة إلى حفل؟ وقد اتخذتُ زينتي وأصبحتُ على ما يُرام وهائنذا أنتظرُ شخصًا أعرفه؟ انتبهي، يا ليلة الأحد، فها قد أتت إليك 'إليانور أوليفانت'! سمحتُ لنفسي بابتسامة صغيرة.

في النهاية، ارتفعَت حالتي المزاجية بدرجةٍ ما، رغم أنني انتظرتُ خمس وعشرين دقيقة من أجل 'ريموند'. إنني أجد التأخُّر عن المواعيد وقاحة استثنائية؛ إنها قلة احترام بالغة، وتوحي بكل وضوح أنَّ الشخص المتأخر يعتبر نَفسه ووقته أثمن قيمة بكثير من الشخص الآخر ووقته. وفي نهاية الأمر رأيتُ 'ريموند' يخرج بصعوبة من سيارة 'ميني كاب'[36] في السابعة والرُبع مساءً، بالضبط عندما كنتُ على وشك أن أغادر.

قال: «أهلًا يا 'إليانور'!»، وهو في غاية الانشراح. كان يقبضُ على كيس بلاستيكي يصدر منه صوت قعقعة وباقة من قرنفل رخيص. لقد أخبرتنا 'لورا' بصرامة ألَّا نحضر أي شيء. لماذا تجاهل مَطلبها المهذَّب؟

قلتُ: «'ريموند'، الدعوة موعدها السابعة مساءً. وقد رتبنا أن نلتقي هنا في السابعة إلَّا عشر دقائق، ونحن الآن تأخرنا بلا عُذر إلَّا تلكؤكِ. في هذا عدم احترام شديد لمضيفينا!»

لم أتحمَّل حتَّى أن أنظر إليه. لكنني سمعتُه يضحك بلا مبرر.

قال: «اهدأي، يا 'إليانور'.»
ما هذا؟ حقًّا؟ أهدأ!
«لا أحد بالمرَّة يذهب إلى أي حفل في الموعد المحدد تمامًا. بل إنَّ الذهاب في الموعد أشد وقاحة من التأخر لرُبع ساعة، صدقيني.» نظرَ إليَّ من أعلى وأسفل. وقال: «تبدين لطيفة، مختلفة ...»
لم أكن ممتنة لمحاولته الفجَّة أن يغير الموضوع.
قلتُ، بجفاء واضح: «هلَّا ذهبنا؟» وأخذ يسير بتمهل إلى جانبي، وهو يدخن كالمعتاد.
قال: «إنني أكلمك بكل صدق، يا 'إليانور'، لا تضغطي على هذه النقطة بلا داعي. حين يقول الناس الساعة السابعة، فإنهم يقصدون، شيء مثل، السابعة والنصف، على الأقل يعني. والأغلب أننا سنكون أوَّل من يصل هناك.»
صدمني كلامه هذا.
فقلتُ: «ولكن لماذا؟ لأي سبب على وجه الأرض قد يقول شخصٌ ما موعدًا بينما هو يقصد موعدًا مختلفًا تمامًا، وكيف يُفترض بالناس أن يعرفوا؟»
أطفأ 'ريموند' سيجارته وألقى بها في فتحة تصريف مياه. أمالَ رأسه جانبًا، مفكِّرًا في الأمر.
قال: «عندما أفكّر الآن في الأمر أجدُ أنني لا أدري كيف يُفترض بنا أن نعرف شيئًا كهذا حقًا، إننا نعرف وحسب.» ثم تعمق أكثر قليلًا: «الأمر مثل، تعرفين عندما تدعين بعض الأشخاص لديك، وتقولين تعالوا في الثامنة، يكون الأمر على الدوام كابوسًا إذا وصل أحدهم ... وصل بالفعل في الثامنة تمامًا، لأنكِ لست مستعدة بعد، لم يتسنَ لكِ الوقت لترتيب البيت، لإخراج القمامة أو أيًا كان الأمر؟ كأنَّ الأمر ... اعتداء سلبي، أو يكاد يكون، إن وصل أحدهم في الموعد فعلًا -يا إلهي- قبل الموعد قليلًا؟»
قلت: «ليست لديّ فكرة إطلاقًا عما تتحدث عنه، فأنا إن دعوتُ أشخاصًا للمجيء عندي في الثامنة، فسوف أكون عندئذٍ قد استعددت لاستقبالهم في الثامنة. أي شيء غير ذلك يُعد إهمالًا في إدارة الوقت.»
رفعَ 'ريموند' منكبيه. لم يكن قد بذل أدنى جهد لكي يحسن ارتداء ثيابه من أجل الحفل، وقد ارتدى زيه المعتاد من الحذاء الرياضي (أخضر اللون) وتي شيرت. كان هذا التي شيرت مكتوبًا عليه *'كاركيتي لمنصب العمدة'*[37]، وهذا لغزٌ يستعصي على الفَهم. كان مرتديًا سترة جينز وبنطالًا جينز أيضًا ولكنه أفتح لونًا من السترة. لم أتخيل يومًا أنَّه قد يتم استحداث بدلة كاملة من الجينز، ولكن ها هي ذي.
كان منزل 'لورا' في نهاية درب هادئ وأنيق، نهايته مسدودة، وعلى جانبه منازل صغيرة وحديثة. تقف عدة سيارات في الممر المؤدي إلى المنزل. اقتربنا من الباب الأمامي ولاحظتُ أنها قد وضعت أصص زرع على النوافذ، وفيها زهور جيرانيوم (إبر الراعي) حمراء. أجدُ هذا النوع من الزهور مزعجًا بدرجةٍ ما، بعطره الغني اللزج عندما تمر بأصابعك عليه، ورائحته الخُضَرية الراكدة التي هي على النقيض من روائح مملكة الأزهار.
دقَّ 'ريموند' الجرس - عزفت نغمته الجملة الافتتاحية للسيمفونية الثالثة لبيتهوفن. فتحَ لنا الباب ولدٌ صغيرٌ للغاية، كان وجهه -على ما أرجو- مُلطخًا بالشوكولاتة، ووقف أمامنا يحدق فينا، بادلته النظرة المحدقة. خطا 'ريموند' للأمام قليلًا.
قال: «أنت بخير، يا صاحبي؟ نحن هنا لنرى جدّك.»

ظلَّ الولد يحدق فينا، بشيءٍ من الفتور. ثم قال، بلا أي مناسبة: «أنا أرتدي حذاءً جديدًا». في تلك اللحظة، ظَهرت 'لورا' من خلفه في الردهة.

قال الولد، دون أن يلتفت، وبنبرة غير راضية كثيرًا: «عمتي 'لورا'، المزيد من الناس جاءوا من أجل الحفلة.»

قالت هي: «أرى ذلك، يا 'تايلر'، لِم لا تذهب وتعثر على أخيك، ونرى إن كان بوسعكما أن تنفخا لنا المزيد من البالونات؟» أومأ وانطلق راكضًا، أخذت قدماه الصغيرتان تدقان على الدَرَج.

قالت، وهي تبتسم في وجه 'ريموند': «تفضلا، سيكون أبي مسرورًا برؤيتكما.» لم تبتسم في وجهي، وهو الأمر العادي والمتوقَّع في معظم لقاءاتي بأشخاص آخرين.

دخلنا، مسح 'ريموند' قدميه بعناية على ممسحة الأقدام، وفعلتُ كَما فعل، وكانت تلك تجربة غير متوقعة بالمرة أن أسترشد 'بريموند' في سلوك اجتماعي.

مدَّ يديه بالزهور والكيس المقرقع، وبدا السرور على وجه 'لورا'. أدركتُ أنَّه كان عليَّ أن أحضر معي شيئًا أنا أيضًا، بالرغم ممَّا قالته لنا في المستشفى. كنتُ على وشك أن أشرح أنها أخبرتنا بألَّا نفعل، وأنني بكل بساطة احترمتُ رغبتها، ولكن قبل أن أتمكن من الحديث، غمغم 'ريموند' قائلًا: «أحضرنا ذلك أنا و'إليانور'.»

اختلست نظرة في داخل الكيس - وتمنيتُ بكل إخلاص ألَّا يكون فيه حلوى 'الهاريبو' وبطاطا 'البرنجلز' مرة أخرى - وشكرتنا كلينا. أومأتُ لها بتأييد.

قادتنا نحو غرفة المعيشة، حيث كان 'سامي' وأفراد أسرته جالسين. كانت تنبعث بنعومة موسيقى رائجة تافهة، ومائدة منخفضة حافلة بأوعية عميقة فيها أطعمة خفيفة جاهزة. كانت 'لورا' ترتدي ثوبًا يلتصق بجسمها وكأنه ضمادة طبية سوداء اللون، وتتأرجح فوق كعبين عاليين لا يقل ارتفاعهما عن بوصتين. كان شعرها الأشقر -بعد التنقيب عن الصفات الدقيقة- طويلًا وثخينًا في الوقت نفسه، ويتهاوى لما تحت كتفيها في مويجات لامعة. حتَّى إن 'بوبي براون' نفسه كان سيرى أنَّ كمية مساحيق الوجه التي تضعها كانت de trop [مبالغ فيها]. تدلَّى فك 'ريموند' قليلًا، واتسع فمه بما يكفي لوضع مظروف خطاب فيه، وبدا مذهولًا بدرجةٍ ما. كانت 'لورا' تبدو غير مكترثة بالمرة باستجابته هذه نحوها.

صاح 'سامي': «ريموند! إليانور»، ولوَّح من مجلسه الغاطس في مقعد مخملي هائل. قال وكله ثقة: «أحضري لهما شرابًا، يا 'لورا'، من فضلك. إننا نشرب 'بروسيكو'»

فقال ابنه الكبير له: «لا مزيد لكَ، يا بابا، ليس مع تلك الأقراص المسكّنة.»

أجابه 'سامي' في ذكاء: «يا خبر، مَهلك، يا بُني - الإنسان يعيش مرة واحدة فقط. وعلى كل حال، فلن تكون هذه أسوأ طريقة للموت، أليس كذلك يا 'إليانور'؟»

أومأتُ له موافقةً. كان، بكل تأكيد، على صواب تمامًا. أنا بالذات أعرف هذا.

ظهرت 'لورا' ومعها كأسان ضيقتان طويلتان ممتلئتان بسائل فائر له لون البول، وهو ما أدهشني للغاية، شربتُ ما في كأسي على ثلاث مرَّات. كان مشروبًا جافًا وله نكهة البسكويت، ولذيذًا إلى أقصى حد. فكرت إن كان باهظ الثمن، وما إذا كان ربما يحل محل الفودكا في الوقت المناسب كمشروبي المفضَّل. لاحظت 'لورا'، وأعادت ملء كأسي.

فقالت لي باستحسان: «أنت مِثلي، لا أشرب غير الشمبانيا».

أدرتُ بصري حولي.

قلتُ: «لديكِ منزل جميل للغاية».

أومأت لي.
قالت: «أخذ مني عامين كي أجعل كلَّ شيء كما أهوى تمامًا، ولكنني سعيدة به الآن.»
كنتُ مذهولة لمقدار تناغم وانسجام كل شيء، ولمقدار النظافة والبريق. كانت هناك أكسية من قماش في كل مكان - متوافقة كالسرب الواحد، مخمل، وحرير - وكلها بألوان الأحجار الكريمة البراقة.
قلتُ لها: «يبدو لي المكان كأنه وكر طائر جميل اتخذ عشًا منعزلًا، وكر لطائر الكيتزال البرَّاق، أو لعُقاب ملكي.»
بدا عليها أنها تكافح لتجد ردًّا ملائمًا، وهذا غريب. فبالطبع كانت كلمة «شكرًا» بسيطة تفي بالغرض. بعد برهة صمت، لم تكن مريحة للغاية بسبب شراب الشمبانيا، سألتني عن عملي، فشرحتُ لها ما أقوم به، وكيف تعرفت على 'ريموند'. نظرنا نحوه - كان جاثمًا على ذراع مقعد 'سامي'، يضحك على شيءٍ ما قاله أحد شقيقيها.
قالت لي بابتسامة ماكرة: «لا بأس به، رغم كل شيء، تفهمين؟ أقصد، إذا عملتِ على إصلاح هندامه قليلًا، واختيار قَصة شعر ملائمة ... فربما...»
لزمتني دقيقة حتَّى أدرك مقصدها.
قلتُ: «ولكن، كلَّا، لقد أسأتِ الفهم تمامًا. أنا مرتبطة بالفعل بشخصٍ ما. شخص وسيم ومحنك وموهوب - رجل ذو ثقافة وتعليم محترم.» ابتسمت 'لورا'.
«كَم أنتِ امرأة محظوظة! وكيف التقيتما، إذن؟»
قلت مفسرة: «حسنًا، نحنُ لم نلتقِ بعد، ولكنها مسألة وقت فقط.»
ألقت برأسها للوراء وأخذت تضحك، مصدرة صوتًا حلقيًا عميقًا بدا أنه من الخطأ أن ينبعث من امرأة مثلها؛ رقيقة وكاملة الأنوثة. قالت: «أنتِ خفيفة الظل للغاية، يا 'إليانور'، لا بدَّ أن تمري بي في وقتٍ ما لنأخذ مشروبًا معًا. وإذا قررت أن تقصي شَعرك ففكّري فيَّ، اتفقنا؟ سأعمل لكِ خصمًا خاصًا بالأصدقاء.»
فكَّرتُ في هذا. لقد كنتُ أتوانى قليلًا مع بنود قائمة تجديد نفسي، وخصوصًا بعد تجربة الشَمع التي كانت مزعجة حقًا في صالون التجميل وكذلك التغييرات غير الجذابة التي أُجريت على أظافري. افترضتُ أنَّ عليَّ أن أسرع الوتيرة قليلًا. في الأحوال المعتادة، لم أكن أولي شعري أي اهتمام ولم أقصه منذ أن كنتُ في الثالثة عشرة من عمري. كان ينسدل ممتدًا حتَّى خصري، مستقيمًا بلون بني فاتح - مجرد شَعر، لا أكثر ولا أقل. كنتُ بالكاد أنتبه له، في حقيقة الامر. وقد عرفتُ، رغم ذلك، أنَّه إذا أردتُ أن يقع المطرب في غرامي، فسيكون عليَّ أن أبذل مزيدًا من الجهد.
قلتُ، وأنا أشرب مزيدًا من الشمبانيا اللذيذة وقد بدت كأسي وكأنها تمتلئ تلقائيًا بمعجزةٍ ما: «في الحقيقة، هذا التوقيت موافق لي بالمصادفة، يا 'لورا'، لقد كنتُ أخطط لشيءٍ من التجديد. هل من الممكن أن يكون الأسبوع القادم مناسبًا لكِ لتحدثي تغييرًا في أسلوب تصفيف شعري؟»
التقطت هاتفها الجوَّال من فوق منضدة ملاصقة للحائط وأخذت تنقره.
قالت: «ما رأيك في الساعة الثالثة يوم الثلاثاء؟»
كانت إجازتنا السنوية محددة بخمسة وعشرين يومًا كل عام، وقد استخدمت ثلاثة أيام منها فقط - يوم للتعافي بعد عَملية مؤلمة في عَصب أحد الأضراس، ويوم لأداء الزيارات النهارية نصف السنوية لموظفة الخدمة الاجتماعية، ويوم زيادة أضفته عمدًا إلى فترة عطلة البنوك الأسبوعية لكي

تتاح لي الفرصة لأن أنهي من غير مقاطعة قراءة مجلد طويل فعلًا ولكن مشوّق حول تاريخ روما القديمة.

قلتُ لها: «الثلاثاء سيكون رائعًا.»

مضت متألقةً وذهبت صوب المطبخ، وعادت للظهور من جديد حاملةً صينية حافلة بأكلات خفيفة ساخنة ذات روائح كريهة، ومررتها على الموجودين في الغرفة. كانت المساحة مزدحمة بالأشخاص، وكان مستوى الصوت الإجمالي مرتفعًا للغاية. وقفتُ لبضع دقائق أتفقد bibelots و objets [التحف والأغراض الجميلة] التي وزعتها في جنبات الغرفة بلمسة فنية. ثم ذهبتُ لاستخدام الحمَّام، بدافع الضجر أكثر من إلحاح الضرورة، كانت غرفة ضئيلة لحفظ المعاطف تحت انحناءة الدَرج ولكنها كانت هي أيضًا لامعة ودافئة، بيضاء بياضًا ناصعًا مشعًا، وتفوح برائحة ثِمار التين، على نحوٍ غير متوقع بالمرة - ثم أدركتُ في النهاية أنَّ الرائحة منبعثة من شمعة مشتعلة في برطمان زجاجي موضوع على رف أسفل المرآة. شموع في الحمَّام! شككتُ في أنَّ 'لورا' كانت تميل بدرجة ما للانغماس في الترف والملذات.

سرتُ حتَّى دخلت الغرفة الموجودة في نهاية الرواق، والتي كانت المطبخ كَما خمَّنت. كانت هذه الغرفة أيضًا محتشدة بالأشخاص والضجيج، ولكنني استطعتُ أن ألحظَ الأسطح الرخامية السوداء، والخزائن بلون كريمي لامع والكثير من معدن الكروم. كان منزلها في غاية ... اللمعان. كانت هي أيضًا تلمع، بشرتها، وشعرها، وحذاؤها، وأسنانها. لم أنتبه من قبل هذا حتَّى أنني منطفئة كامدة، باهتة وثقيلة الوطأة.

حين شعرتُ بالحاجة للهرب من الضجيج والحرارة لدقيقة، فتحت الباب الخلفي ومشيت خطواتُ نحو باحة المنزل. كانت مساحة الحديقة صغيرة للغاية وتحتوي على القليل ممَّا يمكن أن ينتمي للحياة النباتية، وكانت في أغلبها مُعبدة ببلاط أسمنتي أو مغطاة بألواح خشبية زلقة. كان الغَسق قد بدأ يحل، غير أن السماء بدت صغيرةً هاهنا، وشعرتُ بأنني مُحاصَرة بسياجٍ مُرتفع يحيط بي من جميع الجهات. أخذتُ شهيقًا عميقًا، متمنية أن أشعر بنسيم الليل العذب، غيرَ أن فتحات أنفي بدلًا من ذلك تلقَّت تحية قطران ونيكوتين وسمومٍ أخرى.

قال 'ريموند': «ليلة لطيفة، صحيح؟»، وهو يتسكَّع غير مرئي في الظلال، وكان يدخن سيجارة، كأنما على سبيل التغيير. أومأت موافقةً.

قال، من دون أن أي لمسة سخرية: «خرجتُ لأستنشق بعض الهواء الطلق. ما كان عليَّ أن أشرب شمبانيا، إنها تقلبني رأسًا على عقب.» أدركتُ أنني أيضًا كنتُ في حالة مضطربة قليلًا.

قلتُ: «أعتقد أنني جاهزةٌ للرجوع للبيت الآن»، بينما أشعر بشيء من عدم الاتزان في وقفتي. رغم ذلك، كان شعورًا جميلًا.

قال 'ريموند': «تعالي واجلسي هنا لدقيقة»، وقادني نحو زوج من المقاعد الخشبية المريحة ذات الأذرع. أسعدني أن أفعل هذا، لأن حذائي الطويل الجديد جعل توازني مُزعزعًا أغلب الأوقات. أشعلَ 'ريموند' سيجارة أخرى - يبدو أنه يتحوَّل إلى مدخنٍ شَره يشعل سيجارةً من الأخرى.

قال: «أليست أسرة لطيفة؟»

غمغمت قائلة من دون أن أعرف لماذا: «'لورا' ستقص لي شعري».

ابتسم: «هل ستفعل حقًا؟»

حدقت فيه، وأنا أومئ بحكمة: «إنها تروق لك». لم أكن امرأة ساذجة، على كل حال.

ضحك.

«إنها روعة، يا 'إليانور'، ولكنها ليست نوعي المفضل حقًا.» اتقد طرف سيجارته بوهج أحمر في الظلمة شِبه التامة.

سألته وأنا مندهشة لأنني كنتُ مهتمة حقًا: « وما هو *نوعك* المفضل؟»

«لا أدري. ربما امرأة أقل .... أقل اعتدادًا بنفسها وحرصًا على مظهرها، ربما. امرأة ... انتظري دقيقة.»

كنتُ مسرورة للغاية أن أجلس في سكون بينما ذهب هو، ثم عاد بعد دقائق مع زجاجة نبيذ وكوبين ورقيين مزركشين مرسوم عليهما قوارض كرتونية تمتطي ألواح تزلج. قرأتُ المكتوب على الكوبين: «'راستاماوس'[38]، ماذا عساه أن يكون هذا؟»

«هاتي كوبك»، قال لي 'ريموند'، وصب لكلينا ... كوبًا. قرعنا كوبينا معًا، لكنهما لم يصدرا صوت قرقعة.

قال، وهو يحدق في خلفية الحديقة: «ظننتُ أنني قد عثرتُ على الشخص المثالي بالنسبة لي، ومع ذلك، لم يفلح الأمر.»

سألته: «ولمَ لم يفلح؟»، رغم أنني كان بوسعي، في الحديقة، أن أفكّر في العديد من الأسباب التي قد تمنع شخصًا من توطيد علاقة 'بريموند'.

«الأمر هو، إنني ما زلت غير متأكد تمامًا. أتمنى لو أنني عرفت - كان هذا سيجعل الأمور أسهل...»

أومأتُ له - بدا أنَّ هذا هو التصرف الملائم.

- «قالت 'هيلين' إن المشكلة لم تكن تخصني، بل كانت مشكلتها هي.» وضحك، لم تكن ضحكته مرحة، مع هذا. «لا أستطيع أن أصدق أنها لم تجد إلَّا تلك المزحة القديمة المُعادة. بعد ثلاث سنوات ... قد يظن المرء أنها لا بد أن تكون قد عرفت من قبل هذا أنَّ العلاقة لن تفلح بالنسبة لها. لا أعرف ما الذي تغيَّر. *أنا* لم أتغير... لا أعتقد أنني تغيرت، على كل حال ...»

قلتُ له، وأنا أتلعثم في الكلام قليلًا: «يمكن للناس أن يكونوا ... ألغازًا غير قابلة للحل، كثيرًا ما أجد أنني لا أفهم لماذا يفعلون هذا أو يقولون ذاك.»

أومأ لي.

- «كانت لدينا شقة صغيرة جميلة، وسافرنا في بعض العطلات الرائعة. كنتُ ... كنتُ أفكّر بالفعل في أن أطلبها للزواج. يا للمسيح...» أخذ يحدق في حجارة البلاط وحاولت دون نجاح أن أتخيَّل 'ريموند' في بدلة رمادية من ثلاث قطع وسترة ذات ذيل، وقبعة سوداء عالية، وربطة عنق، فضلًا عن تنورة اسكتلندية تقليدية.

ثم قال بعد وهلة: «لا بأس، الأمر صار مجرد مزحة، أتقاسمها مع أصدقائي، وقد حصلتُ على هذه الوظيفة الجديدة. الأمور على ما يرام. كل ما هنالك ... أنَّ ... لا أدري. لقد قالت إنني كنتُ ألطف ممَّا يجب. ماذا كان عليَّ أن أفعل بالتحديد؟ أعني ... هل كان عليَّ أن أصير وغدًا لعينًا؟ هل كان عليَّ أن أضربها، أو أن أخونها؟»

انتبهتُ إلى أنه لم يكن يتحدث إليَّ حقًا؛ كان الأمر أشبه بما يحدث في مسرحية، عندما تتحدث إحدى الشخصيات بصوت مسموع ليس لسبب واضح. لكنني مع هذا كنتُ أعلم إجابة سؤاله.

قلتُ: «كَلَّا، يا 'ريموند'، ما كنت ستفعل أيًا من تلك الأمور.» أنهيتُ كوب النبيذ وصببتُ بعض المزيد. «لقد كنتُ أعيشُ مع رجل يدعى 'ديكلان' لنحو عامين. وقد اعتاد أن يلكمني في جانب معدتي، ويصفعني على وجهي - وقد كسرَ لي اثنتي عشرة عظمة في المجمل النهائي. كان يبيتُ

بالخارج في بعض الليالي، ثم يعود إلى البيت ويخبرني عن النساء اللاتي كان بصحبتهن. كان الخطأ خطأي، كان كل شيء خطأي أنا. ولكن مع هذا، كنتُ أعرف أنه كان عليه ألَّا يفعل ذلك. كنتُ أعرف، على كل حال.»

حدَّق 'ريموند' فيَّ. «ربَّاه، يا 'إليانور'. متى كان هذا؟»

قلت: «منذ سنوات عديدة، بينما كنتُ لم أزل في الجامعة. رآني في الحديقة النباتية ذات يوم، واقترب مني ببساطة وبدأ يتحدث إليَّ. أعرف أنَّ هذا يبدو سخيفًا عندما أستعيد ما كان، ولكن بنهاية الأسبوع نفسه كان قد انتقل للعيش معي.»

قال 'ريموند': «أكان طالبًا هو أيضًا؟»

- «كلَّا، كان يقول أنَّ قراءة الكتب مضيعة للوقت، ومملة. لم يكن يعمل أيضًا؛ لم يستطع العثور على وظيفة تناسبه، كما قال. وأنا أفترض أنه ليس من السهل العثور على وظيفة تناسب المرء، أليس كذلك؟»

كان 'ريموند' يتطلَّع نحوي وعلى وجهه يرتسم تعبير غريب.

قلتُ: «أرادَ 'ديكلان' أن يساعدني على أن أتعلَّم كيف أكون شخصًا أفضل». أشعل 'ريموند' سيجارة أخرى.

قال: «كيف انتهى الأمر؟» من غير أن ينظر نحوي، وهو ينفخ الدخان عاليًا في الهواء في شريط طويل، وكأنه تنين غير مخيف بالمرة.

قلتُ له: «حسنًا، لقد كسرَ ذراعي مرةً أخرى، وعندما ذهبتُ إلى المستشفى، خمَّنوا بطريقةٍ ما أنَّ الأمر لم يحدث كما أخبرتهم به. كان قد قال لي أن أخبرهم بأنني قد سقطت، لكنهم لم يصدقونني.» أخذت رشفة كبيرة أخرى. «على أي حال، أتت ممرضة لطيفة وتحدثت إليَّ، وشرحت لي أنَّ الأشخاص الذين يحبوننا حقًا لا يؤذوننا، وأنَّه لم يكن من الصواب أن نبقى مع شخصٍ يؤذينا. الطريقة التي شرحت لي بها الأمر كانت منطقية تمامًا. وكان ينبغي عليَّ أن أدرك كل هذا بمفردي حقًا. طلبتُ منه أن يرحل عندما رجعتُ إلى المنزل، وعندما رفض اتصلت بالشرطة، كما اقترحت عليّ الممرضة. وهكذا انتهى الأمر. آه، وقد غيرت الأقفال.»

لم يقل 'ريموند' شيئًا، وظل يحدّق بتركيز شديد في حذائه. من غير أن ينظر نحوي، مدَّ يده ولمس ذراعي، وربت عليه بتردد بالغ، كما قد يربت المرء عل حصان أو كلب (إن كان يخشى من الأحصنة أو الكلاب). هزَّ رأسه برفق لوقت طويل، لكنه بدا غير قادرٍ على أن يعثر على جوابٍ ما. لا يهم؛ لم أكن أنتظر جوابًا منه. كان الأمر كله قد أصبح الآن تاريخًا عتيقًا. وكنت سعيدة بالعيش بمفردي. 'إليانور أوليفانت'، الناجية الوحيدة - هذه أنا.

قلتُ، وأنا أنهض بسرعة: «سوف أرجع إلى المنزل الآن، يا 'ريموند'، سوف آخذ تاكسي.»

أنهى شرابه وقال: «فكرة جيدة». أخرج هاتفه الجوَّال. «ولكنك لن تتجولي في الشوارع بمفردك وتحاولي أن توقفي سيارة تاكسي، ليس في هذا الوقت من الليل. سوف أستدعي لكِ سيارة. انظري، أنا لديَّ تطبيق لذلك!» وأراني شاشة هاتفه، تومض بالضوء.

قلت وأنا أتفرس في الشاشة: «ما الذي يُفترض أن أنظر إليه؟». تجاهلني وتفقد الرسالة. قال: «ستكون السيارة هنا خلال خمس دقائق.»

انتظرَ معي في المدخل حتَّى وصلت السيارة، ثم سار معي إليها وفتح لي بابها. رأيتُه يسترق النظر نحو السائقة، امرأة في منتصف العُمر بدت مرهقة وضجرة، بينما صعدتُ أنا إلى المقعد الخلفي.

قلتُ: «هل ستأتي أنتَ أيضًا؟»، متسائلة لماذا كان يقف على الرصيف مترددًا. تفقد ساعة يده، ونكشَ شعره وراح ينقل بصره من المنزل إلى التاكسي والعكس مرة أخرى.

ثم قال: «لا، أعتقد أنني سوف أبقى هنا قليلًا، وأرى ما يحدث.»

استدرتُ لأشاهده بينما كانت السيارة تبتعد. تمايل في سيره قليلًا على طول الممر الموصل لباب المنزل، ورأيتُ "لورا" عند المدخل، تحمل في يديها كأسين، وقدَّمت إحداهما له.

(١٨)

الأسبوع التالي، أرسلَ 'ريموند' لي رسالةً إلكترونية في العمل - كان من الغريب للغاية أن أرى اسمه في صندوق البريد الوارد. وكَما توقَّعت، كان شِبه جاهل بقواعد الكتابة.

مرحبًا، يا 'إل.'، أتمنى أن تكون الأمور على ما يرام معك. أريد أطلب منك معروفًا صغيرًا. دَعاني 'كيث'، ابن 'سامي'، لحضور عيد ميلاده الأربعين يوم السبت القادم (بالمناسبة، لقد انتهى بي الأمر سهرانًا لوقت متأخر معهم في تلك الحفلة، كانت سهرة مرح حقيقي). هل تودين أن تصحبيني إلى حفل عيد الميلاد؟ إنه في نادي الجولف، وسيكون هناك بوفيه مفتوح؟ لا تقلقي إن لم تقدري - فقط أبلغيني. 'ري.'(39)

بوفيه مفتوح؟ ونادي الجولف؟ «الرب أعطى والرب أخذ»[40]. حفلان في نفس الشهر! إنَّ هذا أكثر عددًا ممَّا حضرته خلال عشرين سنة. أجبته بسرعة:

عزيزي 'ريموند':

يسعدني أن أصحبك إلى الاحتفال بعيد الميلاد.

أطيب الأمنيات:

الآنسة/ 'إليانور أوليفانت'

بعدها بلحظات، تلقيت هذا الرد: ☺

هذا هو شكل التواصل في القرن الواحد والعشرين. كَم أخشى على معايير التعلُّم وإتقان اللغة في أمتنا.

كنتُ قد رتبت أموري بحيث أنصرف مبكرًا من العمل بعد ظهر هذا اليوم من أجل موعدي في صالون تصفيف الشعر، ولكنني تناولتُ غدائي في غرفة الموظفين أولًا كالمعتاد، بصحبة الكلمات المتقاطعة في *'التيليجراف'*، شطيرة تونة وحبوب الذرة الحلوة، ورقائق البطاطا بالخل والملح وعصير البرتقال بالقِطع. لا بدَّ أن أقدّم الشكرَ للفنان، في الوقت المناسب، لأنه عرَّفني على متعة القطع في العصير. بعد هذه الأكلة اللذيذة، وأنا أبتسم ابتسامة انتصارٍ صغيرة إزاء فكرة أنَّ زملائي عليهم أن يبقوا وراء مكاتبهم لبقية فترة ما بعد الظهيرة، أخذتُ حافلةً إلى داخل المدينة.

كان صالون 'الهيليوتروب' يقع في شارع جميل بمركز المدينة، بالطابق الأرضي من مبنى مُشيد من الحجر الرملي على الطراز الفيكتوري. بالتأكيد لم يكن من نوع الأماكن التي قد أتردد عليها كثيرًا - موسيقى عالية الصوت، وعاملون يرتدون أزياء على أحدث طراز بدرجة عدوانية ومَرايا أكثر ممَّا يجب. تخيلتُ أنَّ هذا قد يكون هو المكان الذي يقص فيه الفنان شَعره، فحسَّنت هذه الفكرة من شعوري حياله بدرجة طفيفة. ربما ذات يوم سوف نجلس جنبًا إلى جنب على تلك المقاعد الجلدية السوداء، يمسك كلٌ منا يد الآخر مِن تحت مجفف الشَعر.

انتظرتُ حتَّى تنتهي موظفة الاستقبال من اتصالها الهاتفي، واتخذتُ خطوةً مُبتعدة عن مزهرية ضخمة على النضد فيها زنابق بيضاء ووردية. تنغز تلك الرائحة في مؤخرة حَلقي، كأنها فراء أو ريش. شعرتُ بالاشمئزاز كأنني سأتقيأ؛ لم يكن هذا شيئًا مناسبًا للبَشر.

تناسيت إلى أي قدر تحفل صالونات الشَعر بالضجيج، والطنين المتواصل لمجففات الشعر والثرثرات التافهة، ووضعت نفسي في مقعد بجوار النافذة، وقد ارتديت كيمونو من النايلون

الأسود، وقد راعني أن أرى شعيرات قصيرة مقصورة تتناثر عليه وقد سقطت من رأس الزبون أو الزبونة السابقة، نفضتُها بعيدًا بسرعة.

أتت 'لورا'، وهي تبدو في مثل روعتها السابقة، وقادتني إلى مقعدٍ قُبالة صف مُرعب من المَرايا.

«هل استمتعتِ بوقتك في حفل أبي يوم السبت؟»، قالت بينما تجرجر مقعدًا مرتفعًا بلا مسند حتَّى جلسَت عليه من خلفي وعلى نفس الارتفاع. لم تنظر نحوي مباشرةً، ولكن نحو المرآة، حيث أخذت تُخاطب صورتي؛ وقد وجدتُ نفسي أفعل الشيء نفسه. وقد كان هذا مُطمئنًا على نحو غريب.

قلتُ: «نعم، استمتعت، لقد كانت سهرة رائعة.»

قالت وهي تبتسم: «لقد بدأ أبي يثير جنوني فعليًا، فهو يقيم في غرفة النوم الاحتياطية عندي، وأمامي أسبوعان آخران على هذا النحو. لا أدري إن كنتُ سوف أتحمَّل هذا.» أومأتُ لها.

قلتُ: «بناءً على تجربتي الشخصية، يمكن للوالدين أن يكونا بلا شك عبئًا حقيقيًا.»

تبادلنا نظرة متعاطفة.

«والآن، إذن، ماذا سنفعل من أجلكِ اليوم؟» هكذا قالت وهي تحل الشريط المطاطي من قاعدة جديلتي وتفرّق الشعر بعضه عن بعض. نظرتُ نحو صورتي في المرآة. كان شعري بنيًا مثل جلد الفئران، مفروقًا من المركز، ومنسدلًا مباشرة وليس كثيفًا بصورة خاصة. شعر بشري عادي، يفعل ما يفعله الشعر البشري عادةً: ينمو على رأسي.

قلتُ: «أريد شيئًا مُختلفًا، ماذا تقترحين؟»

سألتني لورا: «هل أنتِ مستعدة لأن تكوني شجاعة، يا 'إليانور'؟»

كان هذا هو السؤال الصحيح. إنني الشُجاعة الجَسورة الجريئة 'إليانور أوليفانت'.

فقلتُ: «افعلي ما تشائين»، فبدا عليها السرور.

«وهل سنغير اللون أيضًا؟»

فكَّرتُ في الأمر.

«ما دام سيظل لون شعر بشري عادي، فلا أعتقد أنني أريد لونًا زهريًا أو أزرق أو أي شيء من هذا القبيل.»

قالت: «سوف أقصه حتَّى مستوى الكتف بحيث يكون كثيفًا حول الرأس بطبقات متدرجة، مع ألوان كراميل وعَسلي متداخلة معًا، وأهداب طويلة نازلة بانحناء على جانب الوجه. فما رأيك في ذلك؟»

قلتُ: «يبدو لي كأنكِ تتحدثين بلغةٍ لم أسمعها من قبل».

ضحكَت ناظرةً لصورتي في المرآة، ثم توقفت، ربما لأنني لم أكن أضحك.

قالت في جدية: «ثقي بي، يا 'إليانور'، سيكون جميلًا.»

فقلتُ بدرجة عالية من الشك: «إن كلمة جميل هذه لم ترتبط يومًا بمظهري». ربتت على ذراعي.

قالت برقة: «انتظري وسوف ترين». ثم نادت بصوت حاد: «مايلي!»، حتَّى كادت أن تجعلني أسقط عن مقعدي. «تعالي وساعديني في خلط بعض الألوان!»

أتت تتهادى فتاة قصيرة وممتلئة ذات بشرة سيئة وعينين جميلتين. أعطتها 'لورا' الوصفة المحددة بشأن النِسب ورموز الألوان التي كان من الجائز جدًا أن تكون لخلطة مسحوق البارود.

سألتني 'لورا': «شاي؟ قهوة؟ مجلات؟». لم أكد أصدق أنني، بعد خمس دقائق، وجدتُ نفسي

أحتسي شراب الكابتشينو وأتصفح أحدث عدد من مجلة 'أوكيه!'. فكّرت في نفسي، انظروا إليَّ، يا للعَجب.

سألت 'لورا': «جاهزة؟». مسحت يدها، الدافئة والناعمة، على قافيتي بينما جمَّعت خصلات وكتل شعري وجدلتها في حبل واحد من خلفي. كان صوت المقص البطيء وهو يجز مثل صوت جمرات تتقلَّب في النار؛ صوت مجلجل ويوحي بالخطورة. مرَّت أكثر من دقيقة، ورَفعت 'لورا' الشعر عاليًا، وكأنها 'دليلة' المنتصرة على 'شمشون' بعد أن قصَّت شعره.

قالت: «سوف أضبط قصته بعد أن ننتهي من الصبغ، إننا في هذه المرحلة نحتاج فقط لملعب أرضه مستوية.» ولأنني كنتُ أجلسُ بلا حراك، لم أشعر بأي اختلاف. ألقت بالشعر على الأرض حيث ارتمى كأنَّه حيوان نافق. ظهر صبي نحيل، وبدا كأنَّه قد يفضّل أن يفعل أي شيء آخر غير هذا، وأخذ يكنس ببطء شديد للغاية، ولكز مخلوقي الشَعري فوضعه في جاروفه بمقشة طويلة الذراع. تابعت تقدّمه في الكنس في جنبات الصالون من خلال المرآة. ما الذي يحدث لكل هذا الشعر فيما بعد؟ انتابتني قشعريرة غثيان عندما تخيلت نتاج يوم أو أسبوع من الشعر المتجمَّع في كيس قمامة واحد، رائحته ونعومته، وإحساس الوسادة الهش مثل حلوى المارشمَلو بداخله.

اقتربت 'لورا' تدفعُ حاملًا على عجلات، ثم تابعت طلاء صبغات سميكة متنوعة على خصلات منتقاة من شعري، مبدلة ما بين الأوعية. وبعد الانتهاء من كل كتلة شَعر، كانت تطوي الشَعر المصبوغ في داخل مربعات من ورق القصدير اللامع. كان إجراء ساحرًا. بعد نصف ساعة، تركتني جالسة برأسٍ مُغطًّى بالقصدير ووجه أحمر، ثم عادت تدفع مصباحًا ساخنًا على حامل متحرك، ووضعته خلفي.

قالت: «عشرون دقيقة وسوف ننتهي من هذا.»

أحضرت لي المزيد من المجلات، لكنَّ المُتعة أخذت تتضاءل - فسرعان ما سئمت مجلات النميمة حول المشاهير، وبدا أنَّ الصالون لا يشتري مجلات مثل *'ويتش؟'* لتوعية المستهلكين، أو *'بي بي سي هيستوري'* الخاصة بالتاريخ، وهو ما أصابني بخيبة أمل. ظلَّت فكرةٌ ما تلح عليَّ، لكنني تجاهلتُها. أنا، أمشط شعرَ شخص آخر؟ نعم، شخصٌ ما أصغرُ حجمًا مني، يجلس على مقعد بينما أقف أنا من خلفه وأحاول أن أفكَّ عُقد الشعر بالمشط، باذلةً ما بوسعي لكي أكون رقيقة. إنها تكره الشدَّ والدفع. كانت أفكار من هذا القبيل - غامضة، ملغزة، مقلقة - هي بالتحديد التي تفيدني الفودكا في القضاء عليها، ولكن بكل أسف لم يكن متاحًا لي هُنا إلَّا الاختيار ما بين الشاي أو القهوة. تساءلتُ لماذا لا توفّر صالونات قص الشَعر أي شراب أشد تأثيرًا. إن تغيير مظهر الشخص قد يشكل ضغطًا عصبيًا عليه، على كل حال، ومن العسير عليه أن يسترخي في مثل هذا الجو الصاخب ساطع الإضاءة. من شأن هذا أن يشجّع الزبائن على مَنح بقشيش أكبر أيضًا. فكَّرت، وأنا أضحك من داخلي، أنَّ الكحوليات تساوي إكراميات.

عندما انبعث صوت الأزيز من المصباح الحراري، أتت من جديد فتاة خلط الألوان وقادتني إلى 'المُغتَسل' الخَلفي، والذي تبينَ أنه مجرد حوض، أيًا كان اسمه الآخر. تركتهم يفضون ورق القصدير عن شعري. مرَّرت ماء دافئًا خلاله، ثم نظفته بالشامبو. كانت أصابعها صلبة وبارعة، وتعجبت لمدى سَخاء هؤلاء الأناس الذين يؤدون خدمات حميمة لآخرين. لم يكن لديَّ أي شخص ليغسل لي شعري منذ زمن لم أعد قادرة على تذكره. أفترض أنَّ ماما لا بد قد غسلته لي عندما كنتُ طفلة، ولكن كان من الصعب عليَّ أن أتخيلها تؤدي أي خدمات تتسم بالرقة من هذا النوع.

بعد أن تمَّ شَطف الشعر لتنظيفه من الشامبو تمامًا، قدَّمت لي الفتاة «تدليك 'شياتسو' للرأس». لم

أعلم بالمرة أن ثمَّة شيء رائع كهذا. كانت تفرك فروة رأسي في رقة صارمة ودقة كذلك، حتَّى شعرتُ كأنَّ شعيرات ساعدي تنتصب من قشعريرة اللذة، ثمَّ كأنَّ سهمًا كهربائيًا يجري على طول عمود الفقري، لكن الأمر انتهى بأسرع ممَّا يجب وقد تمنيتُ أن يستمر لتسع ساعاتٍ أخرى على الأقل.

قالت الفتاة بنبرة حكمة: «كان ثمَّة الكثير من التوتر في فروة رأسك»، بينما كانت تشطف شعري من الكريم المرطب. لم يكن لديَّ أدنى فكرة كيف أجيبها، فآثرتُ أن أبتسم وحسب، وهو ما يكون ناجعًا في أغلب الحالات (غير أنَّ هذا لم يكن ملائمًا في حالات الموت أو المرض، بالرغم من ذلك - كما أعلم ذلك الآن).

وبعد أن عدتُ إلى المقعد نفسه، كان شعري الأقصر والمصبوغ قد انتفش للخارج، وعادت 'لورا' مع مقصها الحاد.

قالت: «لا يمكنكِ أن تري اللون كما ينبغي عندما يكون الشعر مبتلًا، ليس عليكِ إلَّا الانتظار قليلًا!»

في النهاية، لم يستغرق القص سوى عشر دقائق أو نحوها. أعجبت بمَهارتها والثقة التي تنفذ بها المَهمة. استغرق التجفيف وقتًا أكثر قليلًا، مع قدرٍ معتَبر ومتمهل من حركة فرشاة الشَعر. قرأتُ مجلتي، وقد آثرتُ، بناء على نصيحتها، أن أتجنب النظر حتَّى ينتهي تصفيف الشعر. تمَّ إيقاف مجفف الشَعر ورَش بعض المواد الكيماوية الطيَّارة وضبط وتعديل بعض الأطوال والزوايا وأجريت بضع قصقصات إضافية هنا وهناك. ثم سمعتُ 'لورا' تضحك في انشراح.

قالت: «انظري، يا 'إليانور'!»

رفعتُ رأسي من مجلة '*ماري كلير*' وتقريرها العميق ختان الإناث. كانت الصورة التي في المرآة تعكس امرأة أصغر سنًا مني بكثير، امرأة واثقة من نفسها ذات شعرٍ لامع يلامس بالكاد كتفيها وأهداب على الجبين تنزلق بخطٍ مائل على وجهها حتَّى تستقر تمامًا فوق الوجنة ذات الندوب لتغطيها. أهذه أنا؟ التفتُّ نحو اليمين ثم نحو اليسار. نظرتُ في مرآة اليد التي كانت 'لورا' تمسكها وراء رأسي بحيث أرى ما في الخلف، كان الشعر ناعمًا أملسًا. ابتلعتُ ريقي بصعوبة.

قلتُ: «لقد جعلتِني لامعة، يا لورا». حاولت أن أكبح نفسي بلا جدوى، فقد طفرت دمعةٌ صغيرة وسالت على جانب أنفي. مسحتُها بظاهر يدي قبل أن تبلل أطراف شعري الجديد. «شُكرًا لكِ لأنك جعلتني لامعة.»

(١٩)

استدعاني 'بوب' بالهاتف للاجتماع به، عندما دخلتُ مكتبه أخذ يُحملق فيَّ. تساءلتُ عن سبب ذلك.

قال أخيرًا، كما لو كان يخمّن إجابة سؤالٍ لم أطرحه: «إنه شَعركِ!». لم يكن من السهل عليَّ أن أصفقه هذا الصباح، لكنني ظننتُ أنها كانت محاولة لا بأس بها. وضعتُ كلتا يديَّ على رأسي.

قلتُ: «ما مشكلته؟»

قال، وهو يبتسم ويومئ: «لا مشكلة فيه. إنه يبدو ... يبدو لطيفًا». مرَّت لحظة من الحَرج والارتباك، لم يعتد أيٌّ منا أن يبدي 'بوب' تعليقاتٍ على مظهري.

قلتُ: «لقد قصصته، كما هو واضح.»

أومأ برأسه.

«تفضلي بالجلوس، يا 'إليانور'.» نظرتُ حولي. إذا قلنا أنَّ مكتب 'بوب' كان غير مرتب فإننا نهوّن كثيرًا من درجة الفوضى العارمة التي يُوجد عليها دائمًا وأبدًا. رفعتُ كومة نشرات دعائية عن المقعد المواجه لمكتبه ووضعتها على الأرض. مالَ للأمام. لقد شاخَ 'بوب' كثيرًا خلال الفترة التي عرفته فيها؛ لقد سقط كل شعره تقريبًا وازداد وزنه بدرجة معتبرة. يبدو أقرب إلى طفلٍ لا يردعه شيء عن إشباع مُتعه ورغباته.

قال لي: «لقد كنتِ تَعملين هُنا لفترة طويلة، يا 'إليانور'». أومأتُ له، كانَ هذا أمرًا واقعًا. «أكنتِ تعرفين أنَّ 'لوريتا' سوف تترك العمل لإجازة طويلة في القريب؟» هززتُ رأسي نفيًا. أنا غيرُ مهتمة بالدردشات الصغيرة الخاصة بحياة المكتب اليومية، ما لم تكن تلك النميمة تخصُّ مطربًا بعينه، بكل تأكيد.

قلتُ: «لا يفاجئني هذا، فلَطالما تشككتُ في استيعابها للمبادئ الأساسية لضريبة القيمة المضافة»، رفعتُ كتفيَّ باستهانة، «وهكذا ربما يكون هذا هو الأفضل للجميع.»

فقال: «إن زوجها مصاب بسرطان في الخصية، يا 'إليانور'، وهي تريد أن تتفرَّغ لرعايته.»

تفكَّرتُ في هذا للحظات.

قلتُ: «لا بدَّ أن يكون هذا أمرًا في غاية الصعوبة عليهما، ولكن عند اكتشاف الإصابة بالسرطان في وقتٍ مُبكر بما فيه الكفاية، فإن نِسَب التعافي والبقاء على قيد الحياة تكون جيدة. كما أنَّه بالنسبة للذكور، إذا كان الرجل سيئ الحظ ليصاب بأي نوعٍ من السرطان، فإنَّ ذلك غالبًا هو أفضل الأنواع من بينها جميعًا.»

أخذ يتلاعب بواحد من أقلامه السوداء الثمينة، وقال: «وعلى هذا، فإنني سأكون بحاجة إلى مدير جديد للقِسم خلال فترة الشهور القليلة التالية على الأقل.» أومأتُ له. «هل أنتِ مهتمة بالمنصب يا 'إليانور'؟ هذه الترقية تساوي مالًا أكثر قليلًا، وفي المقابل مسؤوليات أكثر قليلًا. لكنني أعتقد أنكِ مستعدة لهذا.»

أخذتُ أتأمَّلُ هذا.

سألت: «مالٌ أكثر بأي قدر؟.» فكتبَ رقمًا على بطاقة ملاحظات لاصقة، ونزعها من رُزمتها وقرَّبها لي عبرَ المكتب. صدرت عني شهقة.

«هذا بالإضافة إلى راتبي الحالي؟»

أخذت الرؤى تتواتر في عقلي وأنا آخذ سيارات التاكسي في مشواري للعَمل بدلًا من ركوب الحافلة، وترقية مشترياتي إلى مستوى 'تيسكو فاينست' الأفخر في كل شيء، وشرب ذلك النوع من الفودكا الذي يُباع في زجاجات مُكتنزة غير شفَّافة.

فقال: «كلَّا، يا 'إليانور'. هذا المبلغ سيكون هو راتبك الجديد.»

فقلت: «آه»

إذا كانت هذه هي الحالة، فإنني بحاجةٍ إذن لأن أتدبر بمنتهى الحرص نسبة المخاطرة في مقابل المكافأة، فهل ستقدم الزيادة في الراتب تعويضًا كافيًا للزيادة في المَهام المُملة التي سيكون لزامًا عليَّ الاضطلاع بها، والمستويات المُضافة للمسؤوليات من أجل إدارة القسم بنجاح، ويبقى أسوأ من هذا كله، الارتفاع المعتبر في درجة التفاعل مع زملائي الذي سأكون مضطرةً إليه؟

قلت: «هل يمكنني أن آخذ أيامًا قليلة للتفكير في الأمر، يا 'بوب'؟»

أومأ لي. «بالطبع، يا 'إليانور'. كنتُ أتوقَّع منكِ أن تقولي ذلك.» نظرتُ إلى يديَّ.

قال: «أنتِ موظفة على قدر من الكفاءة، يا 'إليانور'. كَم مضى عليكِ من الوقت معنا حتَّى الآن - ثمانية أعوام؟»

قلتُ: «تسعة.»

- «تسعة أعوام، ولم يسبق لكِ قط أن أخذت يومًا إجازة مَرضية، ولم تستنفدي قَط إجازاتكِ السنوية. إن مثل هذا القدر من التفاني، كما تعلمين، ليس من السهل العثور عليه في أيامنا هذه.»

قلتُ: «إنه ليس تفانيًا، كل ما هنالك أنَّني أنعم ببنية جسدية متينة للغاية وليس لدي أي شخص لأسافر معه في عطلة.»

أشاح ببصره بعيدًا وقمتُ واقفة، مستعدة للمغادرة.

تنحنحَ، وقال: «أوه، ثمَّة أمر واحد آخر، يا 'إليانور'. بما أنَّ 'لوريتا' مشغولة جدًا بالاستعداد لتسليم كل مهامها وخلافه ... أيمكنني أن أطلب منكِ تقديم يد العون في شيءٍ ما؟»

قلتُ: «اطلب فورًا، يا 'بوب'.»

قال: «حفل غداء المكتب بمناسبة الكريسماس - هل تعتقدين أنَّ بوسعك تنظيمه هذا العام؟ لن يُتاحَ لها الوقت قبل أن تنتهي من كل شيء، وقد بدأ بعض الأشخاص يتوافدون على مكتبي بالفعل قائلين في حسرة أننا إذا لم نقم بأي حجز حتى الآن ...»

«... سوف ينتهي بهم الحال في حانة 'ويزرسبونز'»، قلت، وأنا أومئ له. «نعم، إنني مُلمة بهذه المسائل، يا 'بوب'. ما دمتَ ترغب في هذا، فإنني مستعدة بالتأكيد أن أنظم حفل الغداء. هل لديَّ مُطلق الحرية بخصوص اختيار المكان وقائمة الطعام والفكرة العامة؟»

أومأ 'بوب' موافقًا، وقد بدأ ينشغل بالكمبيوتر الخاص به بالفعل.

قال: «بكل تأكيد، سوف تساهم الشركة بعشرة جنيهات فقط للفرد الواحد - بخلاف ذلك، فالأمر يعود إليكم تمامًا بشأن اختيار المكان وقدر المال الذي تريدون دفعه.»

قلتُ: «شكرًا لكَ، يا بوب، أنا لن أخذلك.»

لم يكن يسمعني، كان مستغرقًا في الشيء الذي على شاشته أيًا كان. كان رأسي يطن ويهدر. عليَّ أن أتخذ قرارين كبيرين. وهناك حفل آخر يجب أن أذهب إليه. ثم 'جوني لوموند'، الوسيم والموهوب، chanteur extraordinaire [مُطربي الاستثنائي] وشريك حياتي المُحتمل مستقبلًا. كانت الحياة عارمة ومتوترة لأقصى حد.

عندما عُدت للجلوس أمام جهاز الكمبيوتر، أخذتُ أحدّق في الشاشة لبعض الوقت، من غير أن أقرأ الكلمات فعليًا. شعرتُ بدوارٍ طفيف لمجرد التفكير في كل المعضلات والاختيارات الحاسمة التي أواجهها، إلى حد أنني، رغم أنه كان وقت تناول الغداء تقريبًا، لم أشعر بأي رغبة في شراء أو تناول وجبتي الصغيرة الجاهزة. أدركتُ أنه ربما يكون من المفيد أن أتحدث إلى شخص ما حول كل هذا. تذكَّرتُ ذلك من الماضي. من الواضح تمامًا أن التحدُّث كان أمرًا مفيدًا؛ يساعدُ على إبقاء التوتر والمخاوف في حجمها الطبيعي من غير مبالغات. كان الناس يواصلون قَول ذلك لي.

تحدثي إلى شخصٍ ما، أتريدين أن تتحدثي عن الأمر، أخبريني بما تشعرين به، ألديكِ أي شيءٍ تودين مشاركته مع المجموعة يا 'إليانور؟ لستِ مُضطرة لقول أي شيء، ولكن قد يتضرر موقفكِ القانوني إن لم تذكري، عند سؤالكِ، أيَّ شيء تركنين إليه أمام المحكمة فيما بَعد. آنسة 'أوليفانت'، أيمكنكِ أن تحكي لنا بتعبيرك الخاص ماذا تذكرين من الأحداث التي جرت في ذلك المساء؟

شعرتُ بقطرةٍ صغيرة للغاية من العَرق تسيل على ظهري، وبرفرفةٍ في صدري كأنها لطائر وقعَ في فخ. أصدر الكمبيوتر ذلك الأزيز المزعج الذي يشير إلى وصول رسالة إلكترونية. نقر عليها من غير تفكير. كَم أحتقر تلك الاستجابات اللاإرادية تلك في نفسي!

أهلاً إل.، أما زلتِ عند رأيك بخصوص يوم السبت؟ هلا قابلتني عند المحطة كي نستقل القطار إلى حفلة 'كيث' - الساعة الثامنة تقريبًا؟ ري.

ألحقَ برسالته رَسمًا: صورة فوتوغرافية لوجه سياسي شهير، وبجواره صورة لرأس كلب بدا شبيهًا له بالضبط. ضحكتُ ضحكة صغيرة - كان التشابه مُدهشًا. وتحت الصور كان قد كتب: كلمات LOL لصباح الأربعاء، أيًا كان معنى ذلك.

اندفعتُ بغير تفكير أكتب له ردًا:

صباح الخير، يا 'ريموند'. الصورة الوزارية/الكَلبية كانت ظريفة للغاية. هل مِن المحتمل أن تكون غير مشغول في وقت الغداء الساعة 12:30؟ تحياتي، 'إليانور'.

لم يصل منه رد لمدة رُبع ساعة تقريبًا، وبدأتُ أندم على قراري المندفع. لم يسبق لي أن دعوتُ أي شخص للانضمام لي على الغداء من قبل. أجريتُ عمليات تفقدي المعتادة على الإنترنت بحثًا عن أي تحديثات مِن الفنان - لم يكن هناك أي جديد على موقع فيسبوك أو تويتر أو إنستجرام، بكل أسف. يساروني التوتر كلما لزمَ الصمت. شككتُ أن معنى هذا إمَّا أن يكون في غاية الحزن، أو، ربما في غاية السعادة، وهو الاحتمال الأكثر مدعاةً للقلق. حبيبة جديدة؟

شعرتُ بالاضطراب والوسوسة، وكنتُ أفكر أنني لن أطلب وجبة كاملة اليوم، بل فقط عصير مضاد للأكسدة وكيس صغير من الفول السوداني المتبل بالواسابي، عندما وصلت رسالة أخرى.

آسف- كان عليَّ أن أتلقى اتصالًا للمساعدة، وأخبرت المتصل أن يطفئ الجهاز ويشغله من جديد LOL. نعم، نلتقي على الغداء. أراكِ بالخارج بعد 5 ق؟ ري.

نقرت ردًا.

سيكون هذا رائعًا. شكرًا لك.

بكل جرأة وتهوُّر، لم أضف اسمي للرسالة، لأنني أدركتُ أنه سوف يعرف أنها مني.

تأخَّر 'ريموند'. وصل بعد ثماني دقائق وليس بعد خمس كما وعدَ، لكنني قررتُ ألَّا أثير هذه

النقطة في هذه المرَّة. اقترحَ أن نذهب إلى مقهىً يحبه على بُعد ناصية واحدة.

لم يكن من نوع الأماكن التي قد أتردد عليها في الأحوال المعتادة، إذ يبدو بمظهر بوهيمي رثّ، بقطع أثاث غير متجانسة والكثير من الوسائد والأغطية الصغيرة التي توضع على أذرع المقاعد والأرائك. تساءلتُ تُرى ما مقدار احتمال إرسال تلك الأشياء للتنظيف والغسيل بوتيرة منتظمة. أضعف الاحتمالات غالبًا. ارتجف بدني إذ فكَّرتُ في كل تلك الميكروبات؛ فإنَّ دفء المقهى والأقمشة الكثيفة للوسائد ستكون مرتعًا مثاليًا لعث الغبار وربما حتَّى القمل. جلستُ إلى منضدة ذات مقاعد خشبية عادية وليست مزودة بأي أكسية ناعمة.

بدا أنَّ 'ريموند' كان يعرف النادل، الذي حيَّاه باسمه عندما أحضر قائمتي طعام. ظهرَ أنَّ فريق العمل في المكان أشخاص من نفس طراز 'ريموند'، مُهملين، وغير مهندمي الثياب، الرجال منهم والنساء.

قال: «الفلافل عادة لذيذة هنا، أو الحساء -» مشيرًا إلى قسم الطلبات المخصوصة.

قلتُ، وأنا أقرأ بصوت مسموع: «شوربة كريمة القرنبيط بالكمُّون، آه، كلَّا. كلَّا، لا أظن هذا حقًا.»

كنت لا أزال في حالة اضطراب معوي بعد لقائي مع 'بوب'، وهكذا اكتفيتُ ببساطة بقهوة مزبدة وفطيرة بالجبن. وأيًا كان الشيء الذي أخذ 'ريموند' يتناوله فقد فاح برائحة مقرفة، وبدا مثل قيء معاد تسخينه على الهادئ. كان يأكل بصوت عالٍ وفمه نصف مفتوح، لذلك اضطررت أن أشيح ببصري بعيدًا. سهَّل هذا عليَّ أن أطرح موضوع عَرض 'بوب' لي والمهمة التي أوكلها لي.

قلتُ: «أيمكنُني أن أطلب منك شيئًا، يا 'ريموند'؟» تجرَّع من شراب الكولا وأومأ لي. نظرتُ بعيدًا. الرجل الذي قدَّم لنا طعامنا كان يقف متراخيًا عند النضد، وهو يحرَّك رأسه بإيقاع ثابت مع الموسيقى. كانت أقرب إلى ضجيج متنافر مزعج، مع آلات جيتار أكثر مما يجب وبدون نَغمٍ كافٍ. فكرت أنَّ هذا هو صوت الجنون، نوعية الموسيقى التي يسمعها المجانين، تتردد في رؤوسهم قبل أن يقطعوا رؤوس الثعالب ويلقوا بها في الحديقة الخلفية لمنازل جيرانهم.

قلتُ: «لقد عُرضت عليَّ ترقية، إلى منصب مديرة المكتب، هل تظن أنَّ عليَّ أن أقبلها؟»

توقَّف عن المضغ وشرب جرعة أخرى من شرابه.

قال، مبتسمًا: «هذا عظيم، يا 'إليانور'، ماذا يمنعكِ من قبولها؟»

أخذتُ قضمة من فطيرتي - وكانت لذيذة بدرجة استثنائية، بل إنها ألذ من تلك المتوفرة في متجر 'تيسكو'. ولم أحسب يومًا أنني قد أجد نفسي أعتبر أي شيء أفضل من مثيله المتوفر في 'تيسكو'.

قلتُ: «حسنًا، من ناحية الإيجابيات، سوف أتلقى راتبًا أكبر. ليس مبلغًا ضخمًا للغاية، ولكنه مع ذلك ... يكفي بما يسمح لي بتحسين أمورٍ معينة. ولكن من الناحية الأخرى، سوف يتطلَّب عملًا أكثر ومسؤولية أكبر. والمكتب يعج بدرجة كبيرة بالحمقى والبارعين في التملص من العمل، يا 'ريموند'. وسوف تكون إدارتهم وإدارة أعباء أعمالهم مَهمة ليست يسيرة بالمرة، دعني أؤكد لكَ هذا.»

أطلق ضحكة، ثم سعلَ - كان واضحًا أن شراب الكولا قد نزل في حلقه بطريقة خاطئة.

قال: «أفهم مقصدك، لكنَّ خلاصة هذه المسألة هي هل المال الإضافي يستحق تحمُّل الإزعاج الإضافي؟»

فقلتُ: «بالضبط، لقد لخَّصتَ مُعضلتي بمنتهى الإجادة.»

توقَّف قليلًا، ومضغَ بعض الطعام.

سألني: «ما هي خطتك للّعب، يا 'إليانور'؟»
لم أفهم ماذا يقصد، وهو ما لا بدَّ أنه تجلَّى بوضوح على تعبير وجهي.
«أقصد، هل تخططين للبقاء في إدارة المكتب على المدى البعيد؟ إن كان الأمر كذلك، فقد يكون أمرًا طيبًا - منصب جديد وراتب جديد. عندما يحين وقت اتخاذ خطوتك التالية ستكونين في موقع أفضل كثيرًا.»
قلتُ: «ماذا تقصد «بخطوتي التالية؟» لم يكن هذا الرجل قادرًا على التحدُّث بلغة بسيطة.
قال شارحًا، وهو يلوح بشوكته، فابتعدتُ منكمشة، خشيةً من أن يصل إليَّ بعضٌ من لُعابه: «أقصد عندما تتقدَّمين لوظيفة أخرى، مع شركةٍ أخرى.»
ثُمَّ قال: «طبعًا أنتِ لا تريدين أن تعملي في شركة 'باي ديزاين' إلى الأبد، صحيح؟ أنت ...، كَم عمرك، ستة وعشرين، سبعة وعشرين؟»
«لقد أكملتُ الثلاثين مؤخرًا، يا 'ريموند'»، قلتُ له، وقد فاجأني شعوري بالسرور.
فقالَ: «حقًّا؟ إذن، أنتِ لا تُخططين لقضاء بقية حياتك تضبطين دفاتر حسابات 'بوب'، صحيح؟»
رفعتُ كتفي باستهانة؛ بصراحة لم أفكر في هذا الأمر ولو لدقيقة.
قلتُ: «أفترضُ أنني سأبقى، فما الذي يمكنني عمله غير ذلك؟»
فقال وهو تبدو عليه الصدمة لسببٍ ما: «'إليانور'! أنت إنسانة ذكية، وذات ضميرٍ حي، كما أنكِ ... في غاية النظام والترتيب. ولا بدَّ أن هناك الكثير من الوظائف الأخرى التي يمكنكِ شغلها.»
قلتُ متشككةً: «حقًّا؟»
فقال وهو يومئ بقوة: «طبعًا! أقصد، أنكِ تُجيدين الحِسابات، صحيح؟ كما أنكِ تُعبرين عن نفسك بدقة ووضوح. هل تعرفين أي لغات أخرى؟»
أومأت، وقلت: «أعرفُ اللاتينية بدرجةٍ لا بأس بها، في الحقيقة».
زمَّ فمه الصغير المختفي تحت شَعر شاربه، وقال: «إمممم»، وأشارَ للنادل، الذي اقترب ورفع الأطباق عن المائدة. ثم عادَ بقدحين من القهوة وطبق صغير به حلوى مغطَّاة بالشوكولاتة لم نطلبها.
قال، وهو يضع الطبق بحركة مسرحية مبالغ فيها: «استمتعوا، يا أصدقائي!»
هززتُ رأسي يمينًا ويسارًا، غير قادرة على أن أصدق أن أي شخص قد يقول شيئًا كهذا حقًّا.
وعاد 'ريموند' من جديد إلى موضوعه.
قال: «هناك الكثير مِن الأماكن التي قد تتطلَّع لتوظيف مديرة مكتب ذات خبرة سابقة، يا 'إليانور'، وليس فقط في مجال تصميمات الجرافيك - يمكن أن تكون في مجال تقديم الخدمات الطبية العامة، أو تكنولوجيا المعلومات، أو ... حسنًا، هناك عشرات الأماكن!» ألقى بقطعة حلوى في فمه. «هل ترغبين في البقاء في جلاسجو؟ لأنَّ بوسعكِ الانتقال إلى إدنبره، أو لندن أو ... يعني، العالَم كله بين يديكِ، أليس كذلك؟»
قلتُ: «أهو كذلك حقًّا؟» ومرةً أخرى، لم يخطر ببالي قبل ذلك قط الانتقال بين المدن، أن أعيش في مكانٍ آخر. مدينة باث، بكل ما فيها من آثار رومانية رائعة، ويورك، ولندن ... كان هذا أكثر ممَّا يجب بشكلٍ ما.
قلتُ: «يبدو أنَّ هناك الكثير للغاية من الأشياء في الحياة التي لم أفكر في فِعلها من قبل قط، يا 'ريموند'. أفترض أنني لم أكن أدرك أنَّ لدي أي سيطرة على تلك الأمور. كم يبدو لي هذا غبيًا مضحكًا، أعلم هذا.»

بدا في غاية الجدية، ومالَ للأمام.

«اسمعي يا 'إليانور'، لا بد أنَّ حياتك ليست بهذه السهولة. فليس لديك أي أشقاء أو شقيقات، كما أن والدك لم يكن موجودًا بالمرة، وقد قلتِ أن علاقتك .... علاقتك بأمكِ صعبة قليلًا؟»

أومأت.

سألني: «هل تقابلين أي شخص حاليًا؟»

فقلتُ: «نعم».

بدا مترقبًا بشكل عجيب، وكأنه كان يتوقَّع جوابًا بتفاصيل أكثر من هذا. تنهدت، وهززت رأسي. تكلمت ببطء وبوضوح بقدر ما يمكنني.

«إنني أقابلكَ الآن، يا 'ريموند'. إنك تجلس أمامي مباشرة.»

انطلق يضحك مقهقهًا.

«أنت تفهمين مقصدي تمامًا، يا 'إليانور'.» لكن صار من الواضح أنني لم أفهم.

فقال، بصبر: «هل لديك صديق حميم؟»

ترددت. «كلَّا. حسنًا ... يوجد شخصٌ ما. ولكن كلَّا، أفترض أنَّ الإجابة الدقيقة بفعل الواقع هي كلَّا، في الوقت الراهن، على الأقل.»

فقال: «إذن فأنت تضطلعين بأشياء كثيرة بمفردكِ تمامًا»، لم يقلها بنبرة سؤال بل كمَن يقر حقيقة واقعة. «ولا ينبغي أن تصعبي الأمور على نفسك أكثر بعدم وضع خطة لعشر سنوات لمسيرتك المهنية.»

سألته: «وهل لديكَ أنت خطة لعشر سنوات لمسيرتك المهنية؟». وإن بدا هذا مستَبعدًا.

قال مُبتسمًا: «بالمرة، وهل هناك أي شخص لديه ذلك؟ أقصد أي شخص طبيعي؟»

رفعتُ كتفيَّ، وقلتُ: «لستُ متأكدة حقًا أنني أعرف أي شخص طبيعي.»

فقال، ضاحكًا: «مقبولة منكِ.»

تفكرت في قوله هذا، ثُمَّ أدركتُ ماذا كان يقصد.

قلتُ: «لم أقصد أي إساءة، يا 'ريموند'، أنا آسفة.»

قال، وهو يشير طلبًا للحساب: «لا عليكِ، انسي الموضوع. والآن، متى يجب عليكِ الوصول لقرار بشأن عَرض الوظيفة؟ في رأيي المتواضع، أعتقد أن عليك الموافقة. لا مكاسب بلا مجازفات، صحيح؟ إلى جانب أنني واثق أنكِ ستكونين مديرة مكتب عظيمة.»

نظرتُ إليه بانتباه، مُنتظرة أن يضيف ملاحظة يستدرك بها رأيه هذا أو تعليقًا مستهينًا في موارَبة، لكنَّني اندهشتُ حين لم يتبع قوله بهذا أو ذاك. أخرج محفظة نقوده ودفع الحساب. اعترضتُ بكل شراسة لكنه رفض بسرعة وحماسة أن يسمحَ لي بدفع نصيبي.

قال: «لم تأخذي إلَّا قهوة وفطيرة صغيرة، يمكنكِ دعوتي على الغداء عندما تقبضين راتب أوَّل شهر لكِ في منصب مديرة المكتب!» وابتسم.

شكرتُه، فلم يسبق أن دعاني أحد من قبل على طعام الغداء. كان شعورًا طيبًا للغاية، أن يكون لدي شخص يتحمَّل نفقاتي بدلًا مني، ويفعل هذا طواعية عن طيب خاطر، من دون أن ينتظر شيئًا في مقابل هذا.

كانت استراحة الساعة انقضت تقريبًا عندما رجعنا إلى بناية مقر الشركة، لذا تبادلنا تحية مقتضبة وعاد كلٌ منا إلى مكتبه. كان هذا هو أوَّل يوم لي خلال تسعة أعوام أتناول فيه وجبة الغداء برفقة شخصٍ ما، وأوَّل مرة لا أحل فيها لغز الكلمات المتقاطعة. الأمر الغريب أنني لم

يساروني أي انشغال بشأن الكلمات المتقاطعة مطلقًا. ربما أحلها في هذا المساء بدلًا من ذلك، وربما أكتفي ببساطة أن ألقي بالصحيفة في سلة المهملات دون أن أحاول حلَّها حتَّى. كما أشار 'ريموند' في حديثه، كان العالَم حافلًا بالاحتمالات. فتحتُ بريدي الإلكتروني وكتبت له رسالة.

عزيزي ري.، شكرًا جزيلًا لكَ على الغداء. أطيب الأمنيات، إل.

افترضتُ أن اختصار الأسماء إلى حرف أو اثنين على هذا النحو له مغزى، بطريقةٍ ما، فعلى كل حال، كان من الواضح مَن يخاطبُ مَن. سرعان ما رد على رسالتي:

لا عليكِ، وحظًا موفقًا مع قرارك. أراكِ يوم السبت! ري.

كانت الحياة كأنَّها تتحرك بسرعة شديدة للغاية في الوقت الحاضر، مثل دوَّامة من الاحتمالات والإمكانيات، إلى درجة أنني لم أفكر بشأن الفنان هذا المساء. دخلتُ على جهاز الكمبيوتر الخاص بي وبدأتُ أبحث عن أماكن لعقد حفل غداء الكريسماس. وقد قررتُ أنَّ هذا لا بدَّ أن يكون حدثًا لا يُنسى، ولن يكون شبيهًا بأي غداء كريسماس آخر. سيكون من المهم تجنُّب الأفكار الشائعة المكرورة والاختلاف عن كل ما جرى في السابق. سأفعل شيئًا مُختلفًا، شيئًا قادرًا على أن يُدهش زملائي في العمل ويسعدهم، وأن يسحق توقعاتهم تمامًا. لن يكون ذلك أمرًا سهلًا. ثمة أمر واحد كنت واثقة منه وهو أن العشرة جنيهات الميزانية التي خصصها 'بوب' للفرد ستكون هي الأساس الذي نبني عليه الحدث، وسنكتفي بها فلن يضطر أي شخص للمساهمة بأي مبلغ إضافي. فقد كنتُ لم أزل أشعر بالسُخط بسبب كل تلك الدفعات النقدية التي قد اضطررتُ لدفعها خلال السنوات الماضية لمجرد أن أقضي وقتًا فظيعًا في أماكن فظيعة مع شخصيات فظيعة في يوم الجمعة الأخير قبل عيد الميلاد في الخامس والعشرين من ديسمبر.

على أي اعتبار، إلى أي مدى قد يكون هذا صعبًا؟ لقد كان 'ريموند' مُشجعًا لي بأقصى درجة على الغداء. إن كان بوسعي أن أقطع أوزان البحور الشعرية لملحمة 'الإلياذة' بكاملها، وإن كان بوسعي أن أصمم جدول بيانات ضخمًا على برنامج 'إكسل'، وإن كان بوسعي أن أقضي كل عيد ميلاد وكل كريسماس وكل ليلة رأس سنة خلال التسع سنوات الماضية بمفردي تمامًا، فإنني على ثقة تامة إذن بأنني أستطيع أن أنظم حفل غداء رائع وممتع لثلاثين شخصًا بميزانية عشرة جنيهات للفرد.

(٢٠)

مرَّ نهار الأحد في سَحابةٍ من الأعمال المنزلية المتوالية. بدأتُ أضع قفازين مطَّاطين لحماية يديَّ، ومع أنَّ منظر القفازين لا يسر فإنهما كان مفيدين. لا أهمية للقُبح هنا - فعلى كل حال، لم يكن هناك أحد يراني.

عندما كنتُ أجمع فتات وبقايا المساء السابق، لاحظتُ أنني لم أستطع إنهاء حصّتي المعتادة من الفودكا؛ إذ تبقَّى أكثر من نصف زجاجة 'سميرنوف'. وإذ كنتُ منتبهةً لما بدرَ مني في حفلة 'لورا' مِن سلوكٍ فظ محرِج، فقد وضعتُ الفودكا في كيس من أكياس التسوق في تيسكو لأقدّمه 'لكيث' هذه الليلة. فكَّرتُ ماذا يجب أن آخذ له غير ذلك. بدت لي الزهور اختيارًا خاطئًا؛ فهي علامة الحب. ألقيتُ نظرة على الثلَّاجة، وأسقطتُ في كيس التسوّق نفسه عبوة جبن شرائح. جميع الرجال يحبون الجبن.

وصلتُ قبل خمس دقائق من الموعد إلى أقرب محطة قطار من مكان الحفل. وMirabile dictu [ياللهول]، فقد كان 'ريموند' هناكَ من قبل! لوَّح لي فلوَّحتُ ردًا عليه. انطلقنا نحو نادي الجولف. سارَ 'ريموند' سريعًا، وبدأت أشعرُ بالقلق من ألَّا أكون قادرة على مواكبته بحذائي الجديد هذا. لاحظتُه يلقي نظرة عليَّ، ومن بعد ذلك أبطأ خطواته ليواكب خطواتي. أدركتُ أن مِثل تلك اللفتات الصغيرة قد تعني الكثير لمَن يتلقَّاها، تمامًا كما قدمت لي والدته قدحًا من الشاي بعد تناولنا الوجبة من غير أن تسألني، وتذكرها أنني لا آخذ سكَّر، وكما وضعت 'لورا' قطعتين صغيرتين من البسكويت على صحن الفنجان عندما أحضرت لي القهوة في الصالون. تساءلتُ عن شعوري إذا ما قدَّمتُ مثل تلك الأفعال البسيطة من أجل أشخاصٍ آخرين. لم أستطع أن أتذكر شيئًا. *كنتُ* أفعل مِثل تلك الأشياء في الماضي، حاولتُ أن أكون عطوفةً طيبة، حاولت أن أرعى وأن أهتم. *كنتُ* أعلم أنني قد حاولت، لكن ذلك كان فيما *قبل*. حاولت، وقد فشلتُ، وقد خسرتُ كل شيء فيما بعد. لا يُوجد مِن ألومه غير نفسي.

كان المكان هادئًا هُنا في الضواحي؛ المنظر العام فسيحًا مفتوحًا، بلا بنايات سكنية أو مجمَّعات مبانٍ شاهقة تخفي التلال البعيدة. كان ضوء النهار ناعمًا رقيقًا - وكان الصيف يمضي قدمًا وبدا المساء في غاية الرقة والهشاشة، كأنه قابل للكسر. سرنا في صمت، ذلك الصمت الذي لا يشعر المرء بحاجة لأن يملأه بأي شيء.

عندما بلغنا مبنى النادي الأبيض بكتلته الجاثمة، أوشكتُ أن أشعر بشيءٍ من الحزن لانقضاء سيرنا. كان الوقت هو الغسق - في منتصف الطريق نحو الظلام، وكلٌ من القمر والشمس مرتفعان على طرفي سماءٍ بلون حلوى اللوز الوردية الموشّاة باللون الذهبي. كانت الطيور تُغرّد في جَسارة قُبالة الليل الوشيك، وهي تموج في طيرانها فوق المسطحات الخضراء، وتدور في حلقاتٍ طويلة مخمورة. وكان الهواء مفعمًا برائحة العُشب، مع فوْح الأزهار والتُربة، وثمَّة نسيمٌ نهاري دافئ وعذب مشَّط شعرنا برقة ومسَّد جلودنا. أوشكتُ أن أسأل 'ريموند' إن كان ينبغي علينا أن نواصل السير فوق تلك الخضرة الوافرة الجيَّاشة، نواصل السير حتَّى تصمت الطيور وتأوي إلى وكناتها، ويصير بوسعنا أن نرى كل شيءٍ على ضوء النجوم وحسب. بدا لي الأمر كأنَّه هو نفسه قد يقترح هذا.

انفتحَ الباب الأمامي لنادي الجولف وخرج منه ثلاثة أطفال مندفعين ركضًا، يضحكون بأعلى أصواتهم، وأحدهم ممسك بسيفٍ بلاستيكي.

قال 'ريموند' بنبرة رقيقة: «ها نحن قد وصلنا، إذن.»

كان مكانًا غريبًا لمناسبة اجتماعية. اصطفت على جدران الممرات لوحات خشبية لتعليق الإعلانات والمنشورات المختلفة، وجميعها محمَّل برسائل تستعصي على الفهم حول مواعيد Ladders و Tee[41]. في نهاية البهو، لوحة خشبية تحمل قائمة بأسماء رجال مكتوبة بحروفٍ مذهبة، تبدأ من عام ١٩٢٤ وتنتهي، هذا العام، باسمٍ بعيد عن الاحتمال، وهو د. 'تيري بيري'. كان الديكور خليطًا غير متجانس من أثاث المؤسسات العامة (وهو مَظهر ليس غريبًا عليَّ بالمرة) وأثاث عائلي أكل الزمان عليه وشرب - ستائر ذات نقوش قبيحة، وأرضيات متينة تتحمَّل الاستخدام الطويل، وتكوينات من زهور جافة يكسوها الغُبار.

حينما دخلنا قاعة الاحتفالات، وجدنا قبالتنا عددًا مِن سمَّاعات تضخيم الصوت يتراص بعضها فوق بعض كالجدار؛ ومنصة متحركة لتشغيل الموسيقى نُصبَت وقد احتشدت الأرضية بالفعل بالراقصين، تتفاوت أعمارهم من سن الخامسة حتَّى الثمانين، يسقط عليهم جميعًا ضوءٌ عشوائي مِن وحدات الإضاءة ذات الألوان المنفّرة. بدا أنَّ الراقصين يتظاهرون بأنهم يمتطون حصانًا على إيقاع متوافق مع الموسيقى. تطلَّعتُ نحو 'ريموند'، لإحساسي بصعوبة هذا الموقف عليَّ.

قالَ: «يا للمسيح، أنا بحاجة لشراب.»

تبعتُه إلى موضع البار وأنا أشعر بالامتنان. كانت الأسعار معقولة بدرجةٍ مُرضية، وأنهيت شرابي 'الماجنرز' بسرعة شديدة، مطمئنة لمعرفة أنني أحضرتُ نقودًا تكفي لعدَّة زجاجات منه، رغم أنَّ 'ريموند' قد أصرَّ، رغم كل احتجاجاتي، على دفع ثمن هذه الزجاجة. وجدنا منضدة في أبعد نقطة ممكنة من مصدر الضجيج.

قال 'ريموند'، وهو يهز رأسه عَجبًا: «يا للأجواء الأسرية تلك، يكون الأمر سيئ بما يكفي مع أسرة المرء، أمَّا إذا كانت أسرة شخصٍ آخر ...»

أجّلتُ البصر مِن حولي. لم تكن لديَّ أي خبرات سابقة مع مثل تلك المناسبات، والشيء الأساسي الذي صدمني هو مقدار التفاوت؛ من ناحية متوسط العُمر، والطبقة الاجتماعية، واختيارات الضيوف لثيابهم.

قال 'ريموند'، وهو يشير بكأسه الطويلة نخبًا نحوي: «يستطيع الإنسان أن يختار أصدقاءه...»

فأجبته: «لكنه لا يستطيع اختيار أهله!»، فرحةً بأنني استطعتُ أن أكمل المقولة الشهيرة. رغم أنَّ هذه ليست إلَّا مسألة كلمات متقاطعة سهلة وسريعة، ليست واحدة معقدة بالمرة.

قال 'ريموند': «يبدو لي هذا الحفل تمامًا مثل عيد ميلاد أبي الخمسين، وعيد ميلاد أمي الستين، وحفل زواج أختي. نفس الأشياء، دي جيه كالخِراء، أطفال مفرطون في النشاط والحركة بسبب السكَّريات العالية، والأشخاص الذين لم يروا بعضهم بعضًا منذ سنوات يحاولون معرفة آخر الأخبار ويتظاهرون بأن بعضهم يحب بعضًا. أراهنكِ على أي شيء أنه سيكون هناك بوفيه ممتلئ بكعكات كانابيه مالحة، وسوف يحدث شجار في موقف السيارات مع نهاية الحفل.»

شعرتُ بالفضول والاهتمام بما يقول.

فقلتُ: «لكن أليس هذا شيئًا ممتعًا ومبهجًا بالتأكيد؟ أقصد الالتقاء بالأسرة ومعرفة آخر الأخبار؟ وجميع هؤلاء الناس، مسرورين لرؤيتك، ومهتمين بحياتك؟» نظرَ نحوي في حِرص.

قال: «أتدرين ما الأمر، يا 'إليانور'؟ إنه لكذلك. أنا الذي ألعب الآن دور الوغد الذي يميل إلى

النكد - آسف.» وأنهى كأسه الكبيرة. فقال: «الشراب نفسه مرة أخرى؟» أومأت، وعندئذٍ تذكّرت.
قلتُ: «كلَّا، إنه دوري، هل ستأخذ الشراب نفسه مرةً أخرى؟»
فابتسم.
«سيكون هذا رائعًا، شكرًا لكِ، يا 'إليانور'.»
تناولت حقيبة يدي وشققتُ طريقي نحو البار. التقت عيناي بعيني 'سامي' في طريقي - كان جالسًا في مقعد عميق مريح وهو مُحاطٌ كالمعتاد بأصدقائه وأفراد أسرته.
قال: «'إليانور'، حبيبتي! كيف حالكِ؟ حفلة عظيمة، هاه؟»
فأومأت له.
«لا يمكنني أن أصدق أن فتاي الصغير في الأربعين الآن. يبدو وكأنَّ أمس كان أوَّل يوم له في المدرسة. لا بدَّ أن تري الصورة الفوتوغرافية - لم تكن لديه أسنان أمامية، ذلك الشقي الصغير! وانظري إليه الآن.»
وأشارَ عبرَ القاعة إلى حيث كان 'كيث' واقفًا مع زوجته، وكل منهما يلف ذراعه حول خصر الآخر، ويضحكان على شيءٍ كان يقوله رجل أكبر سنًا.
«هذا كل ما يريده أي إنسان لأبنائه: أن يكونوا سعداء. كَم كنتُ أتمنى لو أن زوجتي جين مَعَنا هنا لترى هذا ...»
تدبرت ما قاله. أهذا حقًا ما يريده أي إنسان لأبنائه، أن يكونوا سعداء؟ بدا الأمر منطقيًا بكل تأكيد. سألتُ 'سامي' إن كان بوسعي أن أشتري له شرابًا، رغم أنه بدا لعيني غير الخبيرة منذ الآن ثملًا بدرجةٍ ما.
قال: «لا عليكِ، يا فتاتي، عندي بالفعل ما ينتظرني ها هنا!»
كانت المائدة مغطَّاة بكؤوسٍ قصيرة تحتوي على سائل أصفر عنبري. قلتُ له إنني سأراه مجددًا فيما بعد وذهبتُ إلى البار.
كان هناك طابور لا بأس به، ولكنني كنت أتمتَّع بالجو العام. وكَم كانت هُدنة مبارَكة لأن الدي جيه كان يأخذ راحة، وكان بوسعي أن أراه هنالك في الركن، يجرع من عُلبة معدنية ويتحدث على الهاتف الجوَّال بوجهٍ عابس. كانت هناك خلفية عامة من الهمهمة والضجيج، أصوات ذكور وإناث، وكثير من الضحك. بدا الأطفال وكأنَّهم تضاعفوا عددًا، وكانوا ينجذبون نحو بعضهم البعض من أجل تشكيل عُصبة لاهية من المشاغبين المشاكسين. كان واضحًا أنَّ الكبار جميعًا مشغولين عنهم بحفلتهم، وهكذا كان بوسع الصغار أن يركضوا ويصيحوا ويطاردون بعضهم بعضًا مُطلقي العَنان وقد أمنوا الرقباء. ابتسمتُ لهم، وشعرتُ بشيءٍ طفيف من الحَسد نحوهم.
بدا لي أنَّ جميع الموجودين في القاعة يتعاملون مع كل ما يحيطهم بهم كأنه شيء بديهي لا يسترعي الانتباه: من البديهي عندهم أن يُدعَون إلى مناسبات اجتماعية، وأن يكون لهم أصدقاء وأقارب يتحدثون إليهم، وأن يحِبُّون ويحَبون، وربما يصنعون أسرة ويحظون بأطفال. تساءلتُ كيف عساي أن أحتفل بعيد ميلادي الأربعين. تمنيتُ أن أحظى بأشخاصٍ في حياتي ليحتفلوا معي بتلك المناسبة عندما يحين وقتها. ألعلَّه يكون الفنان، نور حياتي الجديدة؟ كان شيئًا واحدًا مؤكَّدًا، رغم هذا: لن أقيم الحفل، تحت أي ظروف، في نادٍ للجولف.
حينما عدتُ إلى مائدتنا وجدتُها شاغرة. وضعتُ كأس 'ريموند' وحسوتُ من شرابي. افترضتُ أنه قد وجدَ شخصًا أثارَ اهتمامه أكثر فأخذ يتحدث إليه. جلستُ وشاهدتُ الرقص - كان الدي جيه قد عاد وراء منصته مجددًا، وقد انتقى من صندوق التسجيلات الفضي أغنية نشاز مزعجة، أغنية

تدور حول رجلٍ ما بعد منتصف الليل. تركتُ عقلي يشرد بعيدًا. لقد تبينتُ أنها طريقة فعَّالة للغاية من أجل تمضية الوقت؛ يمكن للمرء أن يأخذ موقفًا ما أو شخصًا ما ويبدأ في تخيُّل أمورًا لطيفة قد تقع. يمكنه أن يجعل أي شيء يحدث، أي شيء على الإطلاق، في داخل حُلم يقظته.

أحسستُ بيدٍ على كتفي فوثبتُ في مكاني.

قال 'ريموند': «آسف، ذهبت للحمَّام، وفي رجوعي تحدثت مع بعض الضيوف.»

أحسستُ بالحرارة في الموضع الذي كانت فيه يده على كتفي؛ ما هي إلَّا لحظة عابرة، لكنني شعرتُ بأثرٍ دافئ، محسوس ويكاد يكون مرئيًا ربما. أدركتُ أنَّ لليد البشرية الوزن المناسب تمامًا، ودرجة الحرارة المناسبة تمامًا للَمس شخصٍ آخر. لقد صافحتُ عددًا لا بأس به مِن الأيدي على مر السنين - وبنسبة أكبر مؤخرًا - لكن أحدهم لم يمسسني طوال عمرٍ كامل.

انتبهتُ إلى أنني في الثلاثين من عمري، ولم يسبق لي أن سرتُ مع أي شخص بيدين متشابكتين. تخيلتُ رجلًا يضع ذراعيه حولي ويضمني إليه كُلَّما شعرتُ بأنني حزينة أو مرهقة أو منزعجة؛ تخيلتُ دفء هذا وأثره على الجسد.

قال 'ريموند': «إليانور!»

قلت: «آسفة، لقد شردتُ بعقلي بعيدًا للغاية»، ورشفتُ شيئًا من شرابي.

قال وهو يشير في أنحاء القاعة: «يبدو أنَّ كل شيء على ما يرام.»

أومأت له.

قال: «كنتُ أثرثر مع ابن 'سامي' الآخر، اسمه 'جاري'، وحبيبته، إنهما مَرحان للغاية.»

جلتُ ببصري حولي. كيف قد يبدو الحال في المستقبل، بالذهاب إلى مُناسبات مثل هذه وذراعي في ذراع الفنان؟ سوف يحرص تمام الحرص على أن أكون مطمئنة مستريحة، وسوف يرقص معي إن أردتُ (أمر غير وارد)، وسوف نصادق ضيوفًا آخرين. وعندئذٍ، عند نهاية المساء، سوف نتسلل معًا، إلى بيتنا، لنأوي إلى عُشنا مثل يمامتين قِمريتين.

قلتُ له، وقد لاحظتُ الضيوف الآخرين: «يبدو أنني أنا وأنت الوحيدان هنا اللذين بلا زوج أو حبيب.»

عبسَ وجهه. «آه - اسمعي، شكرًا لكِ على المجيء معي. فذهاب المرء لمناسبات من هذا النوع شيء صعب للغاية - أليس كذلك؟»

قلت، باهتمام: «أهو كذلك؟ ليس لدي حالات سابقة لأعقد مقارنة.»

تطلَّع نحوي. قال: «إذن، هل كنت على الدوام بمفردك؟ قد ذكرتِ ذلك الشخص في الأسبوع الماضي، ذلك الذي ...» رأيتُه يبحث عن الكلمات. «الذي كنتِ معه عندما كنتِ في الجامعة؟»

قلتُ: «كما تعلم، لقد كنتُ مع 'ديكلان' لعامين، وتعلم أيضًا كيف انتهى الأمر.» شربتُ المزيد من 'الماجنرز'. وقلت له: «يعتاد المرء الانفراد بذاته. بل إنها في الحقيقة أفضل من أن يُلكَم في وجهه أو أن يُجبَر على شيء.»

غَصَّ 'ريموند' بشرابه فاختنق قليلًا، ولزمته دقيقة حتَّى يستعيد نفسه من جديد. تحدَّث في غاية الهدوء والرقة.

«تدركين، يا 'إليانور'، أنَّ تلك الأشياء ليست هي الخيارات الوحيدة المتاحة أمامكِ، صحيح؟ فليس جميع الرجال مثل 'ديكلان'، تعرفين هذا.»

قلتُ، بانشراح: أنا*أعرف* هذا! فقد قابلتُ واحدًا!»

بعين خيالي، رأيتُ الفنان يُحضر لي زهر السوسن، ويقبل عنقي من الخلف. بدا 'ريموند' غير

مرتاح، لسببٍ ما.

قال: «سأذهب إلى البار، أما زلت تشربين 'الماجنرز'؟» انتابني شعورٌ غريب، انفعالٌ واضطراب. فقلت له: «سآخذُ فودكا مع كولا، من فضلك»، فقد كنتُ أعرف عن تجربة أنَّ الفودكا تكون مفيدة أيًا كان ما يسوؤني. شاهدتُ 'ريموند' يبتعد بخطى متوانية. لو أنه فقط يشد ظهره وقامته، ويحلق ذقنه! كَما أنه كان بحاجة إلى شراء بعض القِمصان اللطيفة وبعض الأحذية المحترمة، وأن يقرأ كتابًا أو اثنين بدلًا من أن يضيّع وقته في ألعاب الكمبيوتر. كيف يتمنَّى على الإطلاق أن يجد له فتاة لطيفة بغير ذلك؟

أتى 'كيث' إلى المائدة وشكرني على المجيء. أعطيتُه هدية عيد ميلاده، والتي بدا أنها أدهشته دهشةً صريحة واضحة. تأمَّل في كل غرضٍ على حِدة وقد ارتسمَ على وجهه تعبيرٌ وجدتُ صعوبةً في تفسيره، لكنني سرعان ما استبعدتُ أنه ينمُّ عن «الضجر» و«اللامبالاة». شعرتُ بالسعادة؛ كان شعورًا لطيفًا أن أقدّم هديةً لشخصٍ ما، هديةً من نوعٍ فريد وذكي لم يسبق له أن تلقاها من أي شخص آخر. وضعَ الكيس على مائدةٍ قريبة.

«هل تودين، إممم، هل تودين أن ترقصي، يا 'إليانور'؟»

بدأت خفقات قلبي تتسارع. أرقص! هل أستطيع؟

قلتُ: «لستُ واثقة إن كنتُ أعرف كيف أرقص.»

ضحكَ 'كيث'، وجذبني لأنهض.

قال: «هيَّا، تعالي، ستكونين على ما يُرام.»

ما إن وصلنا إلى حلبة الرقص الخشبية حتَّى تغيَّرت الموسيقى، وزفرَ متأوهًا.

وقال لي: «أنا آسف، لكن مستحيل أن أرقص على هذه الأغنية، سوف أفوّتها، اعتبريها من الامتيازات الخاصة بالفتى صاحب عيد الميلاد!»

أخذتُ أشاهد بعض الأشخاص يتركون ساحة الرقص بينما يتوافد آخرون ليأخذوا أماكنهم. كانت الموسيقى تحتوي على الكثير من الآلات النُحاسية وذات إيقاعٍ سريع. أومأت لي 'ميشيل'، حبيبة 'جاري'، لأقترب وجذبتني وسط مجموعة صغيرة من النساء، في نفس السِن تقريبًا، ابتسمنَ لي وبدَين في غاية السعادة. انضممتُ إليهن فيما بدا أنه تراقُص وتقافُز في محل الوقوف. حرَّك بعض الأشخاص أذرعهم كما لو يُمارسون رياضة الهرولة، وكان البعض الآخر يشيرُ إلى لا شيء؛ ظهرَ لي أنَّ على المرء أن يحرَّك جسده في المكان على أي نحوٍ قد يراه مُلائمًا له، طالما كان هذا متوافقًا مع الموسيقى، والتي كانت ذات ثمانية إيقاعات ثابتة، مُميزة بعزف الطبول وهو ما كان مواتيًا للغاية. ثُمَّ تغيَّر الإيقاع فجأة وبدأ الجميع يفعلون الشيء نفسه، صانعين أشكالًا غريبة بأذرعهم فوق رؤوسهم. احتجتُ إلى دقيقة أو اثنتين لكي أتعلَّم الأشكال، ثم كنتُ قادرة على أن أقلّدها. تراقص حُرٌ، ثم أشكال مُشتركَة في الهواء؛ ثمَّ تراقصٌ حر، ثُمَّ أشكال مشتركة في الهواء. كان الرقص سهلًا.

وجدتُ نفسي لا أفكّر في أي شيء، شيءٌ مثل الذي تؤدي إليه الفودكا، لكنه مختلف، لأنني كنتُ بصُحبة أشخاص وكنتُ أغني. **يمكا! يمكا!**[42] الأذرع في الهواء، تحاكي حروف الكلمة - يا لها مِن فكرة بديعة! مَن كان يتصوَّر أنَّ الرقص يمكن أن يكون منطقيًا لهذه الدرجة؟

في أثناء الدورة التالية من التراقص الحُر، بدأت أتساءل لماذا كانت الفرقة الموسيقية تُغني، على ما يبدو، عن جمعية للشبّان المسيحيين، ولكن عندئذٍ، ومن إلمامي المحدود للغاية بالموسيقى الرائجة، فإنَّ الناس تغني حول المظلات، وحول نيران السمر، وحول روايات 'إيميلي برونتي'،

وهكذا، افترضت، فلِم لا يغنون عن منظمة شبابية تعتمد في عُضويتها على النوع والاعتقاد؟

انتهت الأغنية وبدأت أخرى؛ لم تكن هذه الأغنية في مِثل مَرح السابقة ولو بأهون قدر، لأنها كانت تعتمد كُليًا على التراقص الحُر بلا أي تشكيل مُشترَك لنماذج بالأذرع فيما بين نوبات التراقص، وعلى الرغم مِن ذلك فقد بقيتُ في ساحة الرقص، مع نفس مجموعة السيدات الباسمات، وقد شعرتُ بأنني كنتُ الآن راكبة للموجة تمامًا. كنتُ قد بدأتُ أفهم لماذا قد يجد الناس الرقص شيئًا مُمتعًا، رغم أنني لم أكن واثقة إن كنتُ أستطيع تكريس سهرة بكاملها له. شعرتُ بنقرة سريعة على كتفي فاستدرت، متوقعةً أن أجد 'ريموند' هنالك، مبتسمة بالفعل إذ فكَّرتُ أنه قد يود أن يعرف رأيي في الرقص بتشكيل الأذرع، ولكنه لم يكن هو.

كان رجلًا ما بين منتصف إلى أواخر ثلاثيناته، لم ألتق به من قبل. ابتسمَ لي ورفع حاجبيه، كأنه يطرح سؤالًا، ومن ثم بدأ بكل بساطة يؤدي تراقصًا حرًا قُبالتي. استدرتُ من جديد نحو مجموعة النساء الباسمات، لكنَّ الحلقة كانت قد أعيد تشكيلها من دوني. كان الرجل القصير مُحمرّ الوجه ذا إطلالة صفراء سقيمة كالعجين، كأنه شخص لم يأكل تفاحة واحدة أبدًا، وقد استمر في التراقص بمنتهى الحماسة، وإن كان خارج الإيقاع بدرجةٍ ما. وإذ لم أعرف كيف ينبغي أن أستجيب، استأنفتُ الرقص. مالَ للأمام وقال شيئًا ما، لم يكن مسموعًا بطبيعة الحال بسبب حدة ارتفاع صوت الموسيقى.

صحتُ قائلة: «عذرًا، ماذا قلت؟»

صاح، بصوتٍ أعلى ممَّا سبق: «قلتُ كيف تعرفين 'كيث'؟»

يا له مِن سؤالٍ عجيب يطرحه شخصٌ على آخر غريب.

قلتُ: «لقد ساعدتُ والده عندما وقع له الحادث». كان عليَّ أن أكرر هذا مرتين قبل أن يفهمني الرجل - ربما كانت لديه مشكلة ما في قدرته على السمع. عندما وصلَ إليه الأمر أخيرًا بدت عليه أماراتُ الفضول. اندفع للأمام نحوي بما لا يمكنني وصفه إلَّا بأنه نظرة ماكرة.

قال: «هل أنتِ مُمرضة؟»

قلتُ: «كلَّا، أنا موظفة إدارة مالية.» بعد ذلك بدا مرتبكًا قليلًا ولا يجد الكلمات الملائمة، ونظرتُ أنا نحو السقف بينما أرقص من أجل أن أحبطَ أي محاولة لمزيدٍ مِن الحديث؛ كان من العسير للغاية الرقص والتحدُّث في الوقت ذاته.

عندما انتهت الأغنية، كنتُ قد اكتفيتُ من الرقص حتَّى حين، وشعرتُ بحاجةٍ ماسة لشراب مُرطب.

صاح الرجل، مع بداية الأغنية التالية: «أيمكنني أن أدعوكِ إلى شراب؟» تساءلتُ تُرى ألم يفكر الدي جيه قبل ذلك قط في تقديم استراحة خمس دقائق بين الفقرات حتَّى يتسنى للناس الذهاب إلى البار أو الحمَّام في سلام. ربما يجب أن أقترح هذا عليه فيما بعد.

قلتُ: «كلَّا، شكرًا لك، لا أريد أن أقبلَ شرابًا منك، لأنني عندئذٍ أكون مُلزمة بشراء شرابٍ من أجلك في المقابل، وللأسف أنا غير مهتمة بقضاء ما يعادل تناول شرابين معكَ.»

«هاه؟» قال وهو يكوّر يده حول أذنه. من الواضح أنَّه مصاب بطنين في الأذن الوسطى أو مشكلة أخرى في الجهاز السمعي. خاطبته عبر الإيماء، هززتُ رأسي ببساطة ولوَّحت بإصبعي السبابة، بينما أشكّل بفمي كلمة لا. استدرت وذهبت أبحث عن الحمَّام قبل أن يحاول فتح حديثٍ آخر.

كان من الصعب العثور عليه، إذ كان يقع في نهاية رواق، ولم يكن بوسعي إلا أن أرى لافتات

تشير إلى غرفة التبرج، واتضح في النهاية أنَّ المقصود بها دورات المياه. لماذا لا يسمي الناس الأشياء بأسمائها وحسب؟ إنَّ هذا لمربك. كان هناك طابور التحقت به، وقفتُ خلف امرأة ثملة للغاية، كانت ترتدي ثيابًا غير ملائمة لسنها. إنني أرى حقًا أنَّ البلوزات الضيَّقة التي تكشفُ جزءًا مِن البطن مناسبة أكثر لمن هن تحت الخامسة والعشرين، إن كانت مناسبة لأي سنٍ من الأصل.

لم يكن الجاكيت الشفَّاف اللامع الذي ترتديه يفيد كثيرًا في تغطية صدرها العارم الذي تقشعر منه الأبدان. أمَّا مساحيق الزينة على وجهها، والتي كانت تبلغ من الدقة والعناية درجة يكاد يقصد بها الصعود لأداء عرض حي على خشبة مسرح 'رويال آلبرت هول'، وقد بدأت الآن تسيل وتفسد. لسببٍ ما، كان بوسعي أن أتخيَّل هذه المرأة تنشج باكيةً على السلالم في نهاية الليل. لقد باغتتني هذه الفكرة، ولكن كان هناك شيءٌ محموم قليلًا في مسلكها هو ما قادني إلى هذه النتيجة.

سألتني، على سبيل الدردشة: «في اعتقادك، كِم من حياتكِ أضعتِه وقوفًا في طوابير انتظار الحمَّامات؟ إنهم لا يملكون ما يكفي منها بالمرة، صحيح؟»

لم أتكلَّم، فقد كنتُ أحاول أن أحسب الوقت التقريبي للوقوف في طابور، لكنها لم يبدُ عليها أنها تكترث لعدم ردي عليها.

واصلت حديثها بنبرة غاضبة: «لا توجد مشكلة بالنسبة للرجال، أليس كذلك؟ لا توجد طوابير أبدًا أمام حمَّاماتهم. أحيانًا أود لو أن أذهب إلى هناك، وأقرفص أمامَ مبولتهم. هاه! تَخيّلي وجوههم فقط!» وضحكَت ضحكة طويلة مشبعة بالدخان سرعان ما تحوَّلت إلى نوبة سُعالٍ مطولة.

قلتُ: «أوه، لكنني أعتقد أنَّ حمَّامات الرجال تشكل خطرًا صحيًا رهيبًا، أقصد أنهم لا يكترثون كثيرًا بمسألة النظافة ومثل تلك الأمور.»

قالت بصوت مُترع بالمرارة: «صحيح، لا يكترثون، إنهم فقط يدخلون، ويتبولون في كل مكان ثم يخرجون بكل بساطة، تاركين الأمر لشخصٍ ما آخر لكي ينظف من بعدهم.» أرسلت نظرتها بغير ثبات في المدى، وكان من الواضح أنَّ في بالها شخص محدد.

قلتُ: «إنني أشعر بأسفٍ بالغ نحوهم، في حقيقة الأمر». حدجتني بعينيها، فأسرعتُ بتوضيح قولي. «أقصد، تخيّلي اضطرارهم للتبوّل وقوفًا في الصف، إلى جانب رجال آخرين غرباء أو حتَّى معارف أو أصدقاء؟ لا بدَّ أنَّ هذا شيء فظيع. فكّري فقط كم سيكون ذلك غريبًا إذا اضطررنا لأن يكشف بعضنا عن أعضائه الحميمة أمام بعض عندما نصل أخيرًا إلى مقدمة هذا الطابور!»

تجشأَت، برقة شديدة، وحدَّقت بغير استخفاء أو خجل في ندوب وجهي. فأشحتُ برأسي بعيدًا.

قالت: «أنتِ مُختلة العقل بدرجةٍ ما، صحيح؟» من دون أي قدر من العدوانية، ولكن بكلمات مدغمة بعضها في بعض. بالطبع لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذه العبارة.

فقلتُ لها: «نعم، نعم، أفترض أنني كذلك.» فأومأت برأسها، كما لو كنتُ حسمتُ أمرًا ظَلَّت مرتابة حياله طويلًا. ولم نتحدَّث بعد ذلك.

عندما عُدت إلى قاعة الاحتفالات، كان المزاج العام قد تغيَّر - إذ صارت الموسيقى أهدأ وأبطأ سرعةً. ذهبتُ إلى البار وأحضرت لنفسي شراب 'الماجنرز' وفودكا بالكولا، وبعد لحظة تفكير، كأس جعة طويلة من أجل 'ريموند'. لم يكن من السهل أن أحملَ كل هذا وأعودَ به إلى مائدتنا الصغيرة، لكنني تدبرت أمري من دون أن أسكب ولو قطرة واحدة. كنت مسرورة أن أجلس من جديد، بعد كل التراقص والوقوف في الطابور، وسرعان ما أنهيت الفودكا على جرعتين - كان الرقص عملًا يجلب العطش. كانت سترة الجينز الخاصة 'بريموند' لا تزال ملقاة على ظهر مقعده، ولكن لا أثر له هو نفسه. فكَّرت أنه ربما يكون خرج لكي يدخن. لديَّ أشياء كثيرة أريدُ أن أخبره

بها، وكنتُ أتوق إلى فعل ذلك. تغيرت الموسيقى مرة أخرى، وكانت الآن أهدأ من ذي قبل. غادر ساحة الرقص كثيرٌ مِن الأشخاص، وأخذ مَن تبقوا ينجرفون معًا. كان مشهدًا غريبًا، كأنه ينتمي إلى عالَم الطبيعة؛ القردة، ربما، أو الطيور. وضعت جميع النساء أذرعها حول أعناق الرجال، ووضع الرجال أذرعهم حول خصور النساء. وأخذوا يتمايلون من جانبٍ إلى جانب، ينقلون أقدامهم في ارتباك، إمَّا كانوا ينظرون نحو وجوه شُركائهم، وإمَّا يريحون رؤوسهم على أكتافهم.

كان نوعًا من طقوس التزاوج، بكل وضوح. ولكن رغم ذلك، أليس من الجائز أن يكون أمرًا جميلًا ورائعًا، التمايل على إيقاع موسيقى ناعمة، مع الالتصاق الحميم بشخصٍ ما؟ نظرتُ إليهم جميعًا من جديد، التفاوت في الأحجام والأشكال والتبدلات وتغيير الأوضاع فيما بينهم. وعندئذٍ، في المنتصف تمامًا، كان 'ريموند' هنالك، يراقص 'لورا'. كان يتحدث في أذنها، قريبًا منها بما يكفي ليشم رائحة عطرها. كانت تضحك.

كان المشروب الذي أحضرتُه له سيذهب سُدى. رفعت كأسه وأفرغتها في جوفي، الكأس بكاملها، كان المذاق لاذعًا ومريرًا. قمتُ واقفة وارتديتُ سُترتي. سوف أمرّ بغرفة التبرج مرة أخرى، وبعد ذلك سوف آخذ القطار لأعود به إلى المدينة. بدا لي أن الحفل قد انتهى.

(٢١)

يوم الإثنين، يوم الإثنين. لم تمضِ الأمور على ما يُرام؛ فلم أكن قادرة على أن أسترخي أمس، لم أكن قادرة على أن أقرر أي شيء. شعرتُ فقط بأنني على حافة جرف، بطريقةٍ ما. وإذا كانت حالتي المزاجية أحد ألغاز الكلمات المتقاطعة، فإنَّ إجابته ستكون كلمة «مُضطربة». حاولتُ أن أتبيَّن السبب، غير أنني لم أستطع أن أصل إلى نتيجةٍ تبدو معقولة. انتهى بي الأمر أن أخذتُ الحافلة إلى وسط المدينة في فترة ما بعد الظُهر (مجانًا، بفضل بطاقة الاشتراك) ورجعتُ لأرى 'بوبي براون'. ومرة أخرى، أخفقت الآنسة 'براون' في أن تثبت حضورها في مكان عملها - أحسستُ بالأسف مِن أنَّ أخلاقيات العمل الخاصة بها تشوبها شوائب - وكانت هناك سيدة أخرى قامت بوضع المساحيق على وجهي، مثل المرة الماضية بالضبط تقريبًا. وفي هذه المرَّة، اشتريت بعض المنتجات والأدوات المتنوعة واللازمة لإعادة تخليق هذا الوجه نفسه في المنزل.

تجاوزت التكلفة الإجمالية مقدار فاتورتي الشهرية للضريبة العقارية بهامشٍ بسيط، لكنني كنتُ في حالةٍ مزاجية غريبة فلم يردعني هذا. احتفظتُ بالوجه المطلي بالمساحيق طيلة اليوم، وقد أعدتُ طلاءه هذا الصباح بحيث كان صورة طبق الأصل تقريبًا. أرتني السيدة ما الذي عليَّ أن أفعله، بما في ذلك دَهن الكونسيلر فوق ندوبي. أمَّا العين ذات الظلال الدُخانية فلم تكن مطابقة تمامًا اليوم، ولكنَّ السر، كما قالت لي، وراء جَمال ظلال العين الدخانية أنها ليست بحاجة لأن تكون دقيقة.

كنتُ قد نسيتُ أنني فعلت ذلك حتَّى وصلتُ المكتب، فأطلق 'بيلي' صفيرًا، أو عواء ذئب في الحقيقة، ما جعلَ الآخرين يستديرون وينظرون.

قال: «قَصّة شعر جديدة، وقليل من طلاء الشفاه»، بينما كان يلكزني بمرفقه. انكمشتُ مُتراجعة. فواصل قائلًا: «زميلتنا العزيزة تبحث عن قليلٍ من الحركة والإثارة، إن لم أكن مخطئًا؟»

تجمَّعت النساء مِن حولي. كنتُ أرتدي طقم ثيابي الجديد كذلك. تناثرت تعليقاتهن: «تبدين جميلة، يا 'إليانور'!»- «الأسود يليقُ بكِ.»- «كَم يعجبني هذا الحذاء ذو الرقبة، مِن أين اشتريتِه؟» تفقدتُ وجوههن، بحثًا عن أي نظرات ماكرة، وانتظارًا لجملة الدعابة الختامية. لكن لم يبد شيء من ذلك وشيكًا.

قالت 'جيني': «أين قصصتِ شعركِ، بالمناسبة؟ تبدو قَصَّة فيها عناية خاصة.»

قلتُ: «صالون 'هيلوتروب'، في وسط المدينة، قَصته لي 'لورا'»، وأضفتُ بكل فَخر: «إنها صديقتي». بدا الانبهار على 'جيني'. قالت: «ربما أجرب هذا الصالون بنفسي. لأنَّ مصفف شعري سوف ينقل عمله في مدينة أخرى شَمالًا، لذا فإنني أبحث عن شخصٍ جديد حاليًا. هل تقوم صديقتك بتزيين العرائس ليلة الزفاف أيضًا، أتعرفين ذلك؟» بحثتُ في حقيبة يدي. قلتُ: «ها هي بطاقة عملها، لمَ لا تتصلي بها؟»

أشرقَ وجه 'جيني' بابتسامة نحوي. أيمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ رددتُ ابتسامتها بمثلها - تذكَّرتُ: إن كنتَ في شكٍ فلتبتسم وكفى - وذهبتُ إلى مكتبي.

أهكذا كانت تسير إذن عجلة الاندماج الاجتماعي الناجع؟ هل الأمور بهذا البساطة حقًا؟ ضعي طلاء شفاه، اذهبي إلى صالونات تصفيف الشعر، وغيّري طراز ما ترتدين مِن ثياب؟ ينبغي على شخصٍ ما أن يؤلف كتابًا حول هذا، أو على الأقل نشرة تفسيرية موجزة، وينشر هذه المعلومات

ذات الشأن. لقد حظيتُ بقدرٍ مِن انتباههم اليوم (وقد كان انتباهًا إيجابيًا، ويخلو من سوء النية والخبث تمامًا) أكثر ممَّا حظيتُ به خلال السنوات القليلة السابقة. ابتسمتُ لنفسي، في سرورٍ لأنني فككتُ شفرة هذا الجزء من اللغز. وصلتني رسالة إلكترونية:

اختفيتِ فجأة يوم السبت من غير كلمة مع السلامة - هل كل شيء تمام؟ ري.

نقرتُ للرد:

أنا بخير، شكرًا لك. كل ما في الأمر أنني اكتفيتُ من الرقص والأشخاص الآخرين. إل.

أجاب في الحال:

الغداء؟ مكاننا المعتاد، ١٢:٣٠؟ ري.

ولدهشتي البالغة، أدركتُ أنني تروق لي فكرة تناول الغداء مع 'ريموند'، وكنتُ مسرورةً حقًا لأنه طلبَ مني ذلك. كان لنا مكان مُعتاد! شددتُ مِن عزمي بأقصى ما أستطيع، وبينما أجعل أسناني تَصرّ، استخدمتُ إصبعًا واحدًا فقط وكتبت:

أراك هناك إل.

رجعتُ بظهري للوراء في جلستي، وأنا أشعر بأنني غريبة قليلًا عن نفسي، فالتواصل مع تحطيم قواعد اللغة كان أسرع، هذا صحيح، لكنه لم يخلُ مِن الصعوبة. وفَّرت على نفسي مشقة نقر حروف كثيرة بهذه الاختصارات، ومع ذلك، كان هذا جزءًا من عقيدتي الجديدة، أن أجرب أشياء جديدة. لقد جرَّبت تحطيم القواعد، ولم يرق لي بكل تأكيد. إذن، فلتذهب كلمة (LOL) بعيدًا عني إلى حيث تشاء. هذا ليس ملائمًا لي؛ ببساطة لا يصدر عني بشكل طبيعي. رغم أنه من الجيد تجربة المرء لأشياء جديدة والاحتفاظ بعقل متفتح؛ فمن المهم لأقصى حد كذلك أن يبقى المرء متصالحًا مع ذاته صادقًا معها ومع فطرته. لقد قرأتُ هذا في مجلة بصالون تصفيف الشعر.

كان 'ريموند' هناك مِن قَبل عندما وصلت، يثرثر مع شاب مختلف عنه وإن كان نسخة مطابقة تقريبًا للرجل الذي خدم مائدتنا في المرة السابقة ولكن هذا له لحية. طلبت قهوة ذات رغوة وفطيرة جبن مرة أخرى، وهو ما جعل 'ريموند' يبتسم.

«تتصرفين دائمًا بحُكم العادة، ألستِ كذلك يا 'إليانور'؟»

رفعتُ كتفيَّ.

قال: «تبدين لطيفة، بالمناسبة، يروق لي ...» وأشارَ إشارةً غامضة نحو وجهي. أومأت له.

قلتُ: «لسببٍ غامض، يبدو أنَّ الناس يحبونني أكثر بمساحيق زينة على وجهي». رفع حاجبيه وهز منكبيه، كان من الواضح أن هذه المسألة تحيّره بقدر ما تحيرني.

أحضرَ لنا ذو اللحية طعامنا وبدأ 'ريموند' يلقي بالطعام صوب وجهه.

سأل: «إذن، هل استمتعتِ بوقتك يوم السبت؟» تمنيتُ لو أنه تحدث بين لقمتين، غير أنه، في حقيقة الأمر، وعلى نحوٍ مخيف، تحدث *في أثناء* مضغه.

قلتُ: «نعم، شكرًا لكَ. كانت أوَّل مرة أجرب فيها الرقص، وقد استمتعتُ به للغاية.» واصل نَقل الطعام بالشوكة إلى فمه، بدت لي الآلية وضجَّتها تقريبًا عملًا صناعيًا لفرط شدته.

سألتُه: «هل استمتعت *أنت*؟»

قال: «ممم، كانت حفلة ممتعة، صحيح؟» لم يكن يستخدم سكينًا، لكنه يُمسك شوكة في يده اليُمنى وكأنه طفل أو أمريكي.

ابتسم.

تساءلتُ في نفسي إن كان هو و'لورا' قد رقصا معًا مرةً أخرى في ذات المساء، وما إن كان

صحبها حتَّى منزلها، ولكنني قررتُ ألّا أسأله عن ذلك، فلم يكن هذا من شأني، على كل حال، وطرح الأسئلة الفضولية عن حياة الآخرين الشخصية ليس من الأخلاق الحميدة في شيء.

«إيه حسنًا ... هل اتخذتِ قرارك بشأن الترقية؟ هل ستقبلينها؟»

كنتُ، بالتأكيد، واصلت التفكير في هذا الأمر خلال كل دقيقة فراغ على مدار الأيام السابقة. ورحتُ أفتش عن علامات أو إشارات تدلني على الاختيار الصحيح - ولم يأتِ شيءٌ منها رغم ذلك، باستثناء يوم الجمعة الماضية؛ حيث كان سؤال الكلمات المتقاطعة لاثنتي عشرة خانة كالتالي: *لصالح الحركة (للأعلى) (٩)*. اعتبرتُ هذا علامة فألٍ طيّب مشجعة.

قلتُ: «سوف أقبل.»

ابتسم ووضع شوكته ورفع يده وبسطها نحوي. أدركتُ أن هذا كان يعني أن أضع يدي على يديه في الحركة التي أدركتُ الآن أنها تدعى 'هاي فايف'.

«أحسنتِ»، قال وهو يستأنف غداءه. «أهنئكِ.»

شعرتُ بومضةٍ مِن السعادة، مثل عود ثقاب اشتعل. لا أستطيع أن أتذكر أنني تلقيتُ أي تهنئة بسبب أي شيء من قبل هذا. كان إحساسًا جميلًا للغاية.

سألته: «وكيف حال السيدة والدتك، يا 'ريموند'؟» بينما أستمتع باللحظة وبآخر قطعة من فطيرة الجبن. تحدَّث عنها لبرهة من الوقت، وأخبرني بأنها كانت تسأل عني. شعرتُ بشيءٍ من القلق، وهو توتر تلقائي تمامًا فيما يخص أي فضول أمومي، لكنه هدَّأ مخاوفي.

قال: «لقد أحبَّتك حقًا - وقالت لي أن أخبركِ بأن تمرّي عليها في أي وقت، إنها تشعر بالوحدة.»

أومأتُ له. لقد أدركتُ ذلك. استأذن وقامَ متثاقلًا نحو الحمَّام، وأخذتُ أجول ببصري في أنحاء المقهى بينما أنتظر عودته. كانت هناك امرأتان في نفس سني تقريبًا جالستين إلى المائدة المجاورة لي، وكلٌ منهما معها طفل رضيع في ثياب زاهية. كان كلا الطفلين في مقاعد السيارة المحمولة؛ أحدهما نائم، والآخر يتأمل شاردًا في شعاع من ضوء الشمس يتراقص على الجدار. أصدرت ماكينة إعداد القهوة صفيرًا مفاجئًا من خلفنا، ولاحظتُ على وجه الصغير موجاتٍ تترقرق منذرةً. وبالحركة البطيئة، مطَّ فمه الوردي العذب كأنه يقبل أحدًا ثم فتحه على اتساعه وأطلق نواحًا بدرجة صوت جسيم للغاية. نظرت أمه للأسفل، واطمأنت أنَّ كل شيء على ما يرام رغم الضجة، وواصلت حديثها. أفترضُ أنَّها مسألة منطقية تمامًا، مِن ناحية النشوء والتطوّر، أنَّ صيحات الرضَّع المعربة عن الألم والكرب لا بد أن تكون مضبوطة بكل دقة على النغمة المضبوطة تمامًا وعلى درجة ارتفاع الصوت المناسبة بحيث يكون من المستحيل على الإنسان البالغ أن يتجاهلها بالمرة.

كان يزدادُ الآن انزعاجًا واغتياظًا، وقد كوَّر قبضتيه بغضب، اشتدت حُمرة وجهه مع مرور كل دقيقة. أغمضتُ عيني، حاولت دون جدوى أن أتجاهل الضجيج. *أرجوكِ توقفي عن البكاء، أرجوكِ توقفي عن البكاء. أنا لا أدري لماذا تبكين. ما الذي يجب عليَّ أن أفعله حتَّى تتوقفي؟ لا أدري ما أفعل. هل تتألَّمي؟ هل أنتَ مريضة؟ جوعانة. لا أدري ماذا أفعل. أرجوكِ لا تبكي. لا يوجد شيء لتأكليه. سوف تعود ماما قريبًا جدًا. أين ماما؟* كانت يداي ترتجفان وأنا أرفع قدح قهوتي، وتنفسّت بأبطأ ما استطعت، وأنا أركز بصري على سطح المائدة.

توقَّف البكاء. رفعتُ بصري ورأيت الطفل، ينام بهدوء بين ذراعي أمه الآن وأخذت تمطر وجهه بالقبلات. أطلقت زفيرًا. حلق قلبي فرحًا لأجله.

عندما رجع 'ريموند'، دفعتُ حساب غدائنا، بما أنَّه قد دفعَ في آخر مرَّة؛ كنت بدأتُ حقًا أعتاد على فكرة تناوب الدفع. ومع ذلك، فقد أصرَّ على أن يترك إكرامية. خمسة جنيهات! كل ما فعله الرجل هو أنَّه حمل طعامنا من المطبخ حتَّى المائدة، وهي الوظيفة التي يعطيه صاحب المكان راتبه ليقوم بها. كان 'ريموند' شخصًا متهورًا ومبذرًا - لا عجبَ أنه لا يستطيع أن يشتري لنفسه حذاء محترم أو مكواة.

عدنا إلى المكتب سائرين ببطء، وأخبرني 'ريموند' بأدق التفاصيل مشكلة خادم كمبيوتر ما لم أفهم منها شيئًا (وليس لديَّ أي اهتمام خاص بها). سيكون عليه أن يتعامل معها بعد الظهيرة. في ردهة الشركة، اتجه نحو الدرج حيث كان يقع مكتبه.

قال: «أراكِ قريبًا، اتفقنا؟ انتبهي لنفسك.»

وبدا من نبرته كأنه يعني الأمرين حقًا؛ أنه يود أن يراني قريبًا بالفعل، وأنه كان يتمنى لي أن أنتبه لنفسي. شعرتُ بدفءٍ في داخلي، شعور حارٌ ومتوهج كأنه قدح شاي ساخن في صبيحة باردة.

قلتُ: «وانتبه لنفسك أنت أيضًا، يا 'ريموند'»، وكنتُ أعني ما أقول.

في ذلك المساء، كنتُ قد خططتُ لأن أسترخي مع قدح من شراب 'البوفريل'[43]، وأستمع إلى برنامج إذاعي شائق للغاية حول الشؤون السياسية في أمريكا الجنوبية، بعد أن أنهي تفقدي المعتاد لأحوال 'جوني لوموند' على الإنترنت. كان قد أرسل تغريدة مفككة على موقع تويتر حول إحدى الشخصيات الدرامية في مسلسل تليفزيوني ووضع على فيسبوك صورة لزوج أحذية جديد يريد أن يقتنيه. يوم خالٍ من الأخبار المهمة. كانت مفاجأة مُستبعدة وغير مستحبة أن أسمع صوت أمي على الهاتف في يوم الإثنين.

«'إليانور'، حبيبتي. ليس موعدنا المعتاد للحديث، أعلم هذا، ولكنني كنتُ أفكر فيكِ. أردتُ فقط أن أسلّم عليكِ، وأرى كيف تتدبرين أمورك، أقصد بخصوص المسألة إيَّاها.»

كنتُ صامتة، ومصدومة بسبب هذا الاقتحام لمسائي على غير موعد.

قالت: «حسنًا؟ إنني أنتظر، يا حبيبتي...»

تنحنحت لأصفي صوتي.

«أنا، إممم ... أنا بخير، يا ماما. هل كنتِ - *تفكرين* فيَّ؟»

كانت هذه هي المرة الأولى.

«إممم. إنهما شيئان في الحقيقة: أولهما، هل تريدين مني أن أرى إذا ما كان بوسعي أن أعاونكِ في مشروعك؟ لا يمكنني أن أفعل الكثير نظرًا لمكاني هذا، كما هو واضح، ولكن ربما يكون بوسعي أن، لا أدري، أن أتحدّث لبعض الأشخاص لتحريك الأمور؟ وربما أيضًا يمكن لي أن أدبر أمر زيارة صغيرة، أن آتي إليكِ وأساعدك؟ أقصد، أعرف أنَّ هذا يبدو مستحيلًا، ولكن مَن يدري؟ دائمًا هناك احتمال أن تتحرَّك الجبال وما إلى ذلك - »

قلتُ، مُرددة ثرثرة غير ذات معنى: «لا، يا ماما، آه، لا لا لا ....» سمعتُها تأخذ شهيقًا، وأرغمتُ كلماتي على أن تنتظم. «أقصد، يا ماما» - سمعتُ صوت هسيس إذ أطلقت الهواء الحبيس في رئتيها. «شيء في غاية اللطف منكِ أن تعرضي عليَّ هذا، ولكن أظن أنني سوف أرفض هذا العرض.»

قالت بنبرة خامدة شيئًا ما: «هل لي أن أسال لماذا؟»

قلتُ: «الأمر أنني ... أنا أعتقد حقًا أنني أضع كل شيء تحت السيطرة هنا. أظن أنه سيكون من

الأفضل لو أنكِ ... تبقين حيث أنتِ، إن جاز التعبير. لستُ متأكدة إن كان هناك أي شيء أكثر يمكنكِ عمله في هذه المرحلة.»

- «حسنًا، يا حبيبتي ... ما دمتِ متأكدة. لكنني صاحبة كفاءة شديدة، ألا تعرفين؟ ولكي أكون صريحة معكِ، فإنكِ تكونين في بعض الأحيان حمقاء متخبطة قليلًا.»

تنهدتُ، بهدوء بقدر ما استطعت.

واصلَت تقول: «وعلاوة على ذلك، لقد بدأ صبري عليكِ ينفد الآن. ينبغي تحريك الأمور للأمام مع هذا الرجل، ألا تفهمين؟ لا بد من مزيد من الحركة، يا 'إليانور' - ذلك هو المطلوب، يا حبيبتي.» كانت قد بدأت تبدو أهدأ الآن.

«نعم، يا ماما. نعم، أنتِ على حق تمامًا بكل تأكيد.» كان من الصحيح فعلًا، أنني منذ أن رأيتُ الفنان لأوَّل مرة، قد شغلتني عنه وأعاقتني عن التقدم في خطتي بالتالي أمورٌ أكثر إلحاحًا خلال الأسبوع القليلة الماضية. فقد كان هناك الكثير للغاية من المسائل الأخرى التي تورَّطت فيها - 'ريموند'، الوظيفة الجديدة، 'سامي' وعائلته ... لكنها كانت على حق.

قلتُ: «سأعملُ على تحريك الأمور بوتيرة أسرع». أرضاها قولي ذلك كما رجوت، وبدأت تودعني إيذانًا بختم المكالمة.

«صحيح، انتظري، يا ماما - ابقي معي لثانية. لقد قلتِ أن هناك شيئان - فما هو الشيء الثاني الذي كنتِ تفكرين فيه؟»

قالت: «نعم، صحيح»، وسمعتُ هسيس نفخ دخان سيجارتها بجانب فمها. «أردتُ فقط أن أخبركِ أنكِ خسارة بلا طائل للنسيج البشري، ندب على وجه الإنسانية. ذلك كل ما في الأمر. سَلامًا إذن، يا حبيبتي!»

هكذا قالت، لامعةً مثل نصل سكين.

صمت.

@johnnieLrocks
موجز الأنباء! سأترك فرقة بيلجريم بيونيرز. لا مشاعر ضغينة **مُطلقًا** أحترم هؤلاء الرجال #فنان_منفرد #مولد_نجم (1/2)
@johnnieLrocks
سأعزف وأغني منفردًا في اتجاه موسيقي مختلف وأقوى. المزيد قريبًا. تصحبكم السلامة #محطّم_الأوثان (2/2)

(٢٢)

اتصلت بأمي مرة أخرى يوم الأربعاء كالمعتاد. كانت الفترة الفاصلة ما بين محادثاتنا أقصر ممَّا يجب.

قالت: «ألوه! إنها أنا مِن جديد! ألديكِ أي شيء جديد لتخبري به ماما؟»

في غياب أي أخبار أخرى ذات شأن منذ يوم الإثنين، أخبرتها بحفل عيد ميلاد 'كيث'.

قالت: «هل أصبحتِ فَراشة اجتماعية تنتقل من هنا إلى هناك هذه الأيام، يا 'إليانور'؟» وكان صوتها عذبًا على نحوٍ بغيض.

لم أُجب؛ عادةً يكون هذا أأمن تصرف يُتَخذ معها.

«ماذا كنتِ ترتدين؟ أراهن أن منظرك كان سخيفًا مضحكًا. لكن، محبةً في الرب، إياكِ أن تقولي أنكِ حاولت أن ترقصي، يا ابنتي.» وقد استشعرَت إجابتي بطريقة ما مِن صمتي المتوتر.

قالت: «آه، يا ربي، الرقص لمَن يتمتعون بالحُسن والجمال، يا 'إليانور'. مجرّد فكرة أنكِ، تهتزين في مكانك بتثاقل مثل حيوان الفظ[44]...» أخذت تضحك ضحكًا طويلًا قويًا. «آه، شكرًا، شكرًا جزيلًا لكِ، يا حبيبتي. لقد أصلح ذلك مزاجي لهذه الليلة حقًا.» وعاودت الضحك. «'إليانور'، ترقص!»

قلتُ بهدوء: «كيف حالكِ، يا ماما؟»

- «بخير، يا حبيبتي، بكل خير. الليلة ليلة يخنة 'الشيلي'، وهي دائمًا ممتعة. وسوف نشاهد فيلمًا بعد ذلك. مفاجآت كل أربعاء!» كانت نبرتها مرحة فرِحة - وأدركتُ فيها لمسة جنون ليست غريبة عليَّ.

قلتُ لها: «لقد حصلتُ على ترقية، يا ماما»، غير قادرة على إخفاء ومضة فخر صغيرة تشوب صوتي. ضحكت ضحكة صغيرة مثل نخرة.

«ترقية! ما أروع هذا بشكل *غير معقول*، يا حبيبتي. وماذا يعني ذلك - زيادة خمسة جنيهات كل شهر؟»

لم أُجب.

«ومع ذلك»، قالت وصوتها يتقطر بعُذوبةٍ متكبرة وآمرة، «*هذا جيدٌ لكِ*، يا حبيبتي. أقصد، حقًا؛ *أحسنتِ صنعًا*.» نظرتُ نحو الأرض، وترقرقت الدموع في عينيَّ.

تحدَّثَت إلى شخصٍ ما آخر، بطريقة أقرب ما تكون إلى الزمجرة والنباح: «كلَّا، آه اللعنة أنا لم أقل ذلك! آه، قلتُ سنشاهد مسلسل *الجنس والمدينة - الجزء الثاني*'! نعم، صحيح! قلتُ ذلك! وحسبتُ أننا أخذنا الأصوات وانتهينا. هه؟ ثانيةً؟ ملعون أبو هذا الفيلم ...»[45] ثم تحدَّثت مباشرةً إليَّ مرة أخرى.

«لقد صوتت زميلاتي النزيلات هنا على مشاهدة فيلم *'الخلاص من شاوشانك'* مرة أخرى بعد ألف مرة سابقة، إذا كان بوسعك تصديق هذا؛ يتكرر هذا على مدى، إمممم، عشرين يوم أربعاء على التوالي حتَّى الآن ...

«اسمعي - لا تنشغلي عن مشروعك بكل هذه الأمور مثل *الوظيفة الجديدة وسخافة حفلات أعياد الميلاد*. هناك مَهمة بين يديكِ، وعليكِ أن تحتفظي بتركيزكِ موجهًا نحوها.

صاحبات القلوب الضعيفة لا يعجبن الفتى الجريء، تفهمين هذا. تخيّلي لو أنك قدّمتِ لي زوج ابنة وسيم ولائق، يا 'إليانور'. سيكون هذا أمرًا *طبيعيًا*، يا حبيبتي، ألن يكون كذلك؟ وسنكون عندئذٍ أسرة *طبيعية عادية*.» وضحكت هي، وضحكتُ أنا أيضًا - مجرد الفكرة كانت أشد غرابة وشذوذًا من أن أتأملها.

قالت في حُزن: «لقد لُعنتُ بإنجاب البنات، ومع ذلك فَلَطالما تمنيتُ ابنًا. وسوف يفي زوج ابنة بالغرض وإن كان بصعوبة شديدة - طالما كان شخصًا لائقًا. تفهميننى: مهذب، يهتم بالآخرين ويراعي مشاعرهم، حَسَن السلوك. إنَّ فيه كل تلك الأشياء، أليس كذلك، *مشروعك* ذلك، يا 'إليانور'؟ رجل أنيق الملبس؟ يعرف كيف يتحدث؟ تعلمين أنني حاولتُ على الدوام أن أغرس فيكِ مدى أهمية الحديث كما ينبغي والظهور بمظهرٍ حسن.»

قلتُ إذ شعرتُ باهتمامها بموضوعي: «إنه يبدو في غاية اللطف، يا ماما، لائق جدًا. وسيم وموهوب وناجح. متألق!». كما هو واضح، لم أكن أعلم شيئًا تقريبًا عنه، وهكذا كنتُ أزيّن وأنمق المعلومات غير الوافية التي لملمتُها من هُنا وهناك حول 'جوني لوموند' من عملية البحث والاستقصاء. كان ذلك شيقًا للغاية.

كانت تتحدث بنبرتها التلقائية المعتادة منها، النبرة التي تَشي بالنبذ والإقصاء، مع موجة خفية من التهديد والوعيد.

«آه، يا ربي، أنا الآن ضجرة. ضجرةٌ من هذا الحديث، وضجرةٌ من انتظار أن تتمّي هذا المشروع. انصرفي الآن، يا 'إليانور'. وبحق السماء، لا ترهقي نفسك رجاءً باتخاذ أي مبادرة ودفع الأمور للأمام. آه، كلَّا، لا سمحَ الرب يعني. رجاءً، واصلي عدم فعل أي شيء. اذهبي واجلسي في شقتك الصغيرة الخاوية وشاهدي التليفزيون بمفردك، تمامًا كما تفعلين ليلةً بعد ليلة.»

سمعتُها تصيح: «أنا آتية! إياكم وأن تبدأوا من غيري!» صوت طقطقة القدَّاحة، وسَحب نَفَس.

- «لا بدَّ أن أنطلق، يا 'إليانور'. سلامًا!»

انقطعَ البث، صمتٌ تام.

جلستُ وشاهدتُ التليفزيون بمفردي، تمامًا كما أفعل ليلةً بعد ليلة.

أحسبُ أن أحد أسباب قدرتنا جميعًا على الاستمرار في الوجود خلال العُمر المقدَّر لنا في وادي الدموع هذا ذي اللونين الأخضر والأزرق هو أنَّ هناك على الدوام فُرصة للتغيير، مهما بدت بعيدة الاحتمال. لم أحسب يومًا، ولو في أبعد تخيلاتي، أنني قد أشعر بأي شيءٍ آخر نحو وظيفتي سوى أنها ثماني ساعات من السُخرة. كان مثارًا لدهشتي أن أتفقد ساعة يدي، خلال كثيرٍ مِن أيام الأسبوع الآن، فأجد ساعات العمل قد مرَّت من غير أن أنتبه. كان دوري كمديرة للمكتب يتطلب أداء مهام جديدة كثيرة وكان عليَّ أن أتعلَّمها وأتقنها، غير أنني لم أجد أيًا منها يتجاوز قدرات الإنسان العادي، بكل وضوح، غير أن بعض المهام كانت على درجةٍ معقولة من التعقيد، وقد فاجأني قدرُ الحماسة التي استجاب بها عقلي للتحديات الجدّية التي وضعت أمامه. بدا على زملائي أنهم محبطون بدرجةٍ ما عندما سمعوا بنبأ أنني سأكون مديرةً عليهم، لكن، وحتَّى هذه اللحظة على الأقل، لم تظهر أي علامة على التمرد أو العصيان. بقيتُ في حالي ومنشغلة بشؤوني عنهم، كما هو الحال على الدوام، وسمحتُ لهم بمواصلة مهام وظائفهم (أو ما بدا كذلك، بما أنهم لم يكونوا يفعلون الكثير على الإطلاق، ويميلون لارتكاب أخطاء في المهام القليلة التي يؤدونها فعليًا). وفي الوقت الحاضر، على الأقل، استمرَّ الوضع على ما هو عليه، كما أنهم، حتَّى الآن، لم تقل كفاءتهم عمَّا كانوا عليه قبل تعييني.

كان الدور الجديد يقتضي التفاعل مع 'بوب' بوتيرة أكبر، وقد تبينتُ أنه كان بالفعل محاورًا مؤنسًا مُسليًا، وقد تقاسم معي الكثير من تفاصيل تسيير العمل يومًا بيوم، وقد قدَّم لي معلومات حول العملاء بطيب خاطر، وبلا أدنى تحفظ. وسرعان ما فهمتُ أنَّ العملاء قد يكون إرضاؤهم مهمة عسيرة للغاية؛ ما زلت لا أتصل بهم اتصالًا مباشرًا إلَّا في نطاق ضيق، الأمر الذي ناسبني على خير نحو.

مِمَّا تمكنتُ مِن الإلمام به، أستطيع أن أصف العملاء بأنهم غير قادرين بالمرة، وبصورة روتينية متكررة، على سرد متطلباتهم بصورة واضحة؛ مما يجعل المصممين يصنعون لهم، بدافع اليأس، بعض الرسوم والأعمال الفنية المعتمدة على بضعة تلميحات غامضة استطاعوا استنتاجها من كلامهم. وبعد ساعات عديدة من العمل، تتطلّب مشاركة فريق كامل من الموظفين، يُرفَع العمل إلى العميل للحصول على موافقته. وعند تلك النقطة، يقول العميل: «لا. هذا بالضبط ما **لا** أريد.»

وتتكرَّر هذه السلسلة من الالتفافات والحلقات مراتٍ عديدة قبل أن يعلن العميل أخيرًا عن رضاه أو رضاها عن النتائج النهائية. وكما قالَ 'بوب' مِن المحتوم أنَّ العمل الفني الذي تمَّت الموافقة عليه في نهاية العملية هو تقريبًا نسخة طبق الأصل من تلك القطعة الأولى التي أُرسلت، والتي رفضها العميل في الحال واعتبرها غير ملائمة بالمرة. لم يكن مثيرًا للدهشة إذن، هكذا خطرَ لي، أنه كان يُبقي غرفة الموظفين مزوَّدة جيدًا بالجعة والنبيذ والشوكولاتة، ولم يكن هناك أحد من أعضاء الفريق الفني يبخل على نفسه بشيءٍ من هذا، مرةً تلو الأخرى.

كنتُ قد بدأتُ أخطط لغداء الكريسماس كذلك. لم يكن لدي سوى أفكار غامضة في هذه اللحظة، ومع ذلك، فإنني مثل عملائنا، كنتُ واضحةً للغاية بشأن ما **لم** أكن أريد. لا مطاعم أو فنادق من بين السلاسل الرائجة ذائعة الصيت، لا ديك رومي، ولا 'بابا نويل'؛ ولا أي مكان من النوع الذي يكتب على مواقع الإنترنت كدعاية من قبيل «نقدم الترفيه للشركات» أو «حفل لموظفي مكاتبكم». سوف يقتضي الأمر بعض الوقت لأتتبع أثر المكان المثالي وأخطط للحدث المثالي، ولكن كان لا يزال أمامي بضعة أشهر.

واصلت أنا و'ريموند' اللقاء على الغداء، مرة كل أسبوع تقريبًا. كان يومًا مختلفًا على الدوام، وهو ما كان يزعجني، لكنه كان رجلًا لا يستجيب للنظام الثابت بالمرة (شيء لا يثير دهشتي). ذات يوم، أرسل لي رسالة إلكترونية بعد أن التقينا بأقل من أربع وعشرين ساعة، ليدعوني إلى تناول الغداء مرة أخرى في اليوم التالي مباشرةً. بالكاد كنت أستطيع أن أصدق أنَّ شخصًا ما يتمتع برفقتي، أو على الأقل يتحملها، خلال وجبة غداء صغيرة، فضلًا عن أن يصل الأمر لأن أعتقد أنَّ هذا قد يحدث مرتين خلال أسبوع واحد.

عزيزي ري.، سوف يسرني أَن ألقاك على الغداء مرة أخرى، ولكن حائرة نوعًا ما نظرًا لأن لقاءنا السابق كان قريب العهد للغاية. هل كل شيء على ما يرام؟ تحياتي، إل.

وأجاب هو بما يلي:

لديَّ شيءٌ عليَّ أن أخبركِ به. أراكِ الساعة ١٢:٣٠. ري.

كانت لنا عاداتٌ لا تتغيَّر في لقاءاتنا لتناول الغداء، بحيث لم يكن 'ريموند' بحاجةٍ حتَّى لأن يحدد المكان.

عندما وصلت، لم يكن هناك، لذا فقد أخذت أطالع صحيفةً كانت ملقاة على المقعد المجاور لي. الأمر الغريب بالنسبة لي، أنَّ هذا المكان الرث المهمِل قد بدأ يروق لي، وقد كان جميع العاملين فيه، رغم مظهرهم المُنفر قليلًا، ظرفاء وودودين بنفس القَدر، وأصبح الآن أكثر من واحد منهم

قادرًا على أن يقول لي: «الطلب المعتاد، صحيح؟»، وعندئذٍ يُحضر لي قهوتي وفطيرة الجبن من غير أن أضطر لأن أطلبهما منه. أعرفُ أنَّ في الأمر تفاهة وسطحية شديدة مني، لكنَّ هذا جعلني أشعر كأنني شخص ما في مسلسل كوميدي أمريكي خفيف الظل، حيث أكون 'زبونًا دائمًا'، ولديَّ 'طلبي المعتاد'. ستكون الخطوة التالية أن أتبادل المزاح اللمَّاح بغير أدنى جهد معهم، ولكن لسوء الحظ كنا لا نزال على مسافةٍ ما من ذلك. أحد العاملين - واسمه 'مايكي' - اقترب مني بكأس ماء.

قال لي: «هل تريدين طلبكِ الآن، أم أنكِ سوف تنتظرين 'ريموند'؟»

أخبرتُه أنني أتوقَّع وصول 'ريموند' في الحال، وبدأ 'مايكي' يمسح الطاولة المجاورة لي.

سألني: «وكيف أحوالكِ، عمومًا؟»

قلتُ: «أنا بخير، أشعرُ أننا نقترب من أواخر الصيف.» كان هذا شيئًا خطرَ لي بينما كنتُ أسير إلى المقهى، وقد أحسستُ بأشعةٍ رقيقة على وجهي، ورأيتُ بضع ورقات شجر تلوَّنت بالأحمر والذهبي وسط قريناتها الخضراء. أومأ 'مايكي' لي.

قال: «سوف أترك العمل هنا آخر الشهر».

قلت: «أوه! يا للخسارة.» كان 'مايكي' طيبًا ولطيفًا، ودائمًا يقدم لنا مع القهوة قطع البسكويت الصغيرة المحلاة بالشوكولاتة، من غير أن يُطلَب منه ذلك أو يطلب نقودًا إضافية مقابلها.

سألتُه: «هل وجدت وظيفة جديدة في مكانٍ آخر؟»

فقال وهو يجثم على مقعد مجاور لي: «كلَّا، لقد ساءت حالة 'هازيل' الصحية مرة أخرى». كنتُ أعلم أنَّ 'هازيل' هي حبيبته، وأنهما يعيشان معًا غير بعيد مع كلبهما الصغير من نوع بيشون فريز وابنهما 'لويس'.

قلتُ: «هذا خبر مؤسف للغاية، يا 'مايكي'». فأومأ لي.

«كانوا يعتقدون أنَّهم تخلصوا منه تمامًا في المرة الأخيرة، ولكنه رجع، وامتدَّ حتَّى العُقَد اللمفاوية والكبد. أردتُ فقط أن، تفهمين قصدي...»

قلتُ: «أردتَ أن تقضي الوقت القليل المتاح 'لهازيل' معها ومع 'لويس'، بدلًا من تقديم فطائر الجبن لامرأة غريبة»، وقد ضحكَ لقولي وهو ما أشعرني بالرضا.

قال: «هذا هو الحال تقريبًا». استجمعتُ نفسي واستعددتُ لما سأفعل، ثمَّ وضعتُ يدي على ذراعه. كنتُ سأقول له شيئًا، ولكن عندئذٍ لم أستطع أن أجد الشيء المناسب لأقوله، وعلى هذا فقد ظللتُ صامتةً، ونظرتُ إليه، متمنيةً أن يستشعر بالحدس ما كنتُ أقصده - وهو أنني أشعر بأسف بالغ من أجله، وبأنني معجبة به لأنه يهتم إلى هذا الحد بأمر 'هازيل' و'لويس' ويرعاهما، وأنني أفهم طبيعة الخسارة، ربما أكثر من معظم الناس، وأفهم أيضًا أنَّه بالتأكيد يحمل عبئًا ثقيلًا، وأنَّ هذه المشقة سوف تستمر. مهما أحببتَ شخصًا ما، لا يكون هذا كافيًا على الدوام. فالحب وحده لا يضمن لهما البقاء في أمان ...

قال في رقة: «شكرًا، يا 'إليانور'». لقد قدَّم لي الشكر!

وصلَ 'ريموند' وألقى نفسه في مقعده.

سألَ 'مايكي': «أنت بخير، يا صاح؟ كيف حال 'هازيل'؟»

«لا بأس، يا 'ريموند'، لا بأس. سأحضرُ لكما القائمة.» بعد أن غادر، مِلتُ للأمام. قلتُ 'لريموند': «هل كنتَ تعرف مِن قبل بأمر 'هازيل'؟»، فأومأ لي.

«شيء بشع، أليس كذلك؟ إنها ليست في الثلاثين من عمرها حتَّى، والصغير 'لويس' لم يكمل عامين بعد.»

هزَّ رأسه يمينًا ويسارًا. لم ينبس أحدنا بشيء - لم يكن هناك حقًا أي شيء يُمكن أن يُقال. ما إن طلبنا ما نريد حتَّى تنحنح 'ريموند'.

«لديَّ ما أخبركِ به، يا 'إليانور'. إنه خبر سيئ - للأسف.»

رجعتُ بظهري في المقعد، وتطلَّعت نحو السقف متأهبةً.

قلتُ: «هيَّا، قل». لم يعد في الحياة شيء إلَّا أقل القليل ممَّا لا يمكنني أن أتخيل وقوعه، أو لم أُعِد نفسي لأن يحدث لي. فلا شيء يمكنه أن يكون أسوأ ممَّا جرى لي مِن قبل - قد يبدو في قولي هذا مُبالغة، ولكنه تعبير حرفي عن الحقيقة. أفترضُ أنَّه في حقيقة الأمر مصدر للقوة، بطريقة غريبة.

قال: «إنه 'سامي'».

لم أكن أتوقَّع ذلك.

«لقد رَحلَ في العطلة الأسبوعية، يا 'إليانور'. انفجار في الشريان التاجي. حدث الأمر بسرعة، على الأقل.» أومأت. كان الأمر مُفاجئًا وغير مفاجئ معًا.

قلت: «ماذا حدث؟». شرعَ 'ريموند' يأكل طعامه، وهو يخبرني بالتفاصيل بين - وفي أثناء - اللقيمات. لا أعرف ماذا قد يتطلَّب الأمر لإبعاد ذلك الرجل عن طعامه. ربما فيروس الإيبولا.

قال: «كان في منزل 'لورا'، جالسًا يشاهد التليفزيون فحسب. فجأة هكذا بلا إنذار ولا شيء.»

سألتُه: «وهل كانت هي هناك آنذاك؟». أرجوكَ يا ربي، وفّر عليها ذلك العَناء. محاولة الاستمرار في العيش بعد ذلك، ومحاولة التعامل مع الشعور بالذنب والألم ورعب ذلك كله ... إنني لا أتمنى ذلك لأي إنسانٍ آخر. كَم أود عن طيب خاطر أن أتحمَّل عنها عبئها إن استطعت، فلن أنتبه إليه إلَّا بالكاد، أنا متأكدة، إذا أضيف فوق أحمالي الخاصة.

قال: «كانت بالطابق العلوي، تتأهب للخروج، أصابتها صدمة رهيبة طبعًا عندما نزلت ووجدته على الأريكة على ذلك الحال.»

إذن فلم يكن الذنب ذنبها، لم يكن بوسعها أن تنقذه، حتَّى ولو حاولت. لا بأس إذن - حسنًا، بقدر ما يكون لا بأس في الموت طبعًا. تأمَّلتُ في تلك الحقائق أكثر قليلًا.

قلتُ، وقد تنامى فضولي: «إذن فقد كان بمفرده تمامًا في وقت حدوث الوفاة، ألم يشك رجال الشرطة في وجود شبهة جنائية؟»

شرقَ 'ريموند' مختنقًا بشطيرة البرجر وجبن الحلوم وكان عليَّ أن أناوله كأس ماء.

قال: «اللعنة على ذلك، يا 'إليانور'!»

فقلتُ: «أنا آسفة، كان مجرد شيء خطر ببالي فجأة.»

قال بصوت خفيض، دون أن ينظر نحوي: «نعم، ولكن يكون من الأفضل أحيانًا ألَّا نقول للآخرين بصوتٍ مسموع أوَّل شيء يخطر ببالنا هكذا فجأة، صحيح؟»

شعرتُ بأسفٍ رهيب. شعرتُ بالأسف من أجل 'سامي' ومن أجل أسرته، شعرتُ بالأسف لأنني أزعجتُ 'ريموند' من غير أن أقصد ذلك، شعرتُ بالأسف من أجل النادل وفتاته وطفلهما الصغير المسكين. كل هذا الموت، كل هذه المعاناة، تحدث لأشخاص طيبين، أشخاص طيبون لم يفعلوا شيئًا لكي يستحقوا كل هذا، وما مِن أحد قادر على منعه ... غلبتني الدموع، وكلَّما حاولتُ أن أقاومها اشتدت أكثر. شعرتُ بكتلةٍ حارقة تسد حلقي، حارقة مثل النيران، كلَّا، رجاءً، لا داعي للنيران...

انزلقَ 'ريموند' حول المائدة ليجلس في المقعد المجاور لي ووضع ذراعه حول كتفيَّ. تحدَّث بصوتٍ خفيض وناعم.

«آه، رجاءً، يا 'إليانور'، لا تبكي. إنني آسف حقًا ... لم أقصد أن أنهرك بشدة هكذا، لم أقصد ...

رجاءً، يا 'إليانور'...»

الأمر الغريب - الأمر الذي لم أتوقعه قَط - أنَّ ذلك يجعل المرء حقًا أفضل حالًا عندما يضع أحدهم ذراعه حوله، ويضمه إليه. لماذا؟ أهو أمر يتعلق بالثدييات، هذا الاحتياج للتلامس البشري؟ كان دافئًا وصلبًا. كان بوسعي أن أشم رائحة مزيل العرق، ورائحة المنظفات التي استخدمها في غسل ثيابه - ومن فوق عطورها الطيبة تكوَّنت طبقة هشة وسامّة من السجائر. إنها رائحة 'ريموند'. ملتُ أقرب إلى ناحيته.

في النهاية، استطعتُ أن أستعيد السيطرة على مشاعري، وانحسرت الدموع المُحرِجة. تنشّقتُ، وعاد هو إلى جانبه من المائدة، وبحث في جيب سترته ثم ناولني عبوة مناديل ورقية. ابتسمتُ ناظرة إليه، وأخذتُ منديلًا ونظَّفت أنفي. كنت واعيةً أنني أصدر صوتَ نفير أبعد ما يكون عن المتوقع من سيدة محترمة، لكن ماذا كان بوسعي أن أفعل غير ذلك؟

قلتُ: «آسفة.»

ارتسمت على وجهه ابتسامة واهنة.

قال: «أنا أعرف، الأمر صعب حقًا، أليس كذلك؟»

لزمتني دقيقة لأتدبر في كل ما أخبرني به.

«وكيف حال 'لورا'؟ وماذا عن 'كيث' و'جاري'؟»

«إنهم في حالٍ بائسة، كما قد تتوقَّعين.»

قلتُ، في تصميم وعزم: «أنا سوف أَحضر الجنازة.»

قال: «وأنا أيضًا». وراح يجرع شراب الكولا بصوتٍ مسموع. «كان 'سامي' رجلًا عجوزًا مرحًا، صحيح؟»

ابتسمت، وابتلعتُ تلك الكتلة التي كانت تسد حلقي. قلتُ: «لقد كان لطيفًا، هذا شيء واضح وضوح الشمس، حتَّى عندما كان غائبًا عن الوعي على الرصيف.»

أومأ 'ريموند'. مدَّ يده عبر المائدة واعتصر يدي. «على الأقل عاش أسابيع قليلة بصحبة أسرته بعد الحادثة، صحيح؟ أسابيع طيبة - حفلته الصغيرة، وعيد ميلاد 'كيث' الأربعين. حظي بفرصة أن يقضي وقتًا مع جميع مَن أحبَّهم.»

أومأتُ موافقةً. قلتُ: «أيمكنني أن أسألك عن شيء، يا 'ريموند'؟»

تطلَّع نحوي.

«ما هي الأصول والآداب المتبعة في الجنازات؟ هل لا يزال من المفترض ممَّن يذهبون لتقديم العزاء أن يرتدوا ثيابًا سوداء اللون، وهل القبعات ضرورية؟»

رفعَ منكبيه. «ليست لدي أدنى فكرة... ارتدي ما تريدين فحسب، على ما أظن. لم يكن 'سامي' شخصًا مِن النوع الذي يكترث لمثل تلك الأمور، صحيح؟»

فكَّرتُ في هذا الأمر. قلتُ: «سأرتدي ثيابًا سوداء، على سبيل الاحتياط. لكنني لن أضع قبعة، مع ذلك.»

فقال 'ريموند': «وأنا كذلك، لن أضع قبعة طبعًا»، ووجدنا أننا فعليًا كنا نضحك. ضحكنا لوقت أطول ممَّا تستحق دعابته الخفيفة، فقط لأنَّ هذا كان شيئًا طيبًا.

لم نتحدث أثناء سيرنا عائدَين إلى المكتب. كانت الشمس الواهنة في مواجهتنا، وقد رفعتُ وجهي قُبالتها لوهلة، كأنني قطة. كان 'ريموند' يجرجر قدميه عبر بساط خفيف من أوراق الشجر

المتساقطة، وكان حذاءه الرياضي أحمر اللون يومض برَّاقًا وسط كل هذا اللون النحاسي البرونزي. أخذ سنجابٌ رمادي يثب بانسياب في دوائر شِبه كاملة عبر الطريق، وكادت رائحة الخريف أن تتضح في الهواء، رائحة تفَّاح وصوف. لم نضطر للحديث حتَّى عندما دخلنا المبنى. تناول 'ريموند' كلتا يديَّ بين يديه واعتصرهما، فقط لثانية واحدة، ثم أطلقهما إلى جانبيَّ. صعد الدرج وسرتُ أنا نحو مكتبي.

شعرتُ كأنني بيضة وُضَعت حديثًا، في داخلي هفهفة رقيقة وسائل كثيف يترقرق، وفي غايةٍ من الرقة والهشاشة لدرجة أن أدنى ضغط يمكن أن يكسرني. كانت هنالك رسالة إلكترونية في انتظاري عندما جلستُ إلى مكتبي.

أراكِ يوم الجمعة. ري.x

هل كان من الضروري أن أرد؟ حسبتُ أنه كان كذلك، فأرسلتُ له هذا فقط:

X

(٢٣)

كنتُ قد بدأت أتقن مسألة التسوق هذه. عدتُ إلى نفس المتجر متعدد الأقسام، وبعد أن التمست نصيحة مُساعِدة تسوُّق مختلفة، ابتعتُ ثوبًا أسود، وجوربًا أسود لاصقًا يمتد من القدمين حتَّى الخصر، وحذاءً أسود. كان هذا هو أوَّل فستان أشتريه منذ طفولتي، وقد كان إحساسًا غريبًا أن أترك ساقيَّ معروضتين على الملأ. حاولَت أن تقودني مِن جديد نحو حذاء بكعب عالٍ لدرجةٍ تثير الدوار - لماذا يتلهف هؤلاء الناس بدرجةٍ لا تصدق إلى إصابة عميلاتهم بالشَلل؟ بدأتُ أتساءل إن كان عُمَّال إصلاح الكعوب المنفصلة إلى جانب أخصائيي تقويم العظام قد أسسوا معًا حِلفًا شيطانيًا من نوع ما. ورغم ذلك، فعندما فكَّرتُ بالأمر، وجدتُ أنها كانت على حق في أن الثوب الأسود المجسَّم لا «يتماشى» فعلًا مع حذائي طويل الرقبة الجديد (كان حذاء غير رسمي للغاية، بكل وضوح) أو مع حذاء العمل ذي الشريط اللاصق (بدا أنه لا يتماشى مع شيء أساسًا، وهو ما أدهشني للغاية، فلطالما اعتقدتُ أنه التعريف الحقيقي لمعنى متعدد الاستخدامات).

وصلنا لحَل وَسط بحذاء يُسمَّى على نحو غير ملائم «كعب القِطة»، والذي، على عكس ما قد يوحي به الاسم، لا صلة له بالقِطط على الإطلاق. كانا كعبين من السهل السير بهما، لكنهما مع ذلك كانا «أنثويين للغاية». على أي أساس يتم تحديد هذا، ومَن ذا الذي يحدده؟ وهل كان لهذا أي أهمية؟ ذكَّرت نفسي أن أقوم في وقتٍ ما بعملية بحث في سياسات النوع الاجتماعي والهوية بناءً على النوع. سوف أجد كتابًا حول الأمر - إذ تُوجَد كتب حول كل شيء.

وفي هذه الرحلة أيضًا، اشتريتُ حقيبة يد أيضًا، بما أن حقيبة يدي الضخمة لن تليق بحضور الجِنازة على الأغلب. كان قماشها مطبوعًا بنَقشٍ أنيق، وشعرتُ بأنه قد يكون لافتًا في مقبرة. غير أنَّ الحقيبة ذات العجلات الصغيرة ستكون أيضًا حادة قليلًا.

كانت الحقيبة التي استقرَّ رأيي عليها غير عَملية بالمرة، بما أنها كانت أصغر من أن تستوعب، لنقل مثلا، كتابًا بغلاف مقوَّى أو زجاجة فودكا 'جلين'. تفحصتُها عندما رجعتُ إلى البيت، ومسدت سطحها الجلدي اللامع وقماش بطانتها الحريري. كانت لها سلسلة ذهبية طويلة يمكن تعليقها ببساطة على الكتف، ممَّا يترك اليدين حرتين تمامًا.

وبتكلفةٍ رهيبة أخرى، اشتريتُ أيضًا معطفًا صوفيًا أسود اللون، بصفٍ واحد من الأزرار، ويصل حتَّى الركبتين، ومجسَّم. كان دافئًا وبسيطًا، وهي سمات تجذبني. عندما تطلَّعت إلى جميع مشترياتي، وقد أفردتها جميعها على فراشي لأتفقدها بعناية، هدَّأتُ مخاوفي بشأن التكلفة بأن أكَّدتُ لنفسي أنَّ الثياب التي اشتريتها بكاملها يمكن ارتداؤها مرةً بعد أخرى، إمَّا معًا أو كل قطعة على حدة. صرتُ أمتلكُ الآن ما اعتقدتُ أنه يُسمَّى «كبسولة ثياب»، وهي الملابس الملائمة لأغلب المناسبات الاجتماعية التي قد أحضرها برفقة الفنان. سوف أبدو في مظهر لائق فيها، وأنا أتأبط ذراعه. سهرة لمشاهدة عرض باليه، ربما؟ أو الليلة الافتتاحية لمسرحيةٍ جديدة؟ كنتُ أعلم أنه سوف يفتح أمامي عوالِم مجهولة، فعلى الأقل صارَ لدي الآن الأحذية المناسبة لخوض تلك العوالِم.

لقد أنفقتُ في الأسابيع القليلة الماضية أكثر ممَّا أنفق عادةً خلال عامٍ كامل. لقد اتضح أنَّ الاندماج الاجتماعي مكلفًا بدرجة مُدهشة - الانتقالات، الثياب، المشروبات، وجبات الغداء، والهدايا. في بعض الأحيان، يتساوى المكسب مع الخسارة - كَما هو الحال في شراء المشروبات مثلًا - لكن، وكَما تبين لي، في أحيانٍ ليست قليلة، تتجاوز نفقات المرء مكاسبه على نحوٍ لا يمكن

تعويضه. كان لديَّ بعض المال المدخَّر، لكنه يبلغ راتب شهر واحد أو نحو ذلك، والرواتب التي يدفعها 'بوب' أبعد ما تكون عن السخاء. انتبهتُ الآن فقط لهذا الاحتمال لأنني لم أكن مضطرة لأن أنفق نقودًا على الجوانب الاجتماعية من الحياة قبل الوقت الراهن.

كانت ماما تحب أن تعيش حياة باذخة مترفة، ولكن بعد أن ... تغيَّر كل شيء ... تعلَّمتُ أنَّ المرء لا بدَّ أن يقلق بشأن المال، وأن يقتصد في إنفاقه. كان لا بدَّ من طَلبه مِن الآخرين، وبعد ذلك إحصائه بنسًا بنسًا وهو يتسرب من بين يديَّ الحمراوين الملتهبتين. لم أنسَ قَط -أو لم يكن مسموحًا لي بأن أنسى قَط- أنَّ شخصًا آخر كان يدفع لي ثمن الثياب التي أرتديها، والطعام الذي آكله، وحتَّى التدفئة في الغرفة التي أنام فيها. كانت الأسر البديلة التي تستضيفني في منازلها تتلقى إعانةً نظير رعايتها لي، وكنتُ دائمة الانتباه والحرص على ألَّا أجعلهم يتجاوزون مبلغ الإعانة بألَّا *أحتاجُ* شيئًا، وعلى الخصوص بألَّا *أريدُ* شيئًا.

كلمة «إعانة» لا توحي بالكَرم والبذخ. أكسب الآن مالي الخاص بالطبع، لكن يجب أن أكون حريصةً عليه. ضبط ميزانية المرء مهارة، وهي مهارة نافعة للغاية بحَق - فعلى كلٍ، إذا ما أفلستُ تمامًا، ووجدتُ نفسي غارقة في الديون، لا يوجد أحد، ولا إنسان واحد، يمكن لي الاعتماد عليه لسَداد ديوني بدلًا مني. سأكون مُعدَمة وأتضوَّر جوعًا. ليس لدي فاعل خير مجهول ليدفع لي إيجار شقتي، ولا أقارب من الأسرة أو أصدقاء يمكنهم أن يُقرضوني عن طيب خاطر نقودًا لأستبدل مكنسة كهربائية معطَّلة أو لأدفع فاتورة الغاز حتَّى أرُد المبلغ المقترض لهم يوم تلقي الراتب. كان من المهم ألَّا أدع نفسي أنسى تلك الحقيقة.

وعلى الرغم من ذلك كله، لا يمكنني أن أحضر جنازة 'سامي' بملابس غير لائقة. كان الفستان الأسود، كَما أكَّدت لي موظفة المتجر، جميلًا وأنيقًا، لكنه أيضًا يمكن ارتداؤه على سبيل «الأناقة اللافتة». أمَّا المعطف فيمكنني ارتداؤه طوال فصل الشتاء. صحيح أنَّ سترتي العتيدة قد اشتغلت بأكثر من الثمن المدفوع فيها بكثير على مدى سنوات طويلة، لكنني سوف أحتفظ بها بالطبع في حالة أن احتجتُ إليها مجددًا في المستقبل. علَّقتُ كل شيء بكل اعتناء. أنا الآن مستعدة، فَهَاتوا جنازتكم وفقيدكم.

أتى نهارُ الجُمعة ساطعًا، رغم أنه كان مِن المستحيل التأكُّد إذا كان سوف يستمر هكذا. استحممت وارتديتُ ثيابي الجديدة. مرَّت سنواتٌ عديدة منذ أن ارتديت مِثل تلك الجوارب الطويلة الضيقة التي تصل حتَّى الخصرين، إذ أفضّل عليها زوجًا من جوارب النايلون القصيرة تحت السراويل، ولكنني ما زلت أتذكَّر كيف أشدها على ساقيَّ للأعلى. فعلتُ ذلك وأنا في غاية الحرص، فقد كانت الجوارب رفيعة ورقيقة للغاية، وكان من الممكن أن تتمزق في لحظة واحدة بسبب حركة ظفر طائش. شعرتُ بأنني مُغلفة بداخلها، على نحوٍ ما، كما لو كنتُ مرتدية جلد شخصٍ آخر.

لقد جعلتُ ساقيَّ سوداوين وجعلتُ شعري أشقر. أطلتُ رموشي وكحَّلتها، وذررتُ حُمرة فاتحة على وجنتيَّ، وطليتُ شفتيَّ بدرجةٍ داكنة من اللون الأحمر نادرًا ما تُوجد في الطبيعة. لا بدَّ أنني كنتُ أبدو، عن حق، في مظهر امرأة بشرية بقدرٍ أقل ممَّا سبق لي أن كنتُ على الإطلاق، ومع ذلك فقد بدا أنَّ هذا هو المظهر الأكثر لياقةً وقبولًا الذي خرجتُ به على العالَم ذات يوم. افترضتُ أنه كان بوسعي أن أمضي شوطًا أبعد في ذلك - كأن أجعلي بشرتي تومض بمواد إضفاء اللون الخمري، أو أن أغرق نفسي بعطور مصنوعة من مواد كيمائية مستحضرة في معامل خاصة، ومقطَّرة من نباتات وأجزاء من حيوانات. لم أرغب في فعل أيٍ مِن هذا. رفعتُ حقيبتي الجديدة

وأغلقت البابَ مِن خلفي.

لدواعي تخص الحيطة والأمان، حددتُ موقع ركوب السيارة على طريقٍ عام غير بعيد مِن شقتي لِئلَّا أفصح عن عنوان بيتي، وتوقَّفت سيارة عادية المظهر أمام المبنى في الموعد المحدد تمامًا. خطفَ السائق نظرةً سريعة في مرآة الرؤية الخَلفية بينما انزلقت لأجلسَ في المقعد الذي خلفه، إلى جوار 'ريموند'. لزمنتي وهلةٌ، لأنني كنت منتبهة لثوبي، وحاولت أن أحرص على ألَّا يكشف من ساقي أكثر ممَّا يُفتَرض لتصميمه أن يكشفه.

لزمَ وقتٌ طويل جدًا لإنجاز كل شيء. من قبل، كنت أستحم ببساطة وأمرر مشطًا في شعري وأُدخل ساقي في البنطال. كنت أرى أن الحصول على مظهر أنثوي أمر كفيل بأن يطغى على إنجاز أي شيء في الحياة، ويشملُ قدرًا من التخطيط المُسبَق. لا أستطيع أن أتخيَّل كيف قد يكون ممكنًا أن تذهب امرأة في رحلة خلوية حتَّى منابع النيل مثلًا، أو أن تتسلَّق سُلمًا لتفحص عُطل داخل جهاز تسريع جسيمات، وهي ترتدي حذاء كعب القطة أو جورب طويل ملتصق بها بنسيج في غاية الرقة والهشاشة.

كان مِن الصعب الجَزم بتأثير ثياب 'ريموند' بشكل كامل، ولكن كان واضحًا لي، حتَّى من هذا الموقع، أنه كان مرتديًا قميصًا أبيض مكويًا، وربطة عنق سوداء، وبنطال قماشي أسود. لم أتمكن من رؤية قدميه، وتمنيتُ في صمت ألَّا يكون قد انتعل حذاءً رياضيًا، ولو كان أسود.

قال: «مَظهركِ جميل.»

أومَأت، شاعرةً بشيءٍ طفيف من الحرج والارتباك في ثوبي الجديد، ونظرتُ إليه مرة أخرى. لم يكن قد حلقَ شعر لحيته الصغير الغريب عن آخره، بل اكتفى بتحديده وتشذيبه، وكان شعر رأسه مصففًا بعناية. تحرَّك بنا التاكسي، وانغمسنا وسط حركة المرور النهارية البطيئة. أخذ الراديو يثرثر بكلامٍ فارغ، ولم نتبادل النظرات أو نتحادث من بعد ذلك. لم يكن هناك حقًا شيء يُقَال.

كان مَحرق الموتى يقع في الضواحي، بناء هائل الضخامة من سبعينيات القرن العشرين، مُشيَّد مِن الإسمنت الأبيض، مزيّن برسومات لملائكة تبدو عليها القسوة. كانت الحدائق منتظمة وأنيقة، على طراز حدائق المحليات القاحلة، ومع ذلك فقد أدهشني أنها كانت حافلة بالورود المتفتحة. على الحواف الخارجية للمقبرة اصطفَّ الكثير من الأشجار، وهو ما أسعدني. راقَ لي التفكير في جذورها التي تتلوَّي تحت هذا المكان لكي تفتحُ لنفسها مساراتٍ للحياة. توقَّفنا في ساحة انتظار سيارات كانت مزدحمة بالفعل، رغم أنَّ الساعة كانت العاشرة والنصف فحسب. كان المكان بعيدًا وكان من المستحيل بلوغه بوسائل النقل العامة، وهو شيء منافٍ للمنطق تمامًا. لا بدَّ من وجود قطار أو حافلات تذهب وتجيء بانتظام، على ما ظننت، فقد كان هذا مكانًا لا بدَّ لنا جميعًا من زيارته في وقتٍ ما.

دفعَ 'ريموند' للسائق ووقفنا لوهلة، نستجمع أنفسنا.

قال: «جاهزة؟»

أومأتُ له. كان هناك كثير من المعزين الآخرين، يتحركون خلال الأراضي المحيطة مثل خنافس سوداء بطيئة الحركة. سرنا صعودًا على الطريق، في اتفاقٍ صامتٍ بيننا أننا لسنا في عجلة على الدخول إلى هناك والابتعاد عن الأشجار والورود وضوء الشمس. لدى الباب الأمامي كان هناك نَعشٌ طويل، ونظرنا نحو التابوت، الذي كان مُغطًّى بأكاليل الزهور. كان التابوت صندوقًا خشبيًا تتمدد فيه جثة سامي. تساءلتُ تُرى أي ثيابٍ يرتديها الآن. تمنيتُ أنه ذلك البلوفر الأحمر اللطيف؛ دافئ وفيه رائحته.

جلسنا على الجهة اليُسرى من القاعة، في أريكة خشبية غير بعيدة للغاية من الصدارة. كان نصف المكان قد امتلأ بالناس منذ الآن، وتصدر عنهم همهمة خفيضة للأحاديث المتبادلة بينهم، طنين مكتوم كأنه طنين حشرات، لم أسمع شيئًا مثله من قبل في أي مكان أو في أي مناسبة.

التقطتُ إحدى الوريقات المطوية التي وُضعت على الأرائك الخشبية. كان مكتوبًا عليها: «ساموِيل مَكموري توم، ١٩٤٠-٢٠١٧». وفي داخلها كانت تنبئ الحاضرين بما سيحدث، وبقائمة القراءات والترانيم، وانتابتني فجأة رغبة عارمة في أن ينتهي الأمر، وبألَّا أضطر لأن أكون موجودة هنا وأعايش كل ذلك.

بقينا أنا و'ريموند' صامتين. كانت القاعة من الداخل ألطف كثيرًا ممَّا يوحي به المظهر الخارجي المحيط بها، ذات سقفٍ مرتفع محدودب وعوارض خشبية. وكان الجدار الجانبي بكامله على يسار مجلسنا من الزجاج، فكان بوسعنا أن نرى مروج العُشب الممهدة وفي الخلفية البعيدة المزيدَ من تلك الأشجار الضخمة والفجَّة على طبيعتها الأولى. شعرتُ بالسرور. ينبغي على الطبيعة أن تفرضَ حضورها في المكان بطريقةٍ ما، هكذا حدثتُ نفسي؛ الطبيعة الحية، وليس الأزهار المقطوفة. كانت الشمس في غاية السطوع الآن، وتطرح الأشجار ظلًا قصيرًا، رغم أن الخريف كان يتسلل زاحفًا عبرَ النسائم التي تداعب أوراق الشجر. التفتُّ ورأيتُ أنَّ القاعة قد امتلأت الآن، حوالي مائة شخص أو ربما أكثر من هذا. كان الطنين الصادر عن الحاضرين يكاد يطغى على صوت موسيقى الأرغن الرتيبة المسجَّلة.

طرأ تحوُّلٌ ما في الجو العام بالقاعة فسادَ الصمت. تقدَّم كلٌ من ولدي 'سامي' وأربعة رجالٍ آخرين تعرَّفتُ على وجوههم من الحفل، وحملوا صندوق النعش سائرين به في الممر الفاصل بين جناحي القاعة ووضعوه برفقٍ على شيءٍ أقرب إلى منصة مرتفعة قليلًا ذات سيور دوَّارة، وعند نهايتها أسدلت مجموعة من ستائر المخمل الحمراء. حاولتُ أن أتذكر بماذا كانت هذه المنصة ذات السيور تذكرني، فانتبهت: عند فحص المشتريات ودفع الحساب في سوبرماركت 'تيسكو'، حيث يضع المرء أغراضه فتتحرَّك على سيور مثل هذه صوب الكاشير. انحنيتُ نحو 'ريموند' لأخبره، ولكنه التقط من جيب سترته كيسًا صغيرًا فيه أقراص نعناع وقدَّم لي واحدًا قبل أن أتمكن من الكلام. التقطته وأخذت أمتصه.

انضمَّ إلينا أشخاصٌ آخرون على نفس الأريكة الخشبية، فاضطررنا لأن نقوم ونتزحزح مثل سرطان البحر حتَّى نترك لهم مساحة للمرور، وبالتالي صرتُ على مقربة شديدة من السيد 'ريموند جيبونز'. لاحظتُ أنَّ رائحته اليوم كانت حُلوة لأقصى حد؛ أقراص النعناع بالتأكيد، ولكن هناك أيضًا عطر صابون الاستحمام وشيء ما يكاد يكون له عبير أشجار الغابات، مثل شجر الأرز. لم أره يدخن سيجارة حتَّى الآن. أفترضُ أنَّه حتَّى 'ريموند' سيعتبر تدخلين سيجارةً أمام مَحرق موتى أمرًا غير لائق.

دخلَت بقية أفراد الأسرة وجلست بجانب ولدَي 'سامي' على الأريكة الأمامية. كانت 'لورا' بمفردها، تبدو متألقة بدرجة مستحيلة. نظَّارة سوداء! في مكان مغلق! مذهل. كان يتبعهم قِسٌ يبدو ظريفًا مرحًا. ثمَّة رجل يجلس إلى لوحة مفاتيح آلة أرغن مخبَّأة في الركن، ثنى أصابعه وبدأ يعزف، فقمنا واقفين. كانت كلمات الترنيمة مطبوعة في الدفتر الصغير الموزَّع لكنني وجدتُ أنني أستطيع أن أتذكَّر كلماتها من الطفولة. كان الغناء الجماعي رديئًا إلى أقصى حد، أقرب ما يكون إلى دندنة بلا نغمات محددة، وكان صوت القِس المزعج عاليًا بإفراط، ربما لأنه كان يثبّت ميكروفونًا صغيرًا على صدر ثوبه. فكرتُ في أنَّه كان عليه حقًا أن يُغلقه حتَّى ينتهي الإنشاد

الجماعي - لم يكن هناك أي داعٍ لتضخيم صوته الشبيه بمواء القطط هذا. الأمر الذي كان مفاجأة هائلة لي أنَّ 'ريموند' كان له صوت عذب من طبقة التينور الخفيف، وأنه كان يغني غناء جيدًا ومقبولًا، على عكس أغلب الحاضرين الآخرين. متى بدأ الناس يشعرون بالحَرج من الغناء على الملأ؟ وهل سبب ذلك تراجع نسبة التردد على الكنائس؟ ورغم ذلك فقد كانت برامج التليفزيون حافلة بمسابقات الغناء التي يذهب إليها أشخاص، ومَهما كانوا مفتقدين للموهبة، هم أبعد ما يكونون عن الخجل من المشاركة. ربما لم يعد الناس مهتمين إلَّا بالغناء الفردي وحسب.

بكل تأكيد كان هذا مُنتهى عَدم الاحترام - أقصد حضور جنازة رجلٍ ما والهمهمة باللحن كيفما اتُفق في أثناء إنشاء الترانيم التي، مهما كانت مزعجة، تمَّ اختيارها تحديدًا من أجل تخليد ذكراه؟ بدأتُ أنشدُ بصوتٍ أعلى. كنتُ أنا و'ريموند' نصدرُ معًا من الأصوات ما يزيد عن الصفوف الأربعة التالية لنا مجتمعة، وكنتُ مسرورةً بذلك. كانت الكلمات حزينة بدرجة لا تُصدَّق، لا سيما بالنسبة لشخصٍ مُلحد مثلي، لا يملك بالمرة أي أمل أو راحة من هذا القبيل، ولكن بالرغم من ذلك فقد كان من واجبنا أن ننشدها بأفضل ما نملك من قدرات، وأن ننشدها بكل فخر، تكريمًا 'لسامي'. جلستُ عندما انتهى الإنشاد، راضيةً لأنني أنا و'ريموند' قد أبدينا له الاحترام الذي استحقه. بضعٌ من الناس التفت نحونا ليلقى علينا نظرة، أفترضُ أنَّ سبب ذلك أنهم استمتعوا بتحية الوداع الصوتية التي قدَّمناها للراحل.

تحدَّث القس عن حياة 'سامي'؛ كان من المشوّق الاستماع إلى أنه قد نشأ بالقرب من قريةٍ صغيرة في الشمال الشرقي، في إحدى مزارع الشياه. التحقَ بالبحرية التجارية عندما تركَ المدرسة غير أنه سرعان ما ملَّ حياة البحر، فأتى إلى جلاسجو وليس معه إلَّا عشرة جنيهات وبدلة جديدة وبلا أي أدنى رغبة في الرجوع إلى الزراعة والشياه. التقى زوجته 'جين' في متجر 'وول ورث'، حيث كان يبحث عن خيطٍ وإبَر. وقال القس، وهو يبدو راضيًا عن طرافته، إنهما انتهيا إلى أن يخيطا معًا حياة سعيدة من بعد ذلك. تلت ذلك شذرة دينية وجيزة - اللَغو المُعتاد - وعندئذٍ، وكما يفعل موظفو الكاشير في متجر 'تيسكو'، حرَّك الكفن على السير المُتحرك، وهكذا سوَّى 'سامي' حسابه وغادر.

عندئذٍ أعلنَ القس بانشراح وذكاء، وبابتسامة ملصوقة على مُحياه، كما لو كان هذا الجزء هو الأفضل في كامل المناسبة الرهيبة هذه، أعلن أننا سوف ننشد ترنيمةً أخيرة. بذلنا أنا و'ريموند' جهدًا باسلًا، ولكن كان من المستحيل الإنشاد في أثناء البكاء - كانت هناك كتلة تسد حلقي كأنها نواة برقوق صلبة، ولم تفلح الموسيقى في تمريرها. تمخط 'ريموند' وناولني عبوة مناديل ورقية، وهو ما قبلته منه بكل امتنان.

أخبرنا القِس بأنَّ العائلة سوف يسرها أن ننضمَّ إليها بعد ذلك في فندق 'هاوثورن هاوس' من أجل تناول بعض المرطبات الخفيفة. انفضَّ الجَمع وخرجوا، تصافحوا وتبادلوا الغمغمة بعبارات مبتذلة بلا معنى. فعلتُ الأمر نفسه. كانت هناك سلّة لجمع التبرعات من أجل مؤسسة القلب البريطانية، «بدلًا من شراء الزهور»، ورأيتُ 'ريموند' يُسقط فيها ورقة نقدية مِن فئة العشرين جنيهًا. وضعتُ فيها ثلاثة جنيهات معدنية، وقد رأيتُ أنَّ هذا سخاء مُفرطًا. فعلى كل حال، تتكلَّف أبحاث الأدوية الجديدة والعلاجات الناجعة في أمراض القلب مئات الملايين من الجنيهات، ولن تكون ثلاثة جنيهات أو ثلاثمائة قادرة على ترجيح الميزان ما بين توفير دواء وعدم توفيره.

جلستُ على سُورٍ مُنخفض وراء المَحرق ووليتُ وجهي نحو الشمس. شعرتُ بأنني في غاية الإجهاد. بعد دقيقة، جلسَ 'ريموند' إلى جانبي، وسمعتُ طقطقة قدَّاحته. لم أكن أملك حتَّى الطاقة

لأن أبتعد قليلًا. نفخ شريطًا طويلًا من الدخان.
قال: «أنتِ بخير؟»
أومأت. «وأنت؟»
رفع منكبيه.
قال: «الصراحة أنني لا تروق لي الجنازات». نظرَ بعيدًا، واستطرد: «تُذكرني بأبي. مضت سنوات على ذلك، ولكن لا يزال الأمر صعبًا، تصوَّري؟»
أومأت برأسي؛ كان الأمر منطقيًا بالنسبة لي. لا يفعل مرور الزمن إلَّا أنه يخفف من حدة أَلم الفقد، غير أنه لا يمحوه تمامًا.
قلتُ: «إنني حقًا، حقًا، حقًا لا أرغب في الذهاب إلى الاستقبال في الفندق من أجل بعض المرطبات، يا 'ريموند'. أريدُ أن أتوقف عن التفكير في الموت. أريد فقط أن أذهب إلى البيت، وأن أرتدي ثيابًا عادية وأشاهد التليفزيون.»
دعسَ 'ريموند' عقب سيجارته ثم دفنه في حوض زهور خلفنا.
قال في رقة: «لا أحد يرغب في الذهاب إلى مثل تلك الأشياء، يا 'إليانور'، لكنه أمر واجب، رغم ذلك. من أجل خاطر الأسرة.» لا بدَّ أن أمارات الحزن قد بدت عليَّ.
فقال بصوتٍ ناعم وصبور: «لستِ مضطرة لأن تبقي هناك لوقتٍ طويل، فقط أريهم وجهكِ؛ وخذي قدحًا من الشاي، وكلي لفافة نقانق - تعرفين المتبع في هذه الحالات.»
«لا بأس، أتمنى على الأقل أن يكون لديهم لحم حقيقي في اللفائف ومخبوزات هشَّة وطرية»، هكذا قلتُ له من باب الأمل لا التوقُّع، وعلَّقت الحقيبة على كتفي.
كان فندق 'هاوثورن هاوس' قريبًا مِن المَحرق بحيث يمكن الذهاب إليه سيرًا. ابتسمت لنا المرأة في الاستقبال، وكان مستحيلًا ألَّا ألحظ أنه لا يوجد في فمها إلَّا سِنَّة أمامية واحدة؛ وكانت الأضراس المتبقية لها صفراء فاقعة تمامًا بنفس درجة لون مسطردة 'كولمان' الإنجليزية. لستُ ممَّن ينتقدون مظهر الآخرين، ولكن حقًا؛ من بين جميع أفراد فريق العمل المتاح في الفندق، هل كانت هذه المرأة هي الخيار الأفضل لمكتب الاستقبال؟ أرشدتنا إلى جَناحٍ يُسمَّى جناح نبات العليق وأضاءت وجهها بابتسامة متعاطفة تسفر عن فمٍ أدرد.
كنا من بين آخر من وصلوا، فقد استقلَّ أغلب الأشخاص سياراتهم خلال هذه الرحلة القصيرة من المَحرق إلى الفندق، فيما أنَّ المحرق كان مكانًا حافلًا بالعمل وثمَّة حاجة ماسة إلى مساحات لانتظار السيارات على ما أظن. لا أعرف يقينًا إن كنتُ أريدُ أن تُحرَق جثتي، أعتقد أنني أفضل أن أُطْعَم للحيوانات في حديقة الحيوانات. فسوف يكون هذا شيئًا صديقًا للبيئة وفي الوقت ذاته وجبة شهية لآكلي اللحوم الأضخم حجمًا. تساءلتُ في نفسي إن كان يمكنني أن أتقدَّم بطلبِ كهذا. ذكَّرتُ نفسي أن أكتب رسالة إلى الصندوق العالمي للطبيعة[46] لكي أتبين هذا الأمر.
ذهبتُ إلى 'كيث' وأعربت له عن أسفي، وعندئذٍ بحثت عن 'جاري' لأقول له الشيء نفسه. بدا كلاهما في حالةٍ يُرثى لها، وهو ما كان مفهومًا. التأقلم مع الفَقد يحتاج وقتًا، بافتراض أن يفلح المرء في هذا على الإطلاق، فإنني حتَّى بعد مرور كل تلك السنوات لم أزل أعمل على هذا الأمر. جلسَ الأحفاد هادئين في الركن، متهيبين ربما بسبب الجو الكئيب المخيّم. كان الشخص الآخر الذي ينبغي أن أقدّم له عزائي هو 'لورا'، لكنني لم أستطع أن ألمحها في الأنحاء. عادةً ما يكون من السهل العثور عليها. كانت اليوم، إلى جانب النظَّارة السوداء الكبيرة، ترتدي كعبين عاليين لدرجة تصيب بالدوار، وثوبًا قصيرًا أسود مع فتحة صدر واسعة، وكان شعرها ملمومًا فوق رأسها في

تشكيل فني يشبه عش الطائر ما أضاف عدة بوصات إلى طولها.

لم تظهر أي إشارة تدل عليها، ولم تظهر كذلك إشارة على المرطبات التي وعدونا بها، ذهبتُ لأبحث عن الحمَّام. توقَّعت بشِبه يقين أنهم قد وضعوا بجانب الأحواض آنية مغبّرة ممتلئة ببتلات أزهار جافة تفوح برائحة المشمش، وقد كنتُ على حق. في طريق عودتي، لمحتُ كعبًا عاليًا عريضًا كأنه شارةً فاضحة يبرز خارجًا من خلف ستارة ذات طيَّات عديدة. كان هناك مقعد عريض له وسائد بطول إفريز نافذة وراء الستارة، وبالداخل كانت 'لورا' جالسةً فوق حجر رجلٍ ما، سرعان ما اتضح لي أنه كان 'ريموند'، رغم أنهما كانا متعانقين بقرب بالغ فقد لزمتني دقيقة قبل أن أتمكن من رؤية وجهه وأتيقن. لاحظتُ أنه كان يرتدي حذاء جلديًا أسود، على الأقل إذن كان لديه حذاء محترم.

عدتُ إلى جناح العزاء من دون أن أقاطعهما؛ لم يرني أيٌّ منهما، بما أنهما كانا مستغرقين للغاية فيما يفعلان. كان هذا سيناريو اجتماعي مألوف للغاية بالنسبة لي؛ الوقوف بمفردي، النظر في نقطة متوسطة أمامي. لم يكن هناك أي بأس في ذلك، بل كان عاديًا تمامًا. بعد الحريق، وفي كل مدرسة جديدة، حاولتُ بكل جهدي، ولكن شيئًا ما فيَّ لم يكن ملائمًا للمعايير، بدا الأمر وكأنَّه ما مِن ثقب في المجتمع على شكل ومقاس 'إليانور' بحيث يحتويني.

لم أكن بارعةً في التظاهر، كان هذا هو السر. بعد ما جرى في ذلك المنزل المحترق، وبتأمُّل ما كان يحدث هناك، لم أستطع أن أرى أي جدوى من ألَّا أكون صادقة وصريحة مع العالَم. لم يكن لديَّ، حرفيًا ما أخشى خسارته. ولكن، عند التأمل الدقيق من الزوايا الجانبية، تبينت أنَّ النجاح الاجتماعي غالبًا ما يقوم على التظاهر ولو قليلًا. يُضطر الأشخاص المحبوبون أحيانًا للضحك على أشياء لا يجدونها مضحكة للغاية، أو أن يفعلوا أشياء لا يريدون عمليًا أن يفعلوها، مع أشخاص لا يجدون متعةً خاصة في صحبتهم. ولكن ليس أنا. فقد قررتُ منذ سنوات أنَّه إذا كان عليَّ أن اختبر ما بين ذلك وبين الطيران وحدي، فسوف أختار أن أطير وحدي. كان هذا أكثر أمانًا بالنسبة لي، فإنَّ الحب له ثمن في المقابل، وثمنه هو الحزن واللوعة، أو هكذا يقولون. ثمنٌ باهظ للغاية، لا أستطيع أن أتحمله.

فُتحَ البوفيه - نعم، كانت هناك لفائف نقانق، ولكن هناك أيضًا شطائر صغيرة. كان النُدل يوزعون الشاي والقهوة بلا أي نكهات مميزة من قُدور تفوح برائحة مريرة وفي أقداح خزفية بيضاء من نوع عادي. لن ينفعني هذا بشيء. فلم أكن بكل تأكيد في مزاجٍ ملائم لاحتساء سائل بُنّي ساخن، كلَّا، بالتأكيد. كنتُ في مزاج شرب شيء بارد وشفَّاف؛ مِزاج فودكا.

ألا توجد بارات في جميع الفنادق؟ لم أكن من النوع الذي يتردد كثيرًا على الفنادق، لكنني كنتُ أعلم أنَّ علة وجود الفنادق أساسًا هي غرف النوم والبارات. تحدَّثت مرة أخرى إلى السيدة التي لديها مشكلات جسيمة في أسنانها، ووجهتني نحو رواق آخر طويل، وفي آخره كان يوجد ما سُمِّي على نحو خلَّاق صالون 'هاوثورن'. وقفتُ عند عتبته وجُلتُ ببصري في الداخل. كان المكان خاليًا من الناس، وكانت ماكينات الحَظ التي تشتغل بالعملات المعدنية تومضُ فقط لتسلّي نفسها بنفسها. دخلت. أنا وحسب. 'إليانور'، وحدها.

كان هناك ساقٍ واقفًا وراء النضد يتابع التليفزيون ويلمّع الكؤوس شارد الذهن.

قال، وهو يلتفت نحوي: «منازل تحت المطرقة[47]». أتذكَّر أنني وجدتُ نفسي أفكر، بشكلٍ أدهشني، أنَّه كان رجلًا جذَّابًا بدرجةٍ معقولة، وأنني وبَّختُ نفسي على هذه الفكرة. كنتُ أظن، وفقًا لتحيزاتي الخاصة، أنَّ الأشخاص الذين يتمتعون بالجَمال والأناقة لا يمكن أن يعملوا في فندق

'هاوثورن هاوس' ظهيرة يوم الجمعة. وبكل تأكيد، أكّدت لي موظفة الاستقبال هذا التصوّر المبدئي، ولكن في حقيقة الأمر، كان من العار عليَّ أن أحتفظ بتلك الأحكام المسبقة - فمِن أي موضع على الأرض قد تسربت إليَّ؟ (همسَ صوتٌ صغير بالإجابة في رأسي: *أمّي*.)

ابتسمَ الساقي، كاشفًا عن أسنانٍ بديعة، وعينين زرقاوين لامعتين.

قال: «كلها أشياء قديمة كريهة»، وكان صوته قادرًا على نزع الطلاء عن الجدران، بعد صقلها وتنعيمها جيدًا بالصنفرة. هَمست لي أمي: *أرأيتِ - ألم أقل لكِ؟*

قلتُ: «حقًا؟ من المؤسف أنني لا أكون في المنزل غالبًا خلال فترة النهار لأراه.»

فقال الرجل، رافعًا منكبيه: «فلتشاهديه هنا، إن شئتِ؟»

«هل يمكنني هذا؟»

فقال: «ولمَ لا؟ فلا أظن أنَّ ثمَّة الكثير ممَّا يجري هَهُنا؟» وأشارَ بيده نحو البار الخاوي.

جثمتُ فوق مقعد بار مرتفع بلا مسند ظهر - وهو شيء لَطَالما أردتُ أن أجربه - وطلبتُ فودكا بالكولا. أعدَّ لي شرابي ببطء، وأضاف الثلج وشريحة ليمون من غير أن أطلب، وأزاحه نحوي.

قال: «الجنازة، صحيح؟»

تساءلتُ كيف له أن يعرف، ثُمَّ أدركت أنني كنتُ أرتدي ثيابًا سوداء بكاملها، وأنَّ ظلال عينيَّ الدخانية قد ذابت بطريقةٍ أو أخري، وأنَّه ما مِن سببٍ آخر لوجودي في هذه المكان على وجه التحديد في هذا الوقت من النهار. أومأت. لم يكن هناك داعٍ لمزيدٍ من تبادل الحديث، استرخى كلانا لمشاهدة كيف سينجح 'لاين' و'دوروثي' مع منزل من طرَاز 'تريس' من حقبة السبعينيات كانا قد اشترياه بالمزاد بقيمة ٩٥ ألف جنيه، بنية تجديد الحمَّام، وتركيب مطبخ جديد بالكامل، وهدم الحائط الذي يفصل بين الصالون وغرفة السُفرة.

قالَ مقدّم البرنامج: «اللمسة النهائية هي طلاء الباب الأمامي ... بهذه الدرجة الخلَّابة مِن الأخضر.»

فقال الساقي، متصيدًا الفكرة من الهواء: «أغنية الباب الأخضر»، وما هي إلا بضع ثوانٍ، وها هي ذي الأغنية ذاتها قد بدأت تُذاع. ضحكنا كلانا، ودفعَ نحوي كأس فودكا أخرى من دون أن أطلب منه.

انتقلنا مِن هذا البرنامج إلى '*نساءٍ متحررات*'[48]، وهو برنامج آخر لم أكن أعرفه. كنتُ الآن أشرب كأس الفودكا الرابعة، وكانت مراسم الجنازة لا تزال تدور في عقلي، لكنها لم تكن تسبب أي ألم إلا كَما قد ينزعج شخصٌ لوجود حصاة في حذائه، ولكن بينما يكون جالسًا وليس سائرًا وضاغطًا عليها.

خطرَ لي أنني ربما كان عليَّ أن أجرب لفافة من لفائف النقانق في لحظةٍ ما من المراسم، أو على الأقل أن أضع بضعًا منها في حقيبتي لأتناولها في وقتٍ لاحق، ولكنني تذكرت عندئذٍ أنني قد اشتريتُ هذه الحقيبة الجديدة شديدة الصِغر، والتي لن تتسع، إلَّا بالكاد، لفطيرتين مالحتين من أصغر نوع. أصدرتُ صوتَ امتعاض، وهززتُ رأسي.

قال لي الساقي: «كيف الحال؟» لم يسأل أحدنا الآخر عن اسمه؛ لم يبدُ ذلك ضروريًا، بطريقةٍ أو بأخرى. انحنيتُ نحو الأمام قليلًا على مقعدي المرتفع وحدَّقت في كأسي بطريقة مكرورة مبتذلة.

قلتُ في انشراح صدر: «آوه، لا شيء، لكنني أظن أنَّ عليَّ أن آكل شيئًا الآن حقًا.»

كان الساقي يبدو أقل جاذبية ووسامة مع مرور الوقت، والتقطَ كأسي وملأها من جديد بالفودكا وبعض الكولا، وأعادها لي.

قال: «لا داعي للعجلة، صحيح؟ لمَ لا تبقين هُنا وتؤنسين وحدتي لوقتٍ أطول قليلًا؟»
نظرتُ حولي - كان البار لا يزال خاليًا تمامًا.
قال: «ربما تحتاجين للاستلقاء قليلًا بعد هذه الكأس، صحيح؟» ونقرَ كأسي وانحنى مقتربًا مني للغاية. كان بوسعي أن أرى مسام جلده المضخَّمة على أحد جانبي أنفه، بعضها كان ممتلئًا بنقاط سوداء بالغة الصغر.
قلت: «ربما، أحيانًا فعلًا أحتاج أن أستلقي قليلًا بعد الفودكا والكولا.»
ابتسم ابتسامةً ذئبية شبقة.
«هذا يضبط المزَاج، صحيح؟»
حاولتُ أن أرفعَ حاجبيَّ بتساؤل، ولكن للغرابة لم أستطع إلَّا أن أرفع حاجبًا واحدًا. كان عليَّ أن أشرب أكثر من اللازم لأنني كنتُ أتألَّم أكثر من اللازم، ولم يكن هناك أي مكان آخر أذهب إليه سوى أن أذهب للأسفل، غارقةً في الفودكا. هكذا الأمر حقًا، بكل بساطة.
«ماذا تقصد؟» هكذا قلتُ وأنا أسمع الألفاظ التي أنطقها وقد تفككت حروفها الصامتة فلم تعد مميزة بدرجةٍ ما.
ازدادَ اقترابًا مني، بحيث صارَ وجهه منضغطًا في وجهي تقريبًا، كان رائحة بصل تفوح منه، قال: «إنها الجنازات، لا يجب أن تحمل لكِ شعورًا سيئًا لهذه الدرجة. كل ذلك الموت ... ثم بعد أن تنتهي، ألا تجدين أنها تدفعك حقًا لأن ترغبي في _ »
- «إليانور» شعرتُ بيدٍ على كتفي فالتفتُّ من موضعي على المقعد المرتفع، بحركةٍ بطيئة لدرجةٍ بالغة.
قلتُ: «أوه، مرحبًا، يا 'ريموند'! هذا هو ... لكنني، لا أعرف. من فضلك، ما اسمك، يا سيد...»
كان الساقي قد تحرَّك بسرعة الضوء على ما يبدو إلى الطرف الآخر من النضد، وأخذَ يستأنف تلميعه للكؤوس ومشاهدة التليفزيون. رماه 'ريموند' بنظرة أقل ما توصف به أنها غير ودية بالمرة، ووضع على النضد ورقة نقدية فئة العشرين جنيهًا.
قلتُ، وأنا أخربش في حقيبتي الجديدة: «مَهلًا، يا 'ريموند'، لدي هنا بعض النقود...»
«هيَّا»، قال لي وهو يجذبني للنزول عن المقعد المرتفع مِن غير لُطف. «يمكننا أن نسوّي هذه المسألة لاحقًا.»
أخذتُ أخبُّ من خلفه على كعب القطة المرتفع.
قلتُ وأنا أمسك بكُمّه: «ريموند». نظر إليّ. «أنا لن أرسم وشمًا على جسمي، هذا قراري النهائي.»
بدا مُتحيرًا، وأدركتُ أنني قد نسيتُ أن أخبره بأنَّ هذه الفكرة كانت تراودني، منذ أن تحدثت إلى ذلك الساقي في بار 'كتنجز'. أجلسني إلى مقعد عريض على إفريز نافذة في الرواق - ليس نفس مقعد النافذة الذي كان مختبئًا في داخله من قبل - وتركني هناك. تَطلَّعتُ حولي، متسائلة عن الساعة الآن، وما إذا كانوا قد انتهوا من حَرق 'سامي' الآن أم أنهم يحتفظون بجميع الجثث لديهم هناك حتَّى نهاية اليوم ليضرموا لهيبًا جيدًا حقًا. عادَ 'ريموند'، وفي إحدى يديه قدح شاي وفي الأخرى طبق مخبوزات مالحة صغيرة.
قال: «تناولي هذا، ولا تتحركي حتَّى أرجع إليكِ.»
اكتشفتُ أنني كنتُ أتضوَّر جوعًا. واصل المُعزين مرورهم بي دون أن ينتبه لي أحدٌ منهم في فجوة مخبأي هذه. راق لي المكان، كان المقعد مريحًا والرواق دافئًا، وشعرتُ كأنني سنجاب

صغير في جُحر دافئ حميم. أوَّل ما انتبهت له بعد ذلك كان 'ريموند' بجانبي من جديد، وهو يحرّكني برفق ولكن بإصرار.

قال: «'إليانور'، أفيقي، إنها الرابعة والنصف الآن، حان وقت الذهاب.»

أخذنا الحافلة حتَّى شقَّة 'ريموند'. كانت في الجانب الشمالي من المدينة، منطقة لم أكن أعرفها جيدًا ولم أجد أي سبب لزيارتها على العموم. كان مِن يقاسمونه السكن بالخارج فشعرتُ بالارتياح لهذا، ودخلنا في الردهة وأنا أتعثر قليلًا وأحاول أن ألَّا أضحك. قادني بطريقة تفتقر للأناقة نحو غرفة المعيشة، والتي كان يهيمن عليها جهاز تليفزيون ضخم. كان هناك العديد من الأشياء التي افترضتُ أنها أدوات تشغيل ألعاب الفيديو متناثرة في الأنحاء أمام شاشة التليفزيون، وفيما عدا بعض أجزاء ومكونات الكمبيوتر، كان المكان مرتبًا بصورة مذهلة.

قلت باندهاش: «لا يبدو هذا مكان يعيش فيه فِتية فقط».

ضحك، وقال: «نحنُ لسنا حيوانات، يا 'إليانور'. أنا أجيد استخدام المكنسة الكهربائية، و'ديزي' مهووس تقريبًا بالنظام، والأمور تسير بقدر المستطاع.»

أومأتُ له، شاعرةً بالطمأنينة لمعرفة أنَّه لا يوجد شيء سخيف وغير متوقع حيث أجلس قد يلتصق بثوبي وجوربي الجديدين.

قال: «شاي؟»

قلتُ له: «لا أظن أنَّ لديكَ أي فودكا أو 'ماجنرز'، بالمصادفة يعني؟» فرفع أحد حاجبيه.

قلتُ: «لقد أفقتُ تمامًا الآن، بعد لفائف النقانق والغفوة السريعة»، وقد كنتُ كذلك حقًا. شعرتُ بأنني أطفو خفيفًا، وبأنني نظيفة صافية الذهن بلا أثر للخمر، لكن جسدي مخدَّر للغاية على نحوٍ لطيف بحيث لا يستجيب لأي مشاعر حادة.

ضحك، وقال: «تَمام، أظنُّ أنني سأدبر لكِ كأسًا حمراء، مناسبة بما يكفي.»

فقلتُ: «أي حمراء؟»

«نبيذ، يا 'إليانور'. صنف ‘مارلو’، على ما أظن - أو أيًا ما كان المعروض في ‘تيسكو’ هذا الأسبوع.»

قلتُ: «آاااه، 'تيسكووو'، في هذه الحالة ... أظن أنني سأشرب معك. كأس واحدة فقط، مع ذلك». لم أكن أريد أن يعتقد 'ريموند' أنني مدمنة كحوليات.

عاد ومعه كأسان وزجاجة بغطاء معدني عادي.

قلتُ: «كنتُ أظن أن زجاجة النبيذ تغلق بفلين؟»

تجاهل قولي. وقال: «نخب 'سامي'»، وقرعنا الكأسين كَما يفعلون في التليفزيون. كان للنبيذ مذاقٌ دافئ ومخملي، وله نفحة طفيفة تشبه المربَّى المحترقة.

قال: «استريحي واسترخي الآن!»، وهو يهز أصابعه بطريقة أدركتُ أنها من المفترض أن تكون مازحة ومرحة. «فأنا لا أريد أن تقعي من الأريكة وتنطرحي أرضًا!»

ابتسمتُ. سألتُه بعد رشفةٍ لذيذة أخرى: «كيف أمضيت فترة ما بعد الظهيرة؟». أخذ جرعة كبيرة للغاية.

قال: «تقصدين بعيدًا عن إنقاذك من براثن ذلك المنحرف المأفون؟»

لم تكن لديَّ أي فكرة عمَّا كان يتحدَّث.

وعندما اتضح له أنني لا أعرف كيف قد أجيب عليه، قال أخيرًا: «آخ، قضيتُ وقتًا طيبًا بعد الظهيرة، مرَّ كل شيء على ما يُرام، بقدر ما يمكن لمثل تلك المناسبات أن تمر. سوف يكون يومُ

الغد هو المشكلة بالنسبة لهم حقًا، لأنَّ الجنازة إلهاء كبير؛ يبقى المرء مشغولًا بكل الترتيبات، واتخاذ قرارات غبية حول أنواع الفطائر والبسكويت، والترانيم -»

قلتُ: «كانت ترانيم سيئة!»

« - وبعد ذلك فهنالك يوم الجنازة نفسه، والتأكّد من تقديم الشكر للمعزين، والخَدم وكل ذلك الفريق ... قالت لي الأسرة أن أشكركِ على حضوركِ، بالمناسبة.» أنهى كلامه، وقد خفتَ صوته بالتدريج. لاحظتُ أنه هو مَن كان يشرب كل النبيذ - وقد أعاد ملء كأسه بالفعل بينما لم آخذ إلَّا رشفتين اثنتين.

قال: «لكنَّ المشكلة في الأيام والأسابيع التي تلي ذلك ... عندئذٍ تشتد صعوبة الأمر حقًا.»

قلت: «أهكذا كان الأمر بالنسبة لك؟»

أومأ برأسه. أشعل المدفأة، والتي كانت تعمل بالغاز، ومن المفترض أن تبدو مثل المدافئ الحقيقية التقليدية، وأخذ كلٌ منا يحدق في النار. لا بدَّ أنَّ هناك قطعة ما من التوصيلات، تَخلَّفت في عقولنا من أسلافنا، شيءٌ يجعلنا لا نستطيع مَنع أنفسنا من التحديق في النيران، وأن نراقب ألسنة اللهب تتلوَّى وتتراقص، وتصدّ الأرواح الشريرة والحيوانات الخطرة ... أوليس هذا ما يُفترض بالنار أن تفعله؟ غير أنَّ بوسعها أن تفعل أشياءً أخرى كذلك.

«هل تريدين أن تشاهدي فيلمًا، يا 'إليانور'؟ نُبهجَ أنفسنا قليلًا؟»

فكَّرتُ في هذا.

قلت: «هذه فكرة ممتازة.»

غادر الغرفة ثم عادَ بزجاجة نبيذٍ أخرى وكيس بطاطا مقرمشة مكتوب عليه (كيس للصُحبة)، لم أجرب هذه العبوة من قبل بسبب تلك العبارة تحديدًا. مزَّق الكيس من المنتصف وأفرده على الطاولة المقابلة للأريكة حيث كنا نجلس كلانا، ثم ملأ كأسينا. خرج مرة أخرى، وعاد ومعه لحاف ريش، والذي خمَّنت أنه رفعه عن فراشه، وأيضًا بطانية خفيفة يوحي منظرها بالدفء والحميمية، حمراء اللون مثل بلوفر سامي، وناولها لي. خلعتُ حذاء كعب القطة وتكوَّرت على نفسي تحت البطانية بينما هو راح يعبث بعدد من أجهزة التحكم عن بعد، ربما كانت عشرة أو نحو ذلك. انبثقت الحياة فجأة في شاشة التليفزيون العملاقة، وأخذ يومضُ مُتنقلًا بين قنواتٍ مختلفة.

قال لي وهو يومئ نحو الشاشة، بينما يلف نفسه في لحافه: «ما رأيك في هذا الفيلم؟» كانت الكتابة المعلَّم عليها بالفأرة تقول: «*أبناء الصحراء*». لم تكن لديَّ أدنى فكرة عمَّا كان هذا، لكنني أدركت أنني سوف أكون سعيدة بمجرد الجلوس هنا في الدفء معه ومشاهدة حتَّى ولو برنامج عن الجولف لو كان هذا هو كل المتاح.

قلت: «لا بأس». كان على وشك أن يضغط على زر التشغيل عندما استوقفته.

قلتُ: «'ريموند'، ألا ينبغي أن تكون الآن مع 'لورا'؟». بدا أنه بوغت تمامًا.

قلتُ: «لقد رأيتكما اليوم، ورأيتكما في حفل عيد ميلاد 'كيث' بنادي الجولف.» بدا وجهه جامدًا خاليًا من أي تعبير.

قال، وهو يرفع منكبيه: «إنها بصحبة أسرتها الآن، هكذا ينبغي أن يكون الحال». شعرتُ بأنه لا يود الحديث في الأمر أكثر من ذلك، واكتفيتُ بأن أومأت ببساطة.

سأل: «جاهزة؟»

كان فيلمًا أبيض وأسود، وكان يدور حول رجلٍ بدين ذكي ورجل نحيف غبي انضمَّا إلى 'الفيلق الأجنبي'[(49)]، وكانا غير ملائمين للخدمة في الجيش بكل وضوح. عند نقطةٍ ما مِن الفيلم، أخذ

'ريموند' يضحك بشدة لدرجة أنه سكب النبيذ على لحافه. ولم يمضِ وقت طويل حتَّى شرقتُ بقطعة بطاطا من كيس الصُحبة حتَّى اضطر أن يوقف الفيلم ويخبطني برفق على ظهري ليطرد القطعة المحشورة. كان أمرًا مُحبطًا للغاية عندما انتهى الفيلم، وكذلك عند رؤية أننا قد أتينا على كل رقائق البطاطا وشربنا معظم النبيذ، رغم أنَّ 'ريموند' قد شربَ أكثر مني بكثير - فعلى ما يبدو، لم يكن بوسعي أن أشرب النبيذ بنفس السرعة التي أشرب بها الفودكا و'الماجنرز'.

سار في شيءٍ من عدم الثبات إلى المطبخ وعاد بكيس كبير من الفول السوداني.

قال: «سُحقًا، نسيت الوعاء.» ثمَّ عاد من جديد ومعه وعاء عميق، وحاول أن يُفرغَ فيه الفول السوداني. كان تصويبه سيئًا، وأخذ يوزّعه فوق منضدة القهوة بكاملها. أخذتُ أضحك - كان الأمر تمامًا مثل 'ستان' وصاحبه 'أولي' في الفيلم الذي شاهدناه - وعندئذٍ كنا نضحك نحن الاثنين. أطفأ التليفزيون وشغّل بعض الموسيقى عبرَ جهاز تحكم غامض آخر. لم أتعرَّف على الموسيقى، غير أنها كانت جيدة؛ هادئة ولا تتطلَّب تركيزًا. أخذ يقرمش حفنة من الفول السوداني.

قال وفتات الفول المطحون يتساقط من فمه: «'إليانور'، هل يمكنني أن أطرح عليكِ سؤالًا.»

قلتُ: «بكل تأكيد»، وتمنيتُ أن يبلع أولًا قبل أن يتحدث من جديد.

أمعن النظر فيَّ. «ما الذي حدث لوجهكِ؟ لستِ ...» مالَ للأمام برسغه، ومسَّ ذراعي من فوق البطانية - «بالتأكيد، أنت لستِ مُضطرة لأن تخبريني بشيء إذا لم تريدي. أعرف أنني فضولي حقير!»

ابتسمتُ له، وأخذت جرعة من النبيذ.

قلتُ: «لا أمانع في أن أخبرك، يا 'ريموند'»، ولدهشتي وجدتُ ذلك صحيحًا حقًا - فقد أردتُ فعلًا أن أخبره، الآن بعد أن سأل. لم يكن يسأل بدافع الشهوة أو الفضول الملول - بل كان مهتمًا اهتمامًا صادقًا، أنا على يقين من هذا، يمكن للمرء أن يميز الفرق عمومًا.

قلتُ: «شبَّ حريق، عندما كنتُ في العاشرة من عمري. حريق بالمنزل.»

قال: «يا للمسيح! لا بدَّ أنَّ هذا كان أمرًا رهيبًا.» مرَّت فترة صمت طويلة، وتقريبًا كان بوسعي أن أرى الأسئلة تتبلور وتتشكل بداخله، كما لو كانت الحروف تبزغ من داخل عقله وتشكّل كلماتٍ في الهواء.

«ماس كهربائي؟ مقلاة على النار؟»

قلتُ: «بل كان حريقًا بفعل فاعل»، دون رغبة في أن أشرح أكثر.

فقال: «يا للجحيم اللعين، يا 'إليانور'! حريق متعمَّد؟»

احتسيتُ المزيد من النبيذ المخملي، ولم أقل شيئًا.

قال: «لكن ماذا حدث بعد ذلك؟»

حكيتُ له: «إذن، وكما ذكرتُ لكَ مِن قبل أنني لم أعرف أبي قط. وبعد الحريق توَّلت الدولة رعايتي، وأُخذتُ إلى بيوت أسر بديلة، ودور رعاية الأطفال، ثم من جديد إلى أسرٍ بديلة - كنتُ أنتقل إلى مكانٍ جديد كل ثمانية عشر شهرًا أو نحوها، على ما أظن. ثم التحقتُ بالجامعة - كنتُ في السابعة عشرة عندئذٍ - وأسكنني مجلس الرعاية في شقة خاصة، نفس الشقة التي لا أزال أعيش فيها.»

بدت عليه أماراتُ حزنٌ بالِغ إلى درجة أنَّ هذا أحزنني *أنا* كذلك.

قلتُ له: «'ريموند'، هذه ليست قصة نادرة بالمرة. فكَم من الناس نشأوا في ظروف أشد قسوة بما لا يقاس؛ إنها ببساطة إحدى حقائق الحياة.»

قالَ: «ولكن هذا لا يجعلها مقبولة مع ذلك».

- «كان لديَّ دائمًا فراش أنام عليه، وطعام لآكله، وثياب وأحذية لأرتديها. كان لديَّ دائمًا شخص كبير يشرف عليَّ. وبكل أسف، يوجد ملايين الأطفال في العالَم لا يمكنهم أن يقولوا الأمر نفسه عن حياتهم. وعندما تفكر في الأمر تجد أنني شخص محظوظ للغاية.»

بدا كَما لو كان يوشك على البكاء - لا بدَّ أنه كل ذلك النبيذ، فهو يجعل الناس عاطفيين بإفراط، أو هذا ما يقال. شعرتُ بالسؤال غير المصرَّح به يحوم حولنا كالشبح. لا تسَل، لا تسَل، هكذا قلتُ في نفسي، متمنية بكل ما فيَّ من إخلاص، ومقاطعةً إصبعي تحت البطانية عسى أن تُستجاب أمنيتي.

«وماذا عن أمك، يا 'إليانور'؟ ما الذي جرى لها؟» جرعتُ ما تبقى من نبيذ بأسرع ما يمكنني.

- «أفضّل ألَّا أناقش موضوع أمي، إن كان لا مانع عندك، يا 'ريموند'.»

بدا متفاجئًا ومُحبطًا قليلًا، وهي استجابة مألوفة لي. ومِن لُطفه أنَّه لم يواصل التطرق للموضوع.

- «إنني تحت أمركِ في كل ما تريدينه أو تحتاجين إليه، يا 'إليانور'. يمكنكِ أن تتحدثي إليَّ وقتما تشائين، أنتِ تعرفين ذلك، صحيح؟»

قلت: «صحيح»، مبتسمة بحبور. صديقي الأوَّل! صارَ لديَّ بالتأكيد، وإن اتضح أنه رجل إصلاح أجهزة الكمبيوتر ولديه مجموعة متنوعة من العادات الاجتماعية السيئة، ولكن مع ذلك - صديقان! لا شكَّ أنَّ الأمر اقتضى مني وقتًا طويلًا للغاية لكي أكسب صديقًا؛ كنتُ منتبهة تمامًا إلى أنَّ الأشخاص في مثل عمري لديهم صديق أو اثنان على الأقل. ما حاولت أن أتجنبهم، ولا أنا سعيتُ وراءهم أيضًا؛ كل ما هنالك أنه كان من العسير على الدوام أن ألتقي أشخاصًا يتفقون معي في الميول والأفكار. بعد الحريق، لم أفلح قَط في العثور على أي شخص يمكن له أن يوائم الفراغات التي حدثت بداخلي. ليس لي أن أشكو؛ فعلى كلٍ كان الذنب ذنبي بالكامل. ثمَّ إنني كنتُ أنتقل كثيرًا للغاية خلال طفولتي وكان من الصعب أن أبقى على اتصال مع أشخاص بعينهم، حتَّى ولو أردتُ. العديد والعديد من الأسر البديلة، وكذا العديد من المدارس الجديدة. أمَّا في الجامعة، فقد وقعتُ في غرام دراسة الأعمال التقليدية، وكرست نفسي للعمل عليها بكل سعادة. وأضعتُ بضع رحلاتٍ تابعة لاتحاد الطلبة من أجل أن أحرز أعلى الدرجات، وأن أنالَ مدحًا سخيًا من أساتذتي، وكانت مقايضة عادلة بالنسبة لي. ثم طبعًا، كان هناك 'ديكلان'، لبضع سنوات. لم يكن يروق له أن أتفاعل اجتماعيًا وأنا لستُ معه، أو، في حقيقة الأمر، وأنا معه.

بعد تخرجي من الجامعة، بدأتُ مباشرةً العَمل في شركة 'بوب'، وبالطبع لم أجد هناك مَن يتفق معي في الميول والأفكار. ما إن يعتاد المرء في أن يكون بمفرده يصبح هذا أمرًا طبيعيًا وعاديًا. وقد أصبح هكذا بالنسبة لي من غير أدنى شك.

ولكن، الآن، لماذا يريد 'ريموند' أن يكون صديقي؟ ربما كان هو أيضًا إنسانًا وحيدًا. وربما كان يشعر نحوي بالشفقة. وربما - غير معقول هذا، لكنني أظنه أمرًا ممكنًا - كان يعتبرني بالفعل شخصًا أهلًا للمحبة والصداقة. مَن يدري؟ التفتُّ نحوه، وبي رغبة في أن أسأله عن السبب، وأن أخبره كَم كنتُ مسرورةً لأنني عثرتُ أخيرًا على صديق، لكن رأسه كان قد سقط على صدره وانفرجَ فمه قليلًا. ومع ذلك، فسرعان ما استفاق وعاد للحياة.

«لم أنم»، قال، وأكمل: «أنا فقط ... كنتُ أريح عينيَّ دقيقة. لقد كان يومًا مشحونًا.»

قلتُ: «صحيح، كان يومًا مشحونًا»، وأنا أعني ما أقول. وضعتُ قدميَّ في حذائي كعب القطة، وتساءلتُ إن كان يمكنه أن يطلب لي سيارة أجرة. ذُعرتُ عندما وجدتُ الساعة توشك على التاسعة

مساء. اختلست النظر من بين الستائر، وكان الظلام قد حلَّ الآن. سوف أشعر بالأمان في التاكسي، رغم ذلك، لأنَّ الشرطة تتفقد جميع السائقين بانتظام، أليس كذلك؟

نزل 'ريموند' معي إلى أمام البناية، وفتحَ لي باب التاكسي.

قال: «تصلين بألف سلامة، يا 'إليانور'، أتمنى لك عطلة نهاية أسبوع سعيدة. وأراكِ يوم الإثنين.»

قلتُ له: «أراكَ الإثنين، يا 'ريموند'»، ولوَّحت له حتَّى انعطف التاكسي عند الناصية ولم يعد بمقدوري أن أراه من النافذة.

(٢٤)

johnnieLrocks@

استعدوا لحفل وداع فرقة بيلجرم بيونيرز! النهاية بانفجار وليس بالأنين والنحيب.[50] التفاصيل لاحقًا.

#لا_تفوتكم #حفل_القَرن #فلنتخلص_مِن_بقايا_الماضي_الزائدة.

هذه المرة، سيكون الأمر تامًا ومثاليًا. رأيتُ تغريدته. وما هي إلَّا ساعات قليلة بعد ذلك حتى كانت عيناي مثبتتين على مُلصق دعائي صغير على فاترينة متجر تسجيلات مستقل بالقرب من مكان عملي. استوقفني وجهه الوسيم، وثبّتني جامدةً في موضعي. الحدث بعد أسبوعين. ليلة ثلاثاء. رائع. إنَّها يد القدر مرة أخرى، تُحرّكنا كأننا قطع شطرنج، وكان الملكُ قُبَالة عينيَّ.

وإذ تذكَّرتُ خطأي في حفل 'الكاتنجز'، حفظتُ في ذاكرتي اسم مكان الحفل، وما إن عُدتُ إلى المنزل حتَّى حجزت تذكرتين عبر موقعهم على الإنترنت، كانت التذكرة الثانية على سبيل الاحتياط في حالة إن فقدتُ التذكرة الأولى. وربما يمكن 'لريموند' أن ينتفع بها، ويأتي معي؛ رغم أنه، بعد تأمُّل الأمر، ربما لا يأتي. ثُمَّ اتضح أنَّ شراء تذكرة ثانية بلا ضرورة، مع هذا، إذ لاحظتُ بعد إنهاء الشراء أن التذاكر تسلَّم باليد شخصيًا في ليلة الحفل نفسها. لا يهم.

بعد تناول العشاء والاستماع إلى مسلسل *الرُماة* في الراديو، جلستُ ومعي قلم رصاص ودفتر ورقي لأضعَ قائمة بجميع الأشياء اللازم اتخاذها لكي أكون مستعدة. كان الأمر الأهم، بعد تأمين التذكرتين، إجراء زيارة استكشافية للمكان، حتَّى أكون واثقة أنَّ كل شيء سوف يمضي في سلاسة في الليلة المنتظَرة ولكي أتفادى أي مفاجآت غير سارة. هُنا، على الأقل، شعرتُ بأنَّ 'ريموند' يمكنه أن يقدّم بعض العون. يمكننا أن نذهب معًا إلى حفلة مختلفة، ربما غدًا أو بعد غدٍ، وسوف يتيح لي هذا الفرصة لاستطلاع الموقع من أجل لقائي الوشيك مع القَدر.

بعد أن تأكَّدتُ مِن أنَّه لا تزال هناك تذاكر متاحة لحفل آخر يُقام مساء الغد، أرسلتُ رسالة إلكترونية:

العزيز 'ريموند'، هل تود أن تذهب معي ليلة الغد إلى حفل غنائي في 'رانك دان'؟ إل.

أجاب على الفور.

مَن سيغني؟

هل ثمة أي أهمية لذلك على الإطلاق؟ بالطبع كان بوسع 'ريموند' أن يبحث عن ذلك على جوجل، لو كان لهذا مثل هذه الأهمية عنده؟ أجبته:

إيجنتس أوف إنسانيتي

مرَّت عدة دقائق.

تبًا يا 'إليانور' - لم أعرف أنكِ تحبين هذا الهُراء؟ صراحةً، ذلك ليس ذوقي بالمرة، لكنني سأصحبكِ - لقد مرَّت سنين منذ آخر مرة حضرتُ فيها حفلًا غنائيًا. هل حصلت على تذاكر؟

لماذا؟ لماذا حقًا لا يمكنه أن يكتب كلمات كاملة في جُمل سليمة لغويًا؟[51]

نعم. ألقاك هناك في السابعة مساء. إل.

بعد مرور خمس دقائق، تلقيت التالي:
ظريف. إذن، أراك لاحقًا.
مع نهاية هذا الحوار المتبادَل كنتُ تقريبًا قد صرتُ مُعتادةً في تبلُّد على أسلوبه الأُمي في التواصل. إنه أمرٌ جيد وسيئ في آنٍ واحد، كيف يمكن للبشر أن يتعلَّموا تحمّل أي شيء تقريبًا، إن اضطروا إلى ذلك.
في الليلة التالية، وصل 'ريموند' متأخرًا، كعادته. بدا في مظهرٍ سخيف - سويت شيرت قُطني أسود بكُمين طويلين وغطاء رأس، وفوقه سترة من الجينز. كان القميص عليه صورة جُمجمة من الأمام.
قال، منشرحًا، بينما وقفَ بجانبي لدى المدخل: «قلتُ لنفسي سأحاول أن أبدو في الصورة الملائمة للحفل.»
لم يكن لديَّ أدنى فكرة عمَّا كان يتحدَّث عنه. دخلنا وتسلَّمت التذكرتين اللتين اشتريتهما على الإنترنت. كان البار سيئ الإضاءة وقذرًا تمامًا، كما يوحي اسمه. كان هناك أشخاص من كلا الجنسين، مظهرهم كئيب وأخرق وشُعث الشعور ومهملي الثياب، يجلسون في المكان وقد خيَّمت عليهم كآبةٌ كأنهم في قعر الجحيم، بينما كانت الموسيقى الصادرة من مكبرات الصوت عالية بدرجة لا تُحتمَل وبشعة بدرجة تتجاوز الوصف.
نزلنا للطابق السُفلي حيث الحفل، وكان المكان ممتلئًا عن آخره تقريبًا. بينما كنتُ أقفُ في انتظار 'ريموند' لدى المدخل، كنتُ قد لاحظت رَكبًا صغيرًا من شبابٍ ذوي مظهر سخيف وغريب يدخلون المبنى - وعلى ما بدا، أنَّهم كانوا يقصدون هذا المكان أيضًا. كُنا مُحاطَين بثياب كلها أسَود في أسَود، وشعورٍ سوداء، مرفوعة ومثبَّتة للأعلى أو جماجم محلوقة تمامًا. ومساحيق وجه سوداء أيضًا على وجوه كلٍ من الرجال والنساء، مُنفَّذة على نحو لا أعتقد أنَّ 'بوبي براون' سوف تؤيده أو ترضى عنه. كان هناك الكثير من الحِراب المدببة في كل شيء وفي كل موضع - في الشَعر، والحُلي، وحتَّى على حقائب الظهر. لم يكن هناك تقريبًا واحد من بينهم يضع قدميه في حذاءٍ ذي نعل عادي بل كانوا جميعًا يتمايلون من فوق كعوبٍ غليظة مرتفعة للغاية. وفكرت أنَّ كل شيء يبدو كما لو كنا في عشية عيد الهالوين. عادَ 'ريموند' من البار ومعه كوب بلاستيكي كبير من الجعة لنفسه، ومن غير أن يسألني، شيء آخر أفتح لونًا من أجلي.
صحتُ، من فوق الصخب والضجيج: «شراب تفاح؟ لكنني لا أحب أن أشربه، يا 'ريموند'!»
فقال: «وماذا تظنين مشروب 'الماجنرز' إذن، أيتها الفتاة الساذجة؟»، ونكزني برفق بمرفقه.
ارتشفتُ بتردد - لم يكن في نفس لُطف 'الماجنرز'، ولكن لا بأس به. كانت الأصوات أكثر ارتفاعًا من أن تتيح لنا تبادل أي حديث، وهكذا رحتُ أتفحص المكان بعينيَّ. كانت منصة المسرح صغيرة ولا ترتفعُ عن الأرض إلَّا بمقدار مترٍ أو نحو ذلك. عندما أرجعُ إلى هُنا، أفترضُ أنَّ 'جوني لوموند' سيكون واقفًا في منتصف صدارة المسرح تمامًا، وسيكون من اليسير عليه أن يراني، حتَّى ولو اضطررت أن أشق الصفوف من الخلف لأصل حتَّى الأمام. حتَّى إله الحب 'كيوبيد'، على ما أظن، يحتاج لدَفعة صغيرة بين الحين والآخر.
بدأ الجمهور في إصدار ضجَّة حيوانية جماعية واندفع كموجةٍ للأمام. بقينا حيث كنا - العازفون الآن على خشبة المسرح وقد بدأ عزفهم، فوضعتُ أصابعي في أذنيَّ، عاجزةً عن أصدق ما كنتُ أسمعه. بدون مبالَغة، لا يمكنني وَصفه إلَّا بأنه ضجيج متنافر منبعث من الجحيم. ما *خَطبُ* هؤلاء الناس؟ وكان «المطرب» ينتقل ما بين الصراخ والزمجرة.

لم أستطع أن أحتمل ذلك دقيقة واحدة أكثر وصعدتُ للطابق العلوي، واندفعتُ للخارج نحو الشارع، وأنا ألهث وأهز رأسي مثل كلبٍ في محاولة لأن أفرغَ أذنيَّ من الصوت. وسرعان ما خرج 'ريموند' ورائي.

قال وهو يبدو قلقًا: «ما الأمر، يا 'إليانور'؟ هل أنتِ بخير؟»

مسحتُ الدموعَ عن وجهي.

«تلك ليست موسيقى، تلك ... أوه، لا أدري. الرُعب نفسه، يا 'ريموند'! الرُعب!»

شرعَ 'ريموند' يضحك، ضحكات يهتز لها الكرش (وهو ما كان مجهزًا له على أفضل نحو)، حتَّى انثنى جسده فعلًا وأخذ يجاهد لالتقاط أنفاسه.

قال وهو يتنفس بصوت صَفير: «آه، يا 'إليانور'، لقد كنتُ أعرف أنكِ لستِ واحدة من المهووسين بموسيقى الجريندكور[52]! ماذا كنتِ تظنين بحق الجحيم؟» وبدأ يقهقه من جديد.

قلتُ: «أردتُ فقط أن أرى المكان، وأن أستمع إلى الفرقة، لم أتخيَّل أن مثل ذلك الصوت يُمكن أن يكون موجودًا - إنه يتجاوز خيال الإنسان.»

استعاد 'ريموند' توازنه.

«لا بأس إذن - ماذا يقولون عادةً؟ - جرّب كل شيء مرَّة واحدة، باستثناء زنا المحارم ورقصة موريس[53]. ربما علينا أن نضيف موسيقى «الديث ميتال» إلى القائمة، صحيح؟»

هززتُ رأسي.

قلتُ: «ليس لديَّ أدنى فكرة عمَّا تتحدَّث عنه، لا أفهم أي معنى لتلك الكلمات.» أخذتُ عدة أنفاسٍ عميقة حتَّى شعرتُ بأنني هادئة أو أكاد.

«فلنبتعد ولنذهب إلى حانة أو أي كافيتريا، يا 'ريموند' - مكان هادئ - وأرجو أن تسمح لي بأن أدعوك على جعة لأعوضك عن هذه الأمسية الضائعة.»

فقال وهو يهز رأسه: «آه، لم تكن ضائعة، يا 'إليانور'، تكفيني رؤية وجهك! إنها من أفضل السهرات التي قضيتها منذ سنوات.»

وأخذ يضحك من جديد، وما أدهشني أنني وجدتُني أضحك معه. كان أمرًا مُسليًا أنني أسأت فهم نوع الموسيقى التي ستؤدَّى بصورة تامة. أدركتُ أنَّ كان أمامي الكثير لأتعلمه عن الموسيقى، وسيكون هذا أمرًا مهمًا من أجل أن أتفاعل على خير نحو مع الفنان.

سألتُه: «هل سمعتَ عن 'جوني لوموند' وفرقة 'بيلجريم بايونيرز'؟» هزَّ رأسه نافيًا، وقال: «لماذا؟» أخرجتُ هاتفي الجوَّال وفتحتُ صفحة المطرب. أخذ 'ريموند' ينزل لأسفل الصفحة مطالعًا لها بضع دقائق، قارئًا النص، ثم أخرج سماعة أذنيه وبدأ يسمع دقيقة أو اثنتين.

وقال بنبرة قاطعة: «ما هذا الخراء؟» وأعادَ لي هاتفي. يصدر هذا من رجل يرتدي سويت شيرت قطنيًا عليه صورة جمجمة!

قلتُ: «حقًا؟»

«لديه لحية ممُلَّة، وجيتار باهظ الثمن لا يعرف كيف يعزف عليه ولكنة أمريكية زائفة. يحاول أن يوحي بأنه من الجنوب، بلى صحيح ...، جنوب لاناركشاير»، هكذا قال 'ريموند'، وهو ينفخ الدخان بجانب فمه بابتسامة متكلفة. لم أكن مُطلعة بما يكفي لكي أكون قادرة على أن أتفق أو أختلف معه، لذا فقد تحلَّيت بالصمت. من ناحية أخرى، فقد كنتُ بحاجةٍ لأن أُلمَّ على الأقل ببضع حقائق بارزة حول الموسيقى الرائجة، إلى جانب بعض الآراء المنحرفة حولها، شككتُ في أن يكون 'ريموند' هو أفضل مصدر لديَّ.

بينما نسير صوب حانة أكّد لي 'ريموند' أنها هادئة، أو كما قال «حانة محترمة تليق بالمسنين»، أيًا كان معنى ذلك. سألته: «هل تعرف الكثير عن الموسيقى إذن؟»

فقال: «بلى، يعني، أظن ذلك.»

قلت: «هذا رائع. الآن أرجوك: أخبرني بكل ما تعرفه.»

(٢٥)

جاء يوم الحفل. كان كل شيء جاهزًا وعلى أتم ما يرام، كنتُ أبدو في المظهر الملائم، وأشعر من داخلي بهذا أيضًا. كنت لأسابق الزمن لو كان بوسعي، لكي أبلغ الليلة بأسرع وقت ممكن. لقد وجدتُ سبيلًا لمساعدتي على المضي للأمام أخيرًا، سبيلًا لكي أستبدل المكسب بالخسارة.

الفنان. كان الحظ الذي واتاني في اللحظة المناسبة تمامًا. كان القدر الذي، مِن بعد هذه الليلة، سوف يلملم شتات 'إليانور' ويضمَّها معًا أخيرًا.

كَم كان تشوُّقي وترقبي خلَّابًا. وثمة ألم بداخلي، ألم كأنه خضخضة عنيفة. لم أعرف كيف عساي أن أطمئن وأهدئ حالتي هذه، وأحسستُ غريزيًا أنَّ الفودكا لن تجدي نفعًا معها. عليَّ بكل بساطة أن أتحملها إلى أن ألقاه، وكانت تلك طبيعة هذا العبء الغريب المبارَك. ليس عليَّ الآن سوى الانتظار وقتًا أطول قليلًا، بضع ساعات. الليلة، سوف ألقى الرجل الذي سيغير حبه حياتي.

إنني مستعدةٌ لأن أُبعث كالعنقاء من الرماد وأن أولدَ من جديد.

أيام سيئة

(٢٦)

إنني عارية، راقدة على الأرض، أنظر إلى الطاولة من الأسفل. الخشب الشاحب غير مطلي، وهناك علامة باهتة تحمل طباعة تقول «صُنعَ في تايوان». وفوق الطاولة تراصت بعض الأشياء المهمة - لا يمكنني رؤيتها، ولكنني أشعر بها من فوقي. هذه الطاولة البشعة، بسطحها المصنوع من الميلامين الأزرق، وأرجلها المزعزعة، تقشَّر طلاؤها في عدة مواضع بعد عشرات السنين من الاستخدام بلا عناية. كَم مِن المطابع وُجدَت فيها هذه الطاولة، قبل أن تجد طريقها إليَّ؟

أتخيَّلُ سعادةً متدرَّجة من الذروة للقاعدة؛ أول الأمر اشترى الطاولة في سبعينيات القرن العشرين زوج وزوجة، وكانا يجلسان هنا يتناولان وجبات مطهية بتوجيه من كتاب وصفات جديد للغاية، يأكلان ويشربان في طقم الزواج الصيني مثل كل الراشدين الصالحين. بعد بضع سنين ينتقلان للسكنى بالضواحي؛ وهكذا فإنَّ الطاولة، وقد صارت أصغر مِن أن تلائم أسرتهم التي كبرت، تنتقل بدورها إلى ابن عمٍ لأحدهما مُتخرَّج حديثًا مِن الجامعة ويؤثث أوَّل شقةٍ له بميزانية محدودة. وبعد مرور بضع سنوات أخرى، ينتقل هو أيضًا للسكن مع شريكة حياته ويؤجّر شقته القديمة. وعلى مدار عقود، تغيَّر المستأجرون الذين أكلوا هَهُنا، سلسلة كاملة منهم، شباب في الأغلب الأعم، بعضهم حزين وبعضهم سعيد، أحيانًا في وحدة وعزلة، ومعظم الأحيان بصحبة أصدقاء وعشَّاق. وضعوا على هذه الطاولة أطعمة سريعة لمجرد سد الجوع، أو خمسة أصناف بديعة لإغواء ضيفهم، أو نشويات سريعة قبل جولة الركض أو بودنج الشوكولاتة عِلاجًا للقلوب المفطورة. وفي نهاية المطاف، يعرض ابن العم الشقَّة للبيع ويصل عمَّال تنظيف المنازل ويأخذون الطاولة بعيدًا، فتمكث طويلًا في أحد مخازن الأثاث، بداخل أركانها المستديرة عتيقة الطراز تغزل العناكب عليها بيوتها الواهنة ويضع الذباب الأزرق الكبير بيضه وسط فتات الخشب المتآكل. ثُمَّ تُمنح لجمعية خيرية أخرى ليهبوها ليَّ أنا، غير المحبوبة ولا المرغوبة، التي لحقَ بها أذى لا شفاء منه. والطاولة كذلك.

كل الأشياء موضوعة بنظام. أقراص المُسكّنات (اثنتا عشرة عبوة في كل منها أربعة وعشرون قرصًا، مصروفة بوصفة طبيب ومخزَّنة بكل اعتناء وحرص)؛ سكين تقطيع الخبز (لم يُستخدَم من قبل تقريبًا، حاد مثل أسنان سمكة قرش متأهبة للتمزيق)؛ سائل تنظيف الأحواض والبالوعات («قادر على اختراق جميع العقبات وتذويبها، حتَّى الشعر والشحوم» - وكذلك اللحم والأحشاء). هذه المنضدة، هذه المنضدة حيث لم أجلس عليها قَط مع شخصٍ آخر ولم أشارك عليها شخصًا آخر قط زجاجة نبيذ. هذا المطبخ، حيث لم أطبخ قط لأي إنسانٍ سواي أنا. مطروحة هُنا على الأرض كجثة، يمكنني أن أشعر من الأسفل بفتاتٍ شائك ملتصق بباطن ذراعي العاريتين، وبردفيَّ وفخذيَّ وكعبيَّ. ملمسٌ بارد، ليتني *كنتُ* جثة. قريبًا، صار هذا وشيكًا الآن.

كانت جميع زجاجات الفودكا الفارغة في مرمى بصري، ملقاة على الأرض بعد أن فرغت. كان ينبغي أن أشعر بالخِزي لأنَّ شخصًا ما سوف يجد المكان على هذه الحالة، ولكنني لا أشعرُ بشيء. في نهاية الأمر، سوف يتم التخلص من جسدي، ويُرسل في طلب عمَّال خدمات تنظيف المنشآت، على ما أظن، وسوف تؤجَر الشقَّة من جديد. أتمنى أن يكون المستأجرون الجدد سعداء هنا، وأن يتركوا بعض آثار المحبة في الجدران والأرضيات والفجوات حول النوافذ من أجل السكَّان الذين سيأتون من بعدهم، فأنا لم أترك شيئًا، أنا لم أوجَد هُنا من الأساس.

لا أدري كَم مِن الوقت ظللتُ ملقاة هكذا. لا أتذكّر كيف انتهى بي الحال مطروحة على أرض المطبخ، ولا لماذا كنتُ عارية تمامًا. مددتُ يدي نحو الزجاجة التي بجانبي، وأنا أتساءلُ بقلق عمَّا تبقى فيها، واسترحتُ في الحال إذ شعرتُ بثقلها. هذه هي الزجاجة الأخيرة، رغم ذلك. عندما تفرغ هذه الزجاجة، لن يكون أمامي سوى أحد خيارين: إمَّا أن أنهض من على هذه الأرضية، وأرتدي ثيابي وأخرج وأشتري المزيد؛ وإمَّا أن أقتل نفسي. الحقيقة أنني سأقتل نفسي في كلا الحالين. المسألة فقط هي مقدار الفودكا الذي سأشربه قبل أن أفعل ذلك. شربتُ جرعةً كبيرة أخرى وانتظرتُ أن يتبدد الألم.

*

عندما عدتُ للوعي مرة أخرى، كنتُ في المكان نفسه. قد تكون مرَّت عشر دقائق، أو عشر ساعات - لا أدري بالمرة. اتخذتُ وضعًا جنينيًا. إن لم أكن أستطيع أن أكون جثة، فإنني أتمنى إذن أن أكون طفلًا، متكوّرًا على نفسه في رحم امرأة أخرى، طفل طاهر ولديه مَن يتلهف ويتوق إليه. تحركت حركة هينة، وأدرتُ وجهي نحو الأرضية وتقيأت. كان القيء كما لاحظتُ شفَّافًا وفيه خطوط خضراء تميل للصفرة - كحول وعصارة الصفراء. لم آكلُ منذ بعض الوقت.

هناك الكثير للغاية من السوائل والمواد في داخلي، أحاولُ أن أضعَ قائمة بها جميعًا بينما أرقدُ هنا. هناك شمع الأذن، والصديد الأصفر الذي يتقيح بداخل البُقع. الدم، المخاط، البول، البراز، الغذاء المهضوم في المعدة، الصفراء، اللعاب، الدموع. أنا فاترينة جزَّار تعرضُ أعضاءً، كبيرة وصغيرة، وردية، ورمادية، وحمراء. كل هذا يختلط بداخل العظام، مغلفٌ بالجِلد، ثم مغطًّى بشعرٍ دقيق للغاية. كيس الجلد معيب، مبرقش بالبثور والنمش والأوردة الصغيرة المعطوبة. والندوب، بالتأكيد. أُفكر في طبيب مختص بعلم الأمراض يفحص هذه الجيفة، مدققًا في كل جزئية، وازنًا كل عضو. اختبار تفتيش صلاحية اللحوم. النتيجة سلبية.

لا يمكنني أن أستوعب بالمرة الآن كيف خطرت لي على الإطلاق فكرة أنَّ أي إنسان قد يحب هذا الكيس المتجوّل من الدم والعظام. شيءٌ يتجاوز قدرة الفَهم. أفكر في تلك الليلة - متى كانت؟ قبل ثلاثة أم أربعة أيام؟ - وأمد يدي نحو زجاجة الفودكا. مرةً أخرى أحاول التقيؤ، وأتذكَّر.

منذ البداية لم يبشّر اليوم بأي فأل حَسن. ماتت النبتة 'بولي' في ذلك الصباح. إنني واعية تمامًا بمدى ما يبدو عليه هذا مِن سخافة وتفاهة. ورغم هذا فقد كانت تلك النبتة هي الصِلة الحية الوحيدة بطفولتي، الشيء الوحيد المتواصل بين الحياة ما قبل الحريق وما بعده، الشيء الوحيد، سواي، الذي نجا واستمرَّ حيًا. لقد ظننتُ أنها لا تذبل ولا تموت، افترضتُ أنها ستواصل العيش يومًا بعد آخر للأبد، تطرح عنها أوراقها وتنمو في مكانها أوراق جديدة. وقد أهملتُ واجباتي نحوها خلال الأسابيع القليلة الماضية، وانشغلتُ عنها بزيارات المستشفيات والجنائز والفيسبوك فلم أروِها بانتظام. تلك حياة أخرى أخفقتُ في رعايتها. لستُ مؤهلة لأن أرعى أي شخص أو أي شيء. كنتُ في درجةٍ شديدة من الخَدر وفقدان الحِس فلم أبكها، وأسقطتُ النبتة في سلة المهملات، الأصيص والتربة وكل شيء، وقد رأيتُ أنها كانت، خلال كل تلك السنوات، تتشبث بالحياة عبر أضعف وأنحف الجذور.

كانت الحياة في غاية الهشاشة وسرعة الزوال. كنتُ أعلم ذلك مِن قبل، بالتأكيد. لا أحد يعلمُ ذلك أكثر مني. أعرف، أعرف كم أنَّ هذا سخيف ومثير للشفقة، ولكن في بعض الأيام، تلك الأيام الأشد ظلامًا، كان إحساسي بأن النبتة سوف تموت إن لم أروِها هو الأمر الوحيد الذي يجبرني على النهوض من الفراش.

وبعد ذلك، في وقتٍ تالٍ من اليوم نفسه، رجعتُ للمنزل من العمل، أخرجتُ القمامة، وارتديتُ ثياب الخروج، وأعددتُ نفسي للذهاب إلى الحفل الغنائي. ذهبتُ وحدي. عندما ألتقيت الفنان، احتجت إلى أن نكون وحدنا وكفى، بلا مشتتات ولا تعقيدات. أردتُ أن أجعل شيئًا ما يحدث، أي شيء. ما عدتُ أستطيع أن أواصل المرور عبر الحياة وحسب، عبرها وفوقها وتحتها وحولها. ما عدت أستطيع مطاردة العالَم مثل شبح. وقد حدثت أمورٌ بالفعل تلك الليلة. كان أوَّلها هو إدراكي أنَّ الفنان بكل بساطة لا يعلم بوجودي هنالك. فلأي سببٍ على الإطلاق خطر لي أنه قد يعلم؟ غباء، خداعٌ للنَفس، صلةٌ واهية بحقائق الواقع؟ قُل ما شئت.

الخِزي. لقد وقفتُ في الأمام مباشرةً، وأنا مُوثَّقة بالثياب الجديدة في سخافة، وعلى وجهي مساحيق كالمهرجين، وأتمايل على كعبين عاليين. عندما ظهر على خشبة المسرح، كنتُ قريبةً منه بما يكفي لأن أرى العُقدة المزدوجة لرباط حذائه، وخصلة الشعر التي تسقط على عينيه. كانت يداه على الجيتار، وأظافره مدرَّمة بكل عناية. الأضواء ساطعةٌ عليه، وكنتُ أنا في الظلام. لكنه رغم ذلك كان يمكن له أن يراني. لو أنَّ ذلك كان هو المقدَّر لنا، وكان كذلك بالتأكيد، لكان رآني، بالطريقة التي ظللتُ أراه بها، طوال كل تلك الأسابيع الماضية. وقفتُ ثابتةً أتطلَّع إليه. بدأت الفرقة تعزف وفتح هو فمه للغناء. كان يمكنني أن أرى أسنانه، واللون الوردي الفاتح لباطن فمه. انتهت الأغنية، وبدأت أخرى. توجَّه بالحديث إلى الجمهور ولكنه لم يتحدث إليَّ. وقفتُ وانتظرت، انتظرت طوال أغنية أخرى. وأخرى بعدها. لكنه ما زال لا يراني. وبالتدريج، وبينما كنتُ أقفُ هنالك تحت تلك الأضواء، وتلك الموسيقى تقرع جسدي من دون أن تتسرب إليه وذلك الحشد غير قادر على أن يخترق طبقة الوحدة التي تغلفني تمامًا، تكسوني من كل ناحية، بدأت أدركُ حقيقة الأمر. طرفتُ بعينيَّ، مرة بعد مرة، كما لو كانت عيناي تحاولان أن تستجليا الرؤية أمامهما، وعندئذ اتضحت الصورة تمامًا.

كنتُ امرأةً في الواحدة والثلاثين من عمرها تهيمُ مثل أي مراهقة غرامًا برجلٍ لم أعرفه، ولن أعرفه أبدًا. لقد أقنعتُ نفسي بأنه الشخص المنتظر، وبأنه سوف يساعدني لكي أكون إنسانة طبيعية، ويصلح كل الأشياء المعطوبة في حياتي. شخصٌ ما لمساعدتي في أن أتعامل مع أمي، وأن أستبعد صوتها كُلَّما سمعتُه يهمسُ لي في أذنيَّ، لتخبرني بأنني كنتُ فتاةً سيئة، وبأنني كنتُ مخطئة، وبأنني لستُ جيدة بما يكفي. لماذا اعتقدتُ ذلك؟

لن ينجذب إلى امرأة على شاكلتي. فقد كان، بنظرة موضوعية، رجلًا في غاية الجاذبية، ويمكنه بالتالي أن ينتقي مَن يشاء بين شريحة عريضة من الشريكات المحتملات. وسوف يختار امرأةً تُعادله في الجاذبية وأصغر منه ببضع سنين. هذا ما سيفعله بكل تأكيد. كنتُ واقفةً في القبو ليلة الثلاثاء، وحدي، محاطةً بالغرباء، أستمع إلى موسيقى لا تروق لي، لأنني أهيمُ غرامًا برجلٍ لم يعرف، ولن يعرف أبدًا، أنني موجودة. أدركتُ أنَّ عليَّ أن أتوقف عن الاستماع إلى الموسيقى.

ها هو على خشبة المسرح، يضغط بقدمه على دواسات الجيتار ويقول شيئًا تافهًا حول جولة فنية بينما يضبط النغمات. مَن كان هذا الغريب، ولماذا اخترتُه، من بين جميع الرجال في المدينة، في البلد، بل في العالَم، ليكون هو مخلّصي؟ تذكَّرتُ تقريرًا إخباريًا قرأته في اليوم السابق، حول بعض المعجبات الشابات اللاتي قضين سهرةً مترعة بالدموع والبكاء أمام منزل أحد المطربين لأنه قصَّ شَعره. لَكَم ضحكتُ حينذاك، ولكن ألم أكن أتصرف مثلهنَّ، أتصرف مثل أي مراهقة مجنونة بأحد المشاهير وتكتب له رسائل الإعجاب بحبرٍ قرنفلي وتحفر اسمه على حقيبتها المدرسية؟

لم أكن أعرف الرجل الواقف أمامي على خشبة المسرح، لم أكن أعرف أبسط شيء عنه. كان

الأمر كله شطح خيالٍ. أيمكن لأي شيء أن يكون أكثر بؤسًا - أنا، امرأة ناضجة؟ لقد حكيتُ لنفسي حكاية خرافية حزينة صغيرة، معتقدة أن ذلك يمكنه أن يصلح كل شيء، وأن يمحو الماضي، وأنني أنا وهو سوف نعيش في سعادة للأبد وأن ماما لن تعود غاضبةً مني. كنتُ 'إليانور'، 'إليانور أوليفانت' الصغيرة التعسة، مع وظيفتي البائسة وزجاجات الفودكا والعشاء لشخصٍ واحد فقط، وسوف أبقى هكذا على الدوام. لا يمكن لأي شيء أن يغيَّر ذلك، لا شيء ولا أحد - وبكل تأكيد ليس هذا المطرب الذي كان يتفقَّد حينذاك شَعره في الهاتف الجوَّال بينما يعزف منفردًا على الجيتار أحد زملائه في الفرقة. ما *كان* هناك أي أمل، وما من إصلاحٍ لأي شيء. لا يمكنني *أنا* أن أصلحها. والماضي لا يمكن الهرب منه ولا محوه. رأيتُ، متقطِّعة الأنفاس، وبعد كل تلك الأسابيع من الخداع والأوهام، الحقيقة القاسية. شعرتُ باليأس والغثيان يختلجان في داخلي، وبذلك المزاج المألوف الأسود، حالك السواد، يهبطُ عليَّ كالبرق.

نمتُ من جديد. وحينما أفقتُ، كان رأسي أخيرًا قد خلا تمامًا من كل تلك الأفكار فيما عدا الأفكار الجسدية المباشرة. أشعر بالبرد، إنني أرتجف. وقت الاختيار. وقد اخترتُ المزيد من الفودكا.

عندما أفلحتُ في الوقوف على قدميَّ، رأيتُ الفوضى على الأرض وأومأتُ لنفسي - كانت هذه علامة جيدة. ربما قد أموت فعلًا من غير أن أضطر لاختيار إحدى الوسائل المتراصة على المنضدة. تناولت منشفة مطبخ من فوق مشجب صغير - كان مكتوبًا عليها: *هدية من سور هادريان*[54]. وعليها أيضًا صورة لقائد روماني قديم وختم بحروف SPQR[55]. كانت منشفتي المفضَّلة. استخدمتُها لمسح وجهي ثم ألقيتُ بها على أرض المطبخ.

لم أكترث لارتداء ثياب داخلية ولكنني التقطتُ ببساطة أقرب ثياب كانت مرمية على أرض غرفة النوم - إنه نفس الطقم الذي ارتديتُه ليلة الثلاثاء. حشرتُ قدميَّ عاريتين في حذاء العمل ذي الشريط اللاصق وعثرتُ على سترتي القديمة معلقة في خزانة الرواق. انتبهتُ أنني لا أعرف أين يوجد المعطف الجديد. لكنني لا بدَّ أن أعرف أين هي حقيبتي. تذكرتُ أنني أخذتُ حقيبة اليد السوداء الجديدة معي تلك الليلة، لم يكن بها متسع إلَّا لمحفظة نقودي والمفاتيح. كانت المفاتيح على الرف في رواق المدخل حيث كنتُ أضعها على الدوام. في نهاية الأمر، وجدتُ الحقيبة في الرواق كذلك، ملقاة في ركنٍ بجانب حقيبتي الأخرى الكبيرة. كانت محفظة نقودي خاوية من أي نقود - لا أستطيع أن أتذكَّر كيف رجعتُ إلى البيت ولا كيف اشتريتُ الفودكا التي كنتُ أشربها، ولكنني افترضتُ أنَّ هذا حدث في طريقي إلى هنا من وسط المدينة. لحُسن الحظ أنَّ المحفظة كانت لا تزال تحتوي على بطاقتي الائتمانية، وكانت تذكرة الحفل لا تزال هناك أيضًا. رميتُها على الأرض.

سرتُ حتَّى المتجر الذي على الناصية. كان الوقت نهارًا، والجو باردًا والسماء رمادية شاحبة. عندما دخلتُ المتجر انطلقت الصافرة الإلكترونية، ومن وراء النضد، تطلع نحوي السيد 'ديوان'. رأيتُ عينيه تتسعان وفمه يسقط فاغرًا بدرجة طفيفة.

قال: «آنسة أوليفانت؟» كان صوته خفيضًا وحذرًا.

قلتُ له: «ثلاثة لترات من فودكا 'جلين'، لو سمحت». بدا صوتي غريبًا - مبحوحًا ومتهدجًا. لم أكن قد استخدمته منذ بعض الوقت، بحسب ظني، ثم كان هناك كل ذلك التقيؤ. وضعَ زجاجة واحدة أمامي، ثم بدا عليه التردد.

قال: «ثلاثة، يا آنسة أوليفانت؟» أومأتُ له. وببطء وضعَ زجاجتين أخريين على النضد، جميعها الآن متراصة مثل قنينات خشبية في لعبة البولينج، قنينات كان عليَّ أن أقرعها مرة واحدة وأن

أدفع ثمنها.

قال: «أي شيء آخر؟» خطرت لي فكرة خاطفة بأن أشتري رغيف خبز أو علبه سباجيتي، لكنني لم أكن أشعر بأي درجة من الجوع. هززتُ رأسي وقدَّمت له بطاقتي الائتمانية. كانت يدي ترتعش وحاولت أن أسيطر عليها دونما جدوى. ضغطتُ الأرقام، وبدا أن وقت انتظاري أن تُطبَع الفاتورة امتدَّ أمدًا.

كانت هناك كومة من صحف المساء موضوعة على النضد بجانب ماكينة الحساب، ورأيتُ أنه اليوم كان يوم الجُمعة. كان السيد 'ديوان' قد ثبَّت مرآة على الحائط ليرى عبرها جميع أركان المتجر، والتقطتُ لمحةً لنفسي فيها. كنتُ شاحبة بلونٍ أبيض رمادي، نفس لون اليرقة، وكان شعري طافرًا لأعلى. كانت عيناي فجوتين مظلمتين، خاويتين، ميتتين. لاحظتُ كل هذا في حالة عدم اكتراث تامة. فلا شيء قد يكون أقل أهمية من مظهري، لا شيء على الإطلاق. ناولني السيد 'ديوان' الزجاجات في كيس بلاستيكي أزرق، رائحة الكيس الكيميائية لمادة البوليمر جعلت معدتي تتحرَّك بقوة أشد.

قال، وهو يميل برأسه جانبًا، ومن غير أن يبتسم: «انتبهي لنفسكِ، يا آنسة أوليفانت».

قلتُ: «مع السلامة، سيد 'ديوان'».

كان السير حتَّى البيت لا يستغرق أكثر من عشر دقائق لكنني احتجتُ نصف ساعة - الزجاجات في الكيس، والحِمل في ساقيَّ. لم أرَ مخلوقًا حيًّا آخر في الشوارع، ولا حتَّى قطة أو غرابًا. كان الضوء كامدًا، يجعل العالم كله باللونين الرمادي والأسود، وغياب كئيب لأي نغمة، كل هذا أناخ بحِمله عليَّ. أغلقتُ بركلة من قدمي الباب الأمامي ورائي وخرجتُ من ثيابي، وتركتها في الرواق تسقط حيثما شاءت. لاحظتُ في مروري أن رائحتي سيئة للغاية - التعرَّق، القيئ، وحموضة سكرية لا بد أنها ناجمة عن عملية أيض الكحول في معدتي. أخذتُ الكيس الأزرق إلى غرفة النوم ودخلتُ في منامتي ذات اللون الليموني. زحفتُ تحت الأغطية ومن غير أن أنظر تلمسَّت يدي طريقها نحو زجاجة.

أخذتُ أشرب بتركيز وتصميم قاتل، لكنَّ أفكاري لم تستطع أن تغرق، لم تغرق ببساطة - مثل جثثٍ قبيحة منتفخة، واصلت الطفو للسطح بكل بشاعتها الشاحبة الممتلئة بالغاز. كان هناك رُعبُ خداعي لنفسي، بالتأكيد: أنا وهو؟ ... *بماذا كنتُ أظن*؟ كان الخِزي أسوأ، أسوأ كثيرًا من ذلك. تكوّرت على نفسي، حاولتُ أن أشغل أصغر مساحة ممكنة من الفراش. حقيرة. جعلتُ من نفسي حمقاء. كنتُ عارًا على الإنسانية، كما كانت أمي تخبرني على الدوام. تسرَّب صوتٌ في الوسادة، عواء حيواني. لم أفتح عينيَّ. لم أرغب في رؤية ولو سنتيمتر واحد من جلدي.

لقد ظننتُ أنَّ بوسعي حل المشكلة بنفسي بمنتهى السهولة، كما لو أنَّ الأمور التي جرت منذ كل تلك السنوات يمكن تصحيحها حقًا. كنتُ أعرف أنَّ الناس لا يُفترض أن يعيشوا حياتهم كما كنتُ أفعل، العمل والفودكا والنوم في حلقة مفرغة؛ حلقة كنتُ أدور فيها حول نفسي، وفي داخل نفسي، صامتة ووحيدة. لا أتحرَّك إلى أي مكان. على مستوى ما، أدركتُ أنَّ هذا خطأ، وقد رفعتُ رأسي عاليًا بما فيه الكفاية لأن أرى ذلك، وفي لهفةٍ يائسة على التغيير، تشبَّثتُ بقشَّة اعتباطية، وتركتُ نفسي أنجرف معها، متخيلة نوعًا مِن ... المستقبل.

انكمشتُ في مذلَّة. كلَّا، ذلك غير صحيح، فالمذلَّة توحي بالحَرَج، والإحساس العابر بالخجل، غير أنَّ روحي هي ما كانت تلتفتُ في البَياض، في خَواءٍ وجودي حيث كان كل إنسانٍ ذات مرَّة. لماذا بدأت أسمحُ لنفسي بالاعتقاد بأنَّ بوسعي أن أعيش حياةً طبيعية، حياةً سعيدة، تلك الحياة التي

يعيشها الآخرون؟ لماذا اعتقدتُ أنَّ المطرب يمكن له أن يكون جزءًا مِن ذلك، وأن يساعدني على تحقيق تلك الحياة؟ طَعنتني الإجابة: ماما. لقد أردتُ أن تحبني ماما. لقد ظللتُ بمفردي لوقتٍ طويل للغاية. كنتُ في أمس الحاجة لشخصٍ ما بجانبي ليساعدني أن أتدبَّر أمر أمي. لماذا لم يكن هناك شخصٌ ما، أي شخص، ليساعدني أن أتدبَّر أمر أمي؟

أخذتُ أستعيدُ المشهدَ في عقلي من جديد، مرارًا وتكرارًا، متذكرةً الأمر الثاني الذي أدركتُه في تلك الليلة. كان ذلك في وقتٍ تالٍ، وقد كنتُ أقف بعيدًا في الخلف، في منتصف الزحام تمامًا. كنتُ قد ذهبتُ لأحضرَ شرابًا آخر، وانسدَّ الطريق إلى مقدمة المسرح بالناس بينما كنتُ لدى البار. كنتُ مستغرقة في شرب الفودكا - كأسي السادسة؟ السابعة؟ لا أتذكَّر. لا يمكنه أن يرى وجهي حيث كنتُ واقفة، كنتُ أعي ذلك. توقَّفت الفرقة عن العزف - أحدهم قطعَ وترًا وكان يتم استبداله.

انحنى مائلًا على الميكروفون رافعًا أحد حاجبيه. رأيتُ ابتسامته الكسولة العذبة. حدَّق في الظلام، دون أن يرى شيئًا.

- «ماذا سنفعل الآن إذن؟ بما إنَّ 'دايف' يحتاج سنةً تقريبًا لكي يغيّر ذلك الوتر.» والتفت نحو رجلٍ متجهم الوجه والذي أشارَ نحوه إشارة بذيئة بإصبعه من غير أن يرفع عينيه عن جيتاره. فقال: «حسنًا إذن، إليكم شيء ما لكيلا تنقطع متعتكم، يا سيداتي!» وأولى ظهره لنا، وفكَّ حزامه، وأسقط سرواله الجينز، وأخذ يلوي نحونا مؤخرته شاحبة البياض.

ضحكَ بعضُ الناس في الجَمع، والبعض الآخر صاح بكلمات مسيئة. ردَّ المطرب على تلك الإساءات بإيماءة فاحشة. أدركتُ بوضوحٍ غير قبل للتفاوض أنَّ ذلك الرجل الموجود على خشبة المسرح أمامي كان، من غير أدنى شكٍ، تافهًا مغفلًا. بدأت الفرقة تعزف الأغنية التالية وأخذ الجميع يتواثبون في أماكنهم لأعلى وأسفل، وكنتُ أنا حينذاك لدى البار أطلب كأسًا مزدوجة.

فيما بعد. استفقتُ من جديد. أبقيتُ عينيَّ مغمضتين. انتابني الفضول نحو شيءٍ ما. تساءلتُ ماذا كانت *جدوى* وجودي؟ لم أقدّم شيئًا للعالَم، لا شيء بالمرة، ولم آخذ منه شيئًا كذلك. وعندما أتوقف عن الوجود فلن يترُك موتي أي فرقٍ ملموس على أي شخص.

عند رحيل أغلب الناس من العالَم يتركون أثرًا شخصيًا على حفنةٍ من الأشخاص على الأقل. أمَّا أنا، مع ذلك، فليس لدي أحد. لا أنير غرفةً عندما أدخلها، ولا يشتاق أحدٌ لرؤيتي أو لسَماع صوتي. لا أشعر بالرثاء لحالي، ولو بأهون درجة، فتلك ببساطة مجرد حقائق واقعة.

كنتُ أنتظر الموت طيلة حياتي. ولا أعني هنا أنني أتمنى ذلك بلهفة وهمَّة، بل فقط أنني لا أريد بشدة أن أعيش. وقد تبدَّل شيءٌ ما الآن، وفهمتُ أنني ليس عليَّ أن أنتظر الموت. لم أرغب في هذا. فتحت غطاء الزجاجة وتجرعتُ منها جرعةً عميقة.

آه، لكنَّ المصائبُ لا تأتي فُرادى، ألا يُقال ذلك؟ كان الجزء الأفضل مُدخَّرًا للنهاية، وقد حلَّ قرب ختام المشهد. كان تركيز رؤيتي مغبَّشًا قليلًا بسبب خشبة المسرح تلك - أو لعلَّها الفودكا - فلم أثق في عينيَّ، وأخذتُ أضيِّقهما بشدَّة وأجهدهما لأتأكَّد ممَّا ظننتُ أنني كنتُ أنظر إليه. دخان؛ رمادي، دخانٌ ضبابي قاتل، ينبعث من جانب خشبة المسرح وعلى طول الصدارة. أخذت القاعة تمتلئ به. سعلَ الرجل الجالس إلى جواري؛ لعلَّها استجابة نفسية من الجسد، بما أنَّ الثلج الجاف، ودخان المسرح لا يثيران مثل تلك الاستجابة اللاإرادية. شعرتُ بأن الدخان ينجرف من فوقي، ورأيتُ كيف كانت الأضواء وأشعة الليزر تقطعه وتخترقه. أغمضتُ عينيَّ. في تلك اللحظة، أُرْجعتُ إلى هناك، في المنزل، بالطابق العلوي. النيران. سمعتُ صرخات، لم أستطع أن أحدَّد إن كانت تلك صرخاتي أنا. تتوالى دقَّات الطبلة الكبيرة سريعةً مع دقات قلبي، وإيقاع الطبول الجانبية

الصغيرة ينزلق بعيدًا مثل نبضي. كانت الغرفة ممتلئة بالدخان، ولا أستطيع أن أرى شيئًا. الصرخات، صرخاتي وصرخاتي. الطبل الكبير، والطبول الصغيرة. انبثاق الأدرنالين، تسارع الإيقاع، الاختناق والغثيان قوي للغاية، أقوي من أن يحتمله جسدي الصغير، أو أي جسد صغير. الصراخ. شققتُ طريقًا للخارج، الخارج، شققتُ طريقي عبرَ كل عقبة، متعثرة ولاهثة، حتى صرت بالخارج، بالخارج في الليل حالك السواد. ظهري مستند إلى الجدار، انهرتُ جانبًا وانبطحتُ مُمَددةً على الأرض، الصراخ في أذنيَّ، وما زال جسدي يقرع ويدق. تقيأت. كنتُ حيةً لم أزل. كنتُ وحدي. ما مِن كائن حي في العالَم كله أشد وحدة مني، أو أشد فزعًا واضطرابًا.

استفقتُ مجددًا. لم أكن قد أسدلتُ الستائر وقد تسلل النور إلى الداخل، نور القمر. توحي العبارة بالرومانسية. أمسكَت إحدى يديَّ بالأخرى، في محاولة أن أتخيل كيف سيكون شعوري إذا ما أمسك شخصٌ آخر يدي. مرَّت بي أوقات حيث شعرتُ بأنني قد أموت من الوحدة. يقول الناس أحيانًا أنهم قد يموتون من المَلل، أنهم يموتون شوقًا لقدح من الشاي، ولكن بالنسبة لي، فإنَّ الموت من الوحدة ليس نوعًا من المُبالَغة اللفظية بالمرَّة. عندما كان ينتابني ذلك الشعور، كان رأسي يسقط على صدري وترتخي كتفاي للأسفل من فرط الألم، ألم بدني صِرف، شوقًا للتواصل مع أي إنسان - فأشعرُ بالفعل أنني قد أنطرحُ على الأرض وأُسلمُ الروح إن لم يضمني ويلمسني شخصٌ ما. ولا أقصد بذلك بوصفه حبيب - فباستثناء نوبة الجنون حديثة العهد هذه، فقد أقلعتُ منذ وقتٍ طويل عن أي أفكار من قبيل أنَّ شخصًا آخر قد يحبني ذلك النوع من الحب - بل بوصفه إنسان وحسب. تدليك فروة الرأس في صالون تصفيف الشَعر، وحقنة التطعيم ضد الإنفلونزا التي أخذتها العام الماضي - الوقت الوحيد الذي أشعرُ فيه بلمسة شخصٍ ما هو عندما أدفع له مقابل ذلك، وعندئذٍ تكون أيديهم على الدوام تقريبًا في قفازات مطاطية تستعمل مرة واحدة فقط. أنا أقرر حقائق ليس أكثر.

لا يحب الناس مثل تلك الحقائق، ولكن لا حيلة لي في ذلك. إذا ما سألكَ أحدهم كيف حالك، فما عليك إلَّا أن تقول **بخير**. ويجب ألَّا تقول مَثلًا أنكَ ظللت تبكي ليلة أمس حتَّى اختطفك النوم لأنكَ لم تتحدَّث إلى شخصٍ آخر ليومين على التوالي. ما تقوله هو أنك **بخير**.

عندما بدأتُ العمل لدى 'بوب' أوَّل الأمر، كانت هناك سيدة أكبر سنًا في المكتب، لم يتبقَ لها إلَّا عامان على التقاعد. كانت كثيرًا ما تتغيب عن العمل من أجل أن ترعى أختها، التي كانت مصابة بسرطان المهبل. لم تكن هذه الزميلة الأكبر سنًا تذكر السرطان على الإطلاق، لم تنطق الكلمة حتَّى، وكانت تشير إلى المرض فقط بأبعد التعبيرات الممكنة. أفهمُ أنَّ هذه الطريقة كانت تعتبر معتادةً تمامًا آنذاك، أمَّا في هذه الأيام، فإنَّ الوحدة هي السرطان الجديد - شيءٌ مُخجِل ومحرج، نزلَ على المرء بطريقةٍ غامضة. شيء مُفعَم بالمخاوف ولا شفاء منه، مُخيفٌ إلى حدَّ أنك لا تجرؤ على ذكره؛ ولا يريد الآخرون أن يسمعوا الكلمة تُلفَظ مسموعةً خشية أنهم قد يلتقطوا العدوى هُم أيضًا، أو كأنَّ هذا قد يُحرض القدر على أن يُنزل بهم رعبًا مماثلًا.

تحركَّت زحفًا على أطرافي الأربعة، تقدَّمتُ ببطءٍ وتثاقل مثل كلب هرم، وسحبتُ الستائر لأغلقها في وجه القمر. سقطتُ من جديد على الأغطية ومددتُ يدي بحثًا عن الزجاجة.

سمعتُ طرقًا شديدًا - طَرق طرق طرق - ورجل يصيحُ باسمي. كنتُ أحلم بمشهد مخزنٍ للرفات البشري، مشهد حافل بالنار والدم والعنف، وقد استغرقَ الأمر دهرًا للانتقال من زمن ذلك المشهد إلى الزمن الراهن، ولأدرك أن الطَرق كان يصدر من بابي الأمامي. جذبتُ الأغطية فوق رأسي لكنَّ الطرق لم يتوقَّف. أردتُه أن ينتهي باستماتة، وإذ نال مني اليأس لم أستطع أن أفكر في طريقة

أخرى لأن يحدث هذا إلا أن أجيبه. كانت ساقاي ترتجفان وكان عليَّ أن أستند في مشيتي إلى الجدار. وحين تلمَّسَت يدي الأقفال، نظرت للأسفل نحو قدميَّ - قطعة رخام بيضاء صغيرة. كَدمة كبيرة بنفسجية خضراء، انتشرَت وامتدَّت حتَّى بلغت أصابع القدم. فوجئتُ بهذا - فلم أكن أشعر بأي شيء، بأي ألم، ولا لديَّ أي ذكرى حول كيف أصبتُ بها. من الجائز للغاية أيضًا أن تكون مجرد رَسم بالألوان.

أفلحتُ أخيرًا في فَتح الباب، ولكنني لم أستطع أن أرفع رأسي، لم تكن لدى القوة لأن أنظر للأعلى. توقف الطرق على الأقل، كان ذلك هو هدفي الوحيد.

قال صوت رجل: «يسوع المسيح!»

فأجبتُ: «بل 'إليانور أوليفانت'».

(٢٧)

عندما استيقظتُ مجددًا، وجدتُني راقدةً على أريكتي. كان ملمس القماش تحت يديَّ خشنًا وغريبًا، وقد لزمتني بضع دقائق لأدركَ أنني كنتُ مُغطاة بمناشف وليس بطاطين. كنتُ أرقد ساكنةً، وأخذت أقدّر وضعي الراهن ببطء، كنتُ أشعر بالدفء. ثمَّة دَق متكرر في رأسي، وأحشائي تمزقها طعنات مؤلمة تنبض بانتظام، مثل الدم. فتحت فمي وسمعتُ صوت لحم باطن الفم واللثة وهما يتقشَّران مبتعديْن، مثل فصوص برتقالة تنفصل عن بعضها البعض. كنتُ أرتدي ثوب نومي الأصفر.

سمعتُ أصوت خضخضة ودقدقة، لكنها كانت خارجية غير تلك التي في جسدي، إلى أن أدركتُ في النهاية أنها صادرة عن مُجفف الغسيل. ببطءٍ فتحتُ إحدى عينيَّ - كانت مغلقة وكأنها ملتصقة بصمغ - ورأيتُ أنَّ غرفة المعيشة كما هي على حالها، نفس كيس المقعد الذي على شكل ضفدع يبادلني النظر. هل كنتُ حية؟ تمنيتُ ذلك، لا لشيء إلَّا لأنه إذا كان هذا هو المكان الذي سأذهب إليه في الحياة الأخرى، فسوف أقدَّم احتجاجًا رسميًا في الحال. إلى جانبي وعلى طاولة قصيرة أمام الأريكة كأس كبيرة من الفودكا. مددتُ يدي، وكانت ترتجف بشدة، واستطعتُ أن أرفع الكأس إلى فمي من غير أن أسكب الكثير منها. تجرعت نصفها تقريبًا قبل أن أدرك أنَّ السائل كان في الحقيقة ماءً. شعرتُ بالقرف وحاولت تقيؤه، شعرتُ به يبقبق ويضطرب في معدتي. هذه علامةٌ أخرى سيئة - شخصٌ ما أو شيءٌ ما استبدل الماء بالفودكا. ليس هذا هو نوعي المفضَّل من المعجزات.

عدتُ للرقاد من جديد، وسمعتُ أصواتًا أخرى، خَطو أقدام. كان شخصٌ ما يُدندن، رجلٌ ما. مَن ذلك الموجود في مطبخي؟ اندهشتُ مِن سهولة انتقال الصوت في شقتي. كنتُ دائمًا بمفردي هنا، ولم أعتَد سَماع شخصٍ آخر يتحرَّك في بيتي. تجرعت جرعةً أخرى من الماء فغصصتُ بها، وسرعان ما تحوَّلت الغُصَّة إلى نوبة سُعال وانتهت بمحاولة فاشلة للتقيؤ. بعد دقيقة أو اثنتين، طرقَ شخصٌ ما في تردُّد باب غرفة المعيشة، وبرز وجهٌ منه - وجهُ 'ريموند'.

أردتُ أن أموت - لكن هذه المرة، إضافةً إلى رغبتي في أن أموت حقًا، أردتُ أن أموت بالمعنى المجازي أيضًا. آه، مَهلًا الآن، قلتُ في نفسي، على سبيل التسلية تقريبًا؛ كَم مِن المرات على المرء أن يتمنى الموت باستماتة، وبمعانٍ عديدة، قبل أن يُسمَح له بذلك حقًا؟ رجاءً؟ ابتسم 'ريموند' لي ابتسامة يشوبها الأسى وتحدث بهدوء بالغ.

قال: «كيف حالكِ الآن، يا 'إليانور'؟»

سألتُه: «ماذا حدث؟ ما سبب وجودك في بيتي؟»

دخل الغرفة ووقفَ عند قدميَّ.

«لا تقلقي. ستكونين بخير.»

أغمضتُ عينيَّ، لم يكن في عبارتيه إجابة عن أسئلتي، ولم يكن أي منهما ما أردتُ أن أسمعه.

قال برقة: «هل أنت جوعانة؟» فكَّرت في هذا. كنتُ أشعر بأنَّ في أحشائي ما يسوء، بدرجة شديدة، ولعلَّ جانبًا من هذا يرجع إلى الجوع؟ لم أدرِ، فاكتفيتُ برفع منكبيَّ قليلًا. بدا مسرورًا.

قال: «سوف أُعد بعض الحِساء إذن». رقدتُ من جديد بعينين مغمضتين.

قلتُ: «ليس حساء العدس».

عاد بعد بضع دقائق وببطء، ببطء بالغ، اتخذتُ وضعَ الجلوس، وأبقيت نفسي مدثرةً بالمناشف. سخَّن بعض حساء الطماطم وصبّه في قدح خزفي، ووضعهُ على الطاولة أمامي.

قلتُ: «ملعقة؟»

لم يرد عليَّ، ولكنه اتجه نحو المطبخ ورجع بواحدة. أمسكتُها بيدي اليمنى التي كانت ترتجف بشدة، وحاولتُ أن أرتشف بعض الحساء. كنتُ أرتجف للغاية فسكبتُ بعض الحساء على المناشف - أدركتُ أنَّه لم تكن هناك طريقة أستطيع بها أن أنقل السائل من القدح إلى فمي.

قال برفق: «أجَل، حسبتُ أنه قد يكون الأفضل أن تحاولي شربه مباشرةً وحسب»، فأومأتُ له.

جلسَ على المقعد ذي الذراعين بينما أخذت أرتشف الحساء، ولم يتكلم أيٌ منا. وضعتُ القدح بعد أن انتهيت، وشعرتُ بالدفء يسري في داخلي، وبالسكَّر والملح في عروقي. كان صوت الساعة الموضوعة فوق المدفأة عاليًا بشكل غير عادي. أتيتُ على الماء الذي في الكأس، فنهضَ وذهب ليعيد ملئه من غير كلام.

«شكرًا لك»، قلتُ له بعد أن عادَ وناوله لي.

لم يقل شيئًا، نهض وغادر الغُرفة. توقَّف صوت مجفف الغسيل، وسمعتُ صوت بابه يُفتَح، والمزيد من الخطوات. عاد مرة أخرى، وسار نحوي وأمسك يدي.

قال: «هيَّا».

حاولت أن أقفَ من دون مساعدة ولكنني لم أستطع. ملتُ مستندةً عليه، ثم كان عليه أن يضع ذراعه حول خصري لمساعدتي على السير في الطُرقة. كان باب غرفة النوم مفتوحًا، وكان الفراش مُرتبًا ومزوّدًا بشراشف غُسلت وجففت لتوها. أجلسني، ثم رفع ساقيَّ وساعدني على أن أرقد تحت الأغطية. كانت رائحة الفراش منعشة - دافئة ونظيفة وحميمة كعُش عصفور صغير.

قال بنعومة: «ارتاحي الآن»، وأغلق الستائر وأضاء النور. نزلَ عليَّ النوم كضربة مطرقة.

لا بدَّ أنني قد نمتُ نصفَ يومٍ على الأقل. عندما استيقظت أخيرًا، مددتُ يدي نحو الكأس التي كانت موضوعة إلى جانب فراشي وشربتُ ماءً. كنتُ بحاجةٍ إلى ماءٍ في الداخل وفي الخارج أيضًا، وهكذا، اتخذتُ خطواتٍ متمهلة وحذرة، وسرتُ حتَّى الحمَّام ووقفتُ تحت الدُش. كانت رائحة الصابون كأنها حديقة. أزلتُ كل القذارة عني، كل البُقع الخارجية، وصرتُ متورّدة ونظيفة ودافئة. جففتُ نفسي برقة، بل بمنتهى الرقة، خشية أن يتمزَّق جلدي، ثم ارتديتُ ثيابًا نظيفة، أنعم وأنظف ثياب قد وضعتُها على جسدي طوال عمري.

كانت أرضية المطبخ تلمع، وقد أُزيل منها جميع الزجاجات، وكانت الأسطح ممسوحة جيدًا. على أحد المقاعد كومةٌ من الغسيل المطوي بعناية، وليس على المنضدة أي شيء سوى مزهرية خزفية، هي الوحيدة لديَّ، مُترعةً بزهور تيوليب صفراء. ورسالة صغيرة تستندُ على المزهرية.

يُوجد بعض الطعام في الثلَّاجة. حاولي أن تشربي ماء بقدر ما تستطيعين.

اتصلي بي عندما تستيقظين.

ري. X

كان قد كتب رقم هاتفه في آخر الورقة. جلستُ ورحتُ أرنو إلى الرقم، ثم إلى السطوع المُشرق للأزهار. لم يسبق أن اشترى لي أحدٌ زهورًا طوال عمري كله. أنا لا أميلُ كثيرًا للتيوليب، لكنه لم يكن يعلم بذلك. شرعتُ أبكي، بنشيجٍ ضخمٍ مرتعد، أعوي مثل حيوان. أحسستُ كأني لن أتوقف عن البكاء أبدًا، كأنني لن أستطيع التوقُّف. وبعد حين، استعدتُ هدوئي، لمجرد الإجهاد البدني ليس أكثر. أرحتُ جبيني على الطاولة.

أدركتُ أن حياتي كانت على المسار الخطأ. خطأ شديد، شديد. لم يكن يُفترض بي أن أعيش هكذا، ولا يُفترض بأي إنسان أن يعيش هكذا. المشكلة أنني لم أكن أعرف ببساطة كيف عساي أن أصلحها. كانت ماما مُخطئة، عرفتُ ذلك، ولكن ما من أحد آخر أوضحَ لي الطريقة الصحيحة لعيش الحياة، ورغم أنني بذلتُ أقصى جهدي على مر السنين، فإنني لم أعرف بكل بساطة كيف يمكنني أن أجعل الأمور أفضل. عجزتُ عن حل لُغز نفسي وحياتي.

أعددتُ بعض الشاي وسخَّنتُ الوجبة الجاهزة التي تركها 'ريموند' في الثلاجة. واكتشفت كم كنتُ جائعة للغاية حقًا. غسلتُ القدح والشوكة بعد ذلك، ووضعتهما إلى جانب بقية أدوات المائدة النظيفة الأخرى التي تركها في المصفاة. ذهبتُ إلى غرفة المعيشة والتقطتُ الهاتف. أجابني مع الجرس الثاني.

قال: «'إليانور' - شكرًا للرب». ثم توقف هنيهة. «كيف حالكِ؟»

قلت: «ألوه 'ريموند'.»

سألني مجددًا بنبرة متوترة: «كيف حالك؟»

فقلتُ: «أنا بخير، شكرًا لك». كنتُ أعرف أنَّ هذه هي الإجابة الصحيحة.

قال: «يا للسماء، يا 'إليانور'. بخير. بحق المسيح! سأكون عندكِ بعد ساعة، تمام؟»

فقلتُ بهدوء: «ولكن يا 'ريموند'، لا داعي لذلك حقًا. لقد تناولت بعض الطعام» - لم أكن أعرف كَم الساعة الآن، ولم أرغب في المجازفة بتخمين ما إذا كان موعد غداء أم عشاء - «وأخذتُ حمَّامًا، وسوف أقرأ قليلًا ثم أنام مبكرًا.»

فقال مجددًا، في تصميم: «سأكون عندك في خلال ساعة». وأغلق الهاتف.

عندما فتحتُ الباب، كان يحمل زجاجة شراب غازي 'إرن-برو' وكيسًا من أقراص الجيلي الصغيرة. ابتسمت.

قلت: «ادخُل.»

تساءلتُ تُرى كيف دخل الشقة من قبل، لم أكن أذكر بالمرة أنني فتحتُ الباب له. ما الذي قلتُ، وعلى أي حالٍ كنتُ؟ شعرتُ بأنَّ قلبي بدأ يخفق بشدة، قلقًا وتوترًا. هل سببتُه بكلامٍ لا يليق؟ هل كنت عاريةً؟ هل حدث شيئًا مُحرجًا بيننا؟ أحسستُ بشراب 'الإرن-برو' ينزلق من قبضة يدي ويسقط على الأرض ويتدحرج. التقطه، وأمسك مِرفقي بيده الأخرى وقادني نحو المطبخ. أجلسني إلى الطاولة وشغّل غلَّاية الماء. كان ينبغي عليَّ أن أشعر بالإساءة لأنَّه كان يستولي على مكان معيشتي، ولكن بدلًا من ذلك شعرتُ بارتياح، ارتياح غامر وكاسح لأنَّ شخصًا ما كان يتولى رعايتي.

جلسنا على جانبي الطاولة وكلٌ منا بين يديه قدح شاي، ولم نقل شيئًا لوهلة. ثم تحدَّث هو أولًا. قال: «ماذا حدث بحق الجحيم، يا 'إليانور'؟»

صُدمتُ حين سمعتُ رعشة تهدُّج في صوته، كما لو كانت ثمَّة دموع كامنة هنالك. اكتفيتُ برفع منكبيَّ. بدأ يبدو غاضبًا:

«'إليانور'، لقد تغيَّبتِ عن العمل ثلاثة أيام من غير أي إخطار، وقد كان 'بوب' قلقًا للغاية عليكِ، كلنا شعرنا بالقلق. حصلتُ على عنوانك منه، وأتيتُ هنا لأرى إن كنتِ بخير، فوجدتكِ ... وجدتكِ ...»

سألتُ: «... أتهيأ للانتحار؟»

مسح بيده على وجهه، ورأيتُ أنه كان على وشك البكاء:

«اسمعي، أعلم أنكِ حريصة للغاية على خصوصيتكِ، ولا بأس عندي في ذلك، لكننا صديقين، تعرفين هذا، صحيح؟ يمكنك أن تخبريني بما يسوؤك، لا تحبسي همومك بداخلك.»

سألتُه: «ولمَ لا؟ كيف عسى إخبارِكَ شخصًا ما بمدى سوء حالك أن يجعلك أفضل؟ ليس الأمر أن بوسعهم إصلاحها، أليس كذلك؟»

قال: «أغلب الظَن أنهم لا يستطيعون إصلاحها، يا 'إليانور'، كلَّا، لكنَّ مجرد التحدُّث يمكنه أن يكون مفيدًا. لدى الآخرين مشكلات أيضًا، تعرفين هذا. يفهمون معنى أن يكون المرء حزينًا. تنقسم المشكلة على اثنين وكل ذلك الـ ...»

قلتُ: «لا أظن أن هناك أي شخص في الوجود قد يفهم حقيقة أن أكون أنا، إنها الحقيقة فقط. لا أظن أن هناك أي شخص آخر قد عاش ما عشته وخاض مجموعة الظروف التي مررتُ بها. وتجاوزها ونجا بنفسه، بمعنى ما.» كان هذا توضيحًا مهمًّا.

فقال لي 'ريموند' وهو ينظر إليَّ: «جرّبيني»، ونظرتُ إليه. «حسنًا، فإن لم يكن أنا، فلتجربي شخصًا آخر، مُرشد نفسي، أو معالِج ...»

أطلقتُ ضحكةً صغيرة مكتومة - صوتًا سخيفًا تمامًا.

قلتُ: «مُرشد نفسي! (هيَّا بنا نجلس معًا ونتكلَّم عن مشاعرنا وبفِعل السِحر سيحسّن هذا كل شيء.) لا أظن ذلك، يا 'ريموند'.»

ابتسم. «وكيف تعرفين إن لم تجربي؟ لا شيء يدعو للخجل، كما تعلمين، لا خجل بالمرة في كون المرء ... مُكتئبًا، أو لديه مرض عقلي أو أيًا كان اسمه...» كدتُ أختنق بشربة الشاي.

هززتُ رأسي: «مرض عقلي؟ عمَّ *تتحدَّث*، يا 'ريموند'؟»

رفع كلتا يديه بحركة استرضائية:

«اسمعيني، أنا لستُ طبيبًا. لكن فقط ... حسنًا ... لا أعتقد أن شخصًا يصيب نفسه بتسمم كحولي بينما يخطط للانتحار يكون في حالة طيبة، تفهمينني؟»

كان هذا تلخيصًا سخيفًا لحالتي لدرجة أنني أوشكتُ أن أضحك. لم يكن 'ريموند' عادةً يميل للمبالغات، ولكنه هذه المرة أفرطَ في المُبالغة للغاية، ولا يمكنني أن أعتبر ما قاله وصفًا دقيقًا وواقعيًا لما جرى تلك الليلة.

«'ريموند'، إنني ببساطة تناولت فودكا أكثر ممَّا يجب بعد أمسية صعبة ومشحونة، هذا كل ما هنالك. لا يمكن اعتبار هذا عَرَضًا لأي *مرض*.»

قال: «أين كنتِ في تلك الليلة؟ وما الذي حدث آنذاك؟»

رفعتُ منكبيَّ باستهانة. قلتُ: «ذهبتُ إلى حفلة غنائية، ولم تكن جيدة جدًا.»

لم يتحدَّث أيٌ منا لفترة.

ثم قال في النهاية: «'إليانور'، هذا أمرٌ خطير. إن لم أكن قد أتيتُ إليكِ عندما فعلت، لكنتِ الآن في عِداد الموتى، إمَّا بفعل الشراب أو مختنقة بالقيء. هذا إن لم تتناولي جرعة زائدة من الأقراص أو أيًا ما يكون.»

ملتُ برأسي جانبًا وتأمَّلتُ في كلامه.

قلتُ: «لا بأس إذن، أعترفُ بأنني كنت أشعر ببؤسٍ شديد. ولكن ألا يشعر جميع الناس بالحزن بين الحين والآخر؟»

فقال بهدوء: «بلى، يشعرون بالحزن طبعًا، يا 'إليانور'، ولكن حين يشعر الناس بالحزن فإنهم قد يبكون قليلًا، ربما يأكلون بوظة أكثر من اللازم، أو يبقون في الفراش معظم النهار. ما *لا يفعلوه*

هو أن يفكروا في شرب سائل تنظيف، أو قطع شراييهم بسكين المطبخ.»
رغمًا عني وجدتُ نفسي أرتجف إزاء فكرة ذلك النصل الحاد مثل أسنان القِرش. رفعتُ منكبيَّ في تقبُّل وإذعان.
قلتُ: «أنت على حق، يا 'ريموند'. لا أستطيع إنكار وجاهة قولك.»
مدَّ يديه ووضعهما على أعلى ذراعيَّ، واعتصرهما برفق. كان قويًا.
«هل ستفكرين في الذهاب إلى الطبيب، على الأقل؟ ليس في هذا أي ضرر، صحيح؟»
أومأتُ. مرة أخرى، كان لكلامه منطق وجيه، ولا أستطيع معارضته.
قال: «هل يُوجد أي شخص تريدين مني أن أتصل به من أجلك؟ صديق، أو أحد الأقارب؟ ماذا عن أمكِ؟ ألن ترغبَ أن تعرف أنكِ مررت بكل هذا؟» توقف عن الحديث لأنني أخذتُ أضحك.
قلتُ وأنا أهز رأسي: «ليس أمي، فسوف يسرها أن تعرف هذا للغاية.»
بدا 'ريموند' مفزوعًا.
قال والصدمة بادية عليه: «مَا هذا، يا 'إليانور'؟ شيء رهيب ما تقولينه هذا، لا تُوجد أي أم قد يسرها أن تعرف أن ابنتها كانت تعاني.»
رفعتُ منكبي بلا اكتراث، وأبقيتُ عينيَّ مثبتتين على الأرض، وقلت: «لكنكَ لم تقابل أمي.»

(٢٨)

كانت الأيام القليلة التالية صعبة بدرجةٍ ما. ففي أكثر من مرة، أتى 'ريموند' من غير اتصال أو إخطار سابق، بأسبابٍ مُلفقَّة كأن يحضر لي بعض الأطعمة أو يبلغني رسائل من 'بوب'. لكن الحقيقة أنه كان يأتي ليتأكَّد من أنني لم أُقدم على الانتحار. إن كان عليَّ أن أؤلّف عبارة في لغز كلمات متقاطعة مقتضب لأصف بها سلوك 'ريموند'، فستكون *«عَكس شيء غامض يستعصي على التفسير»*. لا يمكنني إلَّا أن أتمنى للرجل أن يمتنع عن المقامرة بكل شيء طيلة الوقت ولكن أن يلعب في أوقاتٍ متباعدة للغاية، إذ كنتُ أخشى أنه سوف ينهض من المائدة وهو مُفلس تمامًا.

كان مِن المُفاجئ أنَّ عليه أن يحمّل نفسه همّي، لا سيما مع الوضع في الاعتبار الحالة غير السارة التي وجدني فيها بعد الحفل الغنائي. قبل ذلك وكلَّما كنتُ أشعر بالحُزن أو الضِيق، كان الأشخاص المعنيّون في حياتي بكل بساطة يتصلون بموظف الخدمة الاجتماعية. وهكذا كان يتم نقلي إلى مكانٍ آخر. لكنَّ 'ريموند' لم يتصل بأي شخص أو يطلب تَدخُّل موظف عام. لقد اختارَ أن يرعاني بنفسه. لقد كنتُ أتأمَّل هذا الأمر، واستنتجتُ أنَّه لا بدَّ مِن وجود بعض الأشخاص ممن لا يكون سلوكك الصعب سببًا لإنهاء علاقتهم بك بالمرة. إذا كانوا يميلون إليك - أنا و'ريموند'، كما تذكرت، قد اتفقنا على أننا صرنا الآن صديقين - فإنهم عندئذٍ، على ما بدا، يكونون مستعدين للبقاء على اتصال بك، حتَّى إذا كنتَ في أحلك الظروف، أو صار سلوكك صعبًا للغاية. كان هذا نوعًا من الاكتشاف بالنسبة لي.

تساءلتُ إن كان هذا هو معنى أن يعيش المرء بين أفراد أسرته - أن يحظى بوالدين، أو بأختٍ مثلًا، وأن يكون هذا الشخص بجانبه مَهما حدث. ليس معنى هذا أن يتعامل المرء مع وجودهم في حياته كأنه حق مُكتسب وشيء عادي لا يستحق الشُكر، شأنهم شأن - لا أدري، فلا يجب النظر لأي شيء في هذه الحياة هذه النظرة - بل الأمر ببساطة أنه يشعر عندئذٍ بالثقة التامة، من غير تفكير تقريبًا، في أنه سيجدهم إلى جانبه إذا ما احتاج إليهم، مهما اشتدَّ حاله سُوءًا. لا أميل بطبيعتي للحَسد، في معظم الوقت، لكن عليَّ أن أعترف أنني شعرتُ بوخزةٍ منه عندما فكرت بهذا الأمر. ومع ذلك، فقد كان الحسد عاطفة ثانوية مقارنةً بالأسف والأسى الذي شعرتُ بهما لكوني لم أحظَ قط بفرصة أن أعيش هذا الـ ... ماذا أسميه؟ الحب بلا شرط ولا قيد، على ما أظن.

غير أنَّه لا جدوى من البكاء على اللبن المسكوب. لقد أراني 'ريموند' قليلًا ممَّا يجب أن يكون عليه العَيش، وأعتبر أنني محظوظةً لأنَّ هذه الفرصة قد سنحت لي. اليوم، أتى ومعه عُلبة شوكولاتة بالنعناع من ماركة 'آفتر إيت'، ومعه أيضًا، كأبعد ما يكون عن الاحتمال، بالون هيليوم.

قال مبتسمًا: «أعرف أنه شيء أبله، ولكنني كنتُ مارًا بالسوق الذي في الميدان، ورأيتُ بائع البالونات عندما كنتُ أنتظر وصول حافلتي، وحسبتُ أنه قد يفرحكِ.»

رأيتُ ما كان يمسكه وضحكت، في دَفقة شعورٍ مُبَاغت، وغير مألوف. مدَّ لي يده بالشريط المعقود، وارتفعَ البالون مُحلّقًا نحو سقف شقتي، ثمَّ أخذ يرتطم به كما لو كان يحاول الفرار.

سألتُه: «ماذا يُفتَرض أن يكون شكل هذا البالون؟ أهو ... أهو قِطعة جُبن؟» لم أتلقَ بالون هيليوم مِن قبل ذلك قَط، وبالتأكيد ليس بهذا الشكل الغريب.

فقال: «إنه 'سبونج بوب'، يا 'إليانور'»، متحدثًا ببطء ووضوح كما لو كنتُ غبيةً من نوعٍ ما:

«سبونج بوب سكوير بانتس[56]!»

قِطعة إسفنج للاستحمام مصوَّرة على شكل شِبه بشري ذي سِنتين أماميتين ناتئتين! وتُبَاع كما لو أنها شيء عادي تمامًا! طوال حياتي، ظلَّ الناس يقولون أنني إنسانة غريبة، ولكن في حقيقة الأمر، عندما أرى أشياء من هذا القبيل، أدركُ أنني حقًا طبيعية مقارنةً بالآخرين.

أعددتُ لكلينا بعض الشاي. مدَّد 'ريموند' قدميه فوق الطاولة القصيرة. خطرَ لي أن أطلب منه أن ينزلهما، ولكن عندئذٍ قلتُ لنفسي لا شكَّ في أنه أصبح يشعر في منزلي وكأنه في بيته، مستريحًا بما يكفي لأن يسترخي هَاهُنا ويستخدم الأثاث كما يحلو له. كانت هذه الفكرة سارةً حقًا. ارتشف شايه بصوتٍ مسموع - وهو انتهاكٌ آخر أقل مدعاةً للسرور - وسألني عن الطبيبة. ففي وقتٍ سابق هذا الأسبوع، وبعد أن قدَّم لي 'ريموند' حُجة مُقنعة بشأن أهمية الحصول على وجهة نظر موضوعية من الخبراء حول حالتي العاطفية، وحول قُدرة طُرق العلاج الحديثة في تشخيص أي مشكلات صحية عقلية، وافقتُ على أن أحدد لي موعدًا في إحدى العيادات.

قلتُ: «سأذهب غدًا، في الحادية عشرة والنصف.»

أومأ وقال: «ذلك شيءٌ جيّد، يا 'إليانور'. والآن، عِديني بأنكِ ستكونين صريحةً تمامًا مع الطبيبة، وأن تحكي لها بالضبط كل ما كنتِ تشعرين به بالضبط وكل ما مررتِ به.»

فكرتُ بشأن هذا. سوف أخبرها بكل شيء تقريبًا، هكذا قررت، غير أنني لن آتي على ذكر الكومة الصغير المدخَّرة من الأقراص (والتي لم يعد لها وجود على كل حال - لأنَّ 'ريموند'، ومن غير اعتبارٍ للمسائل البيئية، تخلَّص منها في المرحاض. تظاهرتُ بالغضب ولكن في قرارة نفسي كنتُ سعيدةً لتخلصي منها)، ولقد قررتُ أيضًا ألَّا أقول شيئًا حول محادثاتي الهاتفية مع أمي، أو حول مشروعنا السخيف العقيم. لَطَالما كانت ماما تقول إنَّه لا يجب إفشاء أي معلومات للفضوليين بحجة مِهنهم إلَّا في حدود ما ينبغي أن يعرفوه فحسب، وهذه الموضوعات ليست وثيقة الصلة بالأمر. فكل ما تحتاج الطبيبة أن تفهمه أنني كنتُ في غاية التعاسة، بحيث يمكن لها أن تنصحني بأفضل السبل لتغيير ذلك. ليس علينا أن نبدأ في النبش في أمور الماضي، والتحدث حول أمور من المستحيل تبديلها.

قلتُ له: «أعدكَ»، لكنني قاطعتُ إصبعي[57] خِلسة.

(٢٩)

عندما أعطتني الطبيبة الممارسِة إجازة مِن العِمل، تساءلتُ إن كنت سأقدر على التعايش مع حياة البطالة. لقد كنتُ طوال الوقت أعمل في وظيفة بدوام كامل، وقد بدأت العمل مع 'بوب' بعد أسبوع واحد من تسلُّمي شهادة التخرُّج، وطوال كل تلك السنوات منذ ذلك الحين لم أتصل بالعمل ولو مرة واحدة لأطلب إجازة مَرَضية. لحُسن الحظ، فلقد وُهبتُ بنية جسدية متينة لأقصى حد.

نمتُ كثيرًا في ذلك الأسبوع الأوَّل، الأسبوع الذي تلا حادثة الفودكا وزيارة 'ريموند'. لا بدَّ أنني أديت مهامًا أخرى، مهامًا عادية كذلك، مثل الخروج لشراء الحليب أو الاستحمام، لكنني لم أعد أتذكرها الآن.

استطاعَت الطبيبة بطريقةٍ ما أن تستنتج أنني كنتُ أعاني من الاكتئاب، حتَّى مع عدم إلمامها بشيء عدا حفنة تفاصيل هزيلة. استطعتُ أن أحتفظ لنفسي بجميع الأسرار الأكثر أهمية. وكان اقتراحها أنَّ تناول بعض الدواء إلى جانب الخضوع لعلاج بالتحدث إلى إخصائي سوف يشكلَّان معًا الصيغة الأنجع للعلاج، ولكنني أصررتُ على أنني لا أود أن أتناول أي أقراص علاجية، على الأقل مبدئيًا. كنت أخشى من أنني قد أبدأ في الاعتماد عليها بنفس الطريقة التي كنتُ أعتمدُ بها على الفودكا. ومع ذلك، فقد وافقت بتردد على أن أرى استشارية أمراض نفسية كخطوة أولى، وتم تحديد موعد الجلسة الافتتاحية اليوم. تم تحويلي إلى استشارية تسمَّى 'ماريا تمبل' - هكذا بلا ألقاب أو حروف مختصرة تنم عن تعليمها. لم أكن أكترث بالمرة بحالتها الاجتماعية، لكن سيكون مفيدًا لو علمت مسبقًا ما إذا كانت تملك أي مؤهلات طبية رسمية أم لا.

كان مكتبها يقع في الطابق الثالث مِن مجمَّع مبانٍ مرتفع في وسط المدينة. أخذني مصعد البناية في رحلة زمنية للوراء حتَّى البيل إيبوكيه[58] - في ثمانينيات القرن العشرين. رمادي رمادي رمادي، وألوان باستيل شاحبة وغليظة كالوَحل، وبلاستيك قذر، وسجاجيد بشعة، كما أنَّ المكان كان يفوح برائحة غير طيبة وكأنَّه لم يتم تنظيفه منذ الثمانينيات كذلك. أنا من الأساس كنتُ مترددة في الذهاب إلى جلسة الاستشارة هذه، وقد جعلَ هذا المكان الأمر أقل جاذبية، إنَّ كان يمكن أن يكون جذَّابًا بأي درجة. الشيء المُحزن أنَّ تلك البيئة المحيطة كانت مألوفةً جدًا بالنسبة لي، وكان في هذا الأمر شيءٌ من الراحة، على طريقته الخاصة. كانت رُدهات المؤسسات الرسمية ذات الأفاريز النباتية والأسقف المنقوشة نقشًا بارزًا والتي سرت بينها وتحتها طوال حياتي تشكّل موكبًا طويلًا كأنها جيش جرَّار.

طرقتُ الباب - كان بابًا من خشب الأبلكاش مكتنزًا ورماديًا وبلا لافتة صغيرة بالاسم - وبسرعة بالغة فتحته 'ماريا تمبل' ودعتني للدخول، كما لو أنها كانت تقف وراء الباب تمامًا. كانت الغرفة صغيرة للغاية، فيها مقعد مستقيم الظهر ومقعدان عميقان بأذرعٍ مريحة من تلك التي تتوافر في المؤسسات العامة (النوع غير المريح ذو الجلد الناعم الذي يسهلُ تنظيفه) مرصوصة قبالة منضدة صغيرة منخفضة، وُضعَت عليها عُلبة مناديل ورقية بلا ماركة مميزة و»بحجم رجالي». للحظة ارتبكت، لأنَّ أنوف الرجال، باستثناءاتٍ قليلة، بنفس حجم أنوفنا تقريبًا، أليس كذلك؟ فلماذا يحتاجون حقًا قطعة منديل ذات سطح أكبر، لمجرد أنهم كانوا يملكون كروموسوم XY؟ لماذا؟ أحسستُ أنّني لا أرغب فعليًا في معرفة جواب ذلك السؤال.

لم يكن هناك أي نوافذ، على الجدار لوحة مطبوعة (مزهرية ذات ورود، مصنوعة بجهاز كمبيوتر على يد شخص بلا أي مشاعر) كانت مُضرة للعين أكثر ممَّا لو ظلَّ الجدار عاريًا.

قالت مبتسمة: «لا بدَّ أنكِ 'إليانور'؟»

فقلت: «بل آنسة 'أوليفانت'، في الحقيقة»، وأنا أخلع سترتي وأتساءل ماذا عساي أن أفعل بها، فأشارت إلى صف علَّاقات على ظَهر الباب، حيث وضعتُها على أبعد علَّاقة ممكنة عن المعطف المطري العملي للغاية الذي كان مُعلَّقًا هناك. جلستُ قُبالتها - أطلق المقعد نفحةً واهية من هواءٍ فاسد من وسادته القذرة. ابتسمت لي. يا لأسنانها! آه، يا آنسة 'تمبل'. كانت قد بذلت أقصى جهد ممكن، ولكن ما من شيء كان بوسعه تغيير حجم أسنانها، على ما أظن. كانت أسنان تنتمي إلى فمٍ آخر أشد ضخامة بكثير، ربما ليس فمًا بشريًا بالمرة. ذكَّرني مرآها بصورة فوتوغرافية ظهرت في صحيفة 'التيليجراف' منذ بعض الوقت، صورة قرد أمسك بكاميرا والتقط لنفسه صورة (سِيلفي) وهو يبتسم ابتسامة واسعة. يا للمرأة المسكينة؛ إنَّ الصفة الوحيدة التي لا يتمنى المرء أن توصف بها أسنانه هي **قِرَدية**.

قالت: «أنا 'ماريا تمبل'، يا 'إليانور' - ممم، أقصد آنسة 'أوليفانت'، يسعدني أن ألتقي بكِ.» نظرت نحوي باهتمامٍ بالغ، ما جعلني أتقدَّم للأمام في جلستي على المقعد، لكيلا يظهر إلى أي مدى لم أكن أشعر بالارتياح.

قالت: «هل سبقَ لكِ أن تقدمت لاستشارة نفسية، يا آنسة 'أوليفانت'؟» بينما تتناول دفتر ملاحظات من حقيبة يدها، وقد لاحظتُ وإكسسوارات عديدة معلَّقة بالحقيبة، ميداليات مفاتيح، وما شابه - قرد صغير من الوبر الأزغب ولونه وردي، وحرف M معدني ضخم، لكنَّ الأشد بشاعة بين هذا كله، كان فردة حذاء صغيرة حمراء لامعة بكعب رفيع مدبب. لقد سبق أن مررتُ بهذا النمط من الأشخاص، كانت آنسة 'تمبل' شخصية «مَرحة».

قلتُ: «نَعم ولا». رفعَت حاجبًا متسائلًا، لكنني امتنعتُ عن تقديم أي شيءٍ أكثر تفصيلًا. ساد صمت، سمعت خلاله المصعد يصدر أزيزه مرة أخرى، رغم أنني لم أسمع أي صوت ينم عن أنَّ هناك إنسان يستقله. أحسستُ كأنني تُركتُ وحدي في مكانٍ مهجور.

«حسنًا إذن»، هكذا قالت، بانشراح، بل بانشراح بالِغ. «أعتقد أننا قد بدأنا. الآن، وقبل أي شيءٍ آخر، أريد أن أؤكِّد لكِ أنَّ كل شيء سوف نناقشه معًا هنا سيبقى سِرًا مؤتمنًا تمامًا. إنني عضوة في جميع الهيئات المهنية المَعنية، ونحن ملتزمون بميثاق أخلاقي صارم للغاية. لا بدَّ أن تشعري دائمًا بالارتياح والأمان في هذه المساحة، وأرجوكِ، اطرحي عليَّ أسئلتكِ حول أي شيء، وفي أي وقت، وخصوصًا إن لم تكن لديكِ صورة واضحة عمَّا نفعله هُنا، أو عن سببه.» بدت كأنها تنتظر مني استجابةً مِن نوعٍ ما، لكنني لم أنبس ببنت شفة، فقط رفعتُ منكبيَّ.

استقرت في مقعدها وشرعت تقرأ من دفتر ملاحظاتها. قالت: «قامَت طبيبتك الممارِسة بتحويلك إلى هنا، كما أرى، وأنتِ تعانين من مشكلة اكتئاب.»

أومأت.

قالت: «أيمكنكِ أن تخبريني قليلًا عمَّا كنتِ تشعرين به؟» اتخذَت ابتسامتها طابعًا ثابتًا لا يتبدَّل.

قلتُ: «أظن أنني كنتُ أشعرُ بشيءٍ من الحُزن». ونظرتُ نحو حذائها، كان يشبه أحذية الجولف، لكن من غير تلك السنون المدببة في النعل، وكان لون حذائها ذهبيًا. شيءٌ لا يُصدقه عقل.

«كَم مرَّ عليكِ من الوقت وأنتِ تشعرين بالحزن، يا إل... آه، آنسة أوليفانت؟» طرقَت بقلمها على أسنانها هائلة الحجم. «في الحقيقة، أتسمحين لي إن ناديتكِ باسم 'إليانور'؟ فإنَّ هذا، تعرفين،

سوف يساعد على تدفق الحوار بمزيد من الحرية إذا استخدم كلانا الاسم الأوَّل من غير ألقاب، على ما أظن. هل سيكون هذا ملائمًا؟» وابتسمَت.

فقلتُ مُبدية الكَرم: «إنني أُفضّل آنسة 'أوليفانت'، ولكن لا بأس، على ما أظن.» كان استخدام الألقاب هو الأفضل، رغم ذلك. فَعَلى كل حال، لستُ أعرفها منذ قرون، ولم تكن صديقتي، بل شخصٌ ما يتلقى راتبه لكي يتعامل معي. فمِن اللياقة لدرجة كبيرة الحفاظ على مسافة احترافية بيننا، كما أشعر، مثلًا، عندما يقوم غريب بفحص مؤخرة مقلة العين بحثًا عن أي ورم، أو عندما يجوس آخر بين الأسنان بأداة معدنية معقوفة. أو، في حقيقة الأمر، عندما ينبش في عقلك، مجرجرًا للخارج مشاعرك ويدعوها للجلوس في هذه الغرفة، مشاعركَ بكل فظاعتها المُشينة.

«عظيم»، قالت بانشراح، وكنت واثقة من أنها قد أدركت أنني **لستُ** «مَرحة» عن عَمد وقصد. أنا وهي لن نقفز بالحبال المطَّاطية من مرتفعات، ولن نرتدي فساتين جميلة ونذهب للحفلات معًا أبدًا. ماذا هناك غير ذلك يُعتَبر مَرحًا؟ الإنشاد الجماعي. الركض لصالح قضايا إنسانية. مشاهدة السَحَرة. شخصيًا، ليس لدي أدنى فكرة، فأنا أحب الحيوانات والكلمات المتقاطعة و(حتَّى وقت قريب) الفودكا. ما الذي يمكن أن يكون أشد مَرحًا من ذلك؟ ليس دروس الرقص الشرقي في المركز الاجتماعي. وليس ممارسة حل ألغاز الجرائم في لقاءات نهاية الأسبوع. حفلات الفتيات الجماعية. كلَّا.

قالت: «هل كان هناك شيءٌ ما على وجه الخصوص دفعكِ لالتماس العَون لدى طبيبتك الممارِسة؟ حادثة ما، أو تعاملٌ شخصي مع أحدهم؟ يمكن لإخبار شخصٍ ما بحقيقة شعورنا أن يكون صعبًا للغاية، ولكنه شيء رائع أنكِ اتخذتِ تلك الخطوة المهمة.»

قلتُ: «اقترحَ عليَّ صديق أن أذهب لزيارة طبيبتي»، وشعرتُ برجفة صغيرة للغاية من اللذة في استخدام كلمة «صديق». أوضحتُ: «ريموند». وراق لي نطقي باسمه، وارتجاف حرف الراء في مستهله. كان اسمًا لطيفًا، اسمًا جيدًا، وقد بدا هذا على الأقل مُنصفًا له. فقد استحقَّ شيئًا مِن الحظ الطيب - على كل حال، بعد ذلك القدر الضئيل من المزايا البدنية فإنَّ لديه بالفعل ما فيه الكفاية ممَّا يجب عليه أن يكافح معه، ولا ينقصه أن يضاف لذلك عبء اسمٍ أوَّل عجيب، من قبيل 'يوستاس' أو 'تايسون'.

قالت: «هل تودين أن تخبريني عن الأحداث التي أدَّت لأن تتخذي قرارًا بزيارتك للطبيبة؟ وما الذي دفعَ صديقكِ ليقترح هذا؟ وبماذا كنتِ تشعرين آنذاك؟»

- «كنتُ أشعر بأنني حزينة قليلًا وبأنَّ الهموم تكاثرت عليَّ، ذلك كل ما في الأمر. وهكذا اقترح صديقي أن عليَّ أن أرى طبيبتي الخاصة، وهي قالت لي أن آتي إلى هُنا، إن لم أكن أرغب في تناول عقاقير.»

نظرَت إليَّ باهتمام شديد. قالت: «أيمكنكِ أن تخبريني عن سبب شعورك بالحزن؟»

أطلقتُ تنهيدة كانت أطول ممَّا كنتُ أتوقَّع وأشد تَكلفًا وأداءً مسرحيًا دون أن أقصد ذلك. شعرتُ بحلقي يتقلَّص في نهاية النَفَس، ويختنق بالدموع. لا تبكي، يا 'إليانور'. **إياكِ والبكاء أمامَ الغرباء**.

قلتُ لها، وأنا أبذل أقصى جهدي لأبدو غير مُبالية بشيء: «إنها حكاية مُملة جدًا، كانت فقط ... نوعًا من علاقة غرامية لم تمضِ على ما يُرام. ذلك كل ما في الأمر. حالة قياسية للغاية.» ساد صمتٌ مُطوَّل. وفي النهاية، وفقط بدافع أن أحاول إنهاء هذه النقطة بأسرع ما يمكنني، تحدثت من جديد: «كان هناك سوء تفاهم. اعتقدتُ أنَّ ... أو أخطأتُ في تفسير بعض الإشارات. واتضح أنني أخذتُ انطباعًا خاطئًا للغاية عن الشخص المَعني.»

سألتني بسرعة: «هل هذا حدث لكِ مِن قبل؟»
قلتُ: «كلَّا.»
وسادَ صمتٌ مُطوَّل آخر.
- «مَن كان هذا الشخص، يا 'إليانور'؟ أيمكنكِ أن تحدثينني عنه قليلًا وعمَّا حدث بحيث أنكِ ... كيف عبَّرت عن ذلك ... أخطأتِ في تفسير الإشارات؟ وماذا كانت الإشارات؟»
- «لا بأس، كان هناك رجل شعرتُ بشيءٍ من الميل نحوه، قليل من الافتتان به، كما قد يقال، وانجرفتُ مستسلمة لهذا الشعور، ومِن ثمَّ أدركتُ أنني، في واقع الأمر، كنتُ حمقاء قليلًا. ما كان لنا أن نرتبط أبدًا. وهو أيضًا - أقصد، اتَّضح أنه ليس الشخص المناسب حتَّى لي على كل حال. لم يكن هو الرجل الذي ظننته في خاطري. فشعرتُ بالحزن لذلك، وشعرتُ بأنني في منتهى الغباء لأنني أسأت تقدير الأمر كله. هذا كل ما هنالك ...» سمعتُ صوتي يخفت تدريجيًا.
- «حسنًا إذن ... هناك بضعة أمور أود أن أستوضحها في كل ذلك. كيف التقيتِ هذا الرجل؟ ماذا كانت طبيعة علاقتكِ به؟»
قلتُ: «آه، لم أقابله فعليًا قَط.»
توقَّفَت عن الكتابة في دفتر ملاحظاتها، وتلا ذلك وقفة صمت حَرجة. أعتقد أنها تسمَّى بلغة عالَم المَسرح نقطة تحوُّل صغيرة.
قالت: «جيد ... ولكن كيف لَكما... كيف إذن .... تقاطعت بكما الطرق؟»
- «إنه فنان. رأيتُ عرضًا له - وفي الواقع، يمكن أن تقولي أنني وقعت في حبه.»
تحدثت 'ماريا تمبل' بحَذرٍ بالغ: «هل هو ... أحد المشَاهير؟»
هززتُ رأسي نافية لذلك: «إنه محلي مغمور. يعيش هنا في المدينة. قريبًا مني، في الحقيقة. هو ليس مشهورًا، ليس بهذا المَعنى. حتَّى الآن.»
لم تقل 'ماريا تمبل' شيئًا وانتظرت مني أن أواصِل. لم ترفع حتَّى أحد حاجبيها. لا شيء على الإطلاق. أدركتُ أنني ربما قد أعطيتها انطباعًا مضلِّلًا قليلًا حول حقيقة سلوكي.
قلتُ: «حتَّى تتضح الصورة، أنا لست نوعًا مِن المُلاحِقين ... لستُ مُهووسةً بأحد المشاهير وأطارده أينما ذهب. كل ما فعلتُ ببساطة أنني عرفت أين يعيش، ونسختُ قصيدة صغيرة من أجله، والتي لم أرسلها له حتَّى. وأرسلتُ له تغريدة على تويتر ذات مرَّة، وذلك كل ما هناك. تلك ليست جريمة. جميع المعلومات التي احتجتها لم تكن تخضع لقوانين ملكية فكرية كما لم تكن سرية بالمرة. لم أنتهك أي قانون أو أي شيء شبيه بهذا.»
- «وأنتِ لم تجدي نفسكِ في هذا النوع من المواقف من قبل، يا 'إليانور'، مع أي شخصٍ آخر؟» إذن، فهي تظن أنني قد أكون شخصية وسواسية، تركّز أفكارها ومشاعرها على سلسلةٍ مُتعاقبة من الأشخاص الغرباء. يا له من أمر خلَّاب. «لا، أبدًا»، هكذا أجبتُها بحزم وصدق: «كان هو مجرد ... أن لفت نظري، أثارَ اهتمامي، ذلك الأمر كله. لقد كان، تعلمين هذا، وسيمًا ...»
مرَّت وقفة صمت أخرى طويلة.
وأخيرًا، أراحت 'ماريا تمبل' ظهرها على مقعدها، وشرعت تتحدث، الأمر الذي أراحني أنا شخصيًا. فقد شعرتُ بأنني منهكة بعد الإجابة عن كل تلك الأسئلة، والتحدث عن نفسي والقلق يساروني حول ما إذا كنت أبدو بالفعل كما أشعر غبية وساذجة بدرجة مُحرجة.
- «إليكِ تصورٌ مُحتَمل، سأعرضه عليكِ ويمكنكِ أن تفكّري ما رأيكِ فيه. فلنقل يا 'إليانور'، على سبيل الافتراض الجَدلي، أنكِ قد فُتنتِ بهذا الرجل. غالبًا ما يكون هذا النوع من المشاعر شكلًا مِن

«محاولة تجريبية» عاطفية تمهيدًا لعلاقة حقيقية فيما بعد. تلك المشاعر تكون مكثفة ومحتدمة للغاية. أيبدو لكِ ذلك معقولًا، ومنطقيًا حتَّى الآن؟» حدَّقتُ فيها.

واصلَت تقول: «وهكذا، ها أنتِ ذا، تستمتعين تمامًا بافتتانكِ به، *تشعرين بتلك المشاعر*. أخبريني ماذا حدث لينتهي هذا كله فجأة؟ ما الذي أبطلَ السحر، إن جازَ التعبير؟»

تراجعتُ للوراء من جديد في مقعدي. لقد أخذَتني على حين غفلة بتلخيصها الدقيق لدرجةٍ مُجفلة لما جرى، ومن ثمَّ طرحها لسؤالٍ وثيق الصلة بالأمر وجدير للغاية بالاهتمام. رغم الحذاء الذهبي وميداليات المفاتيح والتعاليق العجيبة، كان بوسعي أن أرى بالفعل أنَّ 'ماريا تمبل' لم تكن بلهاء. سوف يلزمني بعض الوقت لكي أستوعب كل هذا، ولكن في أثناء ذلك، حاولتُ أن أستجمعَ أفكاري لأقدِّم لها إجابة متماسكة من نوعٍ ما.

- «أفترضُ أنني، على مستوىً ما، شعرتُ حقًا بأنَّ الأمر بكامله *كان* حقيقيًا، وبأننا، عندما نلتقي أخيرًا، سوف يقع كلٌ منا في حب الآخر ونتزوج وما إلى ذلك. شعرتُ أنني، لا أدري، أنني مستعدةٌ على نحوٍ ما لعلاقة مثل تلك. الناس - الرجال - على شاكلته لا يمرون بطريقي في كل يوم. بدا أنه من الصحيح إذن ألَّا أدع الفرصة تفوتني. وأحسستُ بيقينٍ من أنَّ ... أشخاصًا محددين ... سوف يسرهم أنني قد عثرتُ عليه. ومع ذلك، فعندما أصبحتُ أنا وهو معًا في نفس القاعة أخيرًا، وهو أمر كان عليَّ أن أجتهد بشدة لكي يحدث، فجأة أخذ الأمر كله ببساطة ... يتفكك. هل يبدو أنَّ لهذا أي معنى؟»

أومأت لي في تشجيع.

- «أفترضُ أنني أدركت، هنالك تمامًا في تلك الغرفة، أنني كنتُ غبية، أتصرَّف كأنني فتاة مراهقة وليس كامرأة في الواحدة والثلاثين من عمرها. كَما أنه لم يكن مميزًا على أي نحو، لقد كنتُ في حالة تركيز عليه هو، ولكن في حقيقة الأمر كان يمكن له أي يكون أي شخص آخر. كنتُ أسعى لإسعاد أُ...»

عندئذٍ قاطعتني، وهي تومئ، وشكرًا للرب أنها فَعلت لكي تحول بيني وبين أن أمضي لأبعد مِمَّا يجب.

قالت: «في الحقيقة هناك عدد لا بأس به من المسائل التي أود أن أقترح استعراضها خلال الجلسات القليلة التالية، لقد تطرَّقنا إلى أمورٍ حديثة العهد اليومَ، ولكن عند نقطة ما سوف أود أن أسمع شيئًا عن طفولتكِ - »

«كلَّا، إطلاقًا»، هكذا قلتُ وأنا أعقد ذراعيَّ وأنظر نحو السجادة. *لا يجب أن تعرف السيدة أي شيء ممَّا يجري في هذا المنزل*.

قالت: «أتفهَّم أنَّه قد يكون صعبًا للغاية التحدث عن طفولتكِ.»

«لا أريد أن أتحدث عن أيٍ مِن ذلك، يا 'ماريا'. أرجوكِ، **لا** تطلبي مني أن أتحدَّث عن ماما.»

اللعنة، اللعنة، اللعنة، تشبثَّت بذلك، بكل تأكيد. دائمًا تحظى ماما بدور البطولة، بؤرة الاهتمام.

«ما نوع العلاقة التي تجمعكِ بأمك، يا 'إليانور'؟ هل أنتما مقرَّبتان؟»

قلتُ: «تتصل أمي بي بوتيرة منتظمة جدًا. منتظمة أكثر ممَّا يجب.» ها هو السر انكشف وخرجت القطة من الجِراب.

قالت: «ألا تتفقان، إذن؟»

- «الأمر ... مُعقَّد.» لاحظتُ أنني كنتُ أتلوى في مقعدي حرفيًا ومجازيًا كذلك.

- «أيمكنكِ أن تخبريني عن سبب ذلك؟» هكذا سألت 'ماريا'، في جرأة تكاد تبلغ الوقاحة،

وبتطفّل واقتحام للخصوصية وبلا إحساس بالخجل.
قلتُ: «كلَّا.»
مرَّت لحظات صمت طويلة للغاية.
- «أعلمُ أنه من الصعب، من الصعب حقًا، التحدث عن أمور مؤلمة، ولكن، كما قلتُ لكِ، هذا هو أفضل مسار يمكنه أن يساعدنا على المضي قدمًا. فلنبدأ ببطء بالِغ. أيمكنكِ أن تخبرينني لماذا لا تشعرين بارتياح عند التحدث عن والدتك؟»
فقلتُ: «لأنني ... لأنها لا تريدني أن أفعل.» وكان ذلك صحيحًا. تذكَّرت المرة الأخيرة - والوحيدة - التي فعلتُ فيها ذلك، مع معلّمة. لم يكن خطأ يمكن ارتكابه مرتين.
أخذَت ساقي اليُسرى ترتعش؛ رعدة صغيرة فقط، ولكنها ما إن تبدأ فلا يمكنني أن أوقفها. ألقيتُ رأسي للوراء وأصدرتُ صوتًا، نوعًا من تنهيدة ممتزجة بسعلة، في محاولة لأن أشتت نظرها بعيدًا عن رعشة ساقي.
قالت في صبر: «لا بأس، إن كان لا بأس عندك، لكي ننهي هذه الجلسة، أود أن أقترح أن نجرب شيئًا مختلفًا قليلًا. فلنسمِه تمرين المقعد الشاغر.» عقدتُ ذراعيَّ وحدّقتُ فيها.
«بشكل أساسي، أريد منكِ أن تتخيَّلي أنَّ هذا المقعد هنا» - وأشارت إلى مقعد الطاولة المنفرد مستقيم الظهر - «هو والدتكِ.»
استبقت إجابتي.
- «انتظري، أعلمُ أنَّ هذا قد يبدو سخيفًا، أو محرجًا، ولكن أرجوكِ، جربي أن تجاريني فحسب. لا يوجد أحد هنا قد يحكم عليك أو يدينك. هذه مساحة آمنة.» أخذتُ أفركُ يديَّ معًا في حِجري بتوتر، وكانا انعكاسًا لما أشعر به في معدتي.
«هل أنتِ مستعدة لأن تحاولي وتجربي؟»
نظرتُ نحو الباب، متمنية أن أجد نفسي خارجه، ومتمنية أن تُسرع عقارب الساعة لتعلن انقضاء الساعة.
قالت في رقة: «'إليانور'، إنني هنا لمساعدتكِ، وأنتِ هنا لمساعدة نفسك، أليس كذلك؟ أعتقد أنك تريدين أن تكوني سعيدة. بل، في الحقيقة، أعلم أنك تريدين ذلك. ومِن لا يريد السعادة؟ يمكننا أن نعمل معًا في هذه الغرفة على مساعدتك في تحقيق ذلك. لن تكون مهمة سهلة، أو سريعة، ولكنني أعتقد حقًا أنها تستحق المحاولة. ماذا ستخسرين، على كل حال؟ فسوف تقضين مدة ساعة هنا على كل الأحوال. فلمَ لا تجربي هذا؟»
افترضتُ أنَّها كانت ذات منطق وجيه. تطلَّعت للأعلى وفردتُ ذراعيَّ ببطء.
قالت: «عظيم! شكرًا لكِ، يا 'إليانور'. إذن ... فلنتخيل أنَّ هذا المقعد هنا هو والدتكِ. ماذا تريدين أن تقولي لها، الآن تمامًا؟ إن كان بوسعكِ أن تقولي أي شيء، هنا تمامًا، من غير أن يُقاطعكِ أي شيء أو شخص؟ ومن غير خوف من أحكام الآخرين عليكِ؟ هيَّا، لا تقلقي. أي شيء يروق لكِ...»
استدرتُ لمواجهة المقعد الشاغر. كانت ساقي لا تزال ترتعش. تنحنحتُ. كنتُ آمنة، فلم تكن أمي موجودة هنا حقًا، لم تكن تسمعني حقًا. رجعتُ بأفكاري إلى ذلك المنزل، البرودة، رائحة الرطوبة، وورق الحائط بصورة الزهور الزرقاء عليه، والسجَّاد بني اللون. سمعتُ أصوات السيارات تمرق في خارج المنزل، كلها ذاهبة إلى أماكن لطيفة، إلى أماكن آمنة، بينما كنا نحن هنا، متروكتين وحدنا تمامًا - أو ما هو أسوأ من ذلك - متروكتين برفقتها.

قلتُ: «ماما ... أرجوكِ». كان بوسعي أن أسمع صوتي خارجَ رأسي، منفصلًا عن جسدي وطافيًا بحرية في الغرفة. كان مرتفعًا، وفي منتهى الخفوت والهدوء. أخذتُ شهيقًا.
«أرجوكِ ... لا تؤذينا.»

(٣٠)

لا ألجأ عادةً إلى استعمال اللغة غير اللائقة، لكن تلك الجلسة الأولى مع الاستشارية النفسية يوم أمس كانت سخيفة سخافة ملعونة. شرعتُ أبكي أمام د. 'تمبل' في نهاية تمرينها الغبي ذلك؛ تمرين المقعد الشاغر، ثمَّ من بعد ذلك قالت فعليًا، برقةٍ مُصطنعة، أنَّ جلستنا انتهت الآن وأنها سوف تراني الأسبوع المقبل في نفس الموعد. عَمليًا قادتني في عَجلة لأخرج إلى الشارع، ووجدتُ نفسي أقفُ على الرصيف، والمتسوقون يعبرون بي بهِمةٍ وسرعة، بينما تسيل على وجهي دموعٌ غزيرة. كيف يمكنها أن تفعل هذا؟ كيف يمكن لأي إنسان أن يرى إنسانًا آخر يتألَّم بكل وضوح - وقد كنتُ أتألَّم بسبب ما استدعته هي بنفسها وأثارته في نفسي - ومِن ثمَّ تدفعني نحو الخارج في الشارع وتتركني أتعامل مع ألمي بمفردي؟

كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا. لم يكن يُفتَرض بي أن أشرب، لكنني مسحتُ دموعي، واتجهت نحو أقرب حانة وطلبت كأس فودكا كبيرة. وفي صمت رفعتُ نخبًا لتحية أصدقاء غير موجودين وشربته بسرعة. وخرجت من المكان قبل أن يشرع شاربو الخمر نهارًا في التواصل معي. ثم ذهبتُ إلى البيت واستلقيتُ على الفراش.

استمرَّ لقاؤنا، أنا و'ريموند'، على الغداء في مقهانا المعتاد في الفترة التي تغيَّبتُ خلالها عن العمل. كان يرسل لي رسالة ليقترح موعدًا ويومًا (الرسائل الوحيدة التي تلقيتُها على هاتفي الجوَّال الجديد حتَّى الآن). واتضح لي أنَّ رؤية نفس الشخص، بوتيرة منتظمةٍ ولو بدرجةٍ ما، تجعلُ الحديث إليه ممتعًا ومُريحًا - إذ يمكنكَ أن تلتقط الخيط من حيث تركته آخر مرة، إن صحَّ القول، بدلًا مِن أن تضطرَّ لأن تبدأ من جديد في كل مرة.

على مدار تلك الأحاديث بيننا، سألني 'ريموند' مرة أخرى عن أمي - لماذا لم أخبرها بأنني لم أكن بخير مؤخَّرًا، ولماذا لم تزرني قَط، أو لم أزرها قط، حتَّى استسلمتُ في نهاية الأمر وقدَّمت له نبذة مقتضبة للغاية عن سيرتنا الذاتية. كان يعلم مِن قبل بشأن الحريق، بالتأكيد، وأنني بعد ذلك تربيت في كنف دُور الرعاية. وذلك، كما أخبرتُه، كان بسبب أنه من المستحيل لي أن أعيش مع أمي بعد ما حدث، ليس في المكان الذي تُوجَد فيه. وتمنيتُ أن يكون في هذا الكفاية لإسكاته، لكن لا جدوى.

خمَّن قائلًا: «وأين هي، إذن؟ مستشفى، دار رعاية؟». هززتُ رأسي نفيًا.

وقلتُ: «بل في مكانٍ سيئ، مُعَد للأشخاص السيئين.» تفكَّر لوهلة. «ليس في السجن؟» وبدت عليه أمارات الصدمة. بادلته نظرته المحدقة بمثلها ولكنني لم أقل شيئًا. بعد وهلة صمت أخرى قصيرة، طرح السؤال المتوقَّع والمنطقي، أي جريمة قد ارتكَبتْها.

فقلت: «لا أستطيع أن أتذكَّر.»

حدَّق فيَّ، وأصدر صوتًا مكتومًا غير مُصدّق.

قال: «هراء، قولي الحق، يا 'إليانور'. يمكنكِ أن تخبريني بذلك. لن يغير هذا أي شيء بيننا، أعدكِ. فليس الأمر أنكِ *أنتِ* مَن ارتكب هذا الجُرم أيًا كان.»

شعرتُ بشريطٍ ملتهب ومندفع يتلوّى على جذعي من الأمام ثم ينزل على ظهري، إحساس لا يُمكن لي إلَّا أن أشبهه بتلقي حقنة مهدئة قبل التخدير الكامل. كان نبضي يخفق بشدة.

قلتُ: «بل هذه هِي الحقيقة، فأنا لا أدري بكل صدق. أظن أنهم لا بدَّ قد أخبروني حينذاك، لكنني

لا أستطيع أن أتذكّر. لقد كنتُ في العاشرة من عمري فقط. وقد كان الجميع حريصين للغاية على عَدم ذِكر الأمر إطلاقًا وأنا بالقرب منهم...»

قال: «آاه، ولكن كيف؟ لا بدَّ أنها قد اقترفت شيئًا فظيعًا بالفعل لِـ ... أقصد، ماذا عن المدرسة؟ يمكن للتلاميذ الصغار أن يتصرفوا بفظاعة في أمور من هذا القبيل. وماذا عن الناس حينما كانوا يسمعون اسمكِ؟ ومع ذلك، إذ خطرَ ببالي، فأنا لا أتذكَّر أنني قرأتُ أي شيء عن جريمة تخص أسرة لقبها 'أوليفانت'...؟»

قلتُ: «نعم، لو حدث لكنتَ تذكَّرت أن هناك *أوليفانت في الغرفة*[59].»

لم يضحك. وأحسستُ بأثرٍ رجعي أنها لم تكن مزحة ظريفة للغاية. تنحنحت.

قلتُ: «'أوليفانت' ليس اسمي الحقيقي.» لقد كنت أحب هذا الاسم، لَطَالما راقني، وكنتُ أشعر بامتنانٍ بالِغ للشخص الذي اختاره لي أيًا مَن كان، فالمرء لا يلتقي أشخاصًا كثيرين بهذا الاسم، كان ذلك أمرًا لا شك فيه. كان اسمًا مميزًا.

حملقَ فيَّ 'ريموند'، كَما لو كان يشاهدُ فيلمًا.

«لقد أعطوني هويةً جديدة بعد ما حدث، وانتقلتُ إلى هُنا ... كان المقصود بهذا أن يتوقَّف الناس عن تمييز شخصيتي، وحمايتي. وهو ما كان تناقُضًا مضحكًا.»

سألَ: «لماذا؟» فتنهدت.

«لأنَّ تولي الدولة رعاية المرء ليس بالشيء الممتع للغاية. أقصد، كان الأمر لا بأس به تمامًا، فقد كان لديَّ كل ما احتجتُ إليه، ولكن لم تكن حياتي نزهة شيقة حافلة بالمَرح.»

رفعَ حاجبيه وأومأ لي. قلَّبتُ قهوتي.

قلتُ: «لقد تغيَّر المصطلح الآن، على ما أعتقد. يسمون الصغار في رعاية الدولة 'المُعتَنى بهم'. ولكن ألا ينبغي (الاعتناء) *بكل طفل* في كل مكان ... لا بدَّ حقًا أن يكون هذا هو المعتاد والطبيعي.»

سمعتُ نفسي أتحدث بنبرة غاضبة وحزينة. لا أحد يروق له أن يسمع نفسه يتحدث بهذه النبرة. إن قال شخصٌ ما، مِن فضلك، أيمكنك أن تصفي لي نفسك في كلمتين، فتقولين أنتِ عندئذٍ: «إمممم، دعني أرى ... أنا غاضبة وحزينة»، فلن يكون ذلك أمرًا طيبًا.

مدَّ 'ريموند' يده نحوي عندئذٍ، وفي رقة شديدة، اعتصر كتفي. كانت حركة لا طائل منها في الظاهر، غير أنها في حقيقة الأمر نقلت لي سرورًا بشكلٍ غير متوقَّع.

قال: «هل تريدينني أن أكتشف لك ما فعلَت؟ أنا واثق أنني أستطيعُ ذلك بمنتهى السهولة، بسِحر الإنترنت، صحيح؟»

فقلت باقتضاب وجفاء: «كلَّا، شكرًا لك، أنا قادرة تمامًا على اكتشاف الأمر بنفسي، هذا إن شئت ذلك. فلستَ الشخص الوحيد الذي يعرف كيف يستخدم جهاز كمبيوتر، كما تعلم.» احمَّر وجهه للغاية. واصلتُ قائلة: «وعلى أي حال، كما أشرتَ لذلك في حكمة، فلا بدَّ أنها اقترفَت شيئًا فظيعًا للغاية. لا تنس أيضًا أنَّه لا يزال عليَّ أن أتحدَّث إليها مرة كل أسبوع - وهذا أمرٌ عسير في حد ذاته. فما بالك إذا عرفتُ ما ارتكبت هي ... أيًا كان ما فعلَتْه.»

أومأ 'ريموند'. ومِن طيبته، بدا خجِلًا قليلًا، ومحبطًا بدرجةٍ طفيفة للغاية فقط.

لم يكن يحركه الفضول، على عكس أغلب الأشخاص الآخرين. بعد هذه الثرثرة، ظل يطرح أسئلة، لكنَّ تلك كانت أسئلة عادية يمكن لأي شخص أن يطرحها عن والدة صديقه (صديق! لديَّ صديق!) مثل: كيف حالها؟ وهل تحدثنا معًا مؤخرًا؟ كما أنني طرحتُ عليه نفس الأسئلة حول أمه.

كان الأمر طبيعيًا. لم أخبره بأغلب ما قالته أمي خلال أحاديثنا، بطبيعة الحال - فقد كان شيئًا مؤلمًا لدرجة لا تطاق أن أكرر ما قالته، مؤلمًا ومحرجًا ومهينًا. كان من المؤكد أن 'ريموند' على وعي تام بالفعل بنقائصي وعيوبي من ناحية الشكل أو الشخصية، وهكذا لم تكن هناك حاجة ملحة لتذكيره بها بتكرار إشارات أمي لها، إشاراتها *اللمّاحة* الجارحة.

أحيانًا كان يجعلني أتوقَّف وأفكّر. كنا نتحدث عن العطلات، وكيف كان يخطط للسفر للخارج عندما يتقاعد، بحيث يكون لديه ما يكفي من المال لكي يفعل ذلك برخاءٍ وَذَوق رفيع.

قلتُ: «لقد شاهَدَت أمي كثيرًا مِن بلاد العالَم، وعاشت في أماكن مختلفة كثيرة جدًا.» سردتُ لها بعضًا مِن تلك الأماكن. ولكن ما أدهشني أنَّ 'ريموند' لم يبد منبهرًا بأقل قدر.

قال: «كَم عُمر أمك؟» فوجئتُ بسؤاله. كَم *كان* عمرها؟ بدأتُ أحسب السنوات:

«بما إنني ... في الثلاثين من عمري، وأظن أنها لا بدَّ أنجبتني عندما كانت شابة للغاية - في التاسعة عشرة، أو العشرين؟ إذن فإن عمرها ... أخمن أنها في مطلع الخمسينات حاليًا، أو شيء قريب من هذا؟»

أومأ 'ريموند'.

قال: «حسنًا، إذن ... إني أتساءل ... أقصد، ليس لديَّ أطفال، لذا فلا أعلم الكثير - ولكنني أتخيل أنَّه لن يكون من اليسير على امرأة أن تقيمَ لفترة في وَكر لتعاطي الأفيون في مدينة طنجة وهي أم لطفلة بالكاد بدأت تسير وحدها؟ أو أن ..ماذا كان ذلك المكان الآخر؟ آه، أن تعمل موزعة أوراق على مائدة بلاك جاك في كازينو للقمار بمدينة ماكو؟» كان يتحدَّث برقةٍ بالغة، كما لو كان يخشى أن يضايقني.

- «أقصد، إذا أنتِ استجمعت كل ما قالت أنها قد فعلته، ألن يقتضي فترة أطول من ثلاثين سنة؟ إلَّا إذا كانت قد فعلت هذا كله قبل أن تولدي أنتِ وهي لا تزال صبية مراهِقة. وإذا كان هذا هو ما حدث ... إذن، فإني أتساءل ... من أين كان لها المال لتسافر كل هذه الرحلات، ثم ألم تكن أصغر قليلًا من أن تذهب إلى مثل تلك الأماكن بمفردها تمامًا في تلك السن الصغيرة؟ وماذا عن أبيكِ؟ أين التقت به؟»

أشَحتُ بعينيَّ بعيدًا. كانت تلك أسئلة مهمة لا أستطع الإجابة عنها، أسئلة لم أكن متأكدة من أنني أريدُ جوابًا عنها. ولكن لماذا حقًا لم يسبق لي أن فكرت فيها قبل ذلك؟

تذكَّرتُ حواري هذا مع 'ريموند' عندما تَحدَّثتُ إلى أمي في المرة التالية مباشرة.

قالت: «ألوه، حبيبتي». ظننتُ أنني سمعتُ فحيح دائرة كهربائية، أو لعلَّه الأزيز المزعج لمصابيح النيون وضجة أخرى، شيء بدا قليلًا وكأنه قرقعة مزلاج معدني يتم سَحبه.

همستُ: «ألوه، ماما»، سمعتها تلوكُ شيئًا.

قلتُ: «هل تأكلين؟» أطلقت زفيرًا، ثم أصدرت صوت نفيرٍ رهيب، كأنها قطة تحاول أن تسعل لتُخرج كرة فرو ابتلعتها، متبوعًا بصوت انسلاخ سائل رطب.

قالت بنبرة مَن يريدُ إنهاء هذه المسألة: «إنها علكة تبغ، شيءٌ فظيع - لا أنصحكِ بها أبدًا - يا حبيبتي.»

- «ماما، من المُستَبعد للغاية أن أجرب عَلكة التبغ، أليس كذلك؟»

فقالت: «أحسبُ أنَّ ذلك صحيح، فأنتِ لم تكوني أبدًا مغامِرة. ومع ذلك، لا يمكنكِ أن تنتقدي شيئًا من غير أن تجربيه ولو مرَّة. لقد استمتعتُ بتدخين التنباك بين الحين والآخر، في ذلك الوقت عندما عشتُ في لاهور لفترة.»

كما أخبرتُ 'ريموند'، كانت ماما قد عاشت لفترات في كلٍ من مومباي، وطشقند، وساو باولو، وتايبيه عاصمة تايوان. وقد ارتحلت عبر أدغال سرواق في ماليزيا وتسلَّقَت جبل طوبقال في المغرب. كانت من بين جمهور المستمعين إلى حديث 'الدالاي لاما' في كاتماندو وتناولت شاي الأصيل مع مَهرَاجا في جايبور. وذلك كله غيضٌ مِن فيض.

تلا هذا المزيدُ من تسليك الحلق - كان من الواضح أن علكة التبغ قد تركت أثرها السيئ. انتهزتُ الفرصة لأبدأ الحديث.

«ماما، أردتُ أن أسألك عن شيءٍ ما. كَم ... كَم كان عمرك عندما أنجبتِني؟»

ضحكت ضحكةً تخلو من التسلّي أو المتعة.

«كان عمري ثلاثة عشر ... كلَّا، مهلًا ... بل كنت في التاسعة والأربعين. فليكن ما يكون، لماذا تكترثين؟ ما شأنكِ في هذا، أيتها الفتاة؟»

قلتُ: «كنتُ فقط أتساءل إن ...»

تنهدَت ثم قالت بسرعة وهِمّة: «لقد أخبرتُكِ بالفعل ذلك كله مِن قبل، يا 'إليانور'، لَكَم أتمنى بالفعل أن تنصتي إليَّ.» توقفَت بُرهة.

قالت في هدوء: «كنتُ في العشرين، وحسب نظرية النشوء والتطوَّر، فإنَّ تلك السِن فعليًا هي أفضل وقت ممكن أن تلدَ فيه أي امرأة، إن كنتِ تعلمين هذا. كل شيء يتوثَّب راجعًا لمكانه السابق. ومع ذلك، حتى الآن، لم أزل مُفعمة بالحيوية والجَمال، ولي نهدان صَلبان كأنهما لفتاة موديل شابة ...»

قلتُ: «ماما، أرجوكِ!» فأخذت تقهقه.

«ماذا هناك، يا 'إليانور'؟ هل تخجلين من كلامي؟ ما أغربكِ مِن طفلة! وكنتِ هكذا على الدوام. فتاة صعب أن تُحب، ذلك ما أنت عليه. فتاة يصعب للغاية أن تُحب.»

خفتت ضحكتها تدريجيًا واستحالت نوبة سُعال طويلة، تبدو مؤلمة.

قالت: «يا للمسيح، لقد بدأتُ في الانهيار.»

للمرَّة الأولى بقدر ما أستطيع أن أتذكَّر، أسمع نغمةَ حُزنٍ في صوتها.

سألتُ: «ألستِ بخير، يا ماما؟»

تنهدَت.

قالت: «آاااه، أنا بخير، يا 'إليانور'. إن التحدث إليكِ ينعش قواي على الدوام.»

تطلَّعتُ نحو الجدار، بانتظار انقضاضها من جديد، كنتُ تقريبًا أستطيع أن أشعر بها تستجمع نفسها استعدادًا لتوجيه ضربتها.

- «وحيدة تمامًا، ألستِ كذلك؟ لا أحد معكِ لتتحدثي إليه، لا أحد معكِ لتلعبي معه. والذنب كله ذنبك أنتِ. 'إليانور' الصغيرة الحزينة، 'إليانور' الغريبة. أذكى ممَّا يجب بحيث ينقلب ذكاؤكِ ضدكِ، صحيح؟ هكذا كنتِ على الدوام. ورغم ذلك ... فمن نواحٍ عديدة للغاية، أنت غبية، غبية غباء لا يصدق وليس له مثيل. لا تستطيعين أن تريْ الشيء الماثل تحت أنفكِ تمامًا. أم ينبغي عليَّ أن أقول *الشخص* الماثل ...»

سَعَلَت مجددًا. لم أكن أتجرأ على التنفس، بانتظار ما سيأتي لاحقًا.

- «آه، إنني، إنني متعبة، أشد تَعبًا مِن أن أتحدَّث. إنه دوركِ إذن، يا 'إليانور'. إن كان لديك ولو أقل القليل مِن savoir-faire [الحِنكة] الاجتماعية لعرفتِ أنَّ الحوار طريق ذو اتجاهين، أو مباراة تنس لفظية. أتذكرين عندما كنتُ أعلمكِ ذلك؟ هيَّا إذن، أخبريني - ماذا كنتِ تفعلين هذا الأسبوع؟»

لم أقل شيئًا. لم أكن واثقة من أنني سأكون قادرة على الحديث.
واصلت تقول: «لا بدَّ لي أن أقول أنني فوجئتُ عندما قلتِ لي إنهم قد منحوك ترقية في العمل. فقد كانت طبيعتكِ الشخصية على الدوام أقرب إلى التابع وليس القائد، أليس كذلك، يا حبيبتي؟»
هل ينبغي عليَّ أن أخبرها بأنهم أعطوني إجازة من العمل؟ لقد نجحتُ في تجنب أي حديث عن العمل معها في الفترة الأخيرة، ولكنها قد طرحت الموضوع الآن. فهل كانت تعرف بالفعل بأمر غيابي، وكان هذا بالتالي مجرد فخ؟ حاولتُ أن أفكر مسبقًا في خطوتي القادمة ولكنَّ هذا شيء لم أكن بارعة فيه قَط. بطيئة، بطيئة أكثر ممَّا يجب يا 'إليانور'، متأخرة أكثر ممَّا يجب ...
«ماما، أنا .. أنا لم أكن بخير حال. إنني في إجازة من العمل في الوقت الراهن. إجازة مَرضية لفترة من الوقت.» سمعتُ صوتَ نَفَسٍ عميق. هل صُدمَت؟ هل ساورها القلق؟ وسرعان ما اندفع هذا النَفَس خارج صدرها من جديد، وعبرَ الهاتف حتَّى بلغ أذني، ثقيلًا وسريعًا.
قالت: «ذلك أفضل»، وهي تتنهَّد في سعادة. «ما الذي يجبرنا على مضغ عَلكة التبغ إن كان بوسعنا أن ندخن سيجارة 'سوبراني' لذيذة وممتعة؟»
سحَبت نَفسًا عميقًا آخر من سيجارتها وتحدثت من جديد، بنبرة تكاد تكون أشد ضجرًا مِن ذي قبل.
قالت: «اسمعي، ليس لدي وقت طويل، لذا فلنكن مختَصرين. ما هذا التَعب الشديد للغاية الذي أصابكِ حَّتى يجعلك تتهرَّبين من الذهاب للعمل؟ أهو خطير؟ أهو مرضٌ يهدد الحياة؟ أهو مرضٌ قاتل؟»
قلتُ باندفاع وعجلة: «لديَّ اكتئاب حاد، يا ماما».
أصدرت نخرة ازدراء.
قالت: «كل هذا كلام فارغ! أصلًا لا يوجد شيءٌ مثل هذا.»
استعدتُ مِن جديد ما قاله لي كلٌ من طبيبتي و'ريموند'، وكيف كان 'بوب' لطيفًا معي ومتفهمًا لحالتي، وكيف أخبرني أنَّ أخته ظلَّت مريضة بالاكتئاب لسنوات. لم أكن أعرف ذلك بالمرة.
«ماما»، قلتُ، بأقصى ما جرؤتُ عليه مِن تَحدٍ، «إنَّ لديَّ اكتئاب حاد. وأزورُ استشارية نفسية حاليًا تستكشف ما حدث أثناء طفولتي، وأيضًا - »
«**كلَّا!**» صاحت بصوتٍ مرتفع ومباغت للغاية لدرجة أنني رجعتُ خطوة للوراء. عندما عادت للحديث من جديد، كانت هادئة - ذلك الهدوء المنذر بالخطر.
«الآن، أنصتي إليَّ جيدًا، يا 'إليانور'. إياكِ، إياكِ أن تناقشي طفولتكِ مع أي إنسان، تحت أي ظروف، وخصوصًا مع تلك التي تسمينها «استشارية». هل تسمعينني؟ لا تفكّري حتَّى في ذلك. إنني أحذرك، يا 'إليانور'. إذا بدأتِ السَير على ذلك الطريق، أتعلمين ماذا سيحدث؟ أتعلمين ماذا سأفعل؟ سوف أ -»
انقطعَ الاتصال.
كَمَا هو الحال دائمًا، كانت ماما مخيفة. ولكن الجديد أنَّها هذه المرة كانت - ولأوَّل مرة على الإطلاق - بدت أيضًا خائفة، حقًا خائفة.

(٣١)

مرَّت بضعة أسابيع، وصارت الجلسات مع 'ماريا تمبل' جزءًا طبيعيًا من روتين حياتي. كان شيئًا لطيفًا أن أخرج من المنزل، برغم الرياح، وقد قررتُ أن أسير بدلًا من ركوب الحافلة، وأن أستمتع بما تبقى من الشمس لهذا الفصل. وقد كان هناك عدد كبير من الأشخاص الآخرين الذين خطرت لهم الفكرة ذاتها. كان شعورًا طيّبًا أن أكون جزءًا من جَمْع كبير، وقد أحسستُ بمتعة رقيقة في الاندماج به. أسقطتُ عملة بقيمة عشرين بنسًا في كوب ورقي لرجل جالسٍ على الرصيف ومع كلب في غاية الجاذبية. اشتريتُ كعكة فوج دونَت من مخبوزات 'جريج' الشهيرة وأكلتها بينما أسير. ابتسمتُ لطفلٍ قبيح بدرجة غير معقولة، كان يلوّح لي من مجلسه في عربة الأطفال المبهرجة. الانتباه إلى التفاصيل، كان هذا أمرًا طيبًا. إنها شظايا الحياة وتفاصيلها الصغيرة للغاية - تتراكم جميعها بعضها إلى بعض، وتساعد المرء على أن يشعر بأنه، هو أيضًا، يمكن له أن يكون شَذرةً، أو كِسْرة من الإنسانية بمجملها، مهما بلغَ من الضآلة فإنَّه يشغل حيزًا من الفراغ على نحو فعَّالٍ ومُجدٍ. كنتُ أتأمَّلُ هذا بينما انتظرتُ تغيُّر لونَ إشارة المرور، عندما نقرَ أحدهم بخفة على ذراعي فوثبتُ مبتعدة.

«'إليانور'؟» كانت 'لورا'، وهي تبدو كالمعتاد متألقة الحُسن والأناقة بدرجة مبالَغ فيها. لم أكن قد رأيتها منذ عزاء 'سامي'.

قلتُ: «أوه، مرحبًا، كيف حالكِ؟ أنا آسفة لأنني لم أتمكن من التحدث إليكِ في جِنازة أبيكِ.»

ضحكَت، وقالت: «لا تشغلي بالكِ بهذا، يا 'إليانور' - لقد أوضحَ 'ريموند' أنكِ كنت ثَملة قليلًا للغاية في ذلك اليوم.»

شعرتُ بوجهي يتضرَّج خجلًا ونظرتُ نحو الرصيف. أحسبُ أنني شربتُ كثيرًا للغاية من الفودكا في أصيل ذلك اليوم. لكزَت ذراعي برفق.

قالت مبتسمة: «لا تكوني حمقاء، وما سبب الذهاب للجنازات غير ذلك؟ قليل من الشراب ومعرفة آخر أخبار الأصدقاء والأقارب؟»

رفعتُ منكبيَّ، وأنا ما زلت أشيح ببصري بعيدًا.

قالت بانشراح: «يبدو شعركِ جميلًا».

أومأت، وخطفت نظرة نحو عينيها المكتحلتين.

قلتُ، وأنا أشعر بقدرٍ أكبر قليلًا من الثقة: «الحقيقة، أنَّ أشخاصًا كثيرين أبدوا إعجابهم به، وهو ما يجعلني أعتقد أنكِ بالتأكيد أدَّيتِ عملًا بارعًا للغاية.»

فقالت: «آاه، من اللطيف أن أسمع ذلك، يمكنكِ أن تعودي إلى الصالون في أي وقتٍ تشائين كما تعلمين، وسوف أحاول دائمًا أن أوجدَ لكِ وقتًا، يا 'إليانور'. لقد كان أبي يحبكِ في حقيقة الأمر.»

فقلتُ: «وأنا أيضًا كنتُ أحبه، لقد كنتم محظوظين بأبٍ رائع.»

أخذت عيناها تتغرغر بالدموع، غير أنها طَرفَت بسرعة لتزيحها بعيدًا، مستعينةً من غير شك بالرموش الصناعية الضخمة التي لصقتها على طول جفنها العلوي. بدأت أضواء إشارة عبور المشاة تومض.

قالت بهدوء: «ذكر لي 'ريموند' كَم كنتما مولَعين به». ألقت نظرة على ساعة يدها. «آه، يا ربي، آسفة، ولكن لا بدَّ أن أركض بسرعة، يا 'إليانور' - فالسيارة مركونة على العدَّاد، وتعلمين

ماذا يفعل أولئك المراقبون إذا تجاوزتِ الوقت ولو بدقيقة واحدة.»
لم يكن لديَّ أدنى فكرة عمَّا كانت تتحدث عنه، لكنني تركت المسألة تمر.
قالت وهي تمس ذراعي: «سوف أرى 'ريموند' في عطلة هذا الأسبوع، في الحقيقة». وابتسمت وهي تضيف: «أليس رجلًا لطيفًا فعلًا؟ في بداية الأمر، لم أرصده على جهاز الرادار النسائي الخاص بي، ولكن بعد ذلك، وما إن تعرفينه جيدًا ...» وابتسمت من جديد، وقالت: «على كل حال، سوف أبلغه سلامكِ يوم السبت، يا 'إليانور'».
فقلتُ وأنا أفرد قامتي قليلًا: «لا حاجة لذلك، لقد تناولتُ غداء خفيفًا منذ قليل مع 'ريموند'. يا للتوقيت السيئ - كان يمكن لي أنا أن أبلغه سلامكِ *أنتِ*.»
حدَّقت فيَّ وقالت: «لم أكن ... أقصد، لم أعرف أنكما على صلة وثيقة».
فقلتُ: «إننا نتناول الغداء معًا مرة كل أسبوع.»
قالت: «آه، الغدااء - إذن»، وقد بدت أسعد حالًا، لسببٍ ما غامض.
«طيّب، كما قلتُ، لا بدَّ أن أركض. سعدتُ برؤيتكِ، يا 'إليانور'!»
رفعتُ يدي ولوَّحتُ لها مودعة. كان من غير المعقول كيف كانت تستطيع أن تجري بهذه الرشاقة وهي تسير فوق هذين الكعبين العاليين. ساورني الخوف على كاحليها. مِن حسن الحظ أنَّ الكعبين كانا عريضين وغليظين قليلًا.
كانت 'ماريا تمبل' ترتدي اليوم جوربًا طويلًا ضيقًا يصل للخصر، أصفر اللون، متماشٍ مع حذاء برقبة حتى الكاحل فقط، لونه بنفسجي زاهٍ، لم يكن الجورب الطويل الضيق، كما لاحظت، يتملَّق باطن ساقيها الرياضيين.
- «أتساءلُ إن كان بوسعنا أن نتطرق مُجددًا لموضوع والدتكِ، يا 'إليانور'؟ هل يمكننا ربما أن - »
فقلت: «كلَّا». المزيد من الصمت.
- «لا بأس، لا بأس، ما مِن مشكلة في ذلك. أيمكنكِ أن تخبريننى قليلًا عن والدكِ، إذن؟ لم تذكريه بالفعل حتَّى الآن.»
قلتُ: «ليس لديَّ أب». ثم المزيد من ذلك الصمت الرهيب. كان امتناعها عن الحديث أمرًا مثيرًا للضِيق جدًا، غير أنه وفي النهاية قد أتى أُكله. تواصل السكون لدهورٍ مديدة، وفي نهاية الأمر لم أعد ببساطة أحتمله أكثر من ذلك.
- «أخبرتني ماما أنها ... افترضتُ أنها كانت ... لكن، لكنها لم تخبرني بذلك مباشرةً عندما كنتُ طفلةً، ولكن عندما كبرت، توصلت إلى أن أفهم أنها كانت ضحية لـ ... اعتداء جنسي»، هكذا قلتُ، بطريقة تخلو من الفصاحة أو الأناقة. لم أتلقَ جوابًا منها. فقلتُ: «لا أعرف اسمه ولم ألتقيه قَط».
كانت تكتب في دفتر ملاحظاتها، ورفعت عينيها إليَّ: «هل تمنيت ذات يوم أن يكون لكِ أب، أو من يلعب دور الأب في حياتك، يا 'إليانور'؟ هل ثمة شيء تفتقدين وجوده؟»
أخذتُ أُمعنُ النظرَ في يديَّ. كان ذلك صعبًا، التحدث هكذا بصراحة ووضوح حول تلك المسائل، وجرّها للخارج من أجل فحصها وتفقدها بعد أن ظلَّت في خير حال حيثما كانت، أي مخبَّأة بعيدًا تمامًا.
قلتُ بعد وهلة: «لا يفتقد المرء شيئًا لم يجربه قط»، كنتُ قد قرأتُ ذلك في مكانٍ ما، وبدا كَما لو كان لا بدَّ أن يكون صحيحًا. «بقدر ما أستطيع أن أتذكَّر، لم يكن هناك إلَّا أنا ... وهي. لا أحد آخر لألعب معه، لأتحدَّث إليه، لا ذكريات طفولة مشتركة. لكنني لا أحسب أنَّ هذا غريبًا بصورة

خاصة. كما لم أتأذّ بسببه، على كل حال.»
كان يمكنني أن أحسَّ تأثير تلك الكلمات في معدتي، حمضية حارقة ومريرة، تدور مدوّمةً بداخلي.
كانت تكتب في دفتر ملاحظاتها ولم ترفع عينيها نحوي.
- «هل تحدثت أمك معك عن الاعتداء؟ هل كانت تعرف الشخص الذي اعتدى عليها؟»
قلتُ: «لقد أعربتُ بمنتهى الوضوح منذ اليوم الأول الذي جئتُ فيه إلى هنا أنني لست راغبةً في التحدث عنها.»
تكلمَت برفق. «بالتأكيد. لا تقلقي - لن نتحدث عنها، يا 'إليانور'، ما دمتِ لا ترغبين في ذلك. كنتُ فقط أطرح سؤالًا في سياق كلامنا عن أبيكِ، أحاول أن أعرف المزيد عنه، عن مشاعرك نحوه، ذلك كل الأمر.»
فكرت في هذا: «ليس لديَّ حقًا أي مشاعر نحوه، يا 'ماريا'.»
قالت: «هل فكرتِ يومًا أن تحاولي العثور عليه؟»
قلتُ: «على شخص مُغتَصب؟ لا ينبغي أن يخطر هذا ببالي.»
- «إنَّ علاقة الابنة بأبيها يمكن لها أحيانًا أن تؤثر على علاقاتها اللاحقة بالرجال. هل لديكِ أي أفكار حول هذه المسألة، يا 'إليانور'؟»
تفكَّرتُ قليلًا، وقلت: «حسنًا، لم تكن أمي تتلهف حرصًا على رفقة الرجال بشكل خاص، ولكن مع ذلك، فهي لم تكن حريصة على رفقة أي شخص، في الحقيقة. كانت تعتقد أنَّ أغلب الناس لم يكونوا ملائمين لنا، رجالًا كانوا أم نساءً.»
فقالت 'ماريا': «ماذا تقصدين بهذا؟»
ها نحن ذا، نتحدَّث عن أمي، بعد أن حظرتُ ذلك بكل جلاء وحزم. ومع ذلك، فقد فوجئتُ بأنني بدأت أستمتع فعليًا بكوني تحت بقعة الضوء على هذا النحو، وأنَّ د. 'تمبل' توليني اهتمامًا غير منقوص. ربما كان ذلك يرجع إلى عدم التواصل بالعينين، لكنني شعرتُ بالاسترخاء، تقريبًا كَما لو كنتُ أتحدث إلى نفسي.
قلتُ: «حقيقة الأمر أنها ... أرادت لنا أن نتواصل اجتماعيًا مع أشخاصٍ يتسمون *باللُطف*، أشخاص يتسمون *باللياقة* - كان هذا شيئًا تُكثرُ مِن الحديث عنه. لَطَالما أصرَّت على أن نتحدث بتهذيب، وأن نتصرَّف وفقًا لأصول الذوق والكياسة ... وقد كانت تجعلنا نتدرب على الخَطابة والإلقاء، لمدة ساعة على الأقل يوميًا. كانت لها - فلنقل فحسب أنها كانت لها أساليب مباشرة جدًا في تقويمنا إذا قلنا شيئًا خطأ أو فعلنا شيئًا خطأ. وهو ما كان يحدث طوال الوقت تقريبًا.»
أومأت 'ماريا'، في إشارة بأنَّ عليَّ أن أواصل.
- «كانت تقول إننا نستحق الأفضل في كل شيء، وأنَّ علينا أن نُحسِّن سلوكنا دائمًا وأبدًا، حتَّى في أشد وأصعب الظروف. بدا الأمر تقريبًا كما لو أنها تعتقد أننا كنا على نحوٍ ما جزءًا من أسرة مَلَكية انتزعَت من عرشها، تعلمين ... مثل أسرة القيصر المخلوع أو عاهلٍ تعرَّض لانقلاب أو شيء كهذا. لقد حاولتُ بكل طاقتي، لكنني لم أستطع قَط أن أبدو أو أن أتصرَّف بالطريقة التي كانت تراها واجبة، أن أتصرف كما ينبغي. كان هذا يجعلها بائسة للغاية، وغاضبة للغاية. ولكن فلتلاحظي أنَّ الأمر لم يكن قاصرًا عليَّ أنا فقط، فلم يكن هناك أبدًا شخص جيد بما فيه الكفاية. كانت على الدوام تخبرنا بأنَّ علينا أن نواصل البحث عن ذلك الشخص الجيد بما فيه الكفاية.»
هززتُ رأسي، وقلتُ: «أحسبُ أنَّ هذا ما قادني إلى هنا في نهاية الأمر؛ محاولتي أن أجد شخصًا

مثل ذلك، وبعد ذلك ارتبكت واختلطت الأمور عليَّ وأحدثتُ فوضى هائلة في كل شيء.»
انتبهتُ أنَّ بدني كله كان يرتجف، مثل كلبٍ مُبتل في صباحٍ بارد. رفعت 'ماريا' عينيها وتطلعت إليَّ.
قالت في رفق: «فلننتقل الآن لشيءٍ آخر، هل تريدين أن تخبريني عمَّا حدث بعد أن افترَقت السبل بكِ أنتِ ووالدتكِ، عن تجربتك مع نظام الرعاية؟ كيف كان الأمر؟»
رفعتُ منكبيَّ.
- «لم يكن هناك بأس في ... أن أعيش مع أسرٍ بديلة، ولم يكن هناك بأس أيضًا في أن أعيش في دور الرعاية الحكومية. لم يسئ لي أحد أو يعتدي عليَّ، كان لدي طعام وشراب، وثياب نظيفة وسقف فوق رأسي. ذهبتُ إلى المدرسة كل يوم حتى بلغت السابعة عشر من عمري وعندئذٍ ذهبتُ إلى الجامعة. الحقيقة أنني لا يمكنني أن أشكو من أي شيء في كل هذا.»
تحدَّثت 'ماريا' برقة بالغة:
«وماذا عن احتياجاتك الأخرى، يا 'إليانور'؟»
قلتُ في حيرة: «لستُ متأكدة من أنني أفهمكِ، يا 'ماريا'.»
- «للبَشر عمومًا مجموعة متنوعة من الاحتياجات التي لا بدَّ أن نُلبيها، يا 'إليانور'، من أجل أن نكون أفرادًا سعداء وأصحاء. لقد وصفتِ كيف تمَّت تلبية ورعاية احتياجاتك البدنية الأساسية - الدفء والثياب والمأوى. ولكن ماذا عن احتياجاتك العاطفية؟»
كنتُ متفاجئة بكل معنى الكلمة.
قلتُ: «لكنني ليست *لديَّ* أي احتياجات عاطفية.»
لم يتحدَّث أيٌ منَّا لوهلة. في النهاية، تنحنحت.
- «جميع الناس لديهم احتياجات عاطفية يا 'إليانور'. جميعنا - وخصوصًا الأطفال الصغار - بحاجة لأن نعرف أننا موضع حُب، وإعزاز، وقبول، وتفهُّم ...»
لم أقل شيئًا. كانت هذه أخبارًا جديدة بالنسبة لي، فتركتها تستقرَّ بداخلي. بدا المفهومُ في مجمله منطقيًا ومعقولًا، لكن كنتُ بحاجة لأن أتأمَّله لمزيد من الوقت في خصوصية بيتي.
- «ألم يكن هناك أي شخص على الإطلاق قد أشبعَ ذلك الدور في حياتك، يا 'إليانور'؟ شخص شعرتِ بأنه يفهمكِ؟ شخص أحبك، كما أنتِ تمامًا، من غير قيد ولا شرط؟»
كانت إجابتي الأولى هي أن أقول لا، بكل تأكيد. فمِن غير شك أنَّ ماما لا تندرج تحت تلك الفئة. في بعض الأحيان - كان هناك شخصٌ ما - يطلب مني فعل أشياء وهو يتذمر مني، ومع ذلك، يشد أكمام ثيابي. حاولتُ أن أتجاهلها لكنها لم تكن تبتعد، ذلك الصوت الصغير، تلكما اليدين الصغيرتين.
«أنا ... أجَل.»
«لا تتعجّلي، يا 'إليانور'. خذي وقتكِ. ماذا تتذكرين؟»
أخذتُ نفسًا عميقًا. فيما مضى، في ذلك المنزل، ذات يوم طيب، وأهدابٌ من ضوء الشمس على السجادة، ولعبة السلم والثعبان مفرودة على الأرض، وزوج مِن أحجار النرد، وعدَّادان للأطفال بألوان زاهية. إنَّه يومٌ كانت سلالمه أكثر من ثعابينه.
- «عينان عسليتان. شيءٌ يدور عن كَلبٍ ما. لكنني لم أحظَ يومًا بحيوانٍ أليف ...»
شعرتُ بالبؤس والارتباك، وباضطراب أحشائي، وبألمٍ غصٍ في حَلقي. كانت ثمَّة ذكرى هنالك، مدفونة عميقًا في موضع ما، موضع أشد إيلامًا من أن يُمَس.

«لا بأس»، قالت برقة، وهي تناولني علبة المناديل الورقية بالحجم الرجالي والتي أحتاجها بشدة: «كاد وقت الجلسة ينتهي الآن.» أخرَجَت دفتر مواعيدها: «ما رأيك أن نتفق على اللقاء في الموعد نفسه من الأسبوع القادم، ونرجع لهذه المسألة؟»

لا أستطيع أن أصدق. بعد كل ذلك الجهد، لقد كنتُ قريبةً للغاية، أنا قريبةٌ للغاية الآن، وها هي تلقي بي خارجًا نحو الشارع من جديد؟ بعد كل ما أطلعتها عليه، كل الأشياء التي كشفتُها أمامها، والتي على وشك أن تتكشّف؟ رميتُ المناديل على الأرض.

قلت بهدوء: «اذهبي للجحيم».

(٣٢)

الغَضب شيءٌ جيد، هكذا قالت، بينما كنتُ أرتدي معطفي. ما دُمتُ قد بدأت أتواصل أخيرًا مع غضبي، فقد بدأت إذن أنجز بعض العمل المهم، بدأتُ أستخرجُ الأشياء التي كنتُ قد دفنتُها عميقًا للغاية وأتعامل معها. لم أفكر في هذا مِن قبل، ولكنني أفترض أنني لم أشعر بالغضب حقًا من قبل. نَعم، انتابني الغيظ، والضجر، والحزن، لكن ليس الغضب حقًا. أظن أن فكرتها وجيهة؛ ربما عليَّ أن أشعر بالغضب تجاه الأمور التي وقعت لي. لم أشعر بمتعةٍ متعلقة بانفعال الغضب، وبالتأكيد لم يكن من المُنصف أن أوجه غضبي نحو د. 'ماريا تمبل' التي كانت تؤدي عملها فحسب على كل حال. اعتذرتُ لها بإسراف وسخاء مباشرةً بعد اندفاعتي العابرة، وكانت متفهمة للغاية، بل إنها قد بدت مسرورة تمامًا. ومع ذلك، فلن أكتسب عادة إخبار الناس بأن يذهبوا إلى الجحيم. إن البذاءة تُعدُّ علامةً مميزة على حصيلة مفردات محدودة إلى درجةٍ مؤسفة.

وفوق هذا كله، كنتُ أحاول أن أجد نظامًا جديدًا ليومي، غير أنَّ ذلك لم يكن سهلًا. لقد ظللتُ، على مدى أكثر من تسعة أعوام، أنهضُ من النوم، أذهب إلى العمل، أرجعُ إلى البيت. وفي عطلات نهاية الأسبوع، أشرب الفودكا. لم يعد أيٌ من هذا يصلح الآن. قررتُ أن أنظّف الشقة من أعلاها لأسفلها. رأيتُ كم كانت مُتربة، وكم كانت مُنهَكة، بدت لي تعكس ما كنتُ أشعر به - بلا محبة ولا رعاية من أحد. تخيلتُ أنني أدعو شخصًا ما لتناول الغداء - 'ريموند'، على ما أظن، وحاولتُ أن أراها بعينيه. أدركتُ أنَّ هناك أشياء كثيرة يمكنني أن أقوم بها لأجعلها تبدو ألطف، أشياء لن تكلفني كثيرًا، ولكنها ستصنع فارقًا كبيرًا. نبتة منزلية أخرى، بعض الوسائد زاهية الألوان. فكرت في منزل 'لورا'، وكَم كان أنيقًا. إنها تعيش بمفردها، ولديها وظيفتها، بل عملها الخاص. وبلا شك بدت كَإنسانٍ يعيش ولديه حياة، وليس مجرد إنسان موجود وكفى. بدت سعيدة. إذن، فلا بدَّ أن يكون هذا شيئًا ممكنًا.

جعلني صوتُ الجرس أثب في مكاني وأنا في منتصف عملية التنظيف. لم يكن صوتًا أسمعه كثيرًا. وكالمعتاد شعرتُ بشيءٍ طفيف من الوجل بينما كنت أفك سلسلة الباب وأفتح المزلاج، بينما ألاحظ الزيادة الضئيلة في معدل دقات قلبي، والرعشة الهينة في يديَّ. اختلست النظر مِن وراء السلسلة، فرأيتُ شابًا في ثياب رياضية يقف على سجادة مدخل شقتي، وكان ينقر الأرض إيقاعيًا بقدمين بحذاء رياضي. الأكثر من ذلك، أنَّ جسده بالكامل كان ينبض بذبذبات الطاقة. وكانت قبعته الرياضية موضوعة على رأسه عكسيًا. لماذا؟ وغريزيًا، تراجعتُ خُطوة.

قال: «أوليفانت؟»

أومأت في قلق. فغطسَ للأسفل إلى جانب الباب، مختفيًا عن نظري، ثم عاودَ الظهور من جديد مع سلة كبيرة ممتلئة بالزهور، وملفوفة بالبلاستيك الشفَّاف وشرائط الزينة الملونة المعقودة. مدَّ يده ليقدمها لي، ففتحتُ سلسلة الباب وأخذتها منه في حذر، خشيةَ أن تكون خدعة ما. مدَّ يده في جيب سترته وأخرج أداة إلكترونية سوداء.

قال: «مِن فضلك، وقّعي هُنا»، وناولني قلمًا بلاستيكيًا والذي كان، ياللرعب، مدسوسًا وراء أذنه. رسمتُ توقيعي المميّز، والذي لم يلقِ عليه نظرة حتَّى.

قال: «شكرًا!»، وقد بدأ ينزلق من قبلها نازلًا الدرج. لم يسبق لي قط أن رأيتُ كل هذا القدر من الطاقة المتوترة مجتمعةً في جسد إنسان واحد.

كان هناك مظروف صغير الحجم للغاية، مثل بطاقات التهنئة بأعياد الميلاد المرسوم عليها فئران الهامستر، مثبتًا على الغلاف البلاستيكي للسلَّة. وبالداخل، بطاقة تعريف شخصية، بيضاء، بسيطة، تحمل الرسالة التالية:

نرجو أن تتعافي قريبًا، يا 'إليانور' - كُلنا هنا نفكر فيكِ. محبتنا وأطيب الأمنيات من 'بوب' والجميع في 'باي ديزاين XXX'

أخذتُ السلة إلى داخل المطبخ ووضعتها على المنضدة. إنهم يُفكرون فيَّ أنا. عندما فككتُ الغلاف الشفَّاف انبعثت من حولي رائحة حديقة صيفية، رائحة عذبة وحلوة. لقد كانوا يفكرون.. فيَّ أنا! جلستُ ومسستُ برفق بتلات أزهار الجربارة الحمراء، وابتَسمت.

وضعتُ الزهور بكل حرص على طاولة القهوة القصيرة، وواصلت تقدمي البطيء في أنحاء الشقة، وبينما كنتُ أنظف، أخذتُ أفكّر بما يعنيه اتخاذ المرء من منزله سَكَنًا موائمًا له. لم تكن عندي خبرة كثيرة أعتمد عليها من هذه الناحية. فتحتُ جميعَ النوافذ، وأدرتُ مؤشر الراديو حتَّى عثرت على موسيقى غير مسيئة للأذنين، وفركتُ بالماء أرضية جميع الغرف واحدةً تلو الأخرى. لَم أستطع إزالة بعض البقع من السجاد، ولكنني نجحتُ في إزالة معظمها. ملأتُ أربعة أكياس صغيرة بالقمامة - قصاصات ألغاز كلمات متقاطعة قديمة، أقلام مستعملة جفَّ حبرها، وبعض تحف رخيصة وقبيحة ظللتُ أجمعها على مدى سنوات. نظَّمت مكتبتي الصغيرة، وأعددتُ كومة كتب لتذهب (أو لترجع في بعض الحالات) إلى المَتجر الخيري.

أنهيتُ مؤخرًا قراءة كتابٍ عن الإدارة بدا لي كأنه موجه إلى أشخاص مضطربين عقليًا ومحرومين من التفكير البديهي السليم (وهو مزيج في غاية الخطورة). لَطالما استمتعتُ بالقراءة، لكنني لم أعرف قَط كيف يمكن للمرء أن ينتقي ما يقرؤه. يُوجد في هذا العالَم عددٌ كبير للغاية من الكتب - فكيف يمكن للمرء أن يعرف الفروق بينها؟ كيف له أن يعرف أيها سوف يوافق ذوقه واهتماماته؟ ولهذا السبب فإنني أكتفي بالتقاط أوَّل كتاب أراه أمامي، فلا طائل وراء محاولة الاختيار. والأغلفة لا تقدَّم عونًا كبيرًا للغاية، لأنها تقول دائمًا أشياء جيدة عن الكتاب، وقد اكتشفت، على حسابي الشخصي، أنَّ أقوال الأغلفة تلك نادرًا ما تتسم بالدقة. «مُنعش»، «مُتألق»، «في غاية المَرح». كَلَّا.

المِعيار الوحيد الذي لديَّ أنَّ الكتب لا بدَّ أن تبدو نظيفة، ما يعني أنني اضطررتُ لاستبعاد كثير من القراءات المحتملة في المتجر الخيري. كَما أنني لا ألجأ إلى المكتبة العامة لنفس السبب، رغم أنه من الواضح تمامًا أن المكتبات، نظريًا وواقعيًا، من بين الأماكن التي تضيف قيمة لحياة البشر وفعل الأعاجيب بها، لذلك وكَما يذهب القول السائر، العيب ليس عيبك، أيتها المكتبات، بل المشكلة عندي أنا. مجرد فكرة أن الكتب تنتقل عبر سلسلة طويلة من الأيدي غير المغسولة - وأنَّ البعض يقرأها في الحمَّام، ويتركونها للكلاب تجلس فوقها، وينظفون أنوفهم بأصابعهم ثم يمسحون أصابعهم على الصفحات. والبعض يتناول المقرمشات بالجبن، ثم يقرأون بضعة فصول من غير أن يغسلوا أيديهم. كلَّا، لا أستطيع، إنني أبحث عن كتب لها صاحب واحد يتسم بالحرص. الكتب في متجر تيسكو لطيفة ونظيفة، وأحيانًا أدلل نفسي بشراء بضعة كتب من هناك في يوم تسلُّم الراتب.

بانتهاء هذه العملية، صارت الشقة نظيفة، وتكاد تكون خالية تمامًا. أعددتُ قدحًا من الشاي وأجلتُ بصري في غرفة المعيشة. كل ما أحتاج إليه بضع صورٍ على الجدران وسجادة أو اثنتين. بعض النباتات الجديدة. آسفة، يا بولي. في الوقت الراهن، فإن هذه الزهور تفي بالغرض. تنفستُ

بعمق، والتقطت المتكأ من على الأرض وأخذتُ أكبسه وأعتصره لأدخله في الكيس الخاص بسلّة القمامة. كانت معركة لا بأس بها من أجل إدخاله، وبينما كنتُ أصارعه تخيلت الصورة التي لا بُدَّ أنني أبدو عليها، وذراعاي تطوقان ضفدعًا عملاقًا، أصارعه لكي أساويه بالأرض. فأطلقت ضحكة صغيرة مكتومة، ومن ثم أخذتُ أضحك وأضحك حتَّى آلمني صدري. عندما وقفتُ وقد استطعتُ أخيرًا ربط الكيس، سمعتُ موسيقى بوب مَرحة تنبعث من الراديو وأدركتُ ما كنت أشعر به ... السعادة. كان شعورًا غريبًا وغير مُعتاد - خفيف وهادئ، كَما لو كنتُ قد ابتلعتُ أشعة الشمس. في هذا الصباح فقط كنتُ ساخطة غاضبة، وهَائنذا هادئة وسعيدة. كنتُ بدأت أعتاد تدريجيًا على الشعور بمجموعة متنوعة من العواطف الإنسانية المُتاحة، بكثافتها وشدتها، بسرعة تبدلها وتقلبها. حتَّى هذه اللحظة، في أي وقتٍ كان يظهرُ لي أن ثمَّة عواطف أو مشاعر تهدد بتعكير صفوي كنتُ أشرب بسرعة لأتجنبها، كنت أغرقها في الخمر تمامًا. سمحَ لي ذلك بأن أوجَد وكفى، لكنني قد بدأت أفهم الآن أنَّ ما احتجت إليه، وما أردته، كان شيئًا أكبر مِن ذلك.

أخذتُ القمامة للطابق السفلي وعندما رجعت ودخلت الشقة لاحظتُ الرائحة الليمونية التي تفوح منها. كان من الممتع الدخول إليها. وأدركتُ أنني لم أكن أنتبه في الأحوال المعتادة إلى ما يحيط بي. كان الأمر شبيهًا بدخولي مكتب 'ماريا تمبل' هذا الصباح: عندما أخذت دقيقة لأرى ما يحيط بي، وانتبهت لكل الأشياء الصغيرة، جعلني هذا أشعر بأنني ... أكثر خِفّة.

لو أنَّ للمرء أصدقاء أو أسرة لكانوا رُبمَّا يساعدونه في ملاحظة الأشياء الصغيرة بوتيرة أكبر، بل إنهم قد يشيرون له نحوها. أطفأتُ الراديو وجلستُ في سكون على الأريكة، أشرب قدحًا آخر مِن الشاي. كل ما كان يمكنني أن أسمعه هو صفير النسيم الناعم عبر النافذة المفتوحة ورَجلين يتضاحكان في الشارع بالأسفل. كان أصيل يومٍ من أيام العمل الأسبوعية، وفي العادة أكون في العمل في مثل هذا الوقت، أراقب عقارب الساعة تتزحزح حتَّى تبلغَ الخامسة، في انتظار موعدي مع البيتزا والفودكا، وبعد ذلك ليلة الجمعة وليالي النوم الطويلة الثلاث إلى أن يحل أسبوع عمل جديد مع نهار الإثنين. لم أشرب أي فودكا منذ بضعة أسابيع حتَّى الآن، باستثناء الكأس التي أخذتُها في الحانة. اعتقدتُ على الدوام أنها كانت تساعدني على النوم، غير أنَّ الحقيقة أنني صرتُ أنام نومًا أعمق من ذي قبل، نومًا لا تُعكّره أحلامٌ مُزعجة.

انبعث فجأة صوتٌ إلكتروني فجفلتُ وأوشكتُ أن أسكب الشاي. كان شخصٌ ما قد أرسل لي رسالة. ركضتُ إلى الردهة بحثًا عن الهاتف، وعليه كانت أيقونة المظروف الصغير تومض:

هل ستكونين في البيت في أوَّل المساء؟ هل يمكنني أن أمرَّ بكِ؟ عندي مفاجأة لكِ! ري. X

مفاجأة! أجبته في الحال.

نَعم. 'إليانور' O.

لم يسبق أن طلبَ مني أحدٌ قبل ذلك أن يمرَّ بي لزيارتي. موظفة الخدمات الاجتماعية كانت تحدد موعدًا مسبقًا، وموظف قراءة العدَّاد كان يأتي فجأة. كنتُ أدرك أن زيارات 'ريموند' السابقة لبيتي لم تكن سارةً للغاية له - أو لي - فعزمتُ أن أحاول تعويضه عنها. وضعتُ سترتي عليَّ واتجهتُ إلى المتجر القريب. رفع السيد 'ديوان' ناظريه عن الجريدة عند سماعه صوت التنبيه الإلكتروني. لا بدَّ أنَّ هذا يسبب له تشتيتًا هائلًا، وهو يطلق أزيزه طيلة اليوم على هذا النحو. ابتسم لي حذِرًا. تناولت سلَّة وأخذتُ بعض الحليب، وأكياس شاي 'إيرل جراي' وثمار ليمون لأقطّعها شرائح في حالة إن كان 'ريموند' يفضّل الشاي هكذا. قضيتُ قدرًا مُعتَبرًا مِن الوقت في الممرات بين أرفف البضائع، وأنا أشعر بشيءٍ من الحيرة الغامرة أمام الاختيارات العديدة. في النهاية، أسقطتُ في

السلة بِسكويت 'جاريبالدي' بالزبيب، ثُمَّ عبوة من الويفر الوردي أيضًا - على ما يبدو، من اللطيف أن يُتاح أمام الضيوف أكثر من اختيار واحد. تساءلتُ أليس مِن الجائز أن يُفضّل 'ريموند' شيئًا مَالحًا، وهكذا أخذت بعض بسكويت الكريمة المملَّح وعبوة من شرائح الجبن لتؤكل معه. تَمَّت تغطية جميع الاحتمالات.

وقفتُ في طابور مع سلّتي، ومن غير أن أسترق السمع، تنامي إلى مسامعي رغمًا عني الحديث المتبادل بين رجل وامرأة أمامي في الصف، بينما ينتظر كلٌ منا دوره. في نهاية الأمر، شعرتُ بأنني مُرغَمة على التدخُّل وأن أقدم لهما العون.

قلتُ: «اسمه طاجين[60].»

لا رد منهما. تنهدتُ وملتُ للأمام مِن جديد.

كررتُ: «طاجين»، وأنا أنطق ببطء وبوضوح وبلكنة فرنسية مقبولة على ما أظن.

قالت المرأة: «عفوًا؟» من دون أن يبدو عليها أي عفوٍ أو سَماح. اكتفى الرجل بأن حدَّق فيَّ، بطريقة أفضل ما توصف به أنها عدائية بدرجةٍ معتدلة.

- «لم يستطع أيٌ منكما أن يتذكَّر اسم ذلك ال ...- حَسب وصفكما إيَّاه - 'الإناء الفخَّاري ذي الغطاء المدبب» الذي كانت 'جوديث' - أيًا مَن تكون هي - قد وضعته على قائمة هدايا زفافها، الأمر الذي دَفعكِ أنتِ» - هنا، أشرتُ نحو المرأة بإيماءة هينة برأسي - «إلى وصفها بـ 'البقرة المتغطرسة'.» وهنا وجدتُ متعة تامة في الاستخدام العفوي لحركة القوسين المزدوجين والتي صرتُ أتقنها تمامًا الآن.

لم ينبس أيهما بكلمة، وهكذا تجرأت على المواصلة.

قلتُ بروح المُساعَدَة: «الطاجين هو وعاء طهي تقليدي من منطقة شمال إفريقيا، وهو عمومًا يُصنَع من الفخَّار المحروق ويُزيَّن بطلاء لامع زاهي الألوان. كما أن الكلمة نفسها تُطلَق على اليخنة التي تطهى في داخله.»

تدلَّى فمُ الرجل مفتوحًا قليلًا، أمَّا المرأة فقد اتخذ فمها شكل خط رفيع للغاية ومشدود للغاية. استدارت من جديد نحوه وأخذا يتهامسان، ويلتفتان مرة بعد أخرى ليختلسا نظرات نحوي.

لم يُقَل أي شيء أكثر من ذلك، رغم أنهما أخذا يحملقان فيَّ بينما سارا خارجين، وقد دفعا حساب مشترياتهما. ولا حتَّى كلمة شكر واحدة، ومع ذلك، منحتُهما تلويحةً صغيرة.

ابتسمَ السيد 'ديوان' لي ابتسامة دافئة عندما وصلت أخيرًا إلى دُرج المُحاسبة.

قلتُ له وأنا أهز رأسي: «إن مستويات الوقاحة والافتقار التام لـ comme il faut [أصول اللياقة] بين عامة السُكَّان لا تتوقف عن إدهاشي أبدًا يا سيد 'ديوان'».

فقال وهو يبتسم ابتسامةً مُتفهمة: «آنسة 'أوليفانت'، شيءٌ لطيف أن أراكِ مرة أخرى! تبدين في حال جيدة جدًا.»

أحسستُ كأنني أتألَّق وأشع استجابةً لقوله هذا.

قلتُ: «أشكرك بشدة، يا سيد 'ديوان'، ومن اللطيف أن أراكَ أنتَ أيضًا. أليس هذا يومًا جميلًا؟»

أومأ لي وهو لا يزال مبتسمًا، بينما يمسح بالجهاز أكواد مشترياتي. وعندما انتهى من ذلك، تذبذبت ابتسامته قليلًا، وقال: «هل هناك أي شيء آخر اليوم، آنسة 'أوليفانت'؟»

كانت الزجاجات من خلفه تلتمع في توهُّج الأنوار المعلّقة أعلاها، زجاجات حمراء وذهبية وشفَّافة.

قلتُ: «نعم! لقد أوشكتُ أن أنسى. مِلتُ للأمام نحو حامِل الصحف والتقطتُ نسخة من

'التيليجراف' - كنتُ أتحرَّق شوقًا للرجوع للكلمات المتقاطعة مِن جديد.
عندما رجعتُ إلى المنزل، أشعلتُ الموقد الغازي وأخرجتُ قدحين لشرب الشاي. تمنيتُ لو كانا متماثلين ولكنني واثقة أنَّ 'ريموند' لن يهتمَّ بذلك. قطَّعتُ الليمون شرائح ونسَّقتُ البسكويت بالتناوب على شكل أشعَّة تنطلق من مركز كأنها عجلة، فوق ألطف طبق عندي، ذلك الذي عليه زهور. وقررت أن أحتفظَ بالأطعمة المالحة مدخَّرة إذا احتجنا إليها، فلا داعي للبهرجة.
بما أنني لم أمارس منذ حين، فلم أكن قد أكملت إلَّا نصف الكلمات المتقاطعة عندما دقَّ جرسُ الباب، في موعد متأخر قليلًا عمَّا كنتُ أتوقَّع. وقد اضطررتُ بسبب عضة جوع عابرة لتناول بضع قِطع بسكويت، وهكذا كانت بعض أشعة العجلة مختفية الآن، بكل أسف.
كان 'ريموند' يحمل بإحدى يديه صندوقًا كرتونيًا بمقبض حَمل، وباليد الأخرى كيسًا بلاستيكيًا ضخمًا منتفخًا. بدا متقطِّع الأنفاس للغاية، ووضع كلا الغرضين برفق على سجادة ردهة المدخل من دون أن يُطلب منه ذلك، وبدأ يخلع سترته، وهو لا يزال ينفخ ويلهث كأنَّه خنزير بحر مُلقىً على الشاطئ. إنه التدخين القاتل.
ناولني سترته، ونظرَ إليَّ لوهلة قبل أن أدرك أنه يُفتَرض بي أن أعلّقه. لم يكن لدي أي مكان مناسب لتعليقه، وهكذا فقد طويتُه بأفضل ما استطعتُ بحيث جعلته مربعًا صغيرًا ثمَّ وضعتُه على الأرض في ركن الردهة. لم يبدُ مسرورًا للغاية لذلك، رغم أنني لم أفهم سببًا لذلك بالمرة، فسترته لم تكن تبدو باهظة الثمن على الإطلاق.
أدخلتُه إلى غرفة المعيشة وعرضتُ عليه الشاي. بدا متحمسًا للغاية، وقال: «فيما بعد، ربما. لا بدَّ أن أخبركِ بالمفاجأة أولًا، يا 'إليانور'.»
جلسْتُ.
قلتُ: «هيَّا»، وأنا أستعدّ، فتجربتي مع المفاجآت محدودة وليست إيجابية بشكل خاص. أحضرَ الصندوق الكرتوني من الرواق ووضعه على الأرض.
قال: «والآن، أنتِ لستِ مُضطرةً لأن تقبلي هذا. وسوف تكون ماما سعيدةً للغاية لأن تتحمَّل هذه المسؤولية. لقد فكَّرتُ فقط ... ما علينا ...»
وفتحَ الغطاء برفقٍ بالغ، ووجدتُ نفسي عفويًا أتراجعُ للوراء خطوة.
قال: «*هيَّا، تعالي يا حبّوبة*»، بصوتٍ ناعم ومنغَّم لم أسمعه يستخدمه من قبل قَط. «*لا تخافي هكذا ...*»
مدَّ يديه وأخرج أسمن قطة رأيتُها في حياتي. كان لونها، نظريًا، حالك السواد، بل إنَّ هذا الظلام كان يمتد حتَّى أنفها وشواربها، غير أنَّ فراءها الكثيف كان مغطًّى ببقع جرداء قليلًا، بدت أفتح لونًا مقارنةً ببقية بدنها. احتضنها قريبًا مِن صدره وواصل الهمس في أذنها بعبارات التحبب. بدت خيبة الرجاء جَلية على تلك المخلوقة.
قال: «ما رأيكِ؟»
أخذتُ أُمعن النَظر في عينيها الخضراوين، وبادلتني هي النظر. اتخذتُ خطوة للأمام، وقدَّمها لي. سرَت لمسة ارتباك بينما يمررها لي، محاولًا أن ينقل كتلة جسمها من بين ذراعيه إلى ذراعيَّ، ثم فجأة، انتهى الأمر. حملتُها كأنها طفل رضيع، قريبًا للغاية من صدري، وشعرتُ، بل بالأحرى سمعت، خرخرتها العميقة ذات الرنين. آخ، كَم كان بدنها الممتلئ دافئًا! دفنتُ وجهي في ما تبقى من فرائها وشعرتُ بها تُديرُ رأسها نحوي وبينما تتشمم برِقة خط منبت شعري.
في النهاية، رفعتُ عينيَّ، فرأيتُ 'ريموند' يُفرغ الكيس الآخر، والذي كان فيه صينية للفضلات

ممَّا يُستعمل مرة واحدة فقط، وحشية فراش إسفنجية خاصة بالقطط وصندوق صغير من طعام القطط الجاف المصنَّع. أخذت القطة تتلوَّى وتتثنَّى بين ذراعي ثم حطَّت على السجادة بخَبطة ثقيلة. سارت حتَّى صينية الفضلات وأقعت هنالك وبالت بصوت مسموع، وهي لا تزال تحتفظ بنظرتها الحازمة مثبتة عليَّ طوال هذا. بعد هذا الفيض الصغير، رفست آثار بولها في خمول بساقيها الخلفيتين، فتناثرَت بعض البقايا على الأرضية التي نظفتها قبل قليل.

هَهُنا امرأة على ثقةٍ تامة ممَّا تريد، ولا تكترث بتقاليد وأصول المجتمعات المهذبة. يبدو أننا سوف نتفاهم على أفضل ما يُرام.

لم يرغب 'ريموند' في تناول جميع أنواع البسكويت المتاحة كما لم يشرب الشاي، طلبَ بدلًا من ذلك جعة أو قهوة، ولم يكن لديَّ أي منهما. اتضح أنَّ رعاية الضيوف مسألة ليست بالهينة. في النهاية استقرَّ على كوب ماء ولم يشربه حتَّى. أخبرني أنَّ شريكه في السَكن، 'ديزي'، قد أنقذ القطة من الباحة الخلفية لبنايتهم ليلةَ أمس. يبدو أنَّ شخصًا ما قد وضعها في برميل القمامة الكبير وأشعل فيها النار - سمعَ 'ديزي' صياحها عندما كان راجعًا للمنزل من العمل. وقفتُ فجأة وركضتُ نحو الحمَّام، حيث تقيأتُ بسكويت الويفر الوردي الذي تناولته. طرقَ 'ريموند' على الباب برفق، لكنني صحتُ فيه أن يتركني لحالي. عندما رجعتُ، كان هو والقطة جالسين منفصلين على الأريكة. جلستُ على المقعد المواجه لهما، فأخذ كلاهما يرمقاني باهتمام بالِغ.

حينما استطعتُ التكلّم أخيرًا قلتُ له: «مَن ذا الذي يفعل شيئًا كهذا، يا 'ريموند'؟» بدا هو والقطة حزينين كلاهما.

- «حقير ملعون»، قال 'ريموند'، وهو يهزّ رأسه. «أحضرها 'ديزي' إلى الشقة وتأكَّدنا من أنها صارت بخير. ولكنه مصاب بالحساسية، لذا لا يمكننا الاحتفاظ بها. كنتُ سآخذها إلى جمعية حماية القطط، أو أسأل أمي إن كانت تريد قطةً أخرى، ولكن عندئذٍ ... لا أدري، فكرت أنكِ ربما تجدين فيها رِفقة لطيفة، يا 'إليانور'؟ ولكن إن لم يكن بوسعكِ هذا فلتقولي ببساطة، لأنَّها ليست مسألة بسيطة، أقصد امتلاك حيوان أليف - إنها مسؤولية كبيرة...»

وجدتُ نفسي أمام مُعضلة حَرجة، فمِن ناحية، لا يمكنني أن أنكر انجذابي إليها. كان لها سحرٌ لا يمكن إنكاره، سحر ماجن رغم سقوط شعرها وأسلوبها غير المبالي بأي شيء في الوجود، وذلك كله قد يذيب القلوب ولو كانت مِن حجارة. يمكنني أن أرى بكل تأكيد أنها قطّة لا تتساهل مع أي هُراء. لكنها كانت، في الحين نفسه، مخلوقًا ضعيفًا سهل التأثر، بحاجة لمِن يرعاه. وهنا مربط الفرس، فهل أنا مستعدة لهذه المهمة؟

تذكَّرتُ جلسات الاستشارة النفسية، وكيف تحدثنا حول التفكير في الأمور بطريقة عقلانية، والتعرف على نماذج السلوك غير المفيدة والتسلُّح بالشجاعة الكافية لتجريب سُبُلٍ وطُرقٍ مختلفة. حدَّثتُ نفسي قائلة هَيَّا يا 'إليانور'، كوني شُجاعة. هذه المرة ليست مثل السابقة، ليست قريبة منها حتَّى. إنها قطة، وأنتِ الآن امرأة ناضجة. أنت قادرة تمامًا على فعل هذا.

قلتُ في حزم: «'ريموند'، إنني سأتولى مسؤولية رعايتها، وسوف تتلَّقى هذه المخلوقة كل اهتمام واعتناء مِني.»

ابتسم.

قال: «أنا واثق من ذلك. إنها تبدو هنا في بيتها بالفعل، في بيتها تمامًا». كانت القطة الآن ممددة على وسائد الأريكة، وهي تبدو عَمليًا وفِعليًا نائمة تمامًا، ومع ذلك فإحدى أذنيها كانت ترتعشُ بين الحين والآخر في متابعة لحديثنا.

قال: «ماذا ستسمينها؟»
ملتُ برأسي جانبًا بينما أفكر في هذا. وبعد وهلة، نهض 'ريموند' واقفًا.
قال: «سأنزل قليلًا لأدخن سيجارة، ولن أحكمَ غلق الباب بالمزلاج.»
صحتُ من ورائه: «لا تنفخ دخانك نحو نوافذي!»
عندما رجع بعد عشر دقائق، أخبرتُه بأن اسمها 'جلين'[61]. فضحك.
«'جلين'؟ ذلك اسم صبي، أكيد؟»
فكَّرت في كل تلك العلامات الحمراء، وفي كل تلك الزجاجات الفارغة.
قلتُ: «سمّيتها على اسم صديقٍ سابِق.»
استيقظتُ في اليوم التالي جافلةً لأجدَ 'جلين' راقدَّةً إلى جانبي، رأسها على الوسادة وجسدها تحت الأغطية، بالضبط مِثل الإنسان. كانت عيناها الخضراوان الكبيرتان تحدقان فيَّ بشدَّة، كما لو أنها كانت تريدني أن أستيقظ. تبعتني إلى المطبخ وأعطيتها بعض الماء، لكنها تجاهلته، وبعض الطعام الجاف الذي التهمته، لكنها سرعان ما تقيأته على أرض المطبخ. استدرتُ لكي أحضرَ بعض مواد التنظيف من تحت المجلى، ولكن حين التفتُّ من جديد كانت تُعاود أكل ما تقيأته من جديد.
قلتُ: «فتاة صالحة، يا 'جلين'». مِن السهل إرضاؤها.
لم يكن 'ريموند' قد أحضر معه إلَّا الحد الأدنى من اللوازم الكافية لأن تقضي ليلتها هنا، وهكذا، وبينما كانت تأخذ غفوة فوق اللحاف، تسللتُ إلى خارج الشقَّة وأخذتُ الحافلة إلى المركز التجاري، إذ كنتُ أعلم أنَّ هناك متجر كبير لمستلزمات الحيوانات الأليفة. اشتريتُ لها فِراشًا أكبر وأكثر راحة، وصينية فضلات جيدة بسقفٍ يغطيها لتحقيق الخصوصية، وأربعة أنواع مختلفة من الطعام الجاف والسائل، وعلبة من الحصى العضوي اللازم للفضلات. التقطتُ زجاجة زيت من المفترض أن يكون جيدًا لفرائها - تُمزَج ملعقة صغيرة منه مع طعامها كل يوم. لم أكن أهتم ما إذا كان فراؤها سوف ينمو مجددًا أو لن ينمو، لأنها جميلة كما هي تمامًا، ولكنني شعرتُ بأنها ربما تشعر بمزيدٍ مِن الارتياح من دون تلك البُقع الحمراء من جلدها. لم تبدُ لي من النوع الذي يستمتع باللُّعَب، ولكن على سبيل الاحتياط، اشتريتُ كرةً لامعة وفأرًا زغبيًا ضخمًا بحجم خُف رجل مُسن، وقد كان محشوًا بحشائش يروق للقطة عضّها. عندما أخذتُ عربة التسوق نحو نضد دَفع الحساب، أدركتُ أنَّني سأحتاج لاستدعاء سيارة أجرة لتقلني إلى البيت. شعرتُ بأنني فخورة بنفسي للغاية.
لم يساعدني سائق التاكسي في حمل الأشياء حتَّى شقتي، وهكذا احتجتُ للقيام بأكثر من رحلة صعودًا وهبوطًا، وكنتُ بدأتُ أتعرَّق عندما أصبح كل شيء بالداخل. استغرقت هذه الحَمْلة السريعة أكثر من ساعتين، من أوَّلها لآخرها. كانت 'جلين' لا تزال غافية على اللحاف.
قضيتُ اليوم أتشاغل بما لا طائل منه هنا وهناك في الشقة، وكانت 'جلين' رفقة طيبة: هادئة، محتوية لنفسها، ونائمة أغلب الوقت. في ذلك المساء، كنتُ جالسةً مع قدحٍ من الشاي أستمع إلى مسرحية في الراديو، حين وثَبَتْ فجأة على حجري وأخذت تعرك فخذَي بقدميها الأماميتين، ومخالبها غير مُشهرة. كان أمرًا مزعجًا بدرجةٍ طفيفة، ولكنني كنتُ واثقة أن نيتها كانت طيبة. بعد أن فعلت ذلك لدقيقة أو اثنتين، استقرَّت بحرص فوق حِجري واستغرقت في النوم. بعد نحو عشرين دقيقة احتجتُ أن أذهب إلى الحمَّام، وهي حاجة ضرورية زادها إلحاحًا أنها كانت أبعد ما يكون عن النحافة وكانت مسترخية تمامًا بكل وزن بدها مباشرةً أعلى مثانتي. حاولتُ أن أقلبها على أحد الجانبين؛ لكنها قاومت. حاولتُ من جديد. في محاولتي الثالثة، نهضت على أقدامها ببطء، وقوَّست ظهرها ثم نفضت نفسها وأطلقت تنهيدة إدانة طويلة، قبل أن تحط على الأرض ثم تتبختر

نحو فراشها الجديد. وما أن استكَانت هنالك حتَّى رمتني بنظرة محدقة بينما أغادر الغرفة، وظلّت محتفظة بذلك التعبير حينما رجعت، وواصلت النظر إليَّ في تجهم وغضب طوال المساء. لم أكن قلقة، فقد تعاملت مع أمورٍ أسوأ بما لا يُقاس من مجرد قطة مغتاظة مني.

زارني 'ريموند' مرةً أخرى بعد مرور بضعة أيام ليطمئن على حال 'جلين' واستقرارها معي، وقد دعوته هو وأمه، بما أنه قد ذكر أنها تود زيارتي، وبما أنها مهووسة بالقطط فقد خِلتُ أنها سوف تستمتع بمقابلة جلين. على كل حال، كان لا يزال هناك الكثير من البِسكويت المتبقي من زيارته السابقة. وهكذا فلن تكون هناك أي مشكلة في استقبالهما.

أتيا مستقلين تاكسي أسود، وكانت السيدة 'جيبونز' مسرورة بذلك جدًا.

قالت: «كان السائق رجلًا شهمًا، يا 'إليانور'، ألم يكن كذلك يا 'ريموند'؟» فأومأ لها 'ريموند'، وحسبتُ أنني التقطتُ لمحةً من ضَجر في إيماءته، لمحةً في غاية الضآلة مع ذلك، كَما لو كانت هذه ليست المرَّة الأولى التي تتناول فيها الموضوع خلال رحلتهما القصيرة من جنوب المدينة إلى غربها واستطردت: «آه، كان لطيفًا، بل في منتهى اللُطف، ساعدني على ركوب التاكسي، ثم النزول من التاكسي، وظلَّ يُمسكُ الباب مفتوحًا بينما أستخرج مشَّايتي ...»

«ذلك صحيح، يا ماما»، هكذا قال وهو يدسّ مشَّايتها في ركن غرفة المعيشة بينما تتخذ مجلسها على الأريكة. أمَّا 'جلين'، كعهدها دائمًا في عدم الاكتراث بالأصول والتقاليد، فقد توجَّهَت للفراش فورًا - فراشي أنا - بمجرد وصولهما، ولم يظهر منها أي شيء عدا كتلة تُصدرُ خرخرة خفيضة مِن تحت اللحاف. شعرتْ السيدة 'جيبونز' بشيءٍ من خيبة الأمل، ولكنني تركتُها تتأمَّل بعض صور 'جلين' على هاتفي بينما ذهبتُ لأعدَّ الشاي. لحق بي 'ريموند' في المطبخ، ومالَ على السطح الرخامي وأخذ يراقبني وأنا أصبّ الشاي. ووضعَ كيسًا بلاستيكيًا إلى جانبي.

قال: «ليس شيئًا كثيرًا». اختلست نظرة في داخل الكيس. كان هناك صندوق كرتوني أبيض من محل مخبوزات، مربوط بشرائط معقودة على شكل فراشة. كانت هناك أيضًا علبة معدنية صغيرة من طعام القطط مِن ماركة 'جورميت'. قلتُ وكلي سرور: «ما أجمل هذا!»

قال 'ريموند' في خجل: «لم أكن أعرف بيقين ماذا تحبين، لكنني لم أرغب أن أجيء بيد فارغة ...» قال وهو يتطلَّع إليَّ: «لذلك، فكَّرت أنَّ ... أنكِ تبدين من نوع الأشخاص الذين يحبون الأشياء اللطيفة». ثم تابع بنبرة جازمة: «بل أنتِ *تستحقين* كل الأشياء اللطيفة».

كان هذا غريبًا. لا بدَّ أن أعترف بأنني لم أجد كلمات أنطق بها لدقيقة أو اثنتين. فهل كنتُ أستحق حقًا كل الأشياء اللطيفة؟

قلتُ: «أتعرف يا 'ريموند'، إنه أمرٌ مُضحك، ولكن كان من المُربِك للغاية أن أكبُر في رعاية أمي، لأنها أحيانًا كانت تقدم لنا أشياء لطيفة، وفي أحيان أخرى ... لا تفعل. أعني، في أحد الأسابيع كنا نغمس بيض السمَّان في ملح الكرفس والمحار المقشور، وفي الأسبوع التالي مباشرةً كنا نتضوّر جوعًا. أقصد أننا كنا نجوع حرفيًا وليس مجازيًا، يعني كنا نُحرَم من الطعام والماء تمامًا.» اتسعت عيناه.

قلتُ له، وأنا أومئ لنفسي: «كان كل شيءٍ معها مبالَغًا فيه على الدوام، منتهى المُبالَغة والتطرُّف. لقد كنتُ أشتاق للأشياء *الطبيعية*. يعني، ثلاث وجبات في اليوم، الأطعمة العادية - حساء الطماطم، البطاطا المهروسة، حبوب الإفطار ...»

فككتُ الشريط المعقود حول العُلبة ونظرتُ في داخلها. كانت في الداخل كعكة إسفنجية في صورة عمل فني بارع، كريمة الشوكولاتة التي تغطيها تتناثر عليها ثمار التوت الزاهية. كانت

رفاهية اعتيادية، اختارها 'ريموند'، خصيصًا من أجلي.
قلتُ: «شكرًا لك»، وأنا أشعر بالدموع تهدد بالتدفُّق من عينيَّ. لم يكن هناك أي شيء آخر فعلًا عليَّ أن أقوله.
قال: «الشُكر لك أنت على دعوتنا، يا 'إليانور'. أمي تحب أن تخرج من المنزل، ولكنها لا تجد لذلك فرصًا عديدة.»
فقلتُ بكل صدق: «على الرحب والسعة في أي وقت، كلاكما.»
وضعتُ الكعكة على صينية مع طقم الشاي ولكن قبل أن أتمكن من حَملها، بادرَ 'ريموند' واعتبر نفسه مضيفًا وليس ضيفًا. تبعتُه، كان قد قصَّ شعره، لاحظتُ ذلك.
ما إن استقر بنا المجلس حتَّى سألتني السيدة جيبونز: «كيف حالكِ الآن، يا 'إليانور'؟ ذكرَ لي 'ريموند' أنكِ كنتِ متعبة بسبب تقلُّب الجو مؤخرًا؟»
ارتسمَ على وجهها تعبير اهتمام معتدل ومهذب، ولا شيء أكثر من هذا، وأدركتُ، وأنا خجلةٌ من فرط الامتنان، أنه لم يزودها بأي تفاصيل.
قلتُ: «أشعرُ بأنني أحسن حالًا، أشكركِ. كان 'ريموند' يطمئن عليَّ دائمًا. أنا محظوظة للغاية.» بدا مندهشًا، لكنَّ أمه لم تبدُ كذلك.
قالت وهي تومئ: «ابني هذا عنده قلب من ذَهب». بدا وجه 'ريموند' مثل وجه 'جلين' عندما لاحظَتْ أنني قد رأيتُها وهي تحاول من دون نجاح أن تقفز من الأريكة إلى إفريز النافذة. ضحكْتُ.
قلتُ: «إننا نُحرجكَ!».
فقال: «كلَّا، بل تُحرجان نفسيكما، تثرثران حول لا شيء كدجاجتين عجوزين. هل يريد أحد مزيدًا من الشاي؟» ومالَ للأمام نحو إبريق الشاي، ورأيتُ أنه كان مُبتسمًا.
كانت أسرة 'جيبونز' صُحبتهم مريحة وممتعة. وقد انتابنا جميعًا شيءٌ طفيف مِن الدهشة للسُرعة التي مرَّ بها الوقت عندما أطلق التاكسي الذي حجزوه مُسبقًا نفيره في حنق بعد نحو ساعة، على ما أعتقد، وبالضرورة كانت مغادرتهما متعجلة نوعًا ما.
قالت لي: «المرة القادمة دوركِ أنت لتأتي لزيارتنا»، بينما كانا يجاهدان مع الباب للخروج بمَشَّايتها المعدنية، بينما كان 'ريموند' يهندم سترته في الوقت ذاته. أومأت. قبلتني بسرعة على وجنتي، الوجنة ذات الندوب، ولم أجفل مبتعدةً.
هَمست لي: «تعالي مرةً أخرى مع 'ريموند' يوم الأحد، تناولي الشاي معنا وامكثي قليلًا». أومأت من جديد.
تجاوزني 'ريموند' في تثاقل، وعندئذٍ، وقبل أن أستطع فعل أي شيء حيال ذلك، مالَ وقبَّلني على وجنتي كما فعلت والدته. قال: «أراكِ في العمل»، وغادرَ وهو يسند كلًا من أمه وعجلاتها نزولًا على السلالم بطريقة مزمزعة للغاية. وضعتُ يدي على وجهي. كانت أسرة تهوى التقبيل للغاية - بعض الأُسر هكذا.
غسلتُ الأقداح والأطباق، وعندئذ قررت 'جلين' أخيرًا أن تظهر. قلتُ: «هذا ليس ذوقًا اجتماعيًا منكِ يا 'جلين'». نظرت إليَّ وأطلقت صوتًا قصيرًا، ليس مواءً حقًا، بل كان للغرابة أقرب للزقزقة. غير أن فحوى الصوت - وهو بكل دقة إنها لا تهتم بالمرَّة - كان واضحًا كل الوضوح. غرفتُ لها بملعقة في وعائها طعام القطط المتميز الذي أحضره 'ريموند'. وقوبلَ هذا بحماسة معتبرة، رغم أنَّ سلوكها في الأكل كان بكل أسف لا يبتعد عن أسلوب مَن أحسن إليها بهذه الوجبة.
كان 'ريموند' قد تركَ خلفه صحيفته التابلويد على المقعد في غرفة المعيشة - لسوء الحظ، كان

غالبًا يحمل إحداها ملفوفةً بشكل أسطواني في جيبه الخلفي. تصفحتُها، وتوقفت عند الصفحة التاسعة إذ انجذبت عينيَّ إلى العنوان الرئيسي.

جلاسجو إيفننج تايمز

أخبار التسلية والترفيه

فرقة بيلجريم بيونيرز تكتشف أمريكا:
فرقة جلاسجو مرشحة لأن تكون (أنجح من فرقة
بيفي كليرو الشهيرة)

تحتفل الفرقة الموسيقية بيلجريم بيونيرز هذا الأسبوع بوصولها لرقم خمسة على قائمة أفضل 100 فرقة حسب إحصاءات مجلة بيلبورد الأمريكية.

تتطلَّع الفرقة المستقرَّة في جلاسجو والمؤلفة من أربعة عازفين إلى اجتياح السوق الأمريكي وفير الأرباح بعد سنوات من حفلات محلية في الحانات والملاهي الليلية الصغيرة.

الأغنية المنفردة للفرقة Don't Miss You [لا أشتاقُ لك]، والمكتوبة حول الانفصال اللاذع عن المطرب الأساسي السابق في الفرقة، اختارها الشهر الماضي أحد المخضرمين في المجال عن طريق موقع اليوتيوب. ومنذ ذلك الحين، تُذاع كل ليلة عبر الولايات المتحدة الأمريكية بكاملها كموسيقى تصويرية لإعلان دعائي ضخم الميزانية لإحدى شركات الاتصالات.

تستعد الفرقة للتوجّه إلى الأراضي الأمريكية في الشهر المقبل في جولة فنية من أدناها إلى أقصاها.

بينما كنت أقرأ هذا الخبر، وجدتُ نفسي أُسحَب نحو مكانٍ آخر، نحو شخصٍ آخر؛ الشخص الذي كنتُ أحاول أن أكونه والتغييرات التي حاولت من غير نجاح أن أدخلها على نفسي وعلى حياتي. لم يكن المطرب هو المقصود، في حقيقة الأمر؛ لقد ساعدتني 'ماريا تمبل' على إدراك ذلك الأمر.

تحت وطأة لهفتي على التغيير، وعلى التواصل مع شخصٍ ما، ركَّزتُ على الشيء الخطأ، وعلى الشخص الخطأ. بمعاونة 'ماريا تمبل'، كنتُ قد بدأت أشعر أنني غير مذنبة، لستُ كارثة إنسانية مأساوية ولستُ خطأ بشريًا.

لم يذكر التقرير الصحفي ماذا كان 'جوني لوموند' يصنع في الوقت الراهن. لم يكن ذلك مهمًا في حقيقة الأمر. طويت الصحيفة - يمكنني فيما بعد أن أضعها تحت صينية فضلات 'جلين'.

johnnieLrocks 7h@
تهنئة من العيار الثقيل لكم يا شباب - أخبار عظيمة، وأنتم فعلًا فعلًا تستحقون كل هذا. سعيد للغاية من أجلهم #أمريكا #شغل_كبير
[بلا إعجابات]
johnnieLrocks 44m@
اللعنة. اللعنة. اللعنة. اللعنة. لعننة. لعنة. لعنة.
[تغريدة حُذفت فيما بعد]

(٣٣)

بدت 'ماريا' في مزاجٍ طيب عندما وصلتُ إلى مكتبها، وأنا أيضًا كنتُ كذلك. كان عليَّ أن أبذل جهدًا لكي أحوّل عقلي بحيث يكون متأهبًا ويقظًا حينما بدأت تتحدث عن الماضي مرةً أخرى.

- «لم نتحدَّث كثيرًا عن الحريق. أتساءل ... إن كان يروق لكِ أن نتحدث قليلًا عنه؟»

أومأت برأسي، مُحاذرة.

- «جيّد. الآن، هل يمكنكِ أن تجربي إغماض عينيكِ لأجل خاطري، من فضلكِ، يا 'إليانور'؟ أحيانًا يكون من الأسهل على المرء الوصول لذكرياته بتلك الطريقة. خذي نفَسًا عميقًا، ثم أطلقيه كليًا. عظيم. ونَفَسٌ آخر... جيّد. والآن، أريدك أن تتذكّري. أنت في المنزل، وهو اليوم السابق للحريق. ماذا تتذكرين؟ أي شيء؟ خذي وقتك الكافي ...»

قبل ذلك كنتُ أشعرُ بأنني في غاية الخفَّة والانطلاق، ومستكينة تمامًا داخل نفسي، بحيث لم تتَح لي فرصة أن أعدَّ نفسي لهذا الأمر كما ينبغي. بعد أن أغمضت عينيَّ، وزفرتُ بعمق بناء على طلب ماريا، اتضحَّ أمامي الإدراك المُقلِق بأنَّ عقلي، وقبل أن يتسنى له أن أنتبه لذلك، قد انطلقَ ووصل إلى ذكريات في مواضع لم أكن أرغب في الذهاب إليها، وهو يسرع الخُطى إلى داخل غرفٍ لم أتمكن مِن إحكام غلقها قبل أن يتحرَّك إليها. أحسستُ أنَّ جسدي ثقيل، وعلى النقيض منه كان عقلي الذي كان يطفو سابحًا في الهواء كبالون، بعيدًا عن متناول يديَّ. ورغم ذلك، وبعد أن بدأ هذا يحدث الآن، تقبلت الأمر بحِلمٍ ورضا. كانت هناك متعة بعينها في التخلي عن كل سيطرة.

- «ماما. إنها غاضبة. كانت ماما نائمة ولكننا أيقظناها مرةً أخرى. لقد نفد صبرها معنا الآن.» أحسستُ بالدموع على وجنتيَّ بينما أروي هذا، ولكنني لا أشعر بالحزن على وجه الخصوص، بل كان الأمر كأنني أحكي فيلمًا.

قالت 'ماريا': «ذلك عظيم، يا 'إليانور'، أنتِ تقومين بعملٍ رائع حقًا. هل يمكنكِ أن تخبريني بالمزيد عن والدتك؟»

كان صوتي رفيعًا حادًا. أقول: «لا أريد».

- «أنتِ تقومين بعمل عظيم، يا 'إليانور'. فلنحاول الاستمرار أكثر. إذن، ماذا عن ماما؟»

امتنعت عن الكلام لأطول فترة ممكنة، تاركةً عقلي يتجول حيث شاء في ذلك المنزل، مُحررة الذكريات منه كأنها طيور تهرب من أقفاصها. وأخيرًا، همسْتُ.. كلمتان.

«أين 'ماريان'؟»

(٣٤)

يوم الأحد. كان عليَّ أن أخرج من المنزل في الثانية عشرة لألتقي 'ريموند' على الغداء. كانت 'جلين' غافية في فراشها الجديد، وقد استخدمتُ خاصية الكاميرا في هاتفي الجوَّال لكي ألتقط لها مزيدًا منة الصور. في الصورة الأخيرة، كانت تُغطّي عينيها بأحد كفيها الأماميين كما لو كانت تحجب الضوء عنهما. انحنيتُ أرضًا إلى جانبها ودفنتُ وجهي في أكبر رقعة فراء على جسدها. تململَت شيئًا طفيفًا، ثم رفعت من درجة صوت خرخرتها. قبَّلتُ ذلك الجزء الناعم أعلى رأسها.

قلتُ: «سأراكِ فيما بعد، يا جلين، لن أغيبَ عنكِ طويلًا.» بدت وكأنها تتقبَّل عن طيب خاطر مغادرتي الوشيكة.

عندما صرتُ متأهبة للخروج، فتحت الباب بأقصى ما أمكنني من هدوء وتسللت على أطراف أصابعي إلى غرفة المعيشة لأرى إن كانت لا تزال نائمة. وجدتُها فوق فأرها المحشو العملاق، وكلاهما هي والفأر في مواجهتي، وكانت الأعين الشبيهة بالأزرار اللامعة تحدّق للأمام مباشرةً. كانت قد ألقت قدميها الأماميتين فوق كتفيه الفأريتين وأخذت تعركه بتكاسل بينما تقوَّسن بشدّة من الخلف. تركتُهما لشأنهما.

منذ تلك الجلسة الأخيرة، لم أكن أستطيع التفكير بأمر آخر غير 'ماريان'. 'ماريان' 'ماريان' 'ماريان'؛ أخذتُ أقلِّب الاسم في عقلي مرارًا وتكرارًا وكأنه عملة معدنية بين أصابعي. طلبت مني د. 'تمبل' أن أعد نفسي لكي نتحدث عنها من جديد في جلستنا التالية. لم أكن متأكدة من شعوري بشأن ذلك. هل المعرفة أفضل على الدوام من عَدم المعرفة؟ سؤال جدير بالنقاش.

كان 'ريموند'، غير المهتم بأي أسئلة فلسفية، موجودًا مِن قبل عندما وصلت إلى 'البلاك دوج'، جالسًا يقرأ صحيفة الصنداي ميل ويرتشف من كأس الجعة الضخمة.

قلتُ: «آسفة لتأخري عليك.»

كان وجهه أشد شحوبًا مِن المعتاد، وعندما نهض ليحتضنني، كان بوسعي أن أشم رائحة جعة قديمة إلى جانب جعة حديثة، إضافةً إلى فَوح السجائر المعتاد.

«كيف الأحوال؟» قال بصوت مخرفش غير صافٍ.

فقلتُ: «بل كيف حالك *أنت*؟» لم يبدُ أنه بخير.

زفرَ متأوهًا، وقال: «بصراحة، أوشكتُ أن أكتب لكِ رسالة لألغي الموعد. فقد سهرتُ قليلًا ليلة أمس.»

قلتُ: «هل خرجت مع 'لورا' في موعد غرامي؟»

حملق فيَّ بنظرة عَدم فهم. سأل وهو يبدو عاجزًا عن التصديق: «كيف أمكنكِ حقًا أن تعرفي ذلك؟»

تذكَّرتُ شيئًا كنتُ قد رأيتُ 'بيلي' يفعله في المكتب، فنقرتُ بخفة على أرنبة أنفي بإصبعي السبَّابة إشارةَ إطلاع ومعرفة.

ضحك، وقال: «أظن أنَّ في داخلك شيئًا قليلًا مِن ساحرة مشعوذة، يا 'إليانور'.»

رفعتُ منكبيَّ. بل إنني قد صار لديَّ الآن قطة سوداء تؤكد هذا الأمر.

قلتُ موضحة: «الحقيقة أنني قابلتُ 'لورا' بالصدفة منذ فترة قصيرة، فأخبرتني أنكما كنتما تتواعدان وتتقابلان.»

أخذ جرعة كبيرة من كأسه.

- «صحيح. نعم، لقد تواصلَت معي بضع مرَّات، وسألَت إن كنت أود أن أقابلها. ذهبنا ليلة أمس لمشاهدة فيلم، وبعد ذلك ذهبنا لشُرب بضع كؤوس.»

قلتُ: «يبدو ذلك لطيفًا، هل هي الآن فتاتك إذن؟»

أشارَ للنادل لكي يجلب له كأسًا أخرى.

قال: «'لورا' فتاة جميلة، ولكنني لا أظن أنني سوف أقابلها بعد ذلك.»

أحضرَ أحد العاملين 'لريموند' كأس جعة أخرى وبعض قوائم الطعام. طلبتُ هندباء برية وعشب الأرِقطيون[62]، وكان من الغريب ألَّا أجدهما متوفرين، باعتبار أنها حانة محترمة تقع في وسط المدينة، وبالتالي كان علي أن أكتفي بشراب 'دكتور بيبر'[63].

قلتُ: «لكن لمَ لا؟ إن 'لورا' في غاية الحُسْن.»

تنهد 'ريموند'، وقال: «الأمور أعقد مِن ذلك قليلًا يا 'إليانور'، صحيح؟ أعتقد أنها ربما تكون ... صعبة الإرضاء قليلًا بالنسبة لي، إن كنت تفهمين قصدي؟»

فقلتُ: «ليس تمامًا، كلَّا.»

- «بصراحة، إنها ليست من النوع الذي أميلُ إليه.» أخذ جرعة جعة بصوت مزعج. «أقصد، المظهر مهم، بالطبع هو مهم، ولكن لا بد أن يكون الشخصان قادرين على الضحك معًا، وأن يستمتَّع كلٌ منهما برفقة الآخر كذلك، تعلمين؟ لستُ متأكدًا مِن أنني أنا و'لورا' لدينا ذلك القدر من الأمور المُشتركة.»

رفعتُ منكبيَّ، وأنا لا أدري ما هو الرد الأنسب على ذلك، كانت تلك إحدى الجوانب التي تكاد خبرتي فيها تقترب من الصِفر.

بقينا صامتَين لدقيقة. كان يبدو شاحبًا لدرجةٍ رهيبة وغير مستريح. الأعراض التقليدية لمتاعب ما بعد الإفراط في شُرب الخمر. أنا ممتنة لأنني لم أعانِ منها قط، بما أنني كنتُ محظوظة بِبنيةٍ جسدية حديدية. طلبت بيض أومليت من إعداد الطاهي، على طريقة 'آرنولد بينيت'، واختار 'ريموند' إفطارًا تقليديًا كاملًا مع شرائح إضافية من الخبز المحمَّر.

فسَّر ذلك قائلًا: «لقد أكثرت من شُرب ويسكي 'جاك دانيالز' مع 'ديزي' بعد أن رجعتُ إلى البيت ليلة أمس. ينبغي أن تمتصَّ تلك الوجبة الكبيرة ما تبقى من الكحول في دمي.»

فقلتُ في حزن: «لا تتخذ من الشُرب عادةً، يا 'ريموند'، أنت لا تريد أن ينتهي بك الأمر مثلي، صحيح؟»

مدَّ 'ريموند' يده نحو ذراعي ومسَّه لدقيقة.

قال: «أنتِ في خير حال، يا 'إليانور'.»

وصلَ الطعام، وحاولتُ ألَّا أنظر نحو 'ريموند' بينما هو يأكل، فلم يكن هذا بالمرة منظرًا طيبًا. تساءلتُ تُرى كيف حال 'جلين' الآن. هل سيكون ممكنًا أن آخذها معي للخارج إلى مكانٍ مثل هذا، إن كان بوسعها أن تجلس إلى المائدة معنا على مقعدٍ ما يشبه مقاعد الأطفال؟ لا أرى سببًا يمنع هذا عدا الأشخاص المحتملين مِن ضيقي العقول وكارهي القطط ممَّن قد يشتكون.

قلتُ وأنا أضع هاتفي أمام وجهه: «انظر، يا 'ريموند'! ألقِ نظرة على أوَّل أربع صور.»

قال: «آه، ذلك لطيف، يا 'إليانور'، إنها تبدو مستقرة حقًا في بيتك.»

قلتُ: «واصِل، هناك المزيد». تصفَّح بضعَ صورٍ أخرى بطريقة عشوائية، وكان واضحًا لي أنه كان يفقد اهتمامه. فِعلًا، لا تُلقوا باللآلئ أمام الخنازير.

تحدَّثنا حول مسائل متنوعة عارضة بينما كنا ننتظر قهوتنا، وحين أتت، طرأ شيءٌ من الركود على الحديث، وسكبَ 'ريموند' كيس سكَّر صغير فوق المنضدة. أخذ يرسم في حبَّات السكر بسبَّابته، وهو يدندن بلا نَغمٍ واضح كما كان يميلُ لأن يفعل كُلَّما شعرَ بالتوتر. كان الجِلد المحيط بأظافره مقضومًا وأظافره لم تبدُ في غاية النظافة - يمكن لهذا الرجل أن يكون في بعض الأحيان مزعجًا حقًا.

قالَ: «'إليانور'، اسمعي، لديَّ أمرٌ أريدُ أن أخبركِ به، وعليكِ أن تعديني بألَّا تغضبي مني.»

رجعت بظهري في المقعد وانتظرت منه أن يواصل.

- «لقد كنتُ أجري بعض البحث على الإنترنت حول والدتك، وحول ما حدث فيما مضى آنذاك.»

أخذتُ أحدّق في حبَّات السكَّر. كيف يمكن لكل حبَّة منها أن تكون بالغة الصغر لهذا الحد، ومع ذلك فإنَّ زواياها منتظمة لأقصى درجة.

قال: «'إليانور'؟ أنا غير متأكد إن كان ما اكتشفتُه صحيحًا، ولكنني بحثت على 'جوجل' عن جريمة إحراق المنزل، والسنة التي وقع فيها الحريق، ولندن، ووجدتُ بعض مقالات صحفية قد تريدين أن تلقي نظرة عليها. لسنا مُضطرين لذلك إن لم ترغبي. أردتكِ فقط أن تعرفي، في حالة أن ... يعني، في حالة أن غيرتِ رأيك بخصوص رغبتك في الكشف عما حدث.»

ذهبتُ إلى المكان السعيد الموجود في عقلي لدقيقة، المكان ذو الزغب المنفوش باللونين الوردي والأبيض، ذو العصافير الزرقاء وجداول المياه الرقيقة ذات الفقاعات، والآن، هناك أيضًا قطة نصف صلعاء تصدرُ خرخرة مزعجة.

سألني بكل رفق: «ما المكان الذي قلتِ أنَّ أمكِ توجد فيه حاليًا؟»

غمغمتُ: «لا أتذكَّر، إنها هي مَن تتصل بي، ولا أستطيعُ أنا الاتصال بها على الإطلاق.» حاولتُ أن أستوعب فحوى التعبير المرتسم على وجهه. أحيانًا أجدُ صعوبة في تبيُّن تعبيرات الأشخاص، ولعلَّ لُغز الكلمات المتقاطعة المشفَّر أسهل مِن ذلك بدرجة لا تُقاس. إن كان عليّ أن أخمّن ما المرتسم على وجهه، لقلتُ إنه: الحزن والشفقة والخوف. لا شيء طيب. غير أن الإحساس الأساسي وراء ذلك كله كان هو الطِيبة والرقّة. لقد كان حزينًا من أجلي وخائفًا عليَّ، لكنه لن يؤذيني، وليس لديه أدنى رغبة في أن يؤذيني. وجدتُ بعض الراحة في تلك الحقيقة.

قال: «اسمَعي، إننا لن نتحدَّث عن الأمر أكثر من هذا، اتفقنا؟ أردتُ فقط أن أقول أنكِ ... أقصد لو أنك تذكرتِ أي شيء فجأة ... في الجلسات النفسية أو أيًا ما كانت ... قد يكون بوسعي أن أقدم لكِ بعض الإجابات، تعلمين هذا؟» ثم أضاف بسرعة: «فقط إن أردتِ الحصول على إجابات.»

فكَّرتُ بشأن هذا، وبدأت أشعر بلمحات غامضة من الانزعاج والسُخط.

قلتُ له: «'ريموند'، إنني لا أعتقد حقًا أنَّه من اللائق أن تحاول أن توجّهني في هذا الاتجاه، ليس قبل أن أصبح مستعدة. إنني أحرز تقدُّمًا طيبًا لأبعد حد بمفردي، كما تعلم»، هكذا قلتُ له. تحلّي بالصبر، يا 'ماريان'. إنني آتية لكِ. نظرتُ إلى وجهه، والذي صارَ الآن أشد شحوبًا عمَّا كان عليه عندما جلسَ أوَّل الأمر. تدلَّى فكه السفلي بدرجة طفيفة وكانت عيناه زجاجيتين ومكدودتين. لم يكن هذا منظرً جذَّابًا.

- «أتعلم أنك لستَ الشخص الوحيد الذي يعرف كيف يستخدم محرك بحث؟ إنها حياتي أنا، وعندما أشعر بأنني بخير ومستعدة، فإنني أكثر من قادرة» - وجَّهتُ له إحدى تلك النظرات الأشد مباشرةً - «عليّ أن أكتشف بنفسي ما الذي حدث بالضبط.»

أومأ، وشرعَ يتحدَّث. رفعتُ يدي وبسطتُ راحتها في مواجهته لإيقافه. كانت إيماءة في غاية الوقاحة ولا بدَّ أن أعترف أنَّ رعشة آثمة من المتعة قد اعترتني حين قمتُ بها. تبعتُ ذلك مباشرةً بأن أخذتُ رشفةً طويلة ومتواصلة من شرابي، ولكن لسوء الحظ، كان قد انتهى فأصدرت الماصة صوت شفط مزعج للغاية، لكنني أعتقد أنني نجحتُ في توصيل فكرتي بمنتهى الفاعلية رغم ذلك.

بعد أن أنهيتُ شرابي، تصيدت انتباه النادل وأشرتُ له بأنني أود منه أن يحضر الفاتورة. كان 'ريموند' يمسك رأسه بين يديه، ولا يقول شيئًا. شعرتُ باندفاعة ألمٍ في صدري. لقد آذيتُ مشاعره - مشاعر 'ريموند'. وضعتُ يدي على فمي وشعرتُ بدموعٍ تتكوّن. تطلَّع نحوي، ثم مالَ قليلًا وتناول كلتا يديَّ بين يديه، بشيءٍ من الحسم. نفخَ بعض الهواء الفاسد من وسط لحيته قصيرة الشَعر.

«أنا آسف جدًا.» نطق كلانا بكلمات الاعتذار في الوقت نفسه بالضبط، وحاولنا مرةً أخرى لكن الأمر نفسه تكرر. وفجأة، ضحكت، وهو أيضًا ضحك. في نوبات قصيرة، في بادئ الأمر، ثم لوقت أطول. كان ضحكًا صادقًا ومواتيًا، مِن ذلك النوع الذي يهز الجسم بكامله. كان فمي مفتوحًا على أقصى اتساعه، وكانت أنفاسي تصدر صفيرًا، وعيناي مغمضتين بشدة. شعرتُ بأنني مكشوفة وبلا حماية، ورغم ذلك كنت مسترخية ومستريحة تمامًا. تخيلتُ أنَّني لو تقيأت أو قضيتُ حاجتي أمامه سوف يكون شعوري مماثلًا تمامًا لما أشعر به الآن.

قال عندما استعاد هدوءه أخيرًا: «اسمعيني، الخطأ خطأي بالكامل، وأنا آسف جدًا لأنني أزعجتكِ، يا 'إليانور'. كان عليَّ ألَّا أثير هذا الأمر، واليوم خصوصًا وأنا في هذه الحالة من أثر السُكر - وعقلي يشعر بأنه مهروس. أنتِ على حق تمامًا. الشأن شأنكِ أنت، والقرار قرارك. بنسبة مئة بالمئة.»

كان لا يزال ممسكًا يديَّ، وكان هذا ممتعًا لأقصى حد.

«لا بأس، يا 'ريموند'»، قُلتها بصدق. «وأنا آسفة إذا كنتُ قد بالغتُ في رد فِعلي. أعلمُ أنك رجل طيب وأنَّ نيتك طيبة، وكنتَ تحاول فقط أن تقدم العون.» ابتسمت ابتسامة صغيرة عند رؤية وجهه، والذي بدت عليه أمارات الانفراج التام.

أفلتَ يديَّ برقَّة بالغة. لم يسبق لي أن انتبهت لعينيه حقًا قبل الآن. كانتا خضراوين، بنقاطٍ صغيرة بُنية. شيءٌ نادر للغاية.

ابتسم من جديد، وبسطَ راحتي يديه على جانبيّ وجهه وفركه، وهو يصدر أنينًا خافتًا.

قال: «يا للمسيح، لا أستطيع أن أصدق أن عليَّ أن أزور أمي الآن وأن أرعى قططها. كل ما أريد الآن أن أزحف عائدًا إلى فراشي وأنام حتَّى يوم الثلاثاء.»

حاولتُ ألَّا أبتسم، ودفعتُ الحساب - اعترض، لكنني استغللتُ لأقصى حد حالة نهاية الأسبوع التي كان عليها.

قال: «هل تريدين أن تأتي معي؟ سوف يسعدها أن تراكِ.»

لم أفكر بالأمر حتَّى. قلتُ: «كَلَّا، أشكرك يا 'ريموند'، ولكن ليس اليوم. 'جلين' ستكون قد أفرغت ما في أمعائها الآن، ولا أريد أن أترك برازها في الصينية لمدة تزيد عن ساعة أو ساعتين، تحسبًا لأنها ستحتاج إلى التبول مجددًا فيما بعد.»

نهض 'ريموند' واقفًا بسرعة، وقال: «سأدخل الحمَّام سريعًا.»

اشتريتُ بعض طعامَ القطط في طريقي إلى البيت. الأمر الجميل في 'جلين' أنها، رغم مسلكها الاعتباطي، تحبني. أعرف أنها مجرد قطة، ولكنه لا يزال حبًّا؛ سواء عند الحيوانات أو الناس. إنه

غير متوقف على قيد أو شرط، وهو أسهل وأصعب شيء في العالَم كله.

في بعض الأحيان، بعد انتهاء جلسات الاستشارة النفسية، كانت تجتاحني رغبة عارمة لشراء الفودكا، الكثير منها، وأخذها معي إلى المنزل وتناولها، لكنني لم أفعل قَط في النهاية. لم أُقدِم على ذلك لأسباب عديدة، أحد تلك الأسباب هو أنني إن لم أكن بحالة جيدة، فمَن ذا الذي يُطعم 'جلين'؟ إنها لا تقدر على رعاية نفسها. إنها بحاجةٍ إليَّ.

إنَّ احتياجها هذا ليس مضايقًا، وليس عبئًا. بل امتياز خاص، إنني مسؤولة. لقد اخترتُ أن أضع نفسي في وضعٍ أشعر فيه بالمسؤولية. إنَّ رغبتي في رعايتها، رعاية مخلوقٍ صغير وضعيف ومعتمد على غيرِه، كانت رغبة فطرية، ولستُ مضطرة للتفكير بشأنها حتَّى. إنها طبيعية مثل التنفُّس.

بالنسبة لبعض الناس على الأقل.

(٣٥)

زِدنا عدد جلسات الاستشارة النفسية إلى مرتين كل أسبوع، وهو ما بدا لي مُفرطًا عندما اقترحته 'ماريا' أوَّل الأمر، غير أنَّ ما فاجأني أنني اكتشفت أنَّ هذا كان كافيًا بالكاد. خشيت ألّا أتحوَّل شيئًا فشيئًا إلى أحد أولئك الأشخاص المتلهفين على اهتمام الآخرين وانتباههم، ذلك النوع الذي يثرثر بلا انقطاع عن نفسه وعن مشكلاته. المثيرون للضَجَر.

كنتُ بدأتُ أعتادُ ببطء على التحدُّث عن طفولتي، بعد أن قضيتُ أغلب الثلاثين عامًا الماضية أتحاشى هذا الموضوع بكل عناية ومثابرة. ورغم ذلك، ففي كل مرة يبرز فيها موضوع 'ماريان'، أدور حوله وأتملَّص منه. قبل كل جلسة، كنتُ أقول لنفسي بأنَّ *هذه* المرة ستكون مناسبة للتحدث عنها، ولكن بعد ذلك، عندما يحين الوقت، لا أستطيع وحَسْب. اليوم، سألتني د. 'تمبل' عن 'ماريان' مجددًا بكل تأكيد، وحينما هززتُ رأسي رفضًا، اقترحَت أنَّه قد يكون من المفيد التفكير في طفولتي باعتبارها مرحلتين متمايزتين: *قبل* الحريق و*بعده*، كوسيلة للوصول مسألة 'ماريان'. قلتُ في نفسي نعم، قد يكون هذا مفيدًا. لكنه مؤلم، مؤلم للغاية.

قالت: «إذن، ما أسعد ذكرى لديكِ عمَّا *قبل* الحريق؟» تأمَّلتُ في هذا مليًا، ومرَّت عدة دقائق.

قلتُ: «أتذكر لحظاتٍ من هنا وهناك، شظايا مُتناثرة، لكنني لا أستطيع أن أستعيد حدثًا مكتملًا. ولكن، كلَّا، انتظري.. نُزهة، في المدرسة. لا بدَّ أنَّ هذا كان في نهاية فصل دراسي، أو شيء من هذا القبيل - فقد كنا جميعًا بالخارج، بل بالأحرى، تحت ضوء الشمس.» لم أجد بين يديَّ الكثير لأواصل. وبالتأكيد ليست ذكريات ذات تفاصيل دقيقة.

تحدثت برِفق: «ما الشيء المميز في ذلك اليوم جعلك تشعرين بالسعادة، حسب اعتقادك؟»

قلتُ: «شعرتُ ... بالأمان، وكنتُ أعلم أنَّ 'ماريان' هي الأخرى في أمان.»

نعم، كان الأمر كذلك. 'ماريان' - *لا تركزي أفكارك عليها بشدة* - ذلك صحيح، كان فصل روضة الأطفال الخاص بها هناك في ذلك اليوم أيضًا. تناولنا جميعًا غداءً خفيفًا كان معلّبًا، شطائر جبن وتفاحة. وضوء الشمس، والنزهة في الخارج. وعُدنا أنا و'ماريان' للبيت سائرتين معًا بعد المدرسة، كما كنا نفعل على الدوام، وسرنا ببطء بقدر ما استطعنا، وكلٌ منا تخبر الأخرى كيف كان يومها. لم تكن المسافة حتَّى المنزل طويلة، لم يكن يومًا طويلًا بما فيه الكفاية لنا. كانت 'ماريان' ظريفة، وموهوبة في تقليد الآخرين. مِن المؤلم أن أتذكر كَم كانت تجعلني أضحك.

كانت المدرسة مأوى للحماية والملاذ، ففيه مُعلّمات يسألن التلاميذ كيف أُصيبوا بهذه الجروح والكدمات، ويرسلونهم للممرضة لمعالجتها. وكانت الممرضة المسؤولة عن نظافة الشَعر من القمل والصئبان تمشط شعرك برقة، بل بمنتهى الرقة، وتقول لك إن بوسعك الاحتفاظ بشرائط الشعر المطَّاطية لأنك كنتِ فتاةً صالحة. الوجبات المدرسية. يمكنني أن أسترخي وأطمئن في المدرسة، لأنني أعرف أن 'ماريان' في روضة الأطفال، آمنة ودافئة. كان لدى الصغار مشجب خاص بهم يعلقون عليه معاطفهم. كَم أحبَّت ذلك.

لم يمر وقتٌ طويل بعد تلك النُزهة حين اكتشفَت ماما أنَّ السيدة 'روز' كانت تسألني عن كدمات جسدي. وصرنا نتلقى تعليمًا منزليًا بعد ذلك، طوال اليوم وكل يوم - لا مزيد من التملص منذ التاسعة حتَّى الرابعة، من يوم الإثنين حتَّى الجمعة. أخذ الأمر يصير أسوأ وأسوأ، أسرع وأسرع،

أسخن وأسخن، ثم تأججت النيران. أنا الذي جلبتُ ذلك على نفسي كالمُعتاد، كان الخطأ كله خطأي الغبي، 'إليانور' الغبية، والأسوأ من ذلك كله، أنني قد جررتُ معي 'ماريان' كذلك، وهي لم تقترف أي خطأ، إنها لم تقترف أي شيء خطأ على الإطلاق.

*

دفعت د. 'تمبل' بالمناديل الورقية نحوي فمسحتُ الدموع عن خديَّ.

قالت في رقة: «لقد ذكرتِ 'ماريان' هذه كثيرًا في حديثك بينما كنتِ تتحدثين عن حياتك اليومية.»

كنتُ مستعدة لأن أقول ذلك بصوتٍ مسموع. قلتُ: «إنها أختي.»

جلسنا لدقيقةٍ وتركنا الكلمات تتشكَّل وتتبلوَّر. ها هي ذي: 'ماريان'. أختي الصغيرة. أميرتي المفقودة، صديقتي الغائبة. كانت الدموع تنهمر على وجنتيَّ الآن، وتركتني 'ماريا' أبكي إلى أن أُصبح قادرةً على التحدُّث.

قلتُ: «لا أريد أن أتحدَّث عمَّا وقعَ لها، لستُ مستعدةً لذلك!»

كانت 'ماريا تمبل' في غاية الهدوء. قالت: «لا تقلقي، يا 'إليانور'. سنتعامل مع هذا خطوة واحدة في كل مرة. إن الإقرار بأن 'ماريان' أختك خطوة هائلة. وسوف نصل إلى ما تبقى في الوقت المناسب.»

قلتُ، وأنا أشعر بالسخط على نفسي: «أتمنى لو أن بوسعي أن أتحدَّث عن الأمر الآن، ولكنني غير قادرة.»

قالت بكل هدوء: «بالطبع، يا 'إليانور'.» وتوقفت هنيهة. «هل تعتقدين أن سبب ذلك أنكِ *لا يمكنكِ* أن تتذكري ما وقع لماريان؟ أم بسبب أنكِ لا تريدين؟» كان صوتها في غاية الرقة.

قلتُ ببطء وهدوء: «أنا لا أريد». أسندتُ مرفقيَّ على ركبتيَّ ووضعتُ رأسي بين يديَّ.

قالت ماريا: «ترفقي بنفسكِ، يا 'إليانور'. أنت تقومين بعمل رائع.»

أوشكتُ أن أضحك، فإنني لا أشعر بالتأكيد أنني كنت أقوم بعمل رائع.

قبل الحريق وبعده. شيء جوهري فُقدَ وسط اللهيب: 'ماريان'.

قلتُ، متخذة خطوة أخرى للأمام فجأة، في يأس: «ماذا أفعل؟»، أحاول أن أتحسَّن، أن *أعيش*. «كيف عساي أن أصلح هذا؟ كيف أصلحني *أنا*؟»

وضعَت د. 'تمبل' قلمها وتحدثت بحزم، ولكن برفق.

«لقد شرعتِ في ذلك بالفعل، يا 'إليانور'. أنتِ أكثر شجاعة وقوة مما تحسبين نفسك. استمري.»

عندما ابتسمت لي، كان وجهها بكامله يتغضَّن بخطوط دافئة. أسقطتُ رأسي من جديد، ملهوفةً على إخفاء العاطفة التي كانت تلتهب هنالك. الكتلة التي تسد حلقي. الوخز الحارق للمزيد من الدموع، تصاعد موجة الدفء. أنا في أمانٍ هنا، سوف أتحدث أكثر عن أختي قريبًا، مهما سيكون الأمر عسيرًا.

قلتُ: «أراكِ الأسبوع القادم، إذن؟» عندما رفعتُ نظري نحوها كانت لا تزال تبتسم.

في وقتٍ تالٍ من ذلك اليوم، كنتُ أنا و'جلين' نشاهد برنامج مسابقات تليفزيوني يعرضُ عددًا مِن المتبارين ليس لديهم أدنى فهم مستنير لقواعد علم الإحصاء (وعلى الخصوص، نظرية الاحتمالات) بينما يختارون صناديق، لكلٍ منها رقم مختلف، وبداخل كل صندوق شيك، ويتم فتح الصناديق بالتوالي، على أمل وصول المتسابق إلى مبلغ الستة أرقام. كانوا يعتمدون في اختياراتهم على عوامل غير مجدية بدرجة مذهلة من قبيل تاريخ ميلادهم أو تاريخ ميلاد شخص عزيز

عليهم، أو رقم منزلهم، أو الأسوأ من ذلك كله شعور «*التفاؤل*» نحو رقم محدد.
قلتُ: «البشر أغبياء، يا 'جلين'»، وقبلت أعلى رأسها ثم غصت بوجهي في فرائها، الذي قد عاد للنمو من جديد بتلك الوفرة التي تسمح له الآن بالتساقُط فوق ثيابي وأثاث البيت في تسيُّب مَرح. خرخرَت باتفاقها معي في الرأي.
دقَّ جرسُ الباب. تثاءبت 'جلين' بإفراط ثم قفزت من فوق حِجري للأرض. لم أكن أتوقَّع أحدًا. وقفتُ قُبالة الباب، أفكر في ضرورة أن أركّب واحدة من تلك الأعين السحرية، بحيث يتسنى لي أن أعرف مَن هنالك قبل أن أسحب القفل. وجدتُ الاستعارة المسرحية الخاصة بذلك الغموض سطحية للغاية. مَن وراء الباب؟ ممل. لا أميل للتمثيليات الإيمائية الصامتة ولا لألغاز مَن القاتل - بل أحب أن تكون جميع المعلومات ذات الصلة تحت تصرفي في أقرب فرصة ممكنة، بحيث يمكنني أن أبدأ في تشكيل استجابتي مبكرًا. فتحت الباب ووجدت 'كيث'، ابن 'سامي'، واقفًا على العتبة، ويبدو متوترًا. دعوتُه للدخول وأنا متفاجئة إلى حدٍ ما.
عندما أصبحَ 'كيث' جالسًا على أريكتي وبين يديه قدحٌ مِن الشاي، كانت 'جلين' قد اختفت. إنها لا تستمتع في الحقيقة إلَّا بصحبة ذاتها، وهي تتساهل مع صحبتي وحسب، لكنها جوهريًا تقدس العزلة والانفراد بنفسها من صميم قلبها، شأنها شأن كلٍ من 'جي. دي. سالينجر' والقاتل 'تيد كازينسكي' الملقب 'بيونابومبر' [مفجّر الجامعات].
قال 'كيث' بعد أن فرغنا من تبادل المجاملات المعتادة: «شكرًا لكِ على الشاي، يا 'إليانور'. لدى زوجتي 'زومبا' الليلة، لذلك عليَّ أن أرجع البيت لأرافق الأولاد.» أومأتُ له، وأنا أتساءل عمَّن يكون 'زومبا' هذا. مدَّ يده داخل حقيبة الظهر التي أحضرها مع، ودفع جهاز اللابتوب الذي فيها جانبًا وتناول رزمة بجانبه، شيء ملفوف في كيس بلاستيكي - كيس من متجر تيسكو، لاحظتُ ذلك باستحسان.
قال، وهو ينظر مباشرةً نحوي ويحتفظ بصوته متزنًا، كما لو كان ينصح نفسه بأن يتحلّى بالشجاعة: «كنا نرتب أشياء بابا ونجمعها. وهذا ليس بالشيء الكثير، ولكننا تساءلنا إن كنت ربما تريدينها، على سبيل التذكار؟ أتذكر أن 'ريموند' قال كَم كانت تعجبكِ، بعد ذلك الوقت الذي ساعدتما فيه بابا ...» علِقت الكلمات في حلقه وأخذت تخفت حتى توقف تمامًا.
فككتُ الرُّزمة بحرص، وكانت الكنزة الصوفية الحمراء الجميلة بداخله، تلك التي كان 'سامي' يرتديها في اليوم الذي وجدتُه في الشارع أنا و'ريموند'. كان يمكنني أن أشم تلك الرائحة وإن كانت بعيدة وخافتة، رائحة صاحبها بنَفحة التُفَّاح والويسكي والمحبة، اعتصرته برقة، وأنا أتلمس نعومتها ودفئها تحت راحتيَّ، وروح 'سامي' المتوثبة الجزلة فيها.
ذهبَ 'كيث' إلى النافذة وكان يُمعن النظر للخارج نحو الشارع، وهو أمر كنتُ أتفهمه تمامًا. فعندما يجاهد المرء بشدة ليسيطر على عواطفه، يصير من غير المحتمل أن يظل على مرأى من شخصٍ آخر، وأن يكون عليه أن يحاول التعامل مع *عواطفهم* هم أيضًا. لم يكن بوسعه أن يتعامل مع دموعي. إنني أتذكَّر، إنني أتذكَّر.
قلتُ له: «شكرًا لك.» أومأ، ولا يزال موليًا ظهره لي. كان كل شيءٍ هنالك، واضحًا لكلٍ منا، غير أنه بقي مسكوتًا عنه برمته. أحيانًا يكون هذا هو الأفضل.
بعد أن ذهب، ارتديت الكنزة الصوفية. كانت كبيرة عليَّ للغاية، بالطبع، لكن ذلك جعلها أفضل، بحيث يحيط بي الكثير منها كُلَّما شعرتُ بالحاجة إلى ذلك. هدية وداع 'سامي'.

(٣٦)

يشمل الذهاب إلى مكتب د. 'تمبل' رحلةً بالحافلة إلى وسط المدينة ومسافة قصيرة سيرًا على القدمين. انتهت فترة صلاحية بطاقة الحافلة الخاصة بي، وكان هذا عَرضًا ينم عن شعوري العام بعَدم الاكتراث لدرجة أنني لم أهتم بتجديد بطاقة الحافلة الأسبوع الماضي. إنها 'ماريان'. كل شيءٍ آخر كان مجرد تفاهات. أسقطتُ جُنيهين في فتحة صندوق السائق، دون أن أهتم ولو مثقال ذرَّة بالملصق القبيح عليه الذي يقول *لا نعيد باقي النقود*، وبأنني بالتالي ضحيتُ بعشرين بنسًا من غير أي داعٍ. مَن يكترث لعشرين بنسًا إن كانت هي كل المشكلة؟

كانت جميع مقاعد الحافلة الزوجية مشغولة بالفعل براكبٍ واحدٍ على الأقل، وهو ما كان يعني أنَّ عليَّ أن أجلس إلى جانب غريبٍ ما. لو أنني كنتُ في حالةٍ مِزاجية مختلفة لاستمتعتُ بهذه اللُّعبة: لعبة إجراء مسح سريع خلال عشر ثوانٍ فقط للركَّاب، واختيار أنحفهم وأعقلهم وأنظفهم مظهرًا حتَّى أجلس إلى جانبه. إذا اتضح أن الاختيار خاطئ، ستكون رحلة الخمس عشرة دقيقة إلى وسط المدينة تجربة لا تسر بالمرة - فإمَّا ينهرس المرء إلى جانب شخص بدين منبعج في المقعد الزوجي، وإمَّا يضطر إلى التنفس من فمه ليقلل بأقصى درجة اختراق الرائحة البشعة المنبعثة من بدن غير نظيف. تلك كانت مغامرات الانتقال بوسائل المواصلات العامة.

رغم ذلك لم أجد أي متعة في ممارسة هذه اللعبة اليوم، ووضعتُ نفسي في أقرب المواضع المتاحة من مقدمة الحافلة، من غير أن أهتم بفضائل أو رذائل رفيقي في المقعد. وكما شاء لي الحظ فقد كانت سيدة عجوز، تميل للبدانة بدرجة طفيفة ولكنها ليست بدينة إلى حدٍ مُزعج، تنبعث منها روائح رذاذ تصفيف الشعر، ولم تحاول أن تتفاعل معي بأي شكل. أمرٌ طيب.

نزلَت السيدة في المحطة التالية، وعندئذٍ صار المقعد بكامله لي وحدي. صعدَ إلى الحافلة مزيدٌ من الأشخاص، ولمحتُ شابًا وسيما يلعب نفس لعبة مَسح أماكن المقاعد من أجل أن ينتقي له مقعدًا، كان طويلًا ونحيلًا وله عينان بنيتان واسعتان بدرجة تفوق نِسب ملامحه الأخرى. تَطلَّعتُ لأن يجلس إلى جانبي، بما أنني تأكدت من أنه ليس مجنونًا ولا كريه الرائحة.

بالرغم من ذلك، فقد سارَ مباشرةً حتَّى تجاوزني وجلس على الجانب الآخر من الحافلة، إلى جانب رجل قصيرة القامة، يرتدي سترة رياضية، وذي مظهرٍ مضطرب فج. لم أستطع تصديق هذا! في المحطة التالية ركبَ شخصان آخران - صعدَ أحدهما إلى الطابق العلوي من الحافلة، أمَّا الشخص الآخر -وكان أنثى- فقد فعل نفس الشيء مجددًا؛ تخطت المقعد الشاغر المجاور لي وسارت مباشرة نحو نهاية الحافلة، حيث جلسَت -كما لاحظتُ حينما التفتُّ لألقي نظرة- إلى جانب رجلٍ لا يرتدي جوربين. بدا كاحلاه العاريان أبيضين لدرجةٍ مفجعة فوق حذائه الجلدي المنقوش ذي اللون داكن الحُمرة، والذي ارتدى عليه سروال ركض أخضر اللون. رجل مجنون.

نظرتُ نحو الأرض، كان عقلي يسابق نفسه. هل كنتُ ... هل كنتُ أبدو في هيئة شخصٍ لا بدَّ من تجنبه في لعبة اختيار مقعد الحافلة؟ في مواجهة البراهين القائمة، لا يمكنني إلَّا أن أستنتج أنني كذلك. ولكن لماذا؟

عليَّ أن أُعملُ عقلي بحثًا عن الإجابة. لستُ بدينة. وليس لي رائحة كريهة - إنني أستحم يوميًا، كما أنني أذهب بثيابي إلى التنظيف بوتيرة منتظمة. لا يتبقى سوى الجنون إذن. فهل أنا مجنونة؟ كلَّا. كلَّا، لستُ كذلك. إنني أعاني من اكتئاب حاد، لكنَّ هذا ليس مرضًا. هذا ليس جنونًا. هل أبدو

مثل المجانين إذن؟ هل أتصرَّف مثل المجانين؟ لا أظن ذلك. ومع ذلك، كيف لي أن أعرف؟ هل السر في ندوب وجهي؟ التهابي الجلدي؟ سُترتي التي بغير كمّين؟ هل مِن بين أمارات الجنون أن يفكر المرء بأنه قد يكون مجنونًا؟ أسندتُ مِرفقيَّ على ركبتيَّ وأرحتُ رأسي على يديَّ. آه يا ربي، يا ربي، يا رب.

«هل أنتِ بخير، يا بُنيتي؟»، سمعتُ صوتًا وشعرتُ بيد على كتفي، ما جعلني أجفل وأنهض معتدلة من جديد. كان هو الرجل الذي بلا جوربين، وقد كان في طريقه لمقدمة الحافلة.

قلتُ مِن دون أن أنظر نحو عينيه: «نعم، شكرًا لك». جلس إلى جانبي ريثما تقترب الحافلة من المحطة التالية.

قال في طيبة: «متأكدة؟»

كررت: «نعم، شكرًا لك.» جازفتُ باختلاس نظرة نحو وجهه. كانت له عينان رقيقتان للغاية، لهما نفس درجة الخضرة التي للبراعم البازغة للتو على الأشجار.

ربَّت على ذراعي برفق، وقال: «هل تأخذين لحظةً هادئة صغيرة يا بُنيتي؟ كل إنسان بحاجةٍ لأن يأخذ لحظةً صغيرة هادئة بين الحين والآخر، صحيح؟» وابتسم، وكان مُفعمًا بالدفء، نهضَ واقفًا ليغادر. كانت الحافلة بدأت تتباطأ.

«شُكرًا!» صِحتُ من خلفه. لم يستدر، لكنه رفع يده بالتحية، وكان سرواله مرفوعًا قليلًا يكشف عن كاحليه العاريين بينما يذهب.

لم يكن مجنونًا، كان فقط رجلًا بلا جوربين.

حدَّثتُ نفسي قائلة، يا 'إليانور'، كَم تتسرعين أحيانًا في الحُكم على الناس. يُوجد جميع أنواع الأسباب التي قد تكون وراء أنَّ مظهرهم لا يشجع على الجلوس إلى جانبهم في الحافلة، ولكن لا يجب أن تستنتجي حُكمًا مطلقًا على الشخص بنظرة تستغرق عشر ثوانٍ. لأنَّ هذا ببساطة ليس وقتًا كافيًا. على سبيل المثال، الطريقة التي تحاولين بها تجنب الجلوس إلى جانب الأشخاص البدناء. ليس هناك ما يسوء في أن يكون المرء بدينًا، أليس كذلك؟ ربما يأكلون لأنهم يشعرون بحُزنٍ شديد، تمامًا كما كنتِ أنتِ تشربين الفودكا. وربما يكونون تربوا لأهلٍ لم يعلموهم يومًا كيف يطهون أو يأكلون طعامًا صحيًا. ربما يكونون مصابين بالعجز عن الحركة وغير قادرين على ممارسة التمارين، أو حتَّى ربما يكونون مصابين بمرضٍ ما يسبب لهم زيادة الوزن على الرغم من بذلهم أقصى الجهد. قلتُ لنفسي، ما أدراكِ ببساطة، يا 'إليانور'؟

كان الصوتُ الذي يتحدَّث في رأسي - صوتي الخاص - منطقيًا جدًا في حقيقة الأمر، وعقلانيًا، هكذا بدأت أدرك. كان صوت ماما هو الذي يميل دائمًا للحُكم على الآخرين والانتقاص منهم، وشجعني على أن أفعل الأمر ذاته أيضًا. بدأت أشعرُ بالمَيل أكثر لصوتي أنا، وأفكاري أنا، وأردتُ أن أستزيدَ منها. كانت تجعلني أشعر بأنني أفضل، بل بأنني أهدأ.

كانت تجعلني أشعر بأنني *أنا*.

(٣٧)

روتين قديم، روتين جديد. بل وربما، أحيانًا، بلا روتين بالمرة؟ ولكن لمرتين أسبوعيًا، وبقدر الوقت الذي سوف يحتاجه هذا، كنتُ أذهب إلى وسط المدينة، وأتجنَّب ذلك المصعد العتيق، وأصعد الدرج إلى غرفة استشارات د. 'تمبل'. لم أعد أرى أنَّ الغرفة بشعة - كنتُ بدأتُ أفهم كفاءة هذا المحيط المحايد غير الجذَّاب، والمناديل الورقية، والمقاعد واللوحة المؤطَّرة القبيحة. إذ لم يكن هناك أي شيء آخر يمكن النظر إليه، عدا أن ينظر المرء نحو ذاته، لا ملاذ أو ملجأ آخر. كانت د. 'تمبل' أذكى ممَّا بدت عليه أوَّل الأمر. وعلى الرغم من تلك الحقيقة، كان قرطها الذي يشبه دلَّاية نباتية من مشغولات الأمريكيين الأصليين، والذي تضعه في أذنيها اليوم، بكل صراحة، في غاية البشاعة.

كنتُ على وشك أن أصعد على خشبة المسرح وأن أتلو سطور نصّي. لم أكن أمثّل، بالرغم من ذلك. إنني ممثلة في غاية السوء، لم أكن بحكم طبيعتي مدعية أو متظاهرة بغير الحقيقة. لا بأس في أن نقول أنَّ اسم 'إليانور أوليفانت' لن يظهر أبدًا مكتوبًا بالأضواء، ولا أنا أريد ذلك. إنني أسعد حالًا وأنا في الخلفية، حيث أُترك لأقضي شؤوني بنفسي من دون تدخل من أحد. لقد أمضيتُ وقتًا أطول ممَّا يجب أتبع توجيهات أمي في كل حركة.

كان موضوع 'ماريان' قد سبب لي قدرًا هائلًا مِن الكَرب والأسى، في محاولتي الساخطة لاستجماع شجاعتي حتَّى أستطيع أن أوجّه ذاكرتي نحو مواضع لا يروق لها التطرق إليها. اتفقنا على ألَّا نرغم الذاكرة على شيء، وأن نترك 'ماريان' تظهر بصورة طبيعية، على ما تمنينا، بينما كنا نتحدَّث حول طفولتي. تقبَّلت هذا. ليلة أمس، بينما كنتُ أنا و'جلين' نستمعُ إلى الراديو، عادت لي الذكرى، حقيقة الأمر، من غير دعوةٍ أو استحضار من أي نوع. كان مساء عاديًا تمامًا، لم يختلط التذكُّر بأي صخبٍ أو جعجعة، بلا دراما. الحقيقة فقط. اليوم سيكون هو اليوم الذي أصرّح فيه 'لماريا' بما داخلي، هنا في هذه الغرفة. ولكن لا بدَّ أن يكون هناك مقدمة تمهيدية. لا يمكنني أن أقول ما لديَّ هكذا فجأة. سوف أدع 'ماريا' تساعد بأن تقودني إلى هناك.

كما لن يكون هناك مزيد من الهرب من ماما في غرفة الاستشارات النفسية اليوم. كان من العسير أن أصدّق أنني كنتُ أفعل هذا حقًا، ولكن هَائنذا. لم تنهد الدنيا أو تقع السماء على الأرض، فلم تكن ماما شيطانة تُستدعى بمجرد نُطق اسمها. بل كنتُ أنا ود. 'تمبل'، على نحو مذهل للغاية، نتبادل حولها الحديث بكل هدوء وتعقل.

قلتُ: «ماما شريرة، شريرة حقًا. أنا أعرف هذا، وكنتُ أعرفه دائمًا. وكنتُ أتساءل ... هل تعتقدين أنني أيضًا شريرة؟ ألا يرث الأبناء عن أهلهم جميع الشيَم - دوالي الأوردة، أمراض القلب. هل يمكن للإنسان أن يرث *الشر*؟»

رجعت 'ماريا' بظهرها في جلستها وتلاعبت أصابعها بوشاحها.

«ذلك سؤالٌ مثير جدًا للاهتمام، يا 'إليانور'. الأمثلة التي طرحتِها لحالات بدنية. ما تتحدثين عنه أمر مختلف، مع ذلك - أمر يتعلق بالشخصية، بمجموعة من السلوكيات. هل تعتقدين أن السِمات السلوكية يمكن توارثها؟»

قلت: «لا أدري». فكرتُ في الأمر. «أتمنى حقًا، حقًا، ألَّا يكون هذا ممكنًا.»

صمتُّ دقيقة. ثم استطردت: «يتحدَّث الناس عن الطَبع والتَطبُّع. أنا أعرف أنني لم أرث عنها

طَبعها. أقصد، أنني ... أكون صعبة المراس أحيانًا، على ما أظن ... لكنني لستُ ... *لستُ* مثلها. لا أدري إن كان بوسعي التعايش مع نفسي إن اعتقدت أنني مثلها.»

رَفَعت 'ماريا تمبل' حاجبيها.

«تلك كلمات شديدة القسوة، يا 'إليانور'. لماذا تقولين ذلك؟»

«لا يمكنني أن أتحمل إن اعتقدتُ أنني قد أريدُ مطلقًا أن أؤلم شخصًا ما.. أن أستغل أشخاصًا.. أشخاصًا أضعف، وأصغر. أن أتركهم ليرعوا أنفسهم في كل شيء، أن ... أن ...»

توقَّفت فجأة. كان قول ذلك شيئًا في غاية القسوة والصعوبة. كان مؤلمًا، ألمًا حقيقيًا، ألمًا بدنيًا، إلى جانب كونه ألمًا آخر أشد عمقًا، كأنه ألمٌ وجودي. ما هذا، بربكِ؟ - ألمٌ وجودي، يا 'إليانور'! قلتُ لنفسي. تماسكي وسيطري على نفسك.

تحدثت 'ماريا' بكل رفق.

«لكنكِ *لستِ* أمكِ، صحيح، يا 'إليانور'؟ أنتِ شخص مُنفصل تمامًا، شخص مستقل، تتخذين قراراتكِ بنفسك.»

ابتسمت لي في تشجيع.

- «لا تزالين امرأة شابة - وإن أردتِ ذلك، يمكنكِ أن تحظي بأسرة خاصة بكِ ذات يوم، وأن تكوني أمًّا مِن نوعٍ آخر تمامًا. ما رأيكِ في ذلك؟»

كان ذلك سؤالًا سهلًا.

- «آه، أنا لن أنجبَ أطفالًا أبدًا»، قلتُ، بهدوء تام، في إقرار للأمر الواقع. أشارت لي بأنَّ عليَّ أن أواصل الحديث. «أليس أمرًا واضحًا؟ أعني، ماذا لو أنني مرّرتُ ذلك الشيء الخاص بماما إلى أبنائي؟ حتَّى إن لم أكن مصابةً به، فيمكنه أن يفوّت جيلًا ثم يظهر في الجيل التالي، صحيح؟ أو ... أو ماذا لو كان فِعل الإنجاب هو ما يدفع به للوجود؟ قد يكون راقدًا في حالة خمول كل هذا الوقت، منتظرًا ...»

بدت في غاية الجدية.

- «'إليانور'، لقد تعاونتُ مع عملاء كثيرين على مدى السنوات ممَّن كانت لديهم مخاوف شبيهة بما يساوركِ. مِن الطبيعي للغاية أن تشعري بذلك. ولكن تذكَّري - إننا كنا نتحدث للتو عن مقدار اختلافكِ عن والدتك، وعن الخيارات المختلفة التي اتخذتِها...»

- «لكنَّ ماما لا تزال موجودة في حياتي، حتَّى بعد كل هذا الوقت. وذلك يقلقني. إنَّها لها تأثير سيئ، تأثير سيئ للغاية.»

رفعت 'ماريا' بصرها عن الدفتر الذي كانت تدون فيه الملاحظات.

فقالت وقلمها مرفوع في تأهب: «أما زلت تتحدثين إليها إذن؟»

فقلت: «نعم»، شبّكتُ يدي وأخذتُ نفسًا عميقًا. واستطردت: «لكنني كنتُ أفكر أنَّ ذلك لا بدَّ له أن ينتهي. سوف أوقف ذلك. لا بدَّ له أن يتوقف.»

بدت في أشد حالاتها جدية كما لم تكن من قبل.

«ليس دوري أن أخبركِ بما تفعلين، يا 'إليانور'. ومع ذلك، سأقول لكِ هذا - أعتقد أنَّ تلك فكرة جيدة للغاية. ولكن، في نهاية الأمر، القرار قراركِ أنتِ، كما كان دائمًا قراركِ أنتِ.» هكذا قالت بهدوء مفرط، وبشيءٍ طفيف للغاية من الحَذر. بدا الأمر كما لو كانت تحاول بشدة أكثر ممَّا يجب أن تبقى محايدة على ما أظن. وتساءلتُ عن سبب ذلك.

- «الأمر هو، حتَّى بعد كل ما اقترفته، بعد كل ذلك، فإنها لا تزال أمي. إنها الشخص الوحيد

الذي كان لديَّ. والبنات الصالحات يحببن أمهاتهن. بعد الحريق، كنتُ دائمًا وحيدةً للغاية. وكان وجود ماما أفضل من عدم وجودها ...»

ما إن توقفت قليلًا، باكيةً، رأيتُ أنَّ د. 'تمبل' كانت متعاطفةً تمامًا، وأنها فهمت ما كنتُ أقوله وأنها كانت تنصت دون أن تصدر حكمًا ضدي.

قلتُ وقد بدأت أشعر بأنني أقوي قليلًا، أشجع قليلًا، وبأنني أعتمدُ على عينيها الطيبتين وصمتها الداعم: «مؤخرًا، مع ذلك، أخذتُ أدركُ أنها ... أنها *سيئة* وحسب. إنها *هي* السيئة. أنا لستُ سيئة والذنب ليس ذنبي. لم أجعل منها سيئة، ولستُ سيئة لكوني أريد أن أقطع علاقتي بها، ولستُ سيئة لشعوري بالحزن والغضب - كلَّا، ولا بالسخط الشديد - نحو ما صنعتْه.»

الجزء التالي كان شاقًا، ونظرتُ نحو يديَّ المتشابكتين بينما رحتُ أتحدَّث، خائفةً من أن أرى أي تغيُّر يطرأ على مسلك د. 'تمبل'، كرد فعل على الكلمات التي تخرج من فمي.

«كنتُ *أعلم* أنَّ شيئًا ممَّا صنعته كان خطأ، خطأ فادحًا. كنتُ أعلم طوال الوقت، بقدر ما يمكنني أن أتذكَّر. لكنني لم أخبر أي شخص. وقد ماتَ أشخاص...»

تجرأت على رفع عينيَّ، وشعرتُ بجسدي يسترخي في موضعه بإحساس الارتياح عندما لحظتُ التعبير على وجه ماريا ثابتًا لم يتبدَّل.

قالت بهدوء: «مَن الذي مات، يا 'إليانور'؟» أخذتُ نفسًا عميقًا.

قلتُ: «'ماريان'، 'ماريان' ماتت». ونظرتُ إلى يديَّ، ثم من جديد إلى 'ماريا'. «أشعلَت ماما النار. أرادت أن تقلتنا نحن الاثنتين، لكنَّ 'ماريان' ماتت وأنا، بطريقةٍ ما، لم أمت.»

أومأت 'ماريا'. لم تبدُ متفاجئة. هل كانت قد فهمت هذا من قبل؟ بدت وكأنها كانت تنتظر مني قول شيء آخر، لكنني لم أقل شيئًا. جلسنا في صمت لدقيقة.

قلتُ، هامسةً: «ثمَّة إحساس بالذنب، رغم ذلك.» كان من الصعب للغاية أن أتحدَّث، صعوبة بدنية، محاولةً أن أرغم الأصوات على الخروج من فمي. «كنتُ أختها الكبرى، كان ينبغي عليَّ أن أرعاها. كانت صغيرة الحجم للغاية. وقد حاولت، حاولت حقًا، ولكن مع هذا ... لم يكن كافيًا. لقد خذلتها، يا 'ماريا'، إنني ما زلت هنا وذلك كله خطأ. كان ينبغي أن تكون هي الناجية. لا أستحق أن أكون سعيدة، لا أستحق أن أعيش حياة لطيفة بينما 'ماريان'...»

قالت برقة ما أن استعدت هدوئي: «'إليانور'، شعوركِ بالذنب لأنكِ نجوت، بينما 'ماريان' لم تنجُ، هو رد فعل طبيعي تمامًا. ولا تنسي أنكِ أنت نفسك كنتِ مجرد طفلة عندما ارتكبت أمكِ جريمتها. من المهم للغاية أن تفهمي أن الذنب ليس ذنبك، وأنَّه ليس عليكِ ذنب في أيٍ مِن هذا.»

كنتُ أبكي من جديد.

قالت: «أنتِ كنت الطفلة وهي كانت البالغة. كانت مسؤوليتها هي أن ترعاكِ وترعى أختك. ولكن كان هناك، بدلًا من ذلك، الإهمال والعنف والإيذاء العاطفي، وتبع ذلك عواقب رهيبة، رهيبة للغاية، على كل واحدٍ منكم. وما عليك من الأمر شيء، يا 'إليانور'، لا شيء منه على الإطلاق. لا أدري إن كان عليكِ أن تغفري لأمكِ، يا 'إليانور'، ولكن أنا واثقة تمامًا من أمرٍ واحد؛ عليكِ أن تغفري لنفسكِ.»

أومأتُ من خلال دموعي. كانت فكرتها معقولة. لم أكن متأكدة من أنني صدّقت هذا تمامًا -حتَّى الآن- ولكن كان منطقها سليمًا ومعقولًا بالتأكيد. ولا يمكن للمرء أن يطلب أكثر من هذا.

تمخطتُ بقوة، غير شاعرة بالحرج من صوت النفير هذا، والذي لم يكن شيئا يُذكر مُقارنةً بالأهوال التي أخرجتها وعرضتُها على مرأى من د. 'تمبل' في هذه الغرفة، اتخذتُ قراري. لقد

حان الوقت لأن أودّع أمي الوداعَ الأخير.

(٣٨)

أصرَّ 'ريموند' على أن نلتقي أمام مكتب الاستشارات النفسية ذلك اليوم لنشرب قهوة معًا. رأيتُه يسير متمهلًا باتجاهي. صارت طريقته الغريبة في السير بخطوات كبيرة متقافزة تكاد تكون محببة إليَّ الآن - ما كنتُ لأتعرَّف عليه إذا بدأ يسير كما يسير الرجال العاديون. كان يضع يديه في جيبَي سرواله الجينز منخفض الخصر، ويرتدي قبعة صوفية غريبة كبيرة الحجم للغاية لم أرها من قبل. بدت تلك القبعة من النوع الذي كان يرتديه غول ألماني في الرسوم المصاحبة لحكاية خرافية من القرن التاسع عشر، لعلَّها تلك الحكاية التي يكون فيها خبَّاز قاسيًا على الأطفال الصغار ويلقى جزاءه العادل على يد جماعة من العفاريت الصغار. أعجبتني.

قال لي: «كل شيء تمام؟ تقريبًا تجمَّدت أطرافي من شدّة البرد.» ونفخَ في يديه المكوّرتين.

وافقته: «نَعم، الجو قاسٍ قليلًا اليوم، رغم أنه من الرائع رؤية الشمس.»

ابتسمَ لي: «صحيح، يا 'إليانور'.»

شكرتُه لأنه غادرَ العمل مبكرًا لكي يأتي ويقابلني. كان هذا لُطفًا منه، قلت له ذلك.

«هيَّا بنا، يا 'إليانور'»، قال وهو يطفئ سيجارته. «أي عُذر للخروج من العمل نصف يوم هو شيء جيد. فعلى كل حال، مِن اللطيف التحدُّث إلى شخصٍ ما عن أمور أخرى غير تراخيص البرامج و'ويندوز ١٠'.»

قلتُ وأنا أتنشَّق: «ولكنك تحب التحدث عن برامج الكمبيوتر يا 'ريموند'»، ثم لكزته بين أضلاعه، بمنتهى الرفق، وبمنتهى الشجاعة. ضحكَ، وردَّ لكزتي بمثلها.

قال: «أقر وأعترف بجريمتي، يا آنسة 'أوليفانت'.»

ذهبنا إلى أحد فروع سلسلة شهيرة لإعداد القهوة - وكنتُ قد رأيتُ كثيرًا منها في أنحاء وسط المدينة. وقفنا في الصف، وطلبتُ كوب ماكوتشينو كبير مع كريمة إضافية وشراب بندق. سألني الشاب عن اسمي.

قلتُ في حيرة: «لأي غرضٍ تحتاج أن تعرف اسمي؟»

فقال: «إننا نكتبه على كوبكِ حتَّى لا تختلط مشروبات الزبائن.»

يا للسفاهة.

فقلت في حزم: «لم أسمع أي شخص آخر يطلب مشروبًا مطابقًا لما طلبتُ تمامًا، حتَّى الآن، وأنا متأكدة من قدرتي على تمييز المشروب الذي اخترته عندما يحين الوقت.»

حملق فيَّ، والقلم مشهرٌ بوضع استعداد في يده. «عليَّ أن أكتب اسمكِ على كوبكِ»، هكذا كرَّر بنبرة تنم عن الحزم والملل أيضًا، على العادة المتبعة لدي أصحاب الزي الرسمي الموحد في أغلب الأوقات.

فقلتُ بحزمٍ مساوٍ: «وأنا عليَّ أن أحتفظ بالقليل من الخصوصية عن طريق عَدم مشاركة اسمي مع كل مَن هَبَّ ودبَّ في وسط كافيتريا.»

أعلن شخصٌ ما يقف في الخلف عن استيائه، وسمعتُ شخصًا آخر يغمغم بشيءٍ ما يشبه اللعن والسب. بدا أننا وصلنا إلى نقطة متأزمة.

قلت: «حسنًا، لا بأس إذن، اسمي هو آنسة 'إليانور أوليفانت'.»

فجحظت عيناه دهشةً وهو ينظر لي.

قال: «سأكتفي بكتابة ... 'إيلي'» وهو يخرفش على الكوب بالقلم. كان 'ريموند' صامتًا، ولكن كان بوسعي الشعور بكتفيه وبدنه غير المتناسق يهتز من فرط الضَحك. كان دوره هو التالي.

قال للبائع: «اسمي 'راؤول'»، وتهجاه له.

عندما تناولنا مشروبينا - من دون أي مشكلة من أي نوع - جلسنا إلى منضدة عند الواجهة الزجاجية وأخذنا نرقب الناس وهي تمر بنا. وضع 'ريموند' في قهوته الأمريكية ثلاثة أكياس سكَّر وأخذ يقلبها، وقاومتُ رغبة مُلحةً في أن أقترح عليه أن يراعي صحته أكثر مِن هذا.

بعد ما مرَّت هنيهة صمتٍ مطمئِنة، قال: «إذن، كيف سار الأمر اليوم؟»

أومأت. قلتُ: «على نحو طيب، في الحقيقة». نظرَ إليَّ باهتمام.

قال: «يبدو عليكِ أنكِ كنتِ تبكين.»

فأخبرته: «نعم، بكيت، ولكن لا بأس. مِن الطبيعي أن يبكي المرء إذا تكلَّم عن أخته المتوفاة.»

التوى وجه 'ريموند' من فَرط الصدمة.

قلت: «لقد ماتت في حريق المنزل. لقد أشعلت ماما النيران عمدًا. كان المقصود ألَّا ننجو، ولكنني نجوتُ بطريقةٍ ما. ومع هذا فإن أختي الصغيرة لم تنجُ.» تحدثتُ بتلك الكلمات في هدوء مثير للاستغراب، وعندما انتهيتُ أشحتُ ببصري بعيدًا، إذ كنتُ أعلم أنَّ وجه 'ريموند' سوف يعبّر عن عواطف لستُ مستعدة تمامًا لأن أخوض فيها الآن مرةً أخرى بينما يستوعب هذه المعلومات. بدأ يتحدث، لكنه تلعثم وتوقف.

قلتُ بهدوء: «أعلم ذلك»، ومنحته دقيقة ليتماسك. فقد كان هذا كثيرًا على استيعاب أي شخص. فقد احتاج مني إلى عقود، على كل حال. أخبرته بأشياء أكثر قليلًا عمَّا حدث 'لماريان'، وعما صنعته ماما.

«والآن بعد أن صار بمقدوري أخيرًا أن أتحدَّث عمَّا صنعته ماما لي، وعمَّا صنعَته لماريان، لا يمكنني على الأرجح أن أظل محتفظةً بوجودها في حياتي. عليَّ أن أتحرَّر منها.»

أومأ لي.

«هل معنى هذا أنكِ سوف ...»

قلتُ: «نَعم، يوم الأربعاء القادم، في المرة التالية التي سأتحدث معها، سأقول لها أنَّنا انتهينا من هذا. حان وقت قَطع الاتصال، إلى الأبد.»

أومأ 'ريموند'، بما يقارب الاستحسان. شعرتُ بالسكينة، وباليقين والعزم على المضي قُدمًا. كان إحساسًا جديدًا تمامًا.

- «ثمَّة شيء آخر أحتاج لأن أفعله أيضًا. أحتاجُ لأن أكتشف كل شيء قد وقعَ لي.. لنا.. آنذاك. إنني أتذكَّر بعض التفاصيل، ولكنني الآن أحتاج لأن أعرف الأمر كله.» تنحنحتُ. «فإذن، هلَّا ساعدتني يا 'ريموند'، تساعدني في الكشف عما وقع، النيران؟» قلتُ، من غير أن أنظر نحوه، وكانت كلماتي لا تسمَع إلَّا بالكاد. «أرجوك؟»

كان طلبُ مساعدة الآخرين مِثل أرضٍ مُحرَّمة عليَّ. وقد قلت ذلك 'لماريا' التي قالت لي: «وإلى أي مدى عملَ هذا لصالحكِ حتَّى الآن؟». لم أسعد كثيرًا بلهجتها الحادة نوعًا ما، ولكنها كانت على صواب. ومع ذلك، فلم يكن معنى ذلك أنَّ الأمر كان يسيرًا.

قال: «بالتأكيد، يا 'إليانور'، أي شيء. في أي لحظة تشعرين فيها بأنكِ مستعدة. أيًا كان ما تحتاجين له.» تناول يديَّ بين يديه وضغطَ عليهما في رفق.

قلتُ: «شكرًا لك»، هادئة، مستريحة. وكذلك مُمتنة.

قال وهو ينظر نحوي: «أعتقد أنَّ هذا مذهل، أقصد ما تفعلينه، يا 'إليانور'.»
هذا ما شعرتُ به: الوزن الدافئ ليديه عليَّ؛ صدقُ ابتسامته؛ الحرارة الرقيقة لشيءٍ ما يتفتَّح، كما قد تتفتَّح بعض الزهور وتنشر بتلاتها في الصباح عند مرأى الشمس. كنتُ أعلم ما الذي يحدث. كان هذا هو الجزء الخالي من الندوب في قلبي، كان كبيرًا بما يكفي ليسمح بدخول قليلٍ مِن الحنان إليه. كانت لا يزال هناك مساحة صغيرة أخرى شاغرة.
قلتُ هامسةً: «'ريموند'، لا يمكنكَ أن تتخيَّل معنى وجودك بالنسبة لي، أن يكون لديَّ صديق - صديق مخلص وصادق ومهتم بي. لقد أنقذتَ حياتي.» وخشيتُ أن الدموع قد تغلبني، هنا في الكافيتريا، وتصيبنا بالحَرج. الآن وقد بدأتُ أبكي في الأماكن العامة وأمام الناس أكثر من أي وقتٍ مضى، بدا لي أنني قد أفعل ذلك مِن دون تفكير أو تردد.
ضغطَ 'ريموند' على يديَّ بشدة، وقاومتُ أنا، بنجاح، النزوة المفاجئة في أن أنتزعهما بعيدًا وأن أضعهما وراء ظهري.
«لا تشكريني، يا 'إليانور'. كنتِ ستفعلين الأمر نفسه معي، تعلمين ذلك.»
أومأتُ له. ما أدهشني أنَّني أدركتُ أنه كان محقًا.
قال وهو يهز رأسه مبتسمًا: «أتذكَّر المرة الأولى التي قابلتكِ فيها، اعتقدتُ أنكِ مخبولة تمامًا.»
فقلتُ له: «وأنا مخبولة تمامًا»، مندهشة من أنه قد يظن عكس ذلك. طوال حياتي، كان الناس يخبرونني بذلك.
فقال مبتسمًا: «كلَّا، لستِ كذلك. ومع ذلك، نعم، لديكِ بعضُ العصافير في دماغك، قليلة جدًا - ولكنها عصافير ظريفة وطيبة. أنتِ تُضحكينني، يا 'إليانور'. أنت لا تكترثين بالمرَّة للأمور الغبية - لا أدري، من قبيل الكياسة واللياقة، وآداب التعامل بين الموظفين أو أي حماقات فارغة من تلك التي يُفترض بالناس مراعاتها. أنتِ تفعلين ما بدا لكِ والسلام، صحيح؟»
كنتُ أبكي الآن - لم يكن من ذلك مهرب. قلتُ له: «'ريموند'، أيها الخنزير. لقد جعلتَ كُحل عينيَّ الدخاني يذوب دموعًا سوداء.» كنت منزعجة عندما شرعتُ أقول هذا، ولكنني بعد ذلك شرعت أقهقه، وأخذ يضحك هو أيضًا. مرَّر لي المناديل الورقية الرديئة للمقهى فمسحتُ البقايا الداكنة.
قال: «أنتِ أفضل مِن دونه.»
فيما بعد، سرنا صوب النقطة التي سنفترق عندها حتَّى يبحث كلٌ منا عن محطة الحافلات الخاصة به.
قال: «أراكِ قريبًا، إذن؟»
قلتُ، مبتسمة له: «أوه، سوف تراني أقرب ممَّا تظن!»
«ماذا تقصدين؟»، وبدا متحيرًا ومتسليًا قليلًا.
«مفاجأة!»، قلتُ له، وأنا أشير بيديَّ وأهز منكبيَّ في مبالَغة. لم يسبق لي أن رأيتُ ساحرًا على المسرح، ولكن كان هذا هو المظهر الذي أحاول أن أقلده. انفجرت ضحكات 'ريموند'.
قال، وهو لا يزال مبتسمًا بينما ينبش في جيوبه عن سجائره: «سأنتظرها على أحر مِن الجَمر.»
تركته وأنا في حالة عقلية مشتتة قليلًا، كانت أفكاري تعود إلى 'ماريان' وإلى أمي. أمامي الآن عملٌ عليَّ أن أنجزه. كان الماضي يختبئ متخفيًا مني - أو كنتُ أنا أختبئ متخفية منه - ومع هذا فلا يزال هناك، رابضًا في الظلام. حانَ وقت السماح بدخول قليلٍ من النور.

(٣٩)

عودةٌ إلى العَمل! أيقظني مِن نومي العميق صياح ديك الفجر. وكان الصوت هذا الصباح المجيد مدعومًا ببطارية جافة متوسطة الحجم ومنقولًا عبر سماعة ضئيلة للغاية، ومجلوبًا بواسطتي أنا عندما ضبطتُ منبه ساعتي الكبيرة في المساء السابق، وليس بسبب ارتفاع في مستوى هرمونات الذكورة وضوء الشمس، كَمَا هو الحال مع أصدقائنا الدِيكة. مِن الإنصاف القول أنَّ غرفة نومي في الوقت الراهن خالية تمامًا من هرمونات الذكورة ومن ضوء الشمس. غير أن الشتاء يمر، هكذا حدَّثتُ نفسي - تذكَّري ذلك يا 'إليانور'. كانت 'جلين' تغطُّ في نومٍ عميق فوق قدميَّ أعلى اللحاف، محتفظةً به دافئًا وبذلَت أقصى جهدها لتتجاهل صوت المنبه.

كنتُ أشعرُ بالحماس والتلهف إزاء اليوم بشكل مسبق، وارتديتُ بلوزة بيضاء جديدة، وتنورة سوداء جديدة، والجوارب السوداء الطويلة اللاصقة بالجسد حتَّى الخصر، والحذاء طويل الرقبة الذي حصلتُ عليه منذ فترة لحضور حفلة ما كان ينبغي أن أذهب إليها على الإطلاق. بدت لي هيئة وسيمة، وعملية، وأيضًا *طبيعية*. نعم، كنتُ عائدةً إلى العمل.

منذ سنوات بعيدة، كنتُ في رعاية إحدى الأسر البديلة التي عشتُ معها، عندما أخذني الأهل بصحبة طفليهما، في «رحلة مشتريات موسم العودة للمدارس». ثلاثتنا كان مسموحًا لنا أن نختار أحذية جديدة وحقائب مدرسية جديدة، وتم تزويدنا بكل مستلزمات زي مدرسي جديد تمامًا (حتَّى لو كانت تنورتي وسترتي من العام السابق لا تزال على مقاسي بالضبط). أفضل ما في الأمر، انتهاء الرحلة بزيارة أحد فروع متاجر 'دابليو إتش سميث' للأدوات المكتبية، حيث فُتحت أمامنا كنوزٌ من ممرات وأرفف محمَّلة بالأدوات لنغترف منها كما نشاء. حتَّى الأغراض الأشد تفاهة والتي تكاد تكون بلا أغراض واضحة (مثلثات، مشابك بصور فراشات، وخيوط دوبارة بحلقات معدنية: فيم يُستَعمل كل ذلك؟) كان مسموحًا بها، ثم وضعَ كلٌ منَّا غنيمته هذه في مقلمة جميلة كبيرة ذات سحَّاب والتي كانت ملكي، ملكي، ملكي. لستُ من الأشخاص الذين يميلون لوضع العطر عمومًا، وأُفضِّل على ذلك رائحة الصابون العادية ورائحتي الطبيعية، ومع ذلك، فلو كان من الممكن أن أشتري زجاجة فيها عطر مستخلص من بُرادة بَري الأقلام الرصاص الجديدة والفوح النفطي لممحاة فُركت للتو، الاثنين معًا، فلسوف يسعدني تمامًا أن أغمر نفسي به يوميًا.

تناولتُ إفطاري (عصيدة حبوب وثمرة برقوق، كالمعتاد) وغادرت في وقتٍ مناسب للّحاق بالحافلة. كانت 'جلين' لا تزال نائمة، وقد انتقلَت إلى تحت اللحاف لتشغل المساحة الدافئة بمجرد أن أخليتُها. تركتُ لها بعض الماء الجديد ووعاءً كبيرًا بطعامها الجاف لكنني أشك في أنها قد تنتبه إلى أنني غادرت البيت حتَّى تسمع صوت مفتاحي في قفل الباب بالليل. كانت سهلة المراس للغاية من هذه الناحية (رغم أنها ليست كذلك بالمرة، لا بدَّ من الاعتراف، في كثيرٍ من النواحي الأخرى).

كان طريق سيري القصير حتَّى محطة الحافلة أشد إثارة للاهتمام ممَّا أتذكَّر عنه، ربما لأنني كنتُ أراه بعينين جديدتين بعد كل ذلك الغياب الطويل. كان هناك قدر كبير من البقايا والأوراق المتناثرة على الأرض ولم يكن هناك سِلال للمهملات؛ تلك حقيقتين متلازمتان بكل تأكيد. كان هذا الجزء من المدينة رماديًا لدرجة عنيفة، غير أنَّ الحياة النباتية الخضراء لا تزال تكافح للوجود: طحلب على الجدران، عُشبٌ في فتحات الميازيب، وشجرة عارية مهجورة بين الحين والآخر. لَطَالما عشتُ في مناطق حضرية، ولكنني أشعر بالحاجة إلى الخُضرة مثل شوقٍ عميقٍ في داخلي.

عندما كنتُ على وشك أن أبلغ التقاطع الذي أعبر منه لكي ألحق بالحافلة، توقّفت متجمدة في موضعي، وقد انجذبت عيناي نحو حركة ماكرة، اندفاعةٍ محسوبة من شيء لونه أحمر يميل للبني. أخذتُ نفسًا، وتسرَّب هواء الصُبح البارد إلى رئتيَّ. تحت الوَهج البرتقالي لعمود الإنارة، كان هنالك ثعلبٌ يشرب قدحًا من القهوة. لم يكن يمسكه بين قدميه الأماميتين - فكَما تمَّ التأكيد على ذلك، أنا لستُ *مجنونة* - غير أنه بدلًا من ذلك كان يغمس رأسه نحو الأرض ويلعق قدح قهوة مِن 'ستاربكس'. استشعرَ الثعلب مراقبتي له، فرفع بصره وثبت نظرته على عينيَّ في حزم. كأنه كان يقول لي: «ما مشكلتك؟ آخذُ قهوةَ الصباح، مسألة كبيرة يعني!» واصل ارتشاف شرابه. ربما كان قد سهر لوقتٍ متأخر ليلة أمس وسكرَ حتَّى طُردَ من الحانة وبات إلى جانب صناديق القمامة، والآن كان يواجه صعوبة شديدة في أن يبدأ هذا النهار البارد المعتم. ضحكتُ ملء فمي وواصلت سيري.

بينما كنتُ في الإجازة أخبرني 'بوب' أن أمرَّ بالمكتب وقتما أشاء، أو أتصل لمجرد الثرثرة كلما أردتُ ذلك. الأسبوع الماضي، وقبل بضعة أيام مِن موعد انتهاء إجازتي المرضية، كنت لا أزال مترددة هل أزور الطبيبة مرة أخرى وأطلب مدَّ الإجازة، أم أعود إلى العمل بداية من يوم الإثنين التالي، لذا اتصلتُ به، وكنت غير راغبة في الدخول إلى المكتب خشية أن أواجه أسئلة فضولية من زملائي من غير أن أستعدَّ أولًا بإجاباتٍ ملائمة.

قال 'بوب': «'إليانور'! عظيمٌ أن أسمعَ صوتكِ! كيف الأحوال؟»

قلتُ: «شكرًا لكم على الزهور، أنا بخير ... أو فلنقل إنني أفضل حالًا بكثير، شكرًا لك، يا 'بوب'. لقد مررتُ بفترة عسيرة لكنني حققتُ تقدمًا طيبًا.»

قال: «عظيم، هذه أخبارٌ عظيمة! إذن هل تعلمين متى، إممم، متى قد يُرجَّح أن تعودي إلى العمل؟» سمعتُه يتنفس نفسًا عميقًا إذ ساوره القلق بشأن ما قاله للتو. «لا داعي للعجلة، الآن ... لا داعي بالمرة للعجلة. لا أضغطُ عليكِ - خذي كل الوقت الذي تحتاجين إليه. ولا ترجعي حتَّى تشعري أنكِ مستعدة تمامًا.»

قلتُ، مجترئةً على محاولة دُعابة: «ألا *تريدني* أن أعود، يا 'بوب'؟»

ضحك ضحكة صغيرة. «ما هذا يا 'إليانور'؟ هذا المكان ينهار تمامًا مِن غيركِ! يا للمسيح، 'بيلي' لا يملك أدني فكرة عن تحرير فاتورة، أمَّا عن 'جيني'...»

فقلت وأنا أبتسم: «'بوب'، 'بوب'، لقد كنتُ أمزح»، لا بدَّ أن أقرَّ بشعورٍ طفيف بالرضا عن الذات إزاء الطريقة المتردية التي حملَ بها زملائي العمل في غيابي.

«مزحة، 'إليانور' تمزح! حسنًا، تلك علامة عظيمة - لا بدَّ أنكِ تتحسنين إذن»، هكذا قال 'بوب'، بنبرة ارتياح، إمَّا لأنها بسبب المزحة وإمَّا لأنني كنتُ أتحسَّن - أو كليهما، على ما أظن.

قلتُ: «سوف أعود يوم الإثنين، يا 'بوب'، أنا مستعدة.» كان صوتي حازمًا ومترعًا بالثقة.

فقال: «عظيم! وأنتِ واثقة أنه الوقت المناسب؟ آاه، ذلك أمر رائع، يا 'إليانور'، وأنا أتطلَّع لرؤيتكِ يوم الإثنين إذن.» كنتُ متأكدة من أنه كان صادقًا نظرًا لكل الدفء الذي كان ينبعث من الهاتف. إنَّ صوت المرء يتغيَّر عندما تبتسمين، الابتسامة تبدل الصوت بطريقةٍ ما.

قلتُ: «شكرًا جزيلًا لكَ لأنكَ كنتَ متفهمًا بشأن كل ... بشأن كل شيء، يا 'بوب'»، وأحسستُ بعقدة تتكوَّن في حلقي. وأنا آسفة لأنني لم أكن دائمًا الموظفة ... شديدة الحماس ... على مدى سنوات...»

فقال: «آخ، لا تقولي هذا»، وكان بوسعي تقريبًا أن أراه يهز رأسه نفيًا. «لن يعودَ هذا المكان

هو نفسه من دونكِ، يا 'إليانور'، بكل تأكيد لن يعود كما هو. أنتِ مؤسسة كاملة.»
سمعتُ رنين هاتفه الجوّال. ونطق بكلمة استياء.
- «أنا آسف للغاية، لكنني لا بدَّ أن أردَّ على هذه المكالمة، يا 'إليانور' - إنه عميلٌ جديد. والآن، انتبهي لنفسك جيدًا، وسوف نراكِ جميعًا يوم الإثنين، صحيح؟»
أجبتُه: «صحيح.»
أتذكَّر أنني بينما كنتُ أضع سمَّاعة الهاتف كنتُ أفكّر أنني أتمنى من كل قلبي ألّا تُحضر 'جيني' للعمل إحدى كعكاتها المعدَّة في المنزل احتفالًا بعودتي، كما كانت تفعل كثيرًا عندما يغيب البعض في إجازة. فلم تكن كلمة جاف تكاد تقترب حتَّى من وصف ذلك النسيج اليابس القاحل لكعكاتها الإسفنجية بالقهوة والجوز.
عندما عُدت إلى العمل، كان المكتب من الخارج يبدو غير مشجع ولا جذَّاب كالعهد به دائمًا، وترددتُ قليلًا في الخارج. لقد تغيَّبتُ عن العمل لمدة شهرين تقريبًا، ومَن يدري أي نوعٍ من الشائعات التي بلا أساس قد تناثرت حول أسباب تغيبي. كما أنني لم تخطر لي فكرة واحدة -بالأحرى لم أستطع ذلك- طوال ذلك الوقت عن الجداول الإلكترونية، وحسابات المقبوضات، وأوامر الشراء وضريبة القيمة المضافة. أما زال بوسعي أداء عملي؟ لم أكن واثقة من أنني أستطيع أن أتذكَّر أي شيء؟ كلمة السر لجهازي؟ طبعًا. كانت العبارة اللاتينية: Ignis aurum probat. [الذَهب يُمتَحن بالنار.] وبقيتها كانت تقول: «... والشُجاع يُمتَحن بالشدائد». ما أصدق هذا. كلمة سر قوية، قوية حقًا، تمامًا كما يطلب نظام الكمبيوتر. شكرًا جزيلًا لكَ يا 'سينيكا'[64].
بلى، لكنني شعرتُ في صدري بإرهاصات ذعر مرتجف. لا أستطيع أن أفعل هذا. أليس كذلك؟ لم أكن مستعدة للمواجهة. سأعود إلى المنزل وأتصل 'ببوب' وأبلغه بأنني سآخذ أسبوعًا آخر إجازة. وسوف يتفهَّم.
سمعتُ صوت خطواتٍ تقترب من خلفي على الطريق، فمسحتُ بسرعة الدموع التي قد تكونت بينما كنتُ أرنو إلى المبنى الرابض أمامي. بلا أي إنذار أو إشعار مسبق، وجدتُ نفسي أُجذَب وألتف بزاوية مائة وثمانين درجة وأتهشَّم في عناق حار. كان هناك الكثير للغاية من الصوف (قبعة، وشاح، قفازان)، وشُعيرات وخَّازة كالشوك، ورائحة تفاح وصابون وسجائر 'مارلبورو' أحمر.
قال 'ريموند': «'إليانور'! إذن كان ذلك قصدكِ عندما قلتِ إنكِ ستريننني قريبًا.»
تركتُ نفسي أُحتضَن، بل دنوتُ أكثر مِن عناقه في الحقيقة، لأنني، وعليَّ أن أعترف، في تلك اللحظة بعينها وفي تلك الظروف بعينها، وبما كنتُ أشعر به تحديدًا، كان إحساسي بأنه يحتضنني ليس أقل من مُعجزةٍ صغيرة. لم أقل شيئًا، وببطءٍ بالغ، زحف ذراعاي للأعلى، في تردد ووجلٍ مثل ضوء شمس الشتاء، بحيث استقرتا حول خصره، بحيث أستطيع أن أدفن نفسي في حضنه على نحوٍ أفضل. استراح وجهي على صدره. هو أيضًا لم يقل شيئًا، لأنه ربما كان يخمّن، بأن أكثر ما كنتُ بحاجة إليه في تلك اللحظة هو بعينه وبكل دقة ما كان يقدمه لي بالفعل، لا أكثر.
وقفنا هكذا لبضع دقائق، ثم تراجعتُ خطوة وأعدت تريب شعري، ومسحتُ عينيَّ. ألقيت نظرة على ساعة يدي، وقلت له: «أنت متأخر عن العمل عشر دقائق، يا 'ريموند'.»
ضحكَ. «وأنتِ أيضًا!» خطا للأمام مِن جديد، ممعنًا النظر فيَّ. بادلته النظر في ثقة، تمامًا كما فعلَ الثعلب في وقت سابق.
أومأ، قائلًا: «هيا بنا»، ومدَّ ذراعه نحوي، «كلانا متأخرٌ الآن. فلندخل. لا أعرف ما رأيك،

ولكنني في أشد الحاجة إلى كوب من الشاي، هه؟»

شبكتُ ذراعي في ذراعه وسارَ بي للداخل، طوال الطريق حتَّى باب قسم الحسابات. ثم فككتُ ذراعي منه هناك بأسرع ما أمكنني، خشية أن يرانا شخصٌ ما ونحن معًا على هذا النحو. انحنى وقرَّب وجهه للغاية من وجهي، متحدثًا بنبرة أحسبها أبوية (على الأقل هذا ما أفترضه - بما أنَّ الأبوة لم تكن ضمن مجالات خبرتي في الحياة، على كل حال).

قال لي: «والآن إذن، إليكِ ما سوف يحدث. سوف تدخلين إلى هناك، وتعلّقين معطفكِ، وتُشغلين غلاية الماء وتبدأين. لن يصنع أيٌّ منهم جلبة، ولن يكون هناك أي دراما - سيبدو الأمر كما لو أنكِ لم تتغيبي بالمرة.»

أومأ مرة واحدة، كما لو كان يؤكّد فكرته.

- «لكن ماذا لو -»

قاطع حديثي: «بكل أمانة، يا 'إليانور' - ثقي بي. سيكون الأمر في غاية الروعة. لقد كنتِ مريضة، وأخذتِ بعض الوقت على سبيل الإجازة حتَّى تتحسَّن صحتك، والآن ها أنتِ ذا، وقد عُدتِ إلى ساحة المعركة. أنت ممتازة في عملك، وسوف يشعرون جميعًا بفرحة غامرة لعودتك بينهم من جديد. نقطة ومن أول السطر.» هكذا قال، بجدية، بإخلاص. وبمنتهى الطيبة كذلك.

شعرتُ فعلًا بأنني أفضل حالًا بعد أن قال هذا - أفضل كثيرًا.

قلتُ بهدوء: «شكرًا لكَ، يا 'ريموند'.»

قرصني في ذراعي - برفق شديد، ليست قرصة حقيقية - وابتسم.

قال وعيناه متسعتان في ذعرٍ مفتعل: «لقد تأخرنا جدًا! ألقاكِ لتناول الغداء في الواحدة؟»

أومأتُ له.

قال مبتسمًا: «هيا اذهبي إذن، ادخلي هناك ودمريهم جميعًا!» ثم انطلق، متمايلًا على الدَرج وكأنه فيل في السيرك يتعلَّم حيلة جديدة. تنحنحت، ومسّدت تنورتي للأسفل، وفتحتُ الباب.

فلنبدأ بالأهم قبل المهم: قبل أن أتجه إلى مكتبي وأواجه الجميع، كان عليَّ أن أخوض مقابلة العودة إلى العمل المخيفة. لم يسبق أن أجريتُ واحدةً مِن قبل، ولكنني سمعتُ الآخرين يغمغمون بشأنها فيما مضى. على ما يبدو، يُرغمك قسم الموارد البشرية على إجراء مقابلة مع مديرك المباشر إن تغيبت عن العمل لأكثر من يومين، ظاهريًا لكي يتأكَّد من أنك قد تعافيتَ تمامًا ومستعد لأداء عملك، ولكي يرى إن كان من اللازم إجراء أي تعديلات تضمن أن تبقى على ما يرام. أمَّا في الحقيقة، مع ذلك، فالرأي العام ينظر نحو هذه العملية على أنها مصممة خصيصًا لترهيب العاملين من التغيب، أي لزجرهم، ولتقصى ما إذا كانوا - ما هي الكلمة المناسبة؟ آه بلى، *يتسرّبون* بحججٍ واهية. ورغم هذا فإن أولئك الأشخاص ليس لديهم 'بوب' كرئيس مباشر. رؤساء الأقسام فقط عليهم الرجوع إلى 'بوب'. وأنا أنتمي إليهم الآن، الحرس الإمبراطوري، المختارين. غير أنَّ 'بوب' كان مِن نوع آخر من الأباطرة.

نهضَ واقفًا وقبَّلني على وجنتي، وبينما احتضنني ضغطَ كرشه عليَّ وجعلني أريدُ أن أضحك. ربَّت على ظهري أكثر من مرة. كان الأمر برمته مُحرجًا إلى حد لا يطاق، ومع ذلك فقد كان لطيفًا حقًا.

أعدَّ لي كوبًا مِن الشاي وأصرَّ أن أتناول بسكويت، وكان حريصًا على أن أشعر بالراحة تمامًا.

«والآن يا 'إليانور'، هذه المقابلة ليست شيئًا يدعو للقلق بالمرة، مجرد شكليات - لأن قسم الموارد البشرية يزعجني كثيرًا إن لم أقم بتلك الأشياء، تعرفين كيف هو الحال.» ورسم تعبيرًا عابسًا.

«كل ما نحتاج إليه هو أن نسد خانة» (ماذا؟) «ونملأ استمارة ونوقعها، ثم أتركك تعودين للعمل.»
كان يحتسي من قدح قهوة، وسكب بعضًا منها على صدر قميصه. كان 'بوب' يرتدي قمصانًا خفيفة، وصدرية مرئية من الأسفل، ممَّا أضاف للانطباع العام لتلميذٍ بدين. تنقَّلنا خلال قائمة من الأسئلة المدرَجة والتافهة لدرجة مهينة من استمارةٍ ما. كانت عملية هينة في مجملها، وهو ما أراح كلًا منا بكل وضوح، وإن كانت مضجرة بدرجة ما.
قال: «حسنًا إذن، انتهينا من ذلك. شكرًا للرب. هل هناك أي شيء آخر أردتِ أن تتحدثي بشأنه؟ أعرف أنه من العجلة الآن الدخول في التفاصيل. يمكننا أن نلتقي مرة أخرى غدًا حينما تكوني قد استطعت أن تواكبي إيقاع العمل عمومًا. إذا وددتِ؟»
قلتُ: «ماذا عن حفل غداء الكريسماس، هل تم ترتيب أمره الآن؟»
امتعض وجهه الصغير المستدير، وسبَّ ولعن بطريقة أبعد ما تكون عن براءة الأطفال.
قال: «لقد نسيت ذلك الأمر تمامًا! كان هناك الكثير للغاية من الأمور الأخرى، وهذا الشيء قد.. لا أدري.. انزلق خارج مَجال رصدي تمامًا. سُحقًا ...»
قلتُ: «لا تخشَ شيئًا يا بوب، سوف أعالج المسألة بأسرع ما يمكنني.» توقفت قليلًا. «أقصد، بعد أن أستدرك كل الحسابات، بطبيعة الحال.»
بدا عليه القلق. سألني: «هل أنتِ متأكدة؟ لا أريد حقًا أن أضع ضغطًا إضافيًا على كاهلك الآن، يا 'إليانور' - لقد عدتِ لتوك، وأنا واثق أنه سيكون أمامك ما يكفي ويزيد من العمل ...»
قلتُ له بثقة: «لا مشكلة، يا بوب»، ورفعت الإبهامين، وكنتُ هنا أجرب للمرة الأولى الإشارة المفضلة لدى 'ريموند'. ارتفع حاجبا 'بوب'. تمنيتُ أن أكون قد استخدمت الإشارة بشكل صحيح، وفي السياق المناسب لها. أنا بارعة جدًا مع الكلمات على وجه العموم، ولكن لا بدَّ أن أعترف بأنني كنت أتعثر بسهولة مع هذا النوع من الأشياء.
قال: «لا بأس، ما دمتِ واثقة مئة بالمئة...»، وإن لم يبدُ هو نفسه، كما لا بدَّ أن أشير، واثقًا ثقة خاصة.
أومأت وأنا أقول: «واثقة تمامًا، يا 'بوب'. سوف يتم تأكيد كل شيء وسوف تكون الترتيبات كلها تامة بنهاية هذا الأسبوع. يمكنك أن تعتمد على هذا.»
قال وهو يوقّع على الاستمارة: «آه، حسنًا، سيكون هذا عظيمًا»، ثم ناولني الاستمارة. «أحتاج منكِ فقط أن تملأي ذلك القسم في النهاية، وبهذا نكون قد انتهينا.» وقعت توقيعًا مزخرفًا. لم تكن هناك فرص كثيرة لاستخدام توقيعي في حياتي اليومية، وهو ما كان أمرًا مؤسفًا، لأنَّ لدي توقيع مختلف ومثير للغاية. لا أقصد أن أتباهى، ولكن كل من رأى توقيعي تقريبًا علق على مدى تميزه وخصوصيته. لكنني شخصيًا لا أرى ما سر كل هذه الجلبة بشأنه. فأي شخص يمكنه أن يكتب حرف الواو مثل قوقعة مستديرة إذا شاء ذلك، وأن يمزج بحسٍ جمالي بين الحروف الكبيرة والصغيرة - يكفل هذا له أنَّ التوقيع من الصعب تزويره. الأمان الشخصي، وتأمين البيانات: في غاية الأهمية.
عندما جلستُ إلى مكتبي أخيرًا، كان أوَّل ما لاحظته هو الزهور. كانت مختفية وراء الشاشة عندما اقتربت من المكتب، ولكنني الآن أرى المزهرية (حسنًا، كانت في الحقيقة كأسًا زجاجية كبيرة؛ لم يكن في المكتب قَط ما يكفي من المزهريات، ولا سكاكين تقطيع كعك، ولا كؤوس شمبانيا طويلة، رغم أنَّ الموظفين يحتفلون بمناسبات اجتماعية مهمة بوتيرة أسبوعية تقريبًا). كانت الكأس حافلة بالزهور، الأيلكس وزهرة الحب والزنابق، كانت في غاية الروعة.

كان هناك مظروف موضوعٌ أمام الباقة. فتحته ببطء. كان بداخل المظروف بطاقة تهنئة، على واجهتها صورة فوتوغرافية مذهلة لسنجاب أحمر يأكل ثمرة جوز، ومن الداخل كتبَ شخصٌ ما ('برناديت'، على ما أظن، نظرًا لخط اليد الطفولي): **«عَودٌ أحمد يا 'إليانور'!»** والكثير للغاية من التوقيعات، مصحوبة بكلمات *أطيب الأمنيات* أو *كل الحب* موزَّعة على كلا جانبي البطاقة. كنتُ متفاجئة نوعًا ما. كل الحب! أطيب الأمنيات! لم أعرف بالضبط فيمَ عليَّ أن أُفكر.

قمتُ بتشغيل الكمبيوتر وأنا لم أزل أتأمل هذا الأمر. كان هناك الكثير للغاية من الرسائل الإلكترونية التي لم يُرَد عليها فاتجهت مباشرةً لتلك الخاصة باليوم، وأنا أفكر أنني ببساطة سوف ألغي جميع الرسائل الأخرى. سوف يتواصل معي مرسلوها مرةً أخرى إن كان أمرًا هامًا بكل تأكيد. كانت الرسائل الأحدث مرسلة منذ عشر دقائق فقط، كانت من 'ريموند'. وكان الموضوع بالأعلى يقول: **«اقرأيني!!!»**

حسبتُ أنه سيكون من الأفضل أن أكتب ذلك في خانة الموضوع بما أنكِ غالبًا لديك عشرة ملايين رسالة غير مقروءة في صندوق بريدك الوارد الآن. LOL. كان عليَّ أن أخبركِ في ذلك الأصيل، أنَّ معي تذكرتين لحفل موسيقي، موسيقى كلاسيكية، لا أدري إن كنت تحبين ذلك النوع ولكنني فكرت في أنك ربما تحبينها؟ إنها يوم السبت بعد أسبوعين من الآن إن كنتِ غير مشغولة - وربما يمكننا أن نذهب لنأكل شيئًا بعد الحفل؟

أراك @الغداء.

ري. X

قبل أن تتسنى لي فرصة الرد، أدركتُ أنَّ زملائي قد تجمَّعوا في دائرةٍ حول مكتبي من غير أن ألاحظَ ذلك. تطلَّعت إليهم. تراوحت تعبيرات وجوههم ما بين الضجر وفِعل الخير. بدت 'جيني' مهتمة بقدر معتدل.

قالت، وكان من الواضح أنه تمَّ انتخابها لتكون المتحدث الرسمي بلسانهم: «إننا نعلم أنكِ لا تحبين الجلبة الكثيرة، يا 'إليانور'. أردنا فقط أن نقول أننا مسرورون لأنكِ تعافيتِ، وأنكِ.. تعلمين.. رجعتِ بالسلامة!» كانت هناك إيماءات رؤوس وغمغمات تأييد. تواصلت الخطابات، التي لم تكن في فصاحة خطابات 'تشرشل'، ومع ذلك فقد كانت لفتة أخرى في غاية الطيبة والاهتمام.

لم أكن أتمتع بالفصاحة في التحدث على الملأ، لكنني شعرتُ بأنهم لن يشعروا بالرضا من غير بضع كلمات مِني.

قلتُ، في نهاية الأمر، وعيناي على المكتب بينما أتحدث: «أشكركم جميعًا شكرًا جزيلًا حقًا على الزهور والبطاقة والأمنيات الطيبة». مرت هنيهة صمت لم يعرف أي شخص كيف يملأها، وأنا على وجه الخصوص. رفعت بصري وتطلَّعت إليهم.

قلتُ: «حسنًا إذن، لا أظن أنَّ كل تلك الفواتير المتأخرة سوف تحرر نفسها بنفسها، صحيح؟»

فقال 'بيلي': «لقد عادت!»، وسرى الضحك، حتَّى أنا نفسي ضحكت. نعم، صحيح. 'إليانور أوليفانت' قد عادت.

(٤٠)

إنها ليلة الأربعاء. لقد حانَ الوقت.

قلتُ: «ألوه، ماما». سمعتُ صوتي - كانت له نبرة جامدة بلا أي عاطفة.

أجابت بحدة وغيظ: «وكيف عرفتِ؟»

فقلتُ: «إنه أنتِ *دائمًا*، يا ماما.»

«وَقحة! إياكِ والتطاول، يا 'إليانور'. هذا لا يليق بكِ. ماما لا تحب البنات غير المؤدبات اللاتي يردُنّ على الكلام بوقاحة، أنت تعرفين ذلك.»

الأسطوانة القديمة هذه - توبيخ سمعته مرات عديدة للغاية من قبل.

قلت: «أنا لم أعد أهتم بما تحبين أو لا تحبين، يا ماما.»

سمعتُ ضحكتها الصغيرة؛ موجزة ومتهكمة.

- «آه يا ربي. يبدو أن أحدهم مزاجه متعكر. ما هذا - أهي تلك الفترة الشهرية؟ *هرمونات*، يا حبيبتي؟ أم أنه شيء آخر ... دعيني أرى. هل هناك شخص ما كان يحشو رأسك بكلام فارغ؟ ويخبرك بأكاذيب عني؟ كَم من المرات قد حذَّرتكِ بشأن ذلك؟ إن أمكِ ليست - »

قاطعتُها. «ماما، إنني سوف أودعكِ الليلة.»

ضحكَتْ. «تودعيني؟ لكن هذا يبدو بالأحرى.. نهائيًا.. يا حبيبتي. لا داعي لذلك، هيا دعكِ من هذا الآن. ماذا قد تصنعين من غير أحاديثنا الصغيرة معًا؟ وماذا عن مشروعكِ المتميز - ألا تعتقدين أن عليكِ إطلاع ماما على مدى تقدمك فيه، على الأقل؟»

- «المشروع لم يكن هو الحل، يا ماما. وكان خطأ منكِ، خطأ بالغ منك، أن تخبريني بأنه الحل.» هكذا قلتُ لها، ولم أكن حزينة، ولم أكن سعيدة، بل أقر الحقائق بحياد.

ضحكَت: «كانت فكرتكِ *أنت*، على ما أتذكر، يا حبيبتي. أنا فقط ... شجعتكِ من موضعي على مقاعد المتفرجين. هذا ما قد تفعلَه أي أم تدعم أبناءها، صحيح؟»

فكَّرتُ في هذا. تدعم أبناءها. تدعم تعني أن ... ماذا كان معناها؟ تعني الاهتمام بسلامة ومصلحة الآخرين، وتعني تمني الأفضل لهم. تعني غسل الشراشف المتسخة لفراشي والتأكد من عودتي للبيت في أمان وشراء بالون مضحك عندما أشعر بالحزن. ليس لدي رغبة في إعادة سرد قائمة إخفاقاتها وآثامها، ولا أن أصف أهوال الحياة التي عشناها آنذاك فيما مضى ولا أن أخوض في كل ما صنعت أو لم تصنع 'لماريان'.. ولي. لم يكن هناك أي جدوى من ذلك.

قلت وأنا أحاول أن أبذل كل جهدي لأحتفظ بصوتي هادئًا.. من دون نجاحٍ تام في ذلك: «لقد أضرمتِ النار في المنزل بينما كنتُ أنا و'ماريان' نائمتين بداخله. لقد ماتت هنالك. لا أعتقد أننا يمكن أن نسمى هذه أفعال أمٍ تدعم أبناءها.»

قالت بنبرة انتصار في صوتها: «هناك *حقًا* شخص ما كان يخبرك بأكاذيب - كنتُ أعلم هذا!» تحدثت بانطلاق وبكل حماسة. «اسمعي، ما فعلتُه، يا حبيبتي - أي شخص كان ليفعل الأمر نفسه لو كان في نفس موقفي. الأمر كما أخبرتكِ تمامًا: إن كان هناك شيء بحاجة لأن يتغير فلتغيريه! بطبيعة الحال، ستكون هناك بعض المتاعب في غضون ذلك ... ولكن عليكِ ببساطة أن تتعاملي معها، وألَّا تنشغلي أكثر بالعواقب أكثر من اللازم.»

بدت نبرتها سعيدة، مسرورة لأنها تقدم لي النصح. أدركتُ أنها كانت تتحدث عن قتلي أنا و'ماريان'، تلك كانت *متاعبها*. وبطريقة غريبة للغاية، كان هذا نافعًا لي.

أخذتُ نَفسًا عميقًا، رغم أنني لم أكن بحاجة لذلك حقًا.

قلتُ: «وداعًا، يا ماما.» الكلمة الأخيرة. كان صوتي حازمًا، ومترويًا، وواثقًا. لم أكن حزينة. وأيضًا.. مِن وراء كل هذا، كان شيءٌ ما مثل جنينٍ يتكوَّن - صغير، في غاية الصِغر، بل هو بالكاد عنقود من الخلايا، وخفقة قلبه بحجم رأس دبوس. هذا أنا. 'إليانور أوليفانت'.

وبهذه البساطة، اختفت ماما.

أيامٌ أفضل

(٤١)

رغم أنني كنتُ أشعر أنني في أفضل حال، وأنني بالفعل مستعدة للعودة إلى معمعة المعركة، فقد أصرَّ قسم الموارد البشرية على «عودة متدرجة»، حيث كنتُ أمارس عملي لمدة أسابيع قليلة خلال فترات الصباح فقط وليس بعد استراحة الظهيرة. دليل على حماقتهم - فإن كانوا يرغبون في أن يدفعوا لي راتب دوام كامل من أجل ساعات عمل دوام جزئي، فتلك مسؤوليتهم. في استراحة الغداء يوم الجمعة، وفي نهاية يوم عملي المختصر، وأيضًا نهاية أول أسبوع لعودتي للعمل، التقيتُ 'ريموند' للمرة الثانية في ذلك الأسبوع.

منذ لقائنا السابق، ظللنا نتواصل فقط عبر الوسائل الإلكترونية. أمضيتُ المساء السابق أجري بحثًا على الإنترنت. كان من السهل للغاية أن أكتشف أشياء.. أسهل ممَّا يجب.. ربما. طبعتُ مقالتين صحفيتين من دون أن أقرأ أكثر من العناوين، ثم أغلقتُ عليهما مظروفًا. كنتُ أعلم أنَّ 'ريموند' قد عثرَ عليهما بنفسه من قبل، ولكن كان من المهم لي أن أجري *بنفسي* عملية البحث. كان هذا التاريخ تاريخي *أنا* وليس أي شخصٍ آخر. ليس شخصًا آخر مِن بين الأحياء، على كل حال.

حسبما اتفقنا، انضمَّ إليّ في المقهى، بحيث لا أكون بمفردي عند قراءة المقالتين لأوَّل مرة. لقد حاولتُ وكافحتُ أن أعالج كل شيءٍ بمفردي لوقت أطول من اللازم، ولم يفدني ذلك إلَّا قليلًا. في بعض الأحيان تكون ببساطة بحاجة لشخصٍ يتسم بطيبة تكفي لأن يجلس معك بينما تعالج أنت أمورك.

قال 'ريموند' وهو ينظر إلى المظروف المغلق الموضوع بيننا: «أشعر كأنني جاسوس أو شيء كهذا.»

قلتُ له: «أنت آخر مَن يصلح لمهنة الجاسوسية». رفعَ حاجبيه.

قلتُ: «وجهك صريح للغاية»، فابتسم.

قال في جدية الآن: «مستعدة إذن؟»

أومأت.

كان المظروف من نوع مانيلا اللامع ذاتي الغلق بحجم A٤، وقد اختلسته من خزانة الأدوات المكتبية الخاصة بالمكتب، وكان الورق مِن هناك أيضًا. ساورني شيءٌ طفيف مِن الإحساس بالذنب، لا سيما وأنَّ 'بوب'، وقد صرتُ أعرفه الآن، عليه أن يضيف هذا النوع من الأشياء إلى حساب النفقات الجارية. فتحتُ فمي لكي أخبر 'ريموند' بمسألة ميزانية الأدوات المكتبية تلك، لكنه أومأ لي برأسه نحو المظروف في حركة تشجيع، وأدركتُ أنني لم أعد بوسعي إرجاء هذا الأمر أكثر من ذلك. فتحته بسهولة، ثم أمسكته ناحية 'ريموند' لكي أريه أنه كان يحتوي على صفحتين بحجم A٤. تزحزح 'ريموند' ليصير أقرب، وهكذا التصق جنبانا، وهو ما كان مواتيًا لي. كان ثمة دفء وقوة في ذلك، اعتمدتُ على ذلك بامتنان. وبدأت أقرأ.

صحيفة (ذا صن)، 5 أغسطس 1997، الصفحة الثانية

قاتلة الأطفال، جميلة ولكن مدمرة،

يقول الجيران «خدعتنا جميعًا»

«الأم القاتلة» شارون سميث (في الصورة)، 29 سنة، كانت تعيش في شارع مايدا فيل خلال العامين الماضيين، كما يؤكد جيرانها، قبل أن تضرم النار عمدًا وينتهي الأمر بمأساة.
قال أحد جيرانها الذي لم يرغب في ذكر اسمه: «كانت امرأة شابة جميلة للغاية - وقد خدعتنا جميعًا.» وأخبر محررنا: «كانت طفلتاها تظهران على الدوام في صورة ملائمة، وتتحدثان بمنتهى اللطف - وكان الجميع يقول ما أعذب سلوكهما.»
«ومع ذلك، فمع مرور الوقت، كان يمكن للمرء أن يثق مِن أن هناك شيء غير صحيح. بدت الطفلتان على الدوام في حالة ذعر منها. وأحيانًا كانت تظهر عليهما كدمات، وكان الناس يسمعون كثيرًا من البكاء يصدر من ذلك المنزل. كانت تخرج كثيرًا. وكنا نفترض ببساطة وجود جليسة أطفال، ولكن باسترجاع ما حدث...»
«ذات مرَّة، كنتُ أتحدث إلى الفتاة الكبرى - كانت في التاسعة أو العاشرة فحسب، على ما أظن - رمقتها أمها بنظرة جعلتها تشرع في الارتجاف، كانت ترتجف مثل جرو مبتل. جفلتُ من مجرد تصور ما يجري هنالك وراء الأبواب المغلقة.»
أكَّد رجالُ الشرطة يومَ أمس أن الحريق المُدمر في العقار كان بفعل فاعل.
طفلتها (10 سنوات)، لا يمكن ذكر اسمها لأسباب قانونية، لا تزال في المستشفى في حالة حرجة.
تطلَّعتُ نحو 'ريموند'. نظرَ إليَّ. لم يقل أيٌ منا شيئًا لوهلة.
قال 'ريموند'، برقة وهدوء بينما كان ينظر في عينيَّ: «تعلمين كيف انتهى، صحيح؟»
جذبتُ المقالة الثانية.

صحيفة (لندن إيفننج ستاندرد)،
28 سبتمبر 1997، الصفحة التاسعة

أحدث تطورات جريمة شارع مايدا فيل:
قتيلتان، واليتيمة الشجاعة تتعافى

أكدَّ رجالُ الشرطة أنَّ الجثتين المستخرجتين من مسرح الجريمة في الأسبوع الماضي من حريق منزل شارع مايدا فيل هما لشارون سميث (29 سنة) وأصغر ابنتيها 'ماريان' (4 سنوات). أما ابنتها الكبرى، 'إليانور' (10 سنوات)، فقد خرجت اليوم من المستشفى بعد إجراء ما وصفه الأطباء بأنه نجاة بمعجزة من حروق من الدرجة الثالثة واستنشاق الدخان.
أكَّد المتحدث الرسمي أنَّ الأم 'سميث' ذات التسعة وعشرين عامًا قد أضرمت النيران عمدًا، وماتت في مسرح جريمتها نتيجة استنشاق الدخان بينما تحاول الهرب من العقار. أثبتت الفحوص على كلتا الطفلتين تناولهما عقاقير مهدئة، كما ثبت بالدليل أنهما كانتا مقيدتين.
توصل محررنا إلى أنَّ 'إليانور سميث' نجحت في البداية من تحرير نفسها والهرب من النيران، وقد صرَّح الجيران برؤيتهم للفتاة ذات العشر سنوات والمتضررة بشدة وهي تعاود الدخول للمنزل قبل وصول سيارات الإسعاف والطوارئ. وقد قال رجال الإطفاء أنهم وجدوها تحاول فَتح باب خزانة الثياب محكمة الغلق في غرفة نوم بالطابق العلوي. تمَّ اكتشاف جثة شقيقتها ذات الأربعة أعوام بداخل الخزانة.
لم تستطع الشرطة التوصل إلى أي أقارب أحياء للطفلة، وبناءً عليه، فسوف تودَع في رعاية إدارة الخدمات الاجتماعية.
قال 'ريموند' بينما دفعتُ الصفحتين المطبوعتين نحوه: «هذا كل ما اكتشفته أنا أيضًا».

نظرتُ للخارج خلال الواجهة. كان الناس يتسوقون، يتحدثون في الهواتف الجوَّالة، يدفعون عربات الأطفال. كان العالم يمضي وحسب، بصرف النظر عمَّا جرى. هكذا هي الدُنيا.

لم يتكلم أيٌّ منا لوهلة.

قال: «هل أنتِ بخير؟»

أومأت.

- «سوف أواصل زيارة الاستشارية النفسية. هذا يساعدني.»

نظرَ إليَّ باهتمام وحرص. قال: «بمَ تشعرين الآن؟»

- «حتَّى أنتَ أيضًا!» وتنهدتُ، ثم ابتسمتُ حتى يعرف أنني كنتُ أمزح: «أنا بخير. أقصد، نعم، بكل وضوح، لدي الكثير من الأشياء التي عليَّ أن أخوض فيها، أشياء خطيرة جدًا. « قلتُ له: «أنا ود. 'تمبل' سوف نواصل الحديث بشأن كل ذلك - موت 'ماريان'، وكيف ماتت ماما أيضًا، ولماذا تظاهرت على مدى كل تلك السنين أنها كانت لا تزال هنالك، ولا تزال تتحدث إليَّ ... سوف يستغرق هذا وقتًا، ولن يكون بالأمر اليسير.» شعرتُ بهدوء بالغ. «ومع هذا، ومن ناحية جوهرية، ومن جميع النواحي المهمة ... فإنني بخير الآن. أنا بخير.» كررتُ، وأنا أضغط على الكلمات لأنها، أخيرًا، كانت حقيقية وصادقة.

مرَّت امرأة مسرعة، تقريبًا تركض خلف كلبها الشيواوا، وتصيح باسمه بنبرة يتزايد توترها.

قلتُ: «كانت 'ماريان' تحب الكلاب، وفي كل مرة كانت ترى كلبًا كانت تشير نحوه وتضحك، ثم تحاول أن تحتضنه.»

تنحنح 'ريموند'. أتى المزيد من القهوة وشربناها ببطء.

قال 'ريموند': «هل ستكونين بخير؟» بدا غاضبًا من نفسه. «أنا آسف. سؤال غبي.» قال: «كل ما هنالك أنني أتمنى لو أنني عرفت في وقت مبكر قليلًا، لو أنني استطعتُ أن أساعد أكثر.» وحدَّق في الجدار، وبدا كما لو كان يحاول أن يكبح دموعه. ثم قال أخيرًا في نبرة سخط: «لا أحد يستحق أن يمر بكل ما مررتِ به. لقد فقدتِ أختكِ الصغيرة، حتَّى بعد أن بذلت أقصى جهدكِ لإنقاذها، ولم تكوني أنتِ نفسك آنذاك إلَّا طفلة. أن تكوني قادرة على أن تمرّي بذلك، كل ذلك، ثم تقضين كل تلك السنوات تحاولين التعامل معه بمفردكِ تمامًا - »

قاطعته. قلتُ: «عندما نقرأ عن 'الوحوش'.. بأسماء شهرتهم وألقابهم.. ننسى أنَّ لهم عائلات. وأنهم لم ينبثقوا هكذا من الفراغ. لا نفكر أبدًا
بشأن الآخرين الذي نجوا وعليهم أن يتعاملوا مع كل ذلك بعد وقوع المأساة.»

أومأ ببطء.

- «لقد قدمتُ طلبًا للاطلاع على ملفاتي في مكتب الخدمات الاجتماعية في الوقت الراهن. صارَ لديَّ الآن سبب لكي أشكل رأيًا بشأن قانون حرية تداول المعلومات، يا 'ريموند'، ودعني أقول لك، إنه في الحقيقة تشريع رائع. عندما يصلني الملف، سوف أجلس لقراءته من الغلاف للغلاف - الكتاب الشامل عن 'إليانور'. عليَّ أن أعرف كل شيء - جميع التفاصيل الصغيرة. سوف يساعدني هذا. أو يحزنني. أو الأمران معًا.»

ابتسمتُ، لأظهر له أنني غير قلقة، ولأحرص على أنه لن يقلق أيضًا.

قال: «ومع هذا، أليس الأمر أكبر من مجرد ذلك؟ كل تلك السنوات الضائعة، السنوات المهدرة. لقد وقعت لكِ أشياء رهيبة. وكنتِ بحاجة ماسة للمساعدة آنذاك ولم تحصلي عليها. ولديك الحق الآن، يا 'إليانور'، الحق في -» وهز رأسه، غير قادرٍ على العثور على الكلمات.

- «في نهاية الأمر، المهم هو: أنني نجوت وصمدت.» وابتسمت له ابتسامة صغيرة للغاية. «لقد نجوت، يا 'ريموند'!»، هكذا قلتُ له، وأنا أعلم أنني كنت محظوظة وغير محظوظة في الوقت ذاته، وأنا ممتنةٌ لذلك.

عندما حانَ وقتُ المغادرة، لاحظتُ وقدَّرت محاولة 'ريموند' الانتقال بالحديث نحو موضوعٍ آخر، موضوع عادي.

قال: «هل لديكِ خطط لبقية الأسبوع؟»

عددتُ له مشاريعي على أصابعي وأنا أقول: «عليَّ أن آخذ 'جلين' إلى الطبيب البيطري من أجل التطعيمات، وعليّ أن أعدَّ حفلة الكريسماس في 'سفاري بارك'. يقول موقعهم على الإنترنت أنهم لا يعملون طوال الشتاء ولكنني واثقة من أنني سوف أستطيع إقناعهم.»

خرجنا ووقفنا عند مدخل الباب لدقيقة، نستمتع بضوء الشمس. فركَ وجهه، ثم نظرَ من خلفي صوب الأشجار. تنحنح ليصفي حلقه. أحد المثالب الكثيرة للتدخين.

- «'إليانور'، هل وصلتكِ رسالتي الإلكترونية بخصوص ذلك الحفل؟ كنتُ أتساءل فقط إن -»

قلتُ، مبتسمة: «نعم، موافِقة.» أومأ لي، وأمعنَ النظر إليَّ، وعاود الابتسام من جديد ببطء. علِقَت هذه اللحظة في الزمن كأنها قطرة من عسل سقطت من ملعقة، ثقيلة ذهبية. وقفنا جانبًا لنسمح بدخول امرأة على مقعد متحرك وصديقها. أوشكت استراحة غداء 'ريموند' على الانتهاء. كان لديَّ ما تبقى من اليوم لأقضيه كيفما أشاء.

قلتُ: «إلى اللقاء إذن، يا 'ريموند'». جذبني إليه ليحتضنني وأمسك بي للحظة، ودسَّ خصلة شعر نافرة وراء أذني. شعرتُ بجسمه الدافئ. ناعم ولكن قوي. عندما انفصل جسدانا، قبّلَني على وجنتي، كانت شعيرات ذقنه ناعمة تمامًا ومدغدغة.

قال: «أراكِ قريبًا، 'إليانور أوليفانت'.»

رفعتُ حقيبة يدي، وأغلقت سترتي، واتجهتُ صوب البيت.

شُكر وتقدير

أود أن أشكر جميع أصدقائي وأفراد عائلتي، كما أوجه الشكر أيضًا لكلٍ من الأشخاص والمؤسسات التالية:

'جانيس جالواي'، لكونها دائمًا مصدرًا للحِكمة والإلهام.

وكيلتي الأدبية الرائعة 'مادلين ميلبورن'، وزملاؤها في الوكالة، على تحمسهم وخبرتهم ونصائحهم ودعمهم.

جميع المحررين الذين تعاونت معهم. 'مارثا آشبي' في المملكة المتحدة و'باميلا دورمان' في الولايات المتحدة الأمريكية، واللتان أبديتا عناية فائقة بالكتاب وأضفيتا على عملية التحرير روحًا من البصيرة والحكمة وحس الدعابة. وشكري أيضًا موصولٌ لزملائهما الموهوبين في دار 'هاربركولينز' و'بينجوين راندوم هاوس' بالترتيب ممن تعاونوا على تصميم هذا الكتاب وإنتاجه ولفت الأنظار إليه. إنني سعيدة الحظ للغاية لأنني كنتُ في أيدٍ أمينة مثل تلك.

اختارني صندوق الكتاب الاسكتلندي لأتلقى جائزة 'الفصل التالي'، والتي أتاحت لي من بين أشياء أخرى أن أقضي وقت الكتابة والتحرير في مركز 'مونياك مور' للكتابة الإبداعية. إنني في غاية الامتنان لكلتا المؤسستين.

حلقة الكُتَّاب التي أنتمي إليها، على النقد البنَّاء، والنقاش المفيد والصحبة الطيبة.

'جورج' و'آني'، على كرم ضيافتهما وتشجيعهما الهائل.

وأخيرًا، أشكر 'جورج كريج'، و'فيكي جيرتي'، و'كيرتسي ميتشل' و'فيليب مورنين'. أشعر بامتنان عميق لصداقتهم الداعمة، وأفكارهم التحريرية وتشجيعهم الذي لا يخلو من حسّ الدعابة طوال فترة كتابة (وعدم كتابة) هذا العمل.

الحواشي

(1) الرُماة (The Archers): مسلسل درامي إذاعي، أذيع منه أكثر من 18 ألفًا وسبعمائة حلقة على إحدى محطات شبكة بي بي سي، واستمر لسنوات طويلة، تدور أحداثه حول قصص الحياة اليومية لشخصيات ريفية بسيطة. بحلول عام 1935 بلغ عدد مستمعيه ما يقرب من تسعة ملايين شخصًا.

(2) Take a Break: مجلة بريطانية أسبوعية خفيفة تختص بشؤون المرأة، أمَّا بقية المجلات المذكورة في الفقرة، فعلى عكسها، تختص باهتمامات محددة وغريبة لذلك هي أقرب للشخصية التي يسخرون منها.

(3) إرفين شرودنجر(1887–1961) (Erwin Schrödinger): فيزيائي نمساوي عُرفَ بإسهاماته في ميكانيكا الكَم، وحصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1933. وقطة شرودنجر إشارة لإحدى نظرياته وتجاربه حول ميكانيكا الكم، وتشير باختصارٍ مخل إلى احتمالية وجود شيء ما وعدم وجوده في اللحظة نفسها وبالقدْر نفسه.

(4) إزالة شعر البكيني بالشمع: إزالة شَعر منطقة العانة باستخدام الشمع المذاب المخصوص، ويمكن أن يكون باردًا أو ساخنًا.

(5) Morituri te salutant: عبارة لاتينية شهيرة، وهي بالكامل: Ave, Imperator, morituri te salutant، وتعني: (نحييك، أيها القيصر، نحن الموشكون على الموت) مُقتبسة من حياة القياصرة أو القياصرة الاثنى عشر. ولعلَّ معناها في سياق المشهد إعلان عن شدة الألم.

(6) قمة العالم (Top of the World): أغنية لفرقة الكاربنترز (The Carpenters) وهما الأخوان ريتشارد وكارين.

(7) كول أوف ديوتي (Call of Duty): سلسلة ألعاب كمبيوتر حاصلة على عدة جوائز، وطرأ عليها تحديثات كثيرة، بعض إصداراتها الأولى يدور خلال الحرب العالمية الثانية، بينما يدور بعض إصداراتها اللاحقة حول عصور حديثة ومتطوّرة.

(8) إيدي جراندي (Eddie Grundy): إحدى شخصيات المسلسل الإذاعي الرُماة على قنوات بي بي سي.

(9) لهجة الحديث بكاملها هنا حافلة بالألفاظ الدراجة بين السجينات والشتائم النابية.

(10) بروفيسور جيمس موريارتي (Professor James Moriarty): شخصية خيالية من ابتكار الكاتب الاسكتلندي السير آرثر كونان دويل، وهو عدو شيرلوك هولمز ومنافسه.

(11) السير نويل كوارد (1899-1973 م): كاتب مسرحي بريطاني، وممثل ومؤلف موسيقي، ذاع صيته بسبب مسرحياته الكوميدية اللطيفة المعقدة. يتناول الكثير من مسرحياته الصراعات الرومانسية بين رجال ونساء الطبقات العليا.

(12) تروبادور: شاعر غنائي ومطرب متجوَّل في بعض دول أوروبا خلال العصور الوسطى.

(13) واكو جاكو (Wacko Jacko): اسم شهرة يشير إلى مايكل جاكسون، المطرب الشهير، وكان يضع قفازًا أبيض في أحيان كثيرة.

(14) Top Gear: أحد برامج تليفزيون الواقع الإنجليزية، ينصب اهتمامه على عالَم السيارات، وغالبًا الإشارة إلى مات لوبلان، أحد مقدميه والممثل في مسلسل الأصدقاء الكوميدي.

(15) الأبيقورية: نسبةً إلى الفيلسوف اليوناني القديم أبيقور. وفحوى مذهبه أن اللذة هي الخير الأسمى وأنَّ الألم هو الشر الأقصى، وبخلاف ما هو شائع فإنَّ اللذة المقصودة هي التحرر من الألم والانفعالات العاطفية المتطرفة، والسعي لها بممارسة الفضيلة والزهد، وليس بالانغماس المفرط في المتع الحسية.

(16) ماجونج (mah jong): لعبة صينية تشبه الدومينو، تم إدخالها إلى الغرب في فترة العشرينيات من القرن العشرين، وتُلعب بقطع صغيرة مثل قطع الدومينو عددها 144 قطعة وعليها أشكال مختلفة.

(17) أغلب أسماء الوجبات باللغة الفرنسية في الأصل، وكلها يشير لوجبات فاخرة لا تحضَّر بسرعة أو بسهولة.

(18) الباصون: آلة نفخ موسيقية، أقرب إلى مزمار، تتكون من أنبوب خشبي مزدوج وبزباز معدني ملتوٍ.

(19) كوندي ناست ترافلر (Condé Nast Traveller): مجلة أمريكية شهرية، تدور حول موضوعات السَفر والمطاعم الراقية.

(20) رازل (Razzle): مجلة بريطانية تقدم مادة إباحية خفيفة.

(21) لوس بولوس هيرمانوس (Los Pollos Hermanos): العبارة بالإسبانية وتعني: الديكان الشقيقان، وهو اسم سلسلة مطاعم وجبات سريعة متخصصة في الدجاج المقلي.

(22) تنين كومودو: إحدى فصائل السحالي، وهي أكبر العظايات حجمًا، ويقتصر وجودها على بضع جُزر في إندونيسيا.

(23) باينت: وحدة قياس سوائل تعادل نصف لتر تقريبًا، ويُطلق في اللغة اليومية على كأس شراب كبيرة تتسع لهذا المقدار.

(24) ماجنرز (Magners): نوع أيرلندي من شراب التفاح المخمَّر.

(25) لويد وبير ورايس: كلاهما من أشهر من قدموا مسرحيات موسيقية في انجلترا.

(26) الجملة في الأغنية الأصلية تقول: من سيشتري هذا الصباح البديع؟

(27) أورفيوس: أحد أبطال الأساطير الإغريقية، والإشارة هُنا إلى إتقانه العزف والغناء وخاصة من أجل استعادة حبيبته يوريديس من عالم الموتى السفلي.

(28) ديونيسوس أو باخوس: هو إله الخمر والنشوة والابتهاج عند الإغريق والرومان، وكان له أعياد جامحة للقصف والعربدة.

(29) جستابو (Gestapo): البوليس السري الألماني في عهد النازية.

(30) بابا نويل (Secret Santa): تقليد غربي متبع في عيد الميلاد المجيد، حيث يختار كل فرد من جماعة أو مجتمع صغير شخصًا اعتباطيًا ويرسل له هدية، مع إبقاء هوية مقدّم الهدية سرًا لا يُكشَف عنه حتَّى يتم فتح الهدية، وقد تتضمن الهدية رسالة فيها تلميح لشخص مقدم الهدية، وذلك بناءً على القواعد التي يضعها المشاركون في التقليد.

(31) جرينش (Grinch): شخصية خيالية من ابتكار دكتور سوس، ظهرت لأوَّل مرة في كتاب الأطفال كيف سرق جرينش عيد الميلاد (How the Grinch Stole Christmas)، وتكرر ظهورها بعد ذلك في عدة أفلام أمريكية، والإشارة هنا لشخص يكره الكريسماس ويود لو يفسده على جميع الآخرين.

(32) العقل والعاطفة (Sense and Sensibility): رواية إنجليزية للكاتبة جين أوستين نُشرت أوَّل مرة عام 1811.

(33) Shinkansen: كلمة يابانية وتستخدم في الإنجليزية بمعنى القطار فائق السرعة.

(34) موفوز (Mofos): مصطلح دارج، اختصار لسباب بمعنى (أولاد القحاب).

(35) اللَّيْمُور أو الهبّار أو الهَوْبر (Lemurs): فرع من الهباريات المنتمية إلى رتبة الرئيسيات يستوطن جزيرة مدغشقر، يتميز بالسواد المحيط بعينيه.

(36) ميني كاب (Minicab): سيارة شخصية عادية، ولكن صاحبها يقوم بتوصيل أشخاص عبر تطبيق على الهاتف، ولا يأخذ الركَّاب من الشارع مثل التاكسي العادي.

(37) توماس ج. كاركيتي: شخصية خيالية في مسلسل درامي في التليفزيون الإنجليزي. وهو رجل سياسة طَموح من بالتيمور بدأ مساره المعني عضوًا في المجلس المحلي، ولعب شخصيته لأكثر من موسم الممثل آيدان جيلين.

(38) راستاماوس (Rastamouse): مسلسل رسوم متحركة بريطاني للأطفال، أبطاله فئران.

(39) في الرسالة اختصارات وتعبيرات عامية وأخطاء إملائية.

(40) الكتاب المقدس – سِفر أيوب (1: 21): ولعلَّ المقصود هنا أن الدعوة لحفل هِبة من القَدَر للشخصية.

(41) مواعيد Ladders و Tee: مُصطلحات تخص تفاصيل مباريات الجولف ومواعيد بدء اللعب وما إلى ذلك.

(42) يمكا (YMCA): اختصار لـ Young Men's Christian Association (جمعية الشبَّان المسيحيين).

(43) بوفريل (Bovril): اسم تجاري لشراب ملحي غليظ القوام من خلاصة اللحم.

(44) حيوان الفظ: من الثدييات البحرية الضخمة، له أربعة أطراف تنتهي بزعانف تمنحه القدرة على السباحة، وتغطي جسمه طبقة كثيفة من الدهون.

(45) في حديث الأم هنا بعض الألفاظ النابية وتعبيرات عامية.

(46) الصندوق العالمي للطبيعة: منظمة دولية غير حكومية تعمل على المسائل المتعلقة بالحفاظ والبحث واستعادة البيئة.

(47) منازل تحت المطرقة (Homes under the Hammer): برنامج تليفزيوني بريطاني يُعرض منذ عام 2003 حول عقارات ومنازل تُعرض للبيع بالمزاد العلني وتحتاج لعمليات إصلاح وتجديد، ويمكن أن يعني اسمه أيضًا: منازل في المزاد.

(48) نساء متحررات (Loose Women): برنامج تليفزيوني بريطاني يعرض منذ عام 1999. وفيه تستضيف أربع نساء من خلفيات ومشارب مختلفة أحد الأعلام أو المشاهير ويُحاكمنه ويسائلنه حول شؤون سياسية وحياته الشخصية وأمور أخرى.

(49) الفيلق الأجنبي (Foreign Legion): وحدة عسكرية خاصة في الجيش الفرنسي، تشكلت في 1831 خصيصًا من أجل الأجانب الذين يرغبون أن يخدموا في القوات المسلحة الفرنسية تحت قيادة ضباط فرنسيين.

(50) بانفجار وليس بالأنين والنحيب: هنا إشارة معكوسة للسطرين الأخيرين من قصيدة ت. س. إليوت "الرجال الجوّف":

هكذا ينتهي العالَم
ليس بانفجار ولكن بالأنين والنحيب
This is the way the world ends
Not with a bang but a whimper

(51) رسالة ريموند هُنا أيضًا مليئة بالاختصارات والعبارات الدارجة.

(52) جريندكور (Grindcore): نوع من الموسيقى، يُعتبر مزيجًا من الهاردكور بانك والهيفي ميتال.

(53) رقصة موريس (Morris dancing): رقصة شعبية إنجليزية تؤدَّي في مجموعات ذات خطوات إيقاعية وتشكيلات منتظمة.

(54) سور هارديان: سور أثري في إنجلترا وقد بناه الإمبراطور الروماني هارديان سنة 122 م.

(55) SPQR: اختصار Senātus Populusque Rōmānus (شعب ومجلس شيوخ روما). وهي عبارة لاتينية كانت أقرب إلى شِعار رسمي للبلديات في روما القديمة، وتُدمغ بها العملات.

(56) سبونج بوب سكوير بانتس (SpongeBob SquarePants): مسلسل كارتوني أمريكي شهير للأطفال، تقوم ببطولته شخصية ‹سبونج بوب' التي اكتسبت شهرة عالمية بين الأطفال.

(57) تقاطع الأصابع (fingers crossed): من بين معاني تقاطع السبَّابة والوسطى أن يكذب المرء كذبة بيضاء أو يقدم وعدًا لا ينوي الوفاء به.

(58) بيل إيبوكيه (Belle Époque): الزمن الجميل، تسمية لإحدى حقب التاريخ الأوروبي تمتد على وجه التقريب من نهاية الحرب الفرنسية البروسية 1871 حتَّى اندلاع الحرب العالَمية الأولى في 1914، وكانت تتسم بغَلبة التفاؤل والسلام الإقليمي والرخاء الاقتصادي ولها سمات جَمالية ومعمارية محددة.

(59) أوليفانت في الغرفة (an Oliphant in the room): إشارة مازحة للمقولة الدارجة an Elephant in the room (فيل في الغرفة). ومن بين معانيها وجود مشكلة واضحة تمامًا للجميع لكن لا أحد يريد أن يتحدث عنها كأنها غير موجودة.

(60) طاجين: الطاجن الفخاري المغربي التقليدي.

(61) جلين: نفس اسم نوع الفودكا التي كانت الشخصية تشربها.

(62) الهندباء البرية وعشب الأرقطيون: شراب عُشبي يتم إعداده وتناوله في الجزر البريطانية، وكان في القديم من بين المشروبات الكحولية المخمَّرة الخفيفة، لكنه تحوَّل إلى مشروب غازي خفيف مثل الكوكاكولا.

(63) دكتور بيبر (Dr Pepper): مشروب غازي ذو نكهة مميزة، تم تداوله تجاريًا لأوَّل مرة في الولايات المتحدة حوالي عام 1904، ثم انتقل إلى دول وقارات مختلفة.

(64) سينيكا: لوكيوس أنايوس سينيك، قائل العبارة الواردة في النص، وهو فيلسوف وخطيب وكاتب مسرحي روماني، كتب أعماله باللغة اللاتينية، وُلد في قرطبة بإسبانيا، وتوفي بالقرب من روما.